انتفاضات جبل الدروز - حوران

من العهد العثماني الى دولة الاستقلال
١٨٥٠ - ١٩٤٩

دراسة أنتربولوجية - تاريخية

برجيت شيبلر



نصوص ودراسات ٩٢



المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت




Universitäts- und Landesbibliothek
Sachsen-Anhalt

يتناول هذا الكتاب بالدراسة تاريخ جبل الدروز–حوران على إمتداد قرن كامل، معتمداً بشكل أساسي على مصادر غير معروفة بعضها شفوي ومستقى من الصحافة، وبعضها مأخوذ من مؤسسات المحفوظات العثمانية والأوروبية والعربية.

ويشكل الكتاب محاولة جديّة لبلورة المفاهيم الأنتروبولوجية الملائمة للإحاطة بالمجتمع المدروس.

تتولى برجيت شيبلر منصب الأستاذية لتاريخ الشرق الأوسط في جامعة إيرفورت في ألمانيا. وسبق لها أن زارت بلداناً كثيرة في الشرق الأوسط كلبنان وسوريا وليبيا واليمن والمغرب.




Universitäts- und Landesbibliothek
Sachsen-Anhalt

انتفاضات جبل الدروز-حوران
من العهد العثماني
إلى دولة الاستقلال



برجيت شيبلر

انتفاضات جبل الدروز-حوران
من العهد العثماني
إلى دولة الاستقلال
١٨٥٠-١٩٤٩

دراسة انتربولوجية-تاريخية



دار النهار

بالتعاون مع

المعهد الألماني للأبحاث الشرقية

في بيروت

نتقدم بالشكر الجزيل إلى دار النشر
Klett-Perthes Verlag GmbH
لسماحها بترجمة الكتاب ونشره

الطبعة الأولى، شباط ٢٠٠٤

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٥٦١٦٩٣-١-٩٦١

ISBN 2-84289-374-3

طبع جزئياً على نفقة وزارة الثقافة والأبحاث العلمية
التابعة لجمهورية ألمانيا الإتحادية
بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت :

ص. ب. : 2988 11 رياض الصلح
بيروت 2120 1107

يطلب في البلدان غير العربية من «إرغون فرلاغ» فورتسبورغ :
Ergon-Verlag, Grombühlstr. 7, 97080 Würzburg - Germany

المحتويات

الفصل الثالث : الثورة السورية الكبرى

الفصل الرابع : الشعبيّة

الملاحق

مقدمة الطبعة العربية

أعبر عن جزيل شكري لكل أولئك الذين ساعدوني في سوريا في بحثي لهذا الكتاب بمختلف الوسائل، سواء أكان ذلك من خلال الأحاديث الهامة أو من خلال إرشادي إلى وثائق معينة أو لتفضلهم بالسماح لأجنبية غربية بتسجيل تاريخهم بشكل عام.

أما نتائج بحثي فأعرف أنها قد لا تكون موضع ترحيب عند هؤلاء الذين سجلت تاريخهم، حيث يختلف الإطار التحليلي الذي اعتمدت عليه عن الإطار المستخدم في العالم العربي عموماً – وذلك من وجوه عدة.

أولاً: ينظر للأوروبيين الذين يدرسون الأقليات في المجتمع بعين الريبة في العالم العربي. ولهذه الريبة شرعية ما، لأن الاستعمار، وهو أيضاً موضوع من مواضيع الكتاب، هدف إلى تمزيق الحركة القومية العربية من خلال دعمه للأقليات والطوائف. ومن المعروف أن سوريا تحت الانتداب الفرنسي توزعت دويلات عدة للحيلولة دون إنشاء أمة سورية عربية. وهذا أيضاً ما يعالجه هذا الكتاب.

ولكنني أعتقد أنه لا داعي لهذه الريبة حول دراسة التاريخ الحديث لهذه الأقليات والطوائف. فالأمم الأخرى في العالم لديها طوائف وأقليات تشكل جزءاً أساسياً منها، وهي تستحق أن تبحث وأن تخصص لها الكتب التاريخية. وهذا ما ينبغي أن يكون عليه العالم العربي أيضاً.

ومن المهم أن أشير هنا إلى اعتقادي بأن الدروز السوريين هم عنصر أساسي من الأمة السورية العربية. ولكن الأمة السورية العربية تعتبر نتاجاً تاريخياً، فهي قد نمت تاريخياً ولم تكن نموذجاً متكاملاً «هبط من السماء». فكل أمم العالم كان يجب أن تنمو معاً وهذا

ينطبق أيضاً على الأمة السورية العربية . وهذا يعني أن الدروز السوريين كان يجب أن يسلكوا أولاً طريقاً نحو الأمة ، كان أحياناً صعباً ومتعرجاً ، ولكنهم قد ساروا في هذا الطريق . ولذلك ليس من هدفي أن أفرق الأمة السورية كما تهدف إلى ذلك تيارات معينة في الواقع .

بل إنني أكتب التطور الذي عاشه جبل الدروز (حوران) منذ الفترة العثمانية مروراً بالاستعمار الفرنسي حتى الدولة السورية .

ثانياً : هناك مشكلة أنتجت نفسها من التقدير التاريخي للاستعمار . فإن الدراسات الغربية السابقة كتبت في فترة طويلة تاريخ أجزاء العالم التي كانت تحت وطأة الاستعمار ، كتاريخ القوة الاستعمارية الأوربية المعينة التي «جلبت النظام والإدارة إلى المناطق غير المتطورة» . وهذه بلا شك طريقة ضعيفة وقديمة من أجل كتابة التاريخ والتي بالنسبة لها لا تلعب الشعوب المستعمَرة أي دور فاعل . هذه الكتابة التاريخية انطلقت من القدرة غير المحدودة للاستعمار الذي أخضع المجتمعات الأهلية بسهولة .

وبشكل متناقض فإن بعض المؤرخين الشرقيين ما يزالون يتبنون الفرضية حول القدرة غير المحدودة للاستعمار . وهم أيضاً يرون الاستعمار كقوة قادرة سلبت المجتمعات الأهلية كل كفاءة للعمل والتطور ، وفي النهاية جعلتهم في التاريخ عناصر مفعولاً بها فقط .

إن الكتابة التاريخية الشرقية والغربية الحديثة (خصوصاً الهندية) قد تجاوزت هذه النظرة . وفي بحثنا للعامل الفاعل في تاريخ الاستعمار انطلقنا من الاعتقاد بأنه قد وجد في المجتمعات الأهلية مجال للحركة استغله الناس بمهارة . في مثالنا جبل الدروز ، لعب الدروز فعلاً على التناقضات الفرنسية وحاولوا ليس محاربة الاستعمار عسكرياً فقط بل أيضاً تحايلوا عليه اجتماعياً . ومن هنا حدّثوا مجتمعهم .

كما عبر عن ذلك المؤرخ النيجيري ج . ف . أديه أجايي J.F. Ade Ajayi :

«بالرغم من أن الأوربيين بشكل عام كانوا أسياد الحالة الاستعمارية وتصرفوا بالسيادة السياسية وكذلك بالسيطرة الثقافية والاقتصادية أيضاً ، فإنهم لم يمتلكوا احتكار المبادرة أثناء الفترة الاستعمارية» .

ثالثاً : تقييم الإمبراطورية العثمانية . وهنا انطلقت من أنه يمكن النظر إلى الإمبراطورية العثمانية ، بالرغم من الممارسة الضاغطة لها أحياناً ، خصوصاً في المناطق الريفية من ولاياتها ، كقوة استعمارية أو كقوة محتلة بشكل محدود فقط ، وبشكل متناقض ؛ فهي كانت لقرون عديدة إمبراطورية متعددة الإثنيات ربطت بالإسلام كرابطة موحدة . وتقريباً فقط في العقود الأخيرة لتاريخها الطويل شعر بها العرب ، الذين شكّلوا أنفسهم الآن كأمة ، بأنها

احتلال أجنبي تركي. لذلك لن يستخدم تعبير «الاحتلال العثماني» في هذا الكتاب بل «الحكم العثماني».

المصادر :

دراستي اعتمدت على مصادر منشورة ومصادر غير منشورة. فالمصادر غير المنشورة وجدتها في الأرشيفات الحكومية في فرنسا وإنكلترا وألمانيا وفي مركز الوثائق في دمشق وكذلك في الجبل نفسه. ويلاحظ هنا أن الأرشيفات الأوربية لاتحتوي فقط على وثائق الأوربيين بل على الكثير من الوثائق السورية الأصلية في كلا القرنين الأخيرين.

ومن دواعي سروري أنني تمكنت من الاطلاع في الجبل على أوراق عائلية مثل رسائل ومذكرات ومنشورات أو عهود قديمة. وفوق ذلك قمت أيضاً بالعديد من المقابلات (تاريخ شفوي). ويلاحظ هنا أيضاً أن مجتمع الجبل يتصرف بذاكرة جماعية مثابرة ومفاجئة. ومثال ذلك أنه في آب ١٩٢٥ زار صحافي ناطق بالألمانية المنطقة المنتدبة وكتب للصفحة الأولى للصحيفة اليومية النمساوية «نويه فرايه بريسه» Neue Freie Presse مقالاً تحت العنوان الخاطئ «محادثة مع سلطان الدروز. في القيادة العامة للمتمردين، برق مراسلنا الخاص، مجدل، القيادة العامة للدروز، ١٨ آب». وكتب الصحافي نفسه حول إقامته في الجبل مقالاً آخر مطولاً في مجلة «أتلنتيك منثلي» Atlantic Monthly. وفي هذه المرة تحت اسمه، «يوهان فون فيتسل» Johann von Weizl. والظاهر أن تلك كانت إقامته الوحيدة في جبل الدروز وأنها كانت قصيرة جداً. وعندما أتيت إلى المجدل بعد ٦٨ عاماً وقدمت نفسي كمؤرخة ألمانية أشار لي حالاً حفيد أحد المتمردين إلى المضافة التي تحدث فيها «الصحافي الألماني فيتسل» مع قادة الثورة وذكر لي ملخصاً صحيحاً لأسئلته، وسأل إذا كان «فيتسل» قد سجل كل إجابات الثوار بشكل صحيح. حتى الاسم الأجنبي للصحافي الذي كان موجوداً لفترة قصيرة جداً في القرية ما زال حاضراً عبر ثلاثة أجيال. وأيضاً في حالات أخرى كانت ذكريات الناس في الجبل موجودة بشكل دقيق. والكثير من الحكايات حول أشخاص وأحداث حول سنة ١٨٦٠ قد وجدتها مرة ثانية في الأرشيفات الأوربية.

وكلمة أخيرة: غالباً ما يدَّعى أن المؤرخين الغربيين لا يستطيعون كتابة تاريخ العالم العربي لأنهم لا يفهمونه. أنا أعتبر أن كل عالم يستطيع أن يكتب تاريخ أي بلد بشرط أن يجتهد بشكل كاف ويتناول موضوع بحثه بشكل جدي وكاف. وكلاهما قد فعلته.

يبقى من الملاحظ أن أملي في كتابي هذا، الذي اعتمد على معلومات ومصادر كثيرة

أخذتها القوى الأوربية، أن أستطيع أن أرد من خلالها إلى الذين عالجهم هذا الكتاب بعضاً من تاريخهم.

هذا الكتاب كتب باللغة الألمانية وترجم إلى العربية من قبل هايل معروف وخالد صافي ويوهان بيسو Johann Büssow ولهم جزيل الشكر.

كما أشكر دار النهار للنشر وجميع الذين تعاونت معهم وفي طليعتهم المترجم، الأستاذ هايل معروف، والسيد عاصم يوسف حسن، والعميد في الجيش اللبناني رياض شفيق شيّا الذي ساهم في نقل خرائط الكتاب إلى العربية.

آيرفورت، ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣

تمهيد

الإثنية والجماعة «النحننية»

يعالج هذا البحث دروز جبل الدروز، كجزء من سكان الريف في بلاد الشام، ومنطقة سكنهم - جبال حوران.

ولكن، من هم الدروز؟ هل الدروز مذهب أم قوم؟ هل هم جزء من الأمة الإسلامية أم جزء من الأمة العربية؟ هذه أسئلة تثير النقاش بين الدروز وغير الدروز.

وهكذا تؤدي محاولة التعريف العلمي لهذه الجماعة بسرعة إلى متاهات للتعريف الذاتي وغير الذاتي إضافة إلى مشاكل الهويات والأبولوجيات - وباختصار إلى شبكة من «مفاهيم تثقلها مشاعر رهيبة» (ماكس فيبرMax Weber). ولذلك يحسن بنا أن ننظر إلى بعض النظريات والمفاهيم الخاصة بالموضوع.

المشكلة الأساسية التي تناقش هنا هي الواقع، وأن هناك تحت الوحدات الكبرى التي تصنع الهويات، مثل أمّة المؤمنين أو - في عصر أحدث - الأمة العربية، جماعات أصغر منها انفصلت عنها أثناء مرحلة التشكّل وأصبحت اليوم ذات ملامح خاصة. وعلى هذا فالأمة الإسلامية وكذلك الأمة العربية ليستا كتلاً موحدة تماماً.

في هذه الدراسة محاولة للإحاطة بمشكلة تشكّل «جماعات نحننية»* (أو جماعات لها شعور بالنحن، ويعني بهذا التعبير جماعات تربطها مشاعر جماعية تميزها عن الآخرين) من خلال المفهوم العلمي «الإثنية». وتجري في الغرب منذ الستينيات مناقشة لمشكلة الإثنية بشكل مستفيض. ويتعلق هذا في واقع أنّ تفاعل هؤلاء الذين قد اعتقدوا أنّ التئام «عناصر

---

* Wir-Gruppenbildung

تقليدية» مثل المشاعر الجماعية الإثنية في المجتمعات الحديثة – اتضح اليوم أنه يقوم على أساس باطل. وكان من اللازم أن يبحثوا عن تفسير جديد. وبالتالي يدعو الواقع المحزن إلى إعادة معالجة هذه الظاهرة: فقد تنبأ كل من ماركس وأنجلس Marx, Engels بقرن من صراع الطبقات. ولكن، ما حدث كان صراعات دموية بين أمم وجماعات إثنية.

ويوجد في هذه المناقشة منهجان من الحجج: من جهة منهج يركز في تفسيره لظاهرة «الإثنية» على سلوك بشري عقلي يوجّه إلى واقعه، ومن جهة أخرى منهج يبرز العلاقة على أساس فطري لا صلة له بالعقل. ومن الممكن أن تصنّف النظريات والمفاهيم التي تنسب إلى هذين المنهجين إلى المقولتين التاليتين:

١. نظرية عقلية واقعية توجّه الإرادة البشرية: إرادياً وآليّاً.

٢. نظرية فطرية لا توجه الواقع بل الكون البشري: جوهرياً وليس آليّاً.

أما النظريات الإرادية والآلية فتحلّل الحركات الاجتماعية طبقاً لفرضية أنّ الفرد أو الجماعة يعملان بطريقة عقلية تحدّدها الإرادة التي ترغب أن يحسّن الناس من خلالها فرص حياتهم في إطار محيط اجتماعي خاص. وهكذا من الممكن أن تلجأ جماعة ما من خلال التنافس على مصادر محدودة أن تحسّن فرصها، وحسب واقعها الاجتماعي، من خلال مجموعات طبقية أو نقابية أو مهنية أو منظمات أهلية – أو من خلال جماعة نحتنية.

وتبرز نظريات جوهرية لا آليّة توجه إلى الأشياء والملامح الدائمة غير المتغيرة للكون والسلوك البشري. وتركز مثلاً على أهمية اللغة الأم أو توصّف جماعة ما بملامح خاصة تعرّفها بكونها غير متغيرة.

وينعكس هذان المنهجان المتناقضان في مفاهيم محددة. فالمفاهيم ليست أدوات بسيطة لبناء النظريات بل هي تحمل المنهج المعين – كأنها «ميكرو– نظريات» توجّه إدراكنا. ووراء المفاهيم «شعب» و«أمة» و«أقلية» هناك خطة سياسية: فمثلاً الأمة تريد اندماج الشعب مع الدولة بينما الأقلية (إذا كانت تدعو نفسها بهذا التعبير) تريد إلغاء تمييزها. وتدل كلمة الشعب في التقليد الألماني (الأخوان جريم Gebrüder Grimm) على «قوته الإبداعية الأصلية والجماعية» وعلى «طهارة ثقافته».

إن مفهوم الشعب في التقليد الألماني الذي يتجسد أكثر في مفهوم «روح الشعب» تكوّن في البلاد الألمانية كرفض مطلق لمبادئ التنوير التي يعتبرونها نخبوية (رفض التقليد وتقديس الفردية وإبراز العقل). وهذا التقليد الألماني بشكل خاص قد تم التأثر به من قبل ساطع الحصري واستخدمه في نظريته عن القومية العربية.

ونقد مبكر وأساسي لمثل هذه الرؤية الجوهرية أتى من ماكس فيبر. ففي أفكاره حول ذلك

يتساءل إلى أي حد تلعب المكونات المتوارثة في صنع الجماعة و«المعتقدات بالوحدة الإثنية». ويصل إلى الاستنتاج بأن الوحدة الإثنية ليست الجماعة نفسها بل هي عامل يسهل الاتجاه نحو الوحدة. وهو يبرز هنا أولويات السياسة: فالإثنية تنمّي وتسهّل صنع الوحدة السياسية. ومن جانب آخر ينبه الوحدة السياسية حتى لو كانت اصطناعية؛ فالاعتقاد بالمشترك الإثني يترك آثاره حتى في حالة التفتّت. فقد وسّع ماكس فيبر تصنيف عناصر الجماعة التي تصنع الإثنية كشعور جماعي كالتالي:

- وحدة التاريخ
- المذهب
- اللغة
- وحدة العادات والتقاليد
- وحدة المصير[١].

ولكن ليس بالمطلق أن أساس هذه الجماعات هو روابط الدم ولكن العمل السياسي المشترك يولد من الاعتقاد بروابط الدم. وطبقاً «لفيبر» نرى نحن الإثنية ليس كإثنية واحدة بالمعنى الشائع بل كل الجماعات المذكورة أعلى التي تشعر بارتباط مشاعر «الجماعة النحننية». ومن الجدير بالذكر أن روابط الدم في الواقع هي شيء ثانوي.

ومن أجل فهم كيف تشكلت الجماعات النحننية عبر زمن طويل وكيف حافظت على بقائها، يجب هنا أن يدخل مصطلح «الحدود الإثنية»، والذي تبلور خصوصاً من قبل فريدرك بارت Fredrik Barth في مقدمته لكتاب «الجماعات الإثنية وحدودها» Ethnic Groups and Boundaries الذي عرف فيه الجماعات الإثنية «كوحدات تحمل ثقافة». فالمحتوى الثقافي منفصل تحليلياً إلى قاعدتين:

١. مظاهر خارجية مثل الأزياء واللغة وأشكال البناء ونمط الحياة.
٢. القيم الأساسية مثل معايير الأخلاق والفضائل التي يقاس السلوك بها[٢].

وفي هذا السياق يعتبر التعريف الذاتي وكذلك تعريف الآخر ذا أهمية. وحسب ذلك فإن التبعية لجماعة إثنية يعني أن يحكم الفرد على معايير هذه الجماعة وعلى نفسه، وإذا ما كانت جماعة ما ستبقى موجودة كجماعة إثنية أم لا، وذلك يتعلق باستطاعتها أن تحافظ على الحدود. بشكل أكثر وضوحاً: فإن الجماعات الإثنية التاريخية التي حافظت على بقائها حتى

١. Max Weber, **Wirtschaft und Gesellschaft**, p. 237.

٢. Fredrik Barth, **Ethnic Groups and Boundaries**, p. 14.

اليوم استطاعت أن تحافظ على نوع من الحدود حتى لو تغيرت مع مرور الزمن.

في هذا الكتاب سيُستخدم التعريف التالي للجماعة الإثنية كجماعة نحننية كنقيض للعرقية بمفهومها الشائع.

إن الجماعة «النحننية» هي التي تشعر بتآلف مشترك؛ الأمر الذي ينعكس من خلال الزواج الداخلي وهذا ما يلاحظه الآخرون، وهذا على أساس ملامح رمزية يعتقد أنها عوامل ربط. هذه الملامح الرمزية التي تخدم رسم الحدود يمكن أن تؤخذ من اللغة والوالدين والمكان والبيولوجيا والمصير المشترك والذاكرة.

وكذلك مفهوم الهوية مهم هنا أيضاً. والهوية تعني حسب أريكسن Erikson:

«فالتطابق المستمر للفرد مع نفسه، واستمرارية الخبرة الذاتية للفرد وأساساً من خلال القيام الدائم بأدوار اجتماعية محددة وعضويات جماعات وأيضاً من خلال التعارف الاجتماعي كفرد صاحب هذه الأدوار أو عضو هذه الجماعة»[٣].

وهناك توتّر بين هوية الفرد وهوية الجماعة. وفي هذا المكان يحسن أن نبرز الوجه المزدوج لظاهرة الإثنية: والخطر أن الهوية الإثنية تستطيع أن تسيطر على الهوية الفردية وتسبب بتلاشيها. في حالة التطرف فإن الفرد لم يعد له هوية، أو أن الهوية الذاتية للفرد تسحب من الخارج ويتراجع إلى تبعيته الإثنية.

والآن، فإن الدروز جماعة إثنية تعتمد أساساً على المذهب الديني. ولكن، أي دور تلعب الدرزية كدين في حياة الجماعة السياسية؟ هل الدين حقاً صانع الوحدة الذي جعل الجماعة مدمجة ومتماسكة؟ يبدو أن تاريخ جبل الدروز في الصفحات التالية يستهين بذلك. فالحديث دائماً يدور حول المعارك والتشريدات والثورات التي فرقت المجتمع. أين دور الدين إذاً؟ وأين وحدة الجماعة التي يؤكدها المراقبون دائماً؟

ومفتاح الفهم في اعتقادي في الواقع هو أن الدرزية مذهب سري يدخله أعضاء الجماعة عادة بعد بلوغهم سناً معينة. وهنا من المناسب أن ننظر إلى المعارف الأنثروبولوجية حول ممارسة وتنظيم الاعتقاد الديني.

الزواج الداخلي هو الشائع بين الدروز وباب الدعوة لديهم مغلق مما يجعل من مواليدهم دروزاً بشكل تلقائي، ولكن بمفهوم واسع جداً لتبعية الجماعة.

أمّا عن دخولهم إلى الدين فإن هؤلاء الرجال (سوف نتطرق في هذا الكتاب إلى الرجال وسياستهم أكثر من النساء اللواتي نادراً ما يشتركن في السياسة) جهال. وما داموا كذلك فلا

٣. **Lexikon der Soziologie**, p. 327.

يباح لهم أن يطلعوا ويتعرفوا إلا على المبادئ الأخلاقية الدرزية مثل: الشرف في مواجهة الآخرين (وخصوصاً أعضاء المذهب) والاعتقاد بالتقمّص وحماية المخذول والمحاربة من أجل شرف العائلة إلخ.

للتفريق بين الجهال والعقال، على الإنسان أن ينطلق من فضاءين داخل الدرزية: أحدهما دنيوي والآخر روحي، غالباً ما تختلف قيمهما وأهدافهما. والواقع أننا نتعامل هنا تاريخياً مع أقلية دينية كانت في البداية تقتفي خطى الذين عاشوا في أطراف الأماكن المأهولة. وهذا التفريق بين هذين الفضاءين، حسب مجموعات السن، عملي جداً. وفي عمر الأربعين - وبعضهم أكثر وبعض المتحمسين أقل - يترك الرجال الفضاء الدنيوي ويدخلون الروحي. وفي الفضاء الدنيوي يتوقع الإنسان من ذلك المجتمع أن يعيش نفس قيم المجتمع المحيط. وفي حالة جبل الدروز(حوران) كان هذا تاريخياً مجتمعاً عشائرياً متأثراً بالبداوة (أنظر الفصول اللاحقة).

تاريخياً اشتهر هذا المجتمع بقيم الرجولة وقوانين شرف حاسمة أساسها الشجاعة والقدرة القتالية. ليس فيه مكان كبير للدين وخاصة لنوع باطني ومنعزل عن العالم كالمذهب الدرزي. وبالعكس ففي هذا الفصل الحاسم بين الفضاءين ربما يكمن سر بقاء هذه الجماعة عبر القرون. ومع تبدل المكانة في حياة الرجل من مقاتل يمتاز بالرجولة إلى شيخ كبير قد فقد طاقته تدريجياً، يبقى رمز السلطة في بيته بحيث يمنح الشرف من خلال الدخول إلى الدين. ولكن المتطلبات تختلف كثيراً: من دخل الدين لا يسمح له أن يشتم أو يدخّن. ومن المفضل أن يعتزل النساء وأن يكون في سلوكه مثالاً للرحمة والتواضع. إن المفاهيم التي عرف بها شيوخ كلا الفضاءين تبرز الثنائية بشكل واضح: فالشيخ الدنيوي يعرف بالشيخ الجثماني، أما الشيخ الديني فهو شيخ روحاني.

يتم الدخول إلى الدين من خلال القبول في المجلس الذي يتجمع فيه الدروز للصلاة وذلك مساء كل خميس. ومن الممكن أن يرفض القبول في المجلس بحجة أن المرشح ليس مؤهلاً بعد. ومن خرج عن الدين بأعماله، أي أن أخلاقه تخالف الأخلاق العامة، لا يقبل طول حياته - إلا إذا كان رجلاً ذا قوة ونفوذ.

إن للمجلس وسيلة يعاقب بها المسيئين والذين يعرّضون الملة للخطر، وهو الحرم. ويتمثل في إبعاد العضو من الجماعة لفترة معينة، لا يجوز خلالها لأي فرد أن يكلمه أو يساعده. ويحدث ذلك بالقول «يحرم من الدين».

ويمكن إبراز الدخول إلى الدين من خلال الأزياء، وخاصة شكل غطاء الرأس. ويلبس المريد الذي دخل المجلس جديداً الكوفية البيضاء على رأسه الحليق. والرتبة التالية تتمثل

بلبس الطربوش الملفوف بقطعة قماش بيضاء فوق هذه الكوفية. وبعدها تلي الكوفية فوق الطربوش الملفوف بقماش أبيض. وفي المرحلة التالية يترك المريد الكوفية ويلبس الطربوش الملفوف بالقماش الأبيض فقط. أما قمة الشيوخ الروحيين الذين يعيشون في «المزار» (مكان ديني خاص بهم يشبه الدير في المسيحية) بالقرب من بلدة حاصبيا في وادي التيم، وهو المهد التاريخي للدرزية، فيلبسون عمائم من القطن أو الصوف على شكل تاج. ويسمى الشيخ الديني أيضاً بالجويّد (وجمعه أجاويد).

يصل المرء إلى رتبة الجويّد بطريقتين: أولاهما التقوى أو القداسة في الحياة الشخصية، بدون معرفة كبيرة بأسرار الدين، والطريقة الثانية هي معرفة الكتب المقدسة التي يجب أن يحفظ الشيخ أكبر عدد ممكن منها. أما الذي يجمع بين هذين المبدأين، القداسة والعلم، فهو يبلغ الرتبة الأسمى.

والكثير من الشيوخ يباح لهم في المرحلة الأولى أو الثانية الاطلاع على أسرار الدرزية بالرغم من كبر سنهم، ويعترفون بكل صراحة أنهم لا يقرؤون كثيراً، إضافة إلى عدم رغبتهم في أن يتعمقوا أكثر في الدين.

ويعيش أجاويد الرتب العليا حياة بسيطة. فعليهم أن يأكلوا من منتجات الطبيعة الطاهرة التي زرعوها بأنفسهم وهم ممنوعون عن أكل أي طعام يُشترى بأموال الحكومة. ولا يجوز لهم التدخل في السياسة. وهم ذوو لحى طويلة بيضاء، يلبسون ملابس سوداء وينعزلون عن المجتمع. وكان الناس يصدقونهم (ولا يزالون) إذا كانوا بحاجة إلى تميمة ضد مرض أو خطر معين... الخ. وتُتَوارث القداسة في العائلات، وهكذا أصبح كثير من أبناء الروحيين الكبار روحيين أيضاً. ولا يقيم الطقوس العليا إلا علماء الدرجات العليا. ومكانها الخلوة التي تقع خارج القرى في مكان مهجور. وينسحبون إلى هناك للتأمل أيضاً. وتعتبر الخلوة مكاناً أقدس من المجلس القريب من الحياة السياسية.

بيد أن معظم الروحيين يتميزون بكارزمية الفرد (ماكس فيبر). هناك أيضاً كارزمية المنصب لدى شيخ العقل. نظراً لرفض أي قوى دنيوية في فضاء الدين حيث يلفّ الغموض هذا المنصب إلى حد ما.

ويعتقد المستشرق جوزيف فان أس Van Ess أن:

«التكوّن التاريخي (لمنصب شيخ العقل) يستند على ظنون فقط. وليس له توثيق في كتابات الدروز القديمة. وتركيبة الجماعات الدرزية حتى اليوم تحدد من قبل مجلس العقال. ومن الممكن أن ينتخب هؤلاء العقال ناطقاً باسمهم، وربما كان هذا الناطق،

وهو شيخ العقل، يلعب دوراً خاصاً في نظام الملّة التركي. ولكن هذا التطور ليس ضرورياً»[٤].

أما في جبل الدروز فهناك توثيق للواقع بأن شيخ العقل قد كان بعد سنة ١٨٦٠ يخاطب العثمانيين في أزمات مختلفة، وذلك لأول مرة في أزمة ١٨٦٠ نفسها وبشخص من عائلة الحجري. وكان مقره في قرية قنوات، وهي قرية كان فيها مكان مقدس في العصر القديم.

وفي عدة أزمات أخرى عرض العثمانيون طلباتهم وشروطهم لشيخ العقل. وليس من المعروف ما إذا كانت السياسة العثمانية تهدف إلى تفريق الجماعة من البداية، كما هو الحال في نهاية القرن الـ١٩ أم لا. على أي حال كان ذلك تحدياً لتوازن القوى في جبل الدروز، حيث كان من المفروض ألا يحتك الفضاء الديني مع السلطة. ومن جانب آخر كان الفضاء الديني وممثله مسؤول عن الدين وبقائه في وسط عضوي. ويعني هذا أنه كان أيضاً مسؤولاً عن بقاء المذهب، وهو واجب سياسي مطلق. ولدى استعراض تاريخ جبل الدروز في الصفحات التالية سيتبيّن أن الشيوخ الدينيين هم الذين حاولوا الحفاظ على وحدة المذهب.

لقد حاول الشيوخ الروحيون ألا يتوسطوا إلا في الأزمات الكبرى بين العثمانيين والدروز وفي العامية والشعبية أيضاً. ومع مرور الزمن تبلورت شخصيات أصبحت بديلة لفضاء القوى الدنيوية الحقيقية. وهذا التطور أيّده المشايخ الدينيون واستغلوه لأنهم بحثوا عن شيوخ روحيين لتشريع وتعزيز قوتهم. ويلاحظ بالفعل أن هناك اختلافاً بارزاً بين المعتقدات الدينية المنعزلة عن الدنيا وبين إلغاء الفضاءين. وعن كيفية تكوين مشيخة العقل الثالثة، أجاب محدثي في جبل الدروز، وهو من العقال، ولكن ليس من أعلى الرتب، مع ضحكة خافتة:

«عندما أتى الطرشان إلى الجنوب كانوا بحاجة إلى شيخ عقل. وجابوا الحناوي معهم – وهكذا حصل الأمر».

وقد ورد ذكر شيخ روحي chef spirituel باسم الحناوي في تقرير قنصلي يعود إلى سنة ١٨٧٩[٥]. وهناك وثائق تشير إلى صلة واضحة بين إبراهيم الأطرش وأبي علي الحناوي في «أزمة الكرك» عندما كتب القنصل الفرنسي رسالة إلى كليهما[٦]. والمرافق الروحي لأهم المنافسين للطرشان، العوامرة (آل عامر) في هذا الوقت كان إبراهيم القضماني[٧]. وبسبب

٤. Van Ess, "Libanesische Miszellen", p. 100.

٥. **MAEN**, Correspondance, Gilbert à Fournier, 27 Oct. 1879.

٦. **MAEN**, Correspondance, Flesch à Ibrahim al-Atrache et Abu Ali al-Hannawi, Annexe dépêche 5 Avril 1881.

٧. **MAEN**, Correspondance, Annexe dépêche 2 Mars 1881.

مكانتهم الثانوية لم يصل آل القضماني إلى رتبة شيخ العقل.

وتقول المصادر إن أقدم مشيخة عقل في جبل الدروز كانت في قنوات وحافظت على استقلال المنصب من الشيوخ الدنيويين الكبار. وعندما زار ماكس فون أوبنهايم Max von Oppenheim الجبل عام ١٨٩٣، ثلاث سنوات بعد العامية، كان الشيخ الدنيوي لقنوات (وهو أحد أبناء إبراهيم الأطرش، مدير الجبل) غاضباً من شيخ العقل حسن الحجري لدرجة أنه كان ممنوعاً على أوبنهايم أن يقابله[٨].

وكان لآل الحجري منصب شيخ العقل الأول وتبعهم آل الجربوع في السويداء وآل الحناوي في سهوة البلاطة.

وفي مجال السياسة كان من الواضح أن الفضاء الديني تابع للدنيوي. وتبرز هذه التبعية في واقع أن بعض القرى كان فيها مجلسان لبيتين متنافسين، كما كان الحال على سبيل المثال في العشرينيات في نجران حيث تواجه البيتان الكبيران أبو فخر ونصر[٩]. وكانت القرية في تلك الحالات منقسمة إلى منطقتين، الحارة الشمالية والحارة الجنوبية، وكان هناك مجلس لكل منهما. ويجيب الأهالي بلهفة عندما يسأل المرء عن هذه الأمور. ومن الممكن أن يذهب التفرق السياسي في القرية إلى حد وجود مكانين لإقامة شعائر الدفن، حيث يوضع المتوفى على النعش، ويأتي إليهما سكان القرية أو - إذا كان المتوفى ذا أهمية - تأتي وفود من كل الجبل ويتداولون سيرته وأعماله في وقت حياته.

ولكن ما هي أهمية الدين في تكون الجماعة؟ وافتراضي أن الدرزية كزهد منعزل عن الدنيا (ماكس فيبر) - ومعه جماعة الدروز - قد استمرّت عبر القرون، لأنها، قبل كل شيء، ملائمة بشكل كبير للنظام العشائري المسيطر في المنطقة بانقسامه الدائم. فيتم الاحتكاك بين الفضاءين الديني والدنيوي في الدرزية فقط في حالة حدوث أزمة تهدد الجماعة والدين. ويتدخل الشيوخ الروحيون بدافع قلقهم على الجماعة فقط ليعودوا إلى عزلتهم بعد حل الأزمة. ومن الطبيعي أنه كانت هناك محاولات من قبل شاغلي منصب مشيخة العقل لضمان القوة والنفوذ. ولكن كان من المفترض أن يفعلوا ذلك ضمن فضائهم إذا لم يرغبوا أن يخالفوا مبدأ إيمانهم الأساسي ويفقدوا أتباعهم.

و«التكتل الدرزي الموحد» الذي يُذكر كثيراً في البحوث العلمية الغربية لا يظهر إلا بواقع تهديد الوجود في الحرب. وفي هذه الحالة يترك حتى الشيوخ الأكثر زهداً فضاءهم

---

٨. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 195.

٩. **MAEN**, Fonds Beyrouth, carton 2381.

ليشتركوا، بشكل جماعي مطلق، بالرغم من كبر سنهم، في الحرب إلى جانب أبناء ملتهم. وفي كل الأزمنة فإن الشيوخ، بلحاهم البيضاء وباستماتتهم استماتة الزاهدين في الدنيا في وجه المدافع والبنادق، أثاروا اضطراباً كبيراً. ومثال لذلك تقرير عضو الفرقة الأجنبية الذي حارب في سنة ١٩٢٦ مع الفرنسيين في جبل الدروز:

«وقد كاد يصيبني بالشلل أنهم كانوا كلهم شيوخاً ضعفاء ذوي لحى شعثاء تكاد تبلغ خصورهم وحتى ركبهم. ودخل هؤلاء الأقزام الكبار السن الغريبون وظهروا كأنهم يتمتعون بحياة سحرية. وأطلقت النار، ثم أطلقت - دون أن يحدث ذلك أي أثر... وفجأة، وفي لحظة واحدة سقطوا جميعاً. لقد أصابهم الرصاص تقريباً منذ أن ظهروا... والبعض منهم كانوا ميتين وهم واقفون على أقدامهم»[١٠].

وفي مضافة آل الحناوي لا تزال لوحة كبيرة تمثل أبا علي الحناوي في القتال ضد العثمانيين وهو يسدُّ في وسط المعركة ماسورة مدفع بكوفيته البيضاء.

وحسب الأكثرية من شباب الدروز، فإن مصدر مهاراتهم العسكرية كان القيم الحربية وعادات وتقاليد المجتمع العشائري وليس الدين الذي لم ينخرطوا في فضائه. وقد كانت جرترود بيل Gertrude Bell شاهدة لطقوس التحضير للحرب. فبعد أن هيأ الشباب والرجال أنفسهم بأناشيد الحرب شكلوا دائرة:

«وكل شاب يمسك بيد مجاوريه. ثم قدم إلى الدائرة ثلاثة دروز بسيوفهم المصلتة ودخلوا في حلقة الشباب المتحمسين المحيطين بهم. ووقفوا أمام كل واحد وصرخوا: «هل أنت رجل جيد؟ هل أنت رجل حقيقي؟» وكل واحد أجاب بصرخة: «ها! ها!» وقد رآني أحد الثلاثة واقفة في الدائرة... فرفع سيفه إلى الأعلى كأنه يرحب بالقوم. ثم قال: «يا سيدة! الإنجليز والدروز معاً». قلت: «الحمد لله! نحن أيضاً عرق حربي». وفي هذه اللحظة بدا أن أفضل شيء هو الذهاب إلى الحرب وقتل عدوك»[١١].

وباختصار: إن الدرزية تصنع الوحدة بكونها رابطة واسعة تجمع أعضاء هذه الجماعة في حالة الأزمة. أما التفرقات العشائرية في الأوقات العادية فتحول التكتل الدرزي الكبير إلى وحدات صغيرة. وينعكس ذلك في مقولات أهالي الجبل:

«في الحرب تسود العصبية المذهبية، و في السلم تسود العصبية العشائرية».

والجماعة الإثنية كما هي في مفهوم ماكس فيبر «ليست جماعة من تلقاء نفسها بل هي

---

١٠. Doty, **The Legion**, pp. 101-102.

١١. Bell, **Desert**, pp. 91-92.

عامل يسهل تشكل الجماعة».

إن الاستناد إلى الوطن الجديد الذي سوف يجده الدروز في جبال حوران والدفاع عن هذا الوطن بكل الوسائل، والمجتمع الخاص الذي بلوروه هناك، يعني المصير المشترك والذاكرة المشتركة والبلد المشترك - وتلك هي المكونات الإضافية للإثنية التي سوف تجعل الدروز، حتى نهاية الدولة العثمانية، جماعة «نحننية» متميزة.

الفصل الأول

الأسس السياسيّة والاجتماعيّة



الوطن الجديد[1]

تكوّن «المجتمع الحدودي» frontier society
في جبل حوران في النصف الأول من القرن التاسع عشر

١- تمهيد :

كان الحكم العثماني في جبال بلاد الشام التي سيطر عليها زعماء شبه استقلاليين، حتى بداية التنظيمات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حكماً غير مباشر[٢]. وكانت منطقة جبل حوران واحدة من هذه المناطق[٣].

هذه المنطقة الجبلية من سهل حوران، تشكل في الواقع جزءاً مما يسمى «بلاد الشام» ولكنها تتميز بمنعة موقعها، من جهة، ومن جهة ثانية بمنعة سكانها الدروز. وقد أصبح اسمها في مطلع القرن التاسع عشر «جبل الدروز» بينما كانت جبال لبنان تعرف حتى ذلك الوقت بهذا الاسم[٤]. وقد وصف «بوركهارت» بلاد حوران كما يلي:

«بلاد حوران: تبدأ بلاد حوران جنوب جبل الكسوة وجبل الخيارة. يحدها من الشرق أرض اللجاه الصخرية وجبل حوران. ويحسب السهل والجبل أحياناً من حوران أيضًا. وبذلك يمكن أن يعتبر جبل الدروز - وشيخه الذي يقيم في السويداء - جزءاً من حوران. وفي الجنوب الشرقي تشكل بصرى الشام والرمثا نهاية القرى المسكونة وحدود البادية. أما الحدود الغربيّة فهي سلسلة من القرى على طريق الحج، من غبارب حتى الرمثا»[٥].

---

١ . أخذت هذه التسمية عن الصغيّر، بنو معروف، ص٤٠٣ .

٢ . Ma'oz, **Ottoman Reform**, p. 6.

٣ . الأخرى كانت الجبال الفلسطينية وجبال لبنان وجبال العلويين.

٤ . تاريخ جبل الدروز. مخطوطة، مكتبة جامعة «توبينغن» Tübingen 1109-1223h., 1697-1809.

٥ . Burckhardt, p. 446.

وقد وصف الرحالة الألماني «زتسن» Seetzen، قرية عرى سنة ١٨٠٥ بأنها أول قرية في جبل حوران، وذكر تسمية «جبل الدروز»[٦]. وفي ذلك الحين أيضاً، وصف السكان المحليون للرحالة «بكنغهام» Buckingham في منطقة معيّنة على طريق الحج قريباً من خباخب أن «. . . يلقب السكانُ جنوب خباخب حورانيين - وغرباً الجيدوريين، وشرقاً الدروز واللجاهيين وشمالاً الشاميّين»[٧].

(ربما يقال لسكان بلاد الشام، خارجها «الشوام»، ويظهر أنه في مصر يقال لسكان العريش «الشوام» أيضاً)[٨].

دخلت حوران تحت الحكم العثماني سنة ١٥١٦. وتقول مصادر عثمانية لسنة ١٥٩٦، إن المنطقة كانت كثيفة السكان ونشيطة اقتصادياً. ولكن في القرن الثامن عشر صارت حوران في يد البدو. وكان هؤلاء مصدر تهديد وإزعاج للوالي العثماني في ولاية الشام لأن قوافل الحج كانت مرهونة لإرادتهم وقيادتهم، حيث كان تسيير قوافل الحج من أهم واجبات والي دمشق الذي كان من أجل ذلك معفىً من الخدمة العسكرية خارج بلاد الشام منذ سنة ١٧٠٨[٩]. وقد قاد نصوح باشا، والي دمشق في الفترة ١٧٠٨-٠٩/ ١٧١٤، حملة ضد البدو، قتل خلالها شيخ السرديّة الملقب بـ«شيخ عرب الشام» و«شيخ البلاد الحورانية»[١٠].

ويمكن القول إن الحكم العثماني في المنطقة حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان حكماً غير مباشر ومقصوراً فقط على جباية الضرائب من خلال الملتزمين المحليين، ولم يؤثر كثيراً على تركيبة المجتمع في منطقة الهجرة في جبل الدروز. أما منطقة الجبل فلم تكن بمعزل تماماً عن تأثير السياسة المصرية والعثمانية. ولكن هذه السياسة اقتصرت على تسيير حملات عسكرية وجباية الضرائب. وحيث إن موضوع الفصل هو الشعب والأرض والإسكان والهيكل الاجتماعي، لذلك سنعرض ملخصاً لأهم الأحداث السياسية في جبل حوران فقط.

ويظن أن جبل حوران أحدث المناطق السكنية للدروز وأن الدروز قد قدموا إلى جبل حوران من مناطق وادي التيم وجبال لبنان والجبل الأعلى بقرب حلب وجبال الكرمل في فلسطين. ولم يتأكد حتى الآن متى دخلوا جبل حوران. والسؤال حول ذلك ما زال مطروحاً.

---

٦. «أولرخ ياسبر زتسن» Ulrich Jasper Seetzen ١٧٦٧-١٨١١، **رحلة الى الشرق**، زتسن، ص٧٤.

٧. Buckingham, pp. 241-242.

٨. مسند إلى الجبرتي Philipp, **Syrians**, p. 15.

٩. Rafeq, **Province of Damascus**, p. 58.

١٠. Rafeq, **Province of Damascus**, p. 10.

ولا يفصّل سجل الضرائب العثماني لسنة ١٥٩٦ ما إذا كان بين دافعي الضرائب دروز أم لا . وحتى «موسوعة الأشرفاني» وهي مصدر درزي قديم في وصف مساكن الدروز في النصف الأول للقرن السابع عشر، لم تذكر أيضاً بالتخصيص قرى درزية في حوران[١١] . وحسب الرواية الشفهية في الجبل نفسه المسجلة لدى مختلف المؤلفين في هذا القرن فإن تاريخ الدروز في جبل حوران بدأ مع سنة ١٦٨٥ . ففي هذه السنة قدم إلى جبل حوران الأمير علم الدين المعني ومعاونه «حمدان الحمدان» على رأس حملة من ١٠٠-٢٠٠ فارس[١٢] . ولما عاد المعني إلى لبنان سلّم قصر نجران حيث أقام، إلى «حمدان» وأوكله مكانه[١٣] . وبعد مدة التحق «خليل الحمدان» بابن عمّه، آتياً من بلاد صفد على رأس حملة، فقوي حمدان به وأسّسوا «مشيخة آل الحمدان» التي استمرت تتمتع بنفوذ قوي حتى أسقطها آل الأطرش سنة ١٨٦٩[١٤] . لقد قيل كثيراً إن الدروز الأوائل الذين دخلوا إلى جبل حوران قد وجدوا هناك وجوداً درزياً، ولكن هذه الروايات تفتقد إلى مصادر موثقة[١٥] .

ويبدو أن هجرة الدروز الثانية قد تمت سنة ١٧١١ بعد معركة «عين داره» بين حزبي القيسيّة واليمنيّة والتي هزمت فيها اليمنيّة بزعامة الأمير علم الدين المعني[١٦] ، فنزح اليمنيون بعلمهم الأحمر إلى جبل حوران . كذلك كانت نتائج المعارك التي قادها أحمد باشا الجزّار الذي كان يسعى إلى السلطة في لبنان في تسعينيات القرن الثامن عشر قدوم مهاجرين جدد[١٧] . ويقال إن الأمير بشير أبعد سنة ١٨٠٣ بعض أعدائه من المنطقة فاستقرّوا في جبل حوران أيضاً[١٨] . وفي سنة ١٨١١ نزحت حوالى ١٥٠٠ عائلة من الجبل الأعلى في حلب بعد أن طردهم «حاكم جسر الشغور طوبال علي وجنوده الذين ارتكبوا أكبر المجازر» من

---

١١ . Firro, **History**, pp. 33-34 . مخطوطة عبد الملك الأشرفاني، **عُمْدة العارفين**، الجزء الثالث .

١٢ . Rafeq, **Province of Damascus**, pp. 124-125 .

١٣ . حنا أبو راشد، **جبل الدروز**، ص٤٨ ؛ عبد الله النجار، **بنو معروف في جبل حوران**، ص٨٥ ؛ سعيد الصغيّر، **بنو معروف في التاريخ**، ص٤٠٤-٤٠٥ .

Capitaine Bouron, **Les Druzes**, p. 126; ibid., p. 96.

١٤ . الصغيّر، **بنو معروف في التاريخ**، ص٤٠٥ .

١٥ . حسب «بورون» الدروز في جبل الدروز منذ القرن الـ١١/ ١٢ . Bouron, **Les Druzes**, pp. 96-97 . حسب لويس، الدروز سكنوا جبل الدروز في القرن الـ١٤ . Lewis, **Nomads** p. 77 .

زار فولني المنطقة (١٧٨٣ - ١٧٨٥) وأكد أن عائلات مارونية ودرزية قدمت إلى الجبل هرباً من مشاكل جبل لبنان Volney, **Voyage**, p.163.

١٦ . Schölch, **Palästina**, p. 177-183 .

١٧ . الصغيّر، ص٢٢٥ ؛ Guys, **La Nation Druze**, p. 29 .

١٨ . Lewis, **Nomads**, p.78 .

منازلهم، ويقال إن قسماً منهم قد حل في جبل حوران[١٩].

لا شك أن الحدث الأكبر في ذلك الوقت الذي أبرز اللجاه «في كل أنحاء سوريا من القدس إلى حلب» هو ثورة الدروز ضد إبراهيم باشا[٢٠]. ومن الجدير بالذكر أنها ردّت سنة ١٨١٠، حملة وهابيّة، قدمت إلى حوران بهدف الاستيلاء على القمح أكثر من كونها احتلالاً سياسياً.

حكم إبراهيم باشا المصري سوريا من سنة ١٨٣١ حتى سنة ١٨٤٠ وأقام فيها حكماً على طراز سلطة والده محمد علي، وشكل إدارة أفضل اشترك فيها المسيحيون واليهود، وأدخل التجنيد الإجباري وأعمال السخرة وجرّد فلاّحي الجبال من السلاح لتنمية الإنتاج الريفي المهدد بالمناوشات الدائمة، كما أتى بنظام ضريبي جديد وبجهاز للتحصيل أكثر فعالية[٢١]. وشكلت هذه السياسة أول تحديد فعلي لحالة جبل حوران الاستقلالية. وقد طُلب من جبل حوران تجنيد ٣٠٠ درزي فقط[٢٢] بينما طلب من لبنان ١٠٠٠ رجل. ودعا الـ«حكمدار» (الحاكم المدني في دمشق)، شريف باشا الشيخ يحيى الحمدان لمقابلته في دمشق. ولما عرض الحمدان مقايضة المطلوبين بكمية من القمح كان الجواب أن صفعه[٢٣]. وعندما تفجّرت الثورة ضد إبراهيم باشا، تضاربت عنها الأخبار. تقول تقارير القناصل إنه في سنة ١٨٣٨[٢٤]، على أثر ظهور الجيش لأخذ المطلوب تجنيدهم، قام الدروز بإبادة ذلك الجيش. وبعد أن هُزمت ثلاثة جيوش مصرية هاجم إبراهيم باشا الجبل بحملة من ١٥٠٠٠ رجل، قادها بنفسه، وفيها خيرة الجنود الموجودين في حلب[٢٥]. ثم اتسع التمرد من جبل حوران حتى لبنان، ودام من كانون الثاني حتى تموز ١٨٣٨[٢٦]. مما يلفت أن محاولات جرت لامتداد الثورة نحو أعيان دمشق، وأرسلت كتب إلى «شمدين آغا» كبير الأكراد وإلى المفتي، الشيخ ضياء الهيجاني، وإلى شيخ الميدان «بوزالي آغا»[٢٧].

وبعد محاصرة طويلة للدروز في اللجاه وتسميم بعض ينابيع المياه جرت المساعي بحيث

---

١٩. Burckhardt, pp. 303-304.

٢٠. Wetzstein, **Hauran**, p. 94.

٢١. Ma'oz, **Ottoman Reform**, chap. 2; Schölch, **Der arabische Osten im 19. Jahrhundert**, p.380.

٢٢. **MAEN**, Correspondance, 1827-1845, Beaudin à Roussin, 17 Jan. 1838; **النجار، بنو معروف**، ص٩٣.

٢٣. النجار، **بنو معروف**، ص٩٣؛ أبو راشد، **الجبل**، ص٤٧.

٢٤. أبو راشد، **الجبل**، ص٤٨؛ النجار، **بنو معروف**، ص٩١.

٢٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Beaudin à Roussin, 2 Mai 1838; FO 195/94, Werry to Ponsonby, 13. April 1838.

٢٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Beaudin à Roussin, 2 Août 1838.

٢٧. أسد رستم، **محفوظات**، ج٣، ص٣٣٤-٣٣٥.

يسلّم الدروز قطعاً من السلاح . وكُلّف «شريف باشا» والي دمشق باستلامها[٢٨]. ويظهر أنه في سنة ١٨٣٩ طلب إبراهيم باشا إضافة ٥٠ رجلاً للتجنيد، الأمر الذي أدى إلى انفجار مقاومة جديدة في الجبل اشتركت فيها قرى من مسلمي الغوطة وبدو من عشيرة الصلوط .

ونظراً لسريان إشاعة عامة برغبة السلطان العثماني في استرجاع سوريا من المصريين لم يكن إبراهيم باشا يرغب في حرب على الحدود الجنوبية فسحب جيوشه إلى الشمال[٢٩]. وهكذا فقد كانت شروط الثورة مواتية وطلب الثوار ما يلي :

- الإعفاء من التجنيد .
- الحق بالاحتفاظ بالسلاح المغتنم .
- لا سخرة للأشخاص ولا لحيواناتهم .
- دفع الضرائب نقدياً بسعر محدد من الحكومة ، والتوقف عن دفعها عينياً بالقمح .
- لا قلاع في اللجاه .
- للدروز الخيار في أن يخدموا في الجنديّة غير النظامية أو يبقوا في الزراعة .
- الحق للصلوط في البقاء في اللجاه ، مع وجوب دفعهم الضرائب على الأراضي الزراعية فقط .
- يصدّق على هذا الشروط محمد علي ويضمنها الأمير بشير[٣٠].

بذلك وضع الدروز أساساً لمجدهم الحربي الأسطوري وتصدّوا لطلبات الدولة من مجتمعهم . وأعلن شبلي العريان من وادي التيم نفسه عاصياً أبدياً . وحتى اليوم تُعرض لضيوف بيت الحلبي المهتمين بالتاريخ الأدوات الفضية للقهوة المغتنمة من خيمة إبراهيم باشا ، والتي يقال إن عز الدين الحلبي قد اغتنمها في إحدى المعارك . وعقب هذا التمرد بقي قسم من مقاتلي الدروز في جبل حوران . وقد أصبحت القرى الدرزية الموجودة في الكرمل مهجورة حتى القريتان الآهلتان اليوم بالسكان[٣١].

وعندما أجبر إبراهيم باشا على مغادرة سوريا سنة ١٨٤١ ترك جبل حوران قوياً ولبنان ضعيفاً : الأمير بشير الشهابي الثاني الذي انتهى عهد حكمه الطويل (١٧٨٨-١٨٤٠) مع انسحاب إبراهيم باشا ، كان قد بدأ أولاً بتجريد «المقاطعجيين» الدروز من سلاحهم ، وتوزيع السلاح على الموارنة ضد الدروز . كل ذلك كان في ظل إبراهيم باشا . وقد أسهم في تدهور

٢٨. **FO** 195/127, Moore to Ponsonby, 25 July 1838.

٢٩. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Beaudin à Roussin, 2 Août 1838.

٣٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Beaudin à Roussin, 12 Avril 1839.

٣١. Lewis, **Nomads**, p. 80; Firro, **History**, pp. 66-67.

الوضع، وأدّى إلى نزاعات مسلحة بين الطائفتين بتشجيع من الأمير بشير، وقد أدّى ذلك إلى حرب ١٨٤٠-١٨٦٠ وكانت نتيجتها مذبحة المسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠. وكان ذلك نهاية الإمارة الشهابية، حيث أبعد آخر أمير، وهو قاسم ملحم الشهابي، من منصبه سنة ١٨٤٢، وأقيم مقامه حاكم عثماني «عمر باشا» وقام التنافس بين بعض أجنحة الدروز، وكذلك مع عمر باشا، مما دفع ببعض الدروز إلى النزوح باتجاه جبل حوران، حيث استوطن فيه قسم منهم وعاد قسم آخر إلى لبنان. وقد ورد حديث أيضاً عن نزوح كبير من نحو ٥٠٠٠ شخص إلى حوران سنة ١٨٤٢، لكن لم يثبت حدوث ذلك[٣٢].

وفي سنة ١٨٥٢ فرض الباب العالي التجنيد على جميع الرجال المسلمين وبضمنهم الدروز، مما أدّى إلى صدام بين القوات العثمانية ورافضي الخدمة من دروز حوران، بينما بقي رؤساء دروز لبنان على ولائهم للباب العالي[٣٣].

وهكذا، فقد أصبح جبل حوران - حتى منتصف القرن التاسع عشر - ذا ميزة خاصة باعتباره ملجأ ذا منعة عسكرية للدروز. لقد كان «فتسشتاين» Wetzstein سنة ١٨٥٨ يعتقد بقدم سكن الدروز في هذه المنطقة. فإذا اعتبرنا مصادر الدروز صحيحة، تكون إقامتهم في الجبل (حتى سنة ١٨٥٨) - قد مضى عليها مدة أقل من ٢٠٠ سنة:

«... ما هي المدّة التي كان على الدروز أن يقضوها في سكنى هذا الجبل المنعزل حتى أضاع اسمه الأصلي! حقاً لم يكن يطلق عليه «جبل حوران» لأن سهل حوران يحيط به. ولكن الاستخدام العام جاء من أجل التفريق بين كلمة «حوران وجبل الدروز». ومن المؤكد أنه كان لهذا الأخير اسم خاص»[٣٤].

إن هدف هذا الفصل هو معالجة هذا الموضوع، ومعرفة مجتمع شكل نفسه هنا، إذ من المناسب لأجل ذلك تسليط الضوء على محيط الأحداث.

٢- المحيط وبنيته الماديّة عبر الزمن (longue durée)

منذ مدرسة «أنال» Annales الفرنسية على الأقل اعترف المؤرخون، وليس فقط الجغرافيون الذين يدرسون المحيط كموضوع رئيسي، بتأثير المحيط على أحداث التاريخ. والنظرة اللاحقة تهدف إلى توضيح مدى التأثير المتبادل بين هذه الشروط الجغرافية

٣٢. Lewis, **Nomads**, p. 80.

٣٣. Firro, **History**, p. 110.

٣٤. Wetzstein, **Hauran**, p. 90.

والإنجازات البشريّة على تلك الطبيعة الخاصة لـ«حوران» والتي وجدتها موجات الدروز المتجولة أمامها.

Gaulanitis (الجولان) وTrachonitis (اللجاه) وAuranitis (حوران)، أسماء أطلقها الرومان على المنطقة البازلتيّة من بحيرة طبريا غرباً حتى بادية الشام شرقاً، ومن حدود غوطة دمشق الخضراء شمالاً حتى اليرموك، رافد الأردنّ، جنوباً[٣٥]. المواقع الآنفة الذكر الثلاثة، هي جزء من مجموع المنحدر البازلتي الذي يمتد من المملكة السعودية عبر الأردنّ حتى حدود غوطة دمشق. وإن حوران هي السهل المحدود باللجاه والجبل ولذلك سمّي «النقرة». السهل لا أشجار فيه وهو سطح ذو هضبات ذات طبيعة بركانيّة. قمة الجبل البازلتيّة ترتفع ٥٠٠-٧٠٠ م عن سطح البحر[٣٦]. والجبل هو مركز نشاطات بركانية قديمة، وعبارة عن سهل عال، أعلى نقطة فيه «تل القليب» (١٧٠٠ م عن سطح البحر). سفحه الغربي باتجاه حوران فيه أكمات بركانيّة على شكل مخاريط، تجري على أقدامها الوديان (شتاءً). أما السفح الشرقي للجبل فهو أشدّ انحداراً.

إن إمكانيات استخدام الجبل للزراعة تتوقف على عمر الحمم السائلة قديماً وتصلّبها. فحين انسابت حمم حقبة «الميوتزين» – الفقيرة الغازات، تآكلت مع الزمن وشكلت طبقة عميقة وتربة مثالية لزراعة القمح. ويشاهد ذلك جنوب الصنمين وأعلى الجبل كذلك. ولكن حيث انسابت حمم حقبة «البليوتزين» و«البلايستوزين» الغني بالغاز المنساب لم يؤثر فيها التآكل الطبيعي بعد[٣٧]. وتوجد في موقعين: اللجاه والصفاة. (أطلق عليها الرومان «التراخون» أي «الرغامى»). وهي عبارة عن حقول حمم وعرة، كونت أكواماً صغيرة، متشققة وملتوية مع السنين. منظرها يشبه أطلالاً تعود إلى أزمنة سحيقة. اللجاه التي أطلق عليها منذ العصور القديمة الاسم «تراخون» تلتصق من شمالها العربي بالجبل وكأنها امتداد له. في داخلها أخاديد، تكونت منذ سيلان الحمم الثاني. تشبه فقاعات ضخمة تفجّرت وتزحزحت متلاصقة على الأرض الخصبة القديمة. يطلق على الأخاديد والفسحات الصخريّة اسم «الكراع». وقد ورد هذا التعبير عن «فتسشتاين» أيضاً. هذا التكوين الطبيعي قد جعل من اللجاه مراعي مستترة منعزلة، فيها ينابيع ماء ولكنّها تنضب في الصيف غالباً. اسم اللجاه يعني حقاً المهرب أو المنفى، وطرف اللجاه يسمى «اللُّحف» وعنها أسماء قراها[٣٨].

٣٥. G. Hölscher, s.v. ,Trachonitis, *RE*, 6A,2 (1937), sp. 1865-1866.

٣٦. Wirth, **Syrien**, p. 408; Reifenberg, **Hauran und Drusengebirge**, p. 194.

٣٧. Wirth, **Syrien**, p. 409.

٣٨. Wetzstein, **Hauran**, p. 12-14, 29.

واللحف درجة صخريّة عالية لا يستطيع الفارس عبورها. أما الصفا فتبدأ من الشمال الشرقي للجبال، وهي قسم من البادية، جافة ليس فيها ينابيع، ولا حتى نبات. يدل اسمها على «الخلو» أو الفراغ. ويصفها «فتسشتاين» بما يلي:

«... منظرها جهنميّ، تشبه الصدر المغبّر... خرجت المادة السوداء من الفوهات كأمواج متراكمة. في وسطها تلال، ليس لها منظر الجبال الناعمة»[٣٩].

تقع في جنوب الصفا، وبين الجبل والصفا الصحارى الصخرية «كراع» و«الحرّة» ويعني العرب بذلك «الأرض الوعرة المغطاة بالحجارة» والتي تأتي من كلمة «حرّ»[٤٠]. متموجة المنظر، تغطيها صخور مختلفة الأحجام، كبراها تزن نحو ربع طن، وصغراها تزن بين ٣-٤ كيلوغرام[٤١].

الجبل نفسه يتصل باللجاه من الشمال الغربي ويشكل منحدراً متدرجاً نحو الصفا إلى الشمال الشرقي. وينساب غرباً نحو سهل حوران. ومن الجنوب والجنوب - الشرقي يمتد حتى البادية بانحدار هادئ، حيث أرض حوران الخصبة. أما الجهتان الشرقيّة والجنوبيّة فقد كانتا مغطاتين بالحجارة سابقاً مثل «الحرّة».

«... كلما تقدم المرء نحوالجنوب الشرقي الجنوبي، يجد أكواماً من الحجارة الصغيرة الحجم، وتتدرج الأكوام بالصغر وتتسع الأرض المفلوحة. والأراضي بين «امتان» و«العناق» وحول «تل اللوز» المغطى بأشجار اللوز البرية جميلة مثل الجنة بالرغم من أن أكوام الحجارة لا تزال منتشرة في المكان»[٤٢].

واعتباراً من بصرى الشام فإن سهل حوران خال من الحجارة، ومشكلته المياه. إذ ليس في المنطقة أنهار أو ينابيع دائمة. وتتوفر في السهل المياه الجوفية ولكنها حتى الوقت الحاضر مقفلة بطبقات صخريّة بازلتية صعبة[٤٣]. يوجد فقط في الجبل ينابيع عديدة ولكن أكثرها يجف صيفاً. معدل المطر السنوي في سهل حوران والجبل يصل حتى ٤٠٠ ملم تقريباً، زراعتهم بعليّة، يلفّ الجبل وأعلى السهل ضباب وندى وثلوج. وكلّما توجّه المرء نحو الجنوب يقل منسوب المطر حتى ٢٠٠ملم في السنة. ويمتد تدرّج الجبل حتى البادية[٤٤].

---

٣٩. Wetzstein, **Hauran**, pp. 6-7.

٤٠. Burckhardt, p.171.

٤١. Wetzstein, **Hauran**, pp. 18-19.

٤٢. Wetzstein, **Hauran**, pp. 39-40.

٤٣. Wirth, **Syrien**, p. 411.

٤٤. Escher, **Sozialgeographische Aspekte**, p.194.

والسمة البارزة لهذه المنطقة أن حدودها الشرقيّة والجنوبيّة هي حدود ذات أهميّة خاصة ومتغيرة طبقاً للتوازن القائم بين القوة السائدة بين المعمورة والبادية. الجبل يحوي هاتين الميزتين معاً. فهو إما معمورة أو بادية. وهذه الدراسة ستتناول هذين النمطين بصورة متعادلة. ورغم مرور فترات خلاف تدوم لوقت طويل، فإنك تجدهم باختلاط مستمر وتعايش(٤٥). وأقدم المصادر التاريخية التي تخرج معها حوران من ظلام التاريخ الأسطوري تشهد على ذلك. يكتب «فلافيوس يوزيفوس» Flavius Josephus:

«. . . كان الكسّارة من الجيران اللجاه (تراخون) يعتدون بالنهب على المدن المجاورة الواقعة تحت سيطرة الحاكم «فارو» Varro في عهد «أوغسطس». ورداً على ذلك منح «أوغسطس» سنة ٣٤ ق. م. لـ«هيرودس» مناطق «تراخون» Trachon و«بتانيا» Batanea وحوران Auranitis، كي يفرض النظام:

«المسألة لم تكن سهلة، فالكسّارة ورزقهم من كسبهم في الغزوات، يعيشون مع مواشيهم ودوابهم في الكهوف وفوق الجبال. والمنطقة بمجملها وعرة صخرية يصعب سلوكها إلا بتقفّي دليل. . . وليس هناك ما يعيق الكسارة من جيران، لا استحياء ولا خوف من اعتداء بالمقابل»(٤٦).

ويحكم كذلك على المستوطنين الآخرين في هذه المنطقة أي الدروز والبدو.

ويبين «فتسشتاين» أن وصف الكهوف على الأقل كان واقعياً: وفي اللجاه والانحدار الشرقي للجبل بالقرب من «المشنّف» تقع أنفاق صخرية تحت الأرض طولها مئات الأمتار وعرضها بعض الأمتار، ذات مداخل غير مكشوفة فعلاً. ويعتقد «فتسشتاين» أنها كهوف للسكن حفرت على يد حافرها «في قديم الزمان». وتقع هذه الكهوف في السفح أو في جنبات الوديان كما عرفها «فتسشتاين»: فيها أمكنة للسكن وإسطبلات للدواب ومستودعات للقمح والعلف. وعلى مداخل أحدها اكتشف كتابات يونانية(٤٧).

ويمكن القول عن هذا: إن حوران كانت مسكونة منذ القدم بالمستقرين وأنصاف الرحّل الذين استخدموا اللجاه. ويورد الأركيولوجيون الفرنسيون في تقاريرهم، عندما كانوا يدرسون إحياء الزراعة القديمة في المنطقة، أنه من الصعب تحديد المعالم بين القرن الأول ق. م. والقرن السابع بعد الميلاد. إلاّ أنهم قدموا صورة شيّقة عن الجبل في تلك الفترة

٤٥. Lindner, **What was a nomadic tribe?**, p. 689.

٤٦. Flavius Josephus, **Jüdische Alterthümer**, 15. Buch, 10. Kapitel; Waddington, **Inscriptions grecques et latines**, tôme III, Paris 1870, p. 535.

٤٧. Wetzstein, **Hauran**, pp. 44-45.

الطويلة. وقد بيّنوا أنه في القرن الأول كان في السهل، كما في الجبل، سكان مستقرّون يمتلكون قطعاً من الأرض وأن العداء كان مستفحلاً بينهم[٤٨].

إن جغرافية الجبل حددت الطبيعة الاستيطانية فيه، إذ إن مسألة الماء قد حددت موقع الاستيطان. فحيث النبع تكون القرية، أو في أمكنة تجمع مياه المطر. وقد كانت مواقع المياه هذه مشتركة وحركة بنائها نشيطة ومتقنة في المنطقة[٤٩]. وما زالت آثار براعة البيزنطيين والرومان شاهدة على ذلك حتى يومنا هذا. كما استمرّ الأسلوب نفسه بعد الفتح الإسلامي[٥٠]. إن جب صلخد الكبير بقي يستعمل حتى الستينات من القرن العشرين مثلاً. كان النموذج أن تبنى القرى فوق سطوح صخريّة وهضاب اقتصاداً بالأراضي الزراعيّة. وكانت داخل القرى ساحات للاجتماعات، دلالة على قوة التركيب الاجتماعي للقرية[٥١]. ويوجد هنا، كما في أماكن أخرى، تلك الاستمرارية القوية في اختيار أماكن العبادة والمعابد من مرحلة البدائية الدينية حتى القرون الوسطى الإسلامية، حيث غُيرت المعابد إلى كنائس وهذه تحولت لاحقاً إلى مساجد. كما اكتشفت في قرى الجبل مطاحن حجر ومعاصر عنب بازلتية دلالة على زراعة العنب والحبوب.

لقد كانت أراضي الجبل كما في «الحرّة» مغطاة بالحجارة (كتل صخرية كبيرة بحجم نحو ٦٠ ×٦٠×٦٠سم بوزن ٤٠٠ كيلوغرام). وقد استصلحها الإنسان وأزاح عنها الحجارة[٥٢]. نجدها الآن أكواماً مخروطية أو ممتدة طولاً لمسافات. وقد استفادوا منها كفواصل حدود بين الأملاك والقرى. وحتى أيامنا هذه ما تزال آثار الاستصلاح الأول لهذه المنطقة الزراعية ماثلة للعيان (باستثناء الجزء الجنوبي للجبل). وغالباً ما نجد الأرض الزراعية في الجبل مستطيلة تفصل بينها أكوام الحجارة مكوّنة حقولاً تبلغ مساحاتها ٣٠م عرضاً أو أقل و٥٠٠م أو أكثر طولاً، وهذا يدل على زراعة القمح[٥٣]. وكان يوجد شريط من الحدائق والمزارع المثمرة حول القرى كما هو موجود حتى الآن.

ومنطقة الجبل تغلب عليها زراعة العنب، وربما كان ذلك قبل عصر الرومان. وبقيت زراعة العنب مزدهرة حتى عصر الأمويين أي أكثر من ستة قرون. ولم يكن هناك حد فاصل

---

٤٨. Photius, **Bibliothèque**, 242 (Damascius), 196; Villeneuve, **L'économie**, p. 75.

٤٩. Villeneuve, **L'économie**, p. 77.

٥٠. Villeneuve, **L'économie**, p.77.

٥١. Villeneuve, **L'économie**, p. 85.

٥٢. Gentelle, Elements pour une histoire des paysages et du peuplement du Djebel Hauran septentrional, in Dentzer (ed.), **Hauran**, p. 35.

٥٣. Villeneuve, **L'économie**, p. 123.

بين زراعة القمح والعنب. وقد مدح الجغرافيون العرب في كل من العصر العباسي والسلجوقي والأيوبي مدينة درعا في سهل حوران لكرومها[٥٤]. ويكتب في ذلك «فيلنوف» Villeneuve شارحاً:

«... زراعة قائمة على الحبوب المختلفة والكروم. الحبوب تغطي كل أرض حوران المفلوحة، بما فيها المنحدرة والوعرة، حتى الأرض المرتفعة وفي قمم الجبل وفي اللجاه. تلك كانت طبيعة الزراعة في عهد الرومان والبيزنطيين»[٥٥].

وافتراضه الأهم هو أن القرى في هذه المنطقة كانت مأهولة منذ القدم، وأن تقنية زراعة الكروم والازدهار العمراني في مجالي العبادة والمدافن كانا على درجة من التقدم الحضاري. وكل ذلك يدل على ثروة كبيرة على المستوى المحلي. إن حوران، خلافاً لما قدره رحالة القرن ١٩، موطن قرى متواصلة حتى نهاية العصر الروماني. أما المدن القليلة (باستثناء بصرى، التي تمثل، حسب الظن، نموذج عاصمة متقدمة جنوب دمشق، كما يدل اسمها الحالي، «بصرى أسكي شام»)[٥٦] فكانت في معظمها قرى من الدرجة الأولى (كالسويداء مثلاً)[٥٧].

كانت كل قرية ترتبط بالأخرى بشبكة من الطرق. كذلك الممرات بين المزارع فقد كانت كأشعة الكواكب[٥٨]. وكانت الدروب ضيقة العرض وما زالت معالمها في الجبل واللجاه، وقد أزيحت عنها الحجارة لتسهيل المرور، وتشاهد آثار المارّة ودوابهم - دون آثار للعربات - باللون الأسود على الصخور المتآكلة باللون الرمادي[٥٩]. حيث تجاوزت وسائل النقل في المنطقة العربات وقفزت من الجمال والبغال إلى سكة الحديد في نهاية القرن الـ١٩. إذاً فالعجلات والسيارات بدأت مطلع القرن ٢٠ وتكاثرت في عهد الانتداب الفرنسي. ومع ذلك بقي الجمل على أهميته حتى سبعينيات القرن ٢٠.

ما من قرية في الجبل إلا وتقوم على خرائب قرية قديمة. وفوق ذلك، فإن هذه القرى القديمة قد أُعيد إسكانها في القرنين الأخيرين من العهد العثماني، وذلك بعد فترة ازدهارشهدها العهد العثماني الأول، تبعته مرحلة من التدهور وهجرة هذه القرى. ففي حين

---

٥٤. يستند «فيلنوف» إلى البكري وياقوت في جغرافية فلسطين العربية، باريس ١٩٦١.

٥٥. Villeneuve, **L'économie**, p. 125.

٥٦. Wetzstein in Guthe, **Dr. A. Stübel's Reise**, p. 279.

٥٧. Villeneuve, **L'économie**, pp. 113-116.

٥٨. Villeneuve, **L'économie**, p. 80.

٥٩. Villeneuve, **L'économie**, p.80.

كان عدد سكان الجبل حوالى ١٢٠٣٨ نسمة في ٧٢ قرية في سنة ١٥٩٦، بلغ عدد السكان سنة ١٨٠٥ حوالى ٤٢٠٠ في ٢١ قرية وذلك على وجه التقريب[٦٠].

ويعود الفضل في هذه المعلومات إلى الرحالة الأوربيين الذين طافوا المنطقة طوال القرن الـ١٩، وقدموا لنا أوصاف هذه القرى القديمة، رغم أن اهتمامهم كان منصباً على دراسة المدن القديمة. وقد كتب «زتسن» سنة ١٨٠٥ عن السويداء:

«يمكن الحكم بأن كل المعالم تعني أن هذا المكان كان سابقاً مدينة بكل معنى الكلمة. إلاّ أنها حالياً خرائب. يرى المرء كنائس بأعمدة ومعبد بعدد أكبر من الأعمدة الفائقة الجمال. والشوارع هنا وهناك، مبلطة بالأحجار المنبسطة. كانت هناك أزقة ضيقة وأسواق تشغلها دكاكين، إلخ. ولكنها اليوم مردومة، وبين البيوت الفقيرة أشجار التين والإجاص والرّمان والتوت، وهي أشجار من العهد القديم، ولم تجدّد زراعتها»[٦١].

وكتب «بوركهارت» عن مشاهداته سنة ١٨١٢:

«الكفر هي مدينة ذات شأن من النوع المعروف في المنطقة، مبنية بالحجارة، كثير من البيوت ما تزال على حالها تماماً. الأبواب من الحجارة، مبنية على نفس الطراز... وعلى جنبات الطرق ترى أرصفة صخرية للمارّة ترتفع عن الطريق ثلاثة أرباع القدم... محيط القرية يستغرق ثلاثة أرباع الساعة سيراً على الأقدام. ولأنها مبنية على انحدار يمكن الانتقال من الطريق إلى سطح المنزل أحياناً»[٦٢].

أما المنطقة الجنوبية للجبل «الجميلة مثل الجنة» فوجدوها خالية من السكان. ومركزها الهام في القرن الـ١٦، صلخد، وقراها المزدهرة حولها، «عرمان» و«عيون»، كانت مهجورة في سنة ١٨١٢:

«... حتى عيون الحقول مصانة بجدران من الحجارة ولربما كانت بساتين، ويوجد في عيون قرابة ٤٠٠ منزل دون أن يكون بها أحد. في الجهة الغربية من القرية نبع ماء مسور بالحجارة ومنه جاءت تسمية القرية... من عرمان سرنا ساعة وربع الساعة حتى صلخد وقلعتها. المنطقة مليئة بالجدران الخربة. المدينة... ليست مسكونة الآن. ولكن قبل ١٥ سنة سكنت هنا كما في عرمان بعض العائلات من الدروز والمسيحيين. وذهبوا بعدها إلى «خبب» حيث رأيتهم لاحقاً. وحتى اليوم هم يلقبونهم هناك بـ«الصلخدية». تحتوي المدينة على ٨٠٠ مسكن. وليس فيها معالم أخرى سوى مسجد ومئذنة جميلة. بني المسجد سنة

---

٦٠. حسبت عن «هوتروت / عبد الفتاح» Seetzen, p. 94 [المؤلفة].

٦١. Seetzen, S.76.

٦٢. Burckhardt, p. 167.

٦٢٠ هـ الموافق ١٢٢٤ م كما هو مسجل على جدرانه . . . ويظهر أنه قد بني على خرائب كنيسة أو معبد»[٦٣].

وفي «القريّة» وجد «بوركهرت» نحو ٥٠٠ منزل.

« . . . وأربعة منها مسكونة فقط . ويوجد فيها عدة أبراج وأبنية عامة قديمة . للأبرز منها ممر من ستة أعمدة على صفوف ثلاثة ما زالت واقفة . وعليها سطح منبسط . وله سبع درجات على عرض ممرّ الأعمدة تؤدي من الصف الأول إلى الثالث . ومن وراء صف الأعمدة حوض ماء محاط بجدار عريض . تقع جنوباً وشرقاً لـ«القرية» الخرب التالية : أعاين، بارد، نمري، بكّا، خوط، صحاب، رمّان، صميد، رفيقة»[٦٤].

هذا هو إذن الإرث الذي وجده الدروز لدى قدومهم إلى الجبل : طبيعته كملجأ وتركيب مكاني مع قرى محصّنة لا تزال في حالة جيدة وجباب وطرق . كل ذلك يشجع المهاجرين على تكوين مجتمع يتركز على تلك البنية الأساسية القروية . فليس صحيحاً أن الحياة الاجتماعية محددة بالمحيط تماماً، وإنما يشجع تركيب مكاني معين تركيباً اجتماعياً معيناً – لا أكثر ولا أقل . وسنعود إلى ذلك في فصل لاحق . أضف إلى ما تقدم : أن الدروز قد اتحدوا مع «جبلهم» الذي وفر لهم وقتئذ الحماية والاستقلالية . وما زال الدروز يقولون حتى اليوم : جبلنا، جبلنا[٦٥].

٣- الترحال :

إن أقدم مصدر عثماني لإسكان جبل الدروز هو «الدفتر المفصّل» (بسبع مجلدات) لسنة ١٥٩٦، الذي يبيّن سكان المنطقة جنوب دمشق، وقد قام بتحقيقه «هوتروت» Hütteroth و«كمال عبد الفتاح»، و يمثل أكبر تعداد للسكان في الولايات العربيّة التابعة للإمبراطورية العثمانية[٦٦]. وفي هذا المصدر العثماني المبكّر إحصاءات عديدة عن الإسكان والقدرة الاقتصادية في جبل الدروز . إذ أحصي في هذا الوقت ١٢٠٣٨ نسمة في ٧٢ قرية ومقدار الضريبة المقدّرة عليهم ٦٠٧١٣٢ «أقجه»[٦٧].

---

٦٣. Burckhardt, pp. 176-181.

٦٤. Burckhardt, pp. 185-186.

٦٥. حنا، العامية، ص١٠٨.

٦٦. Hütteroth / Abdulfattah, **Historical Geography**.

٦٧. حسبت عن «هوتروت / عبد الفتاح» – [المؤلفة].

ويتبع الجبل إدارياً إلى «قضاء حوران» في لواء «شام الشريف» وكان مقسماً إلى ثلاث نواح مسماة بأسماء عشائر البدو الذين كانوا يسيطرون على قرى الناحية التابعة لها. إذ ظنت السلطات أن ذلك أيسر في جمع الضرائب(٦٨):

– صلخد: مركز ناحية «بني مالك الصدير» في الجنوب الذي بلغ عدد سكانه ٣٨٣٥ نسمة في ١٩ قرية، يدفعون ضريبة مقدارها ١٨٨٤٨٠ «أقجه».

– السويداء: مركز ناحية «بني النشايا». وبلغ عدد سكانها ٦٤٣٦ نسمة في ٣٣ قرية، فرضت عليهم ضريبة مقدارها ٢٩٥١٨٠ «أقجه».

– شهبا: مركز ناحية «بني مقلد». وعدد سكانها ١٧٦٧ نسمة في ١٥ قرية (منطقة قليلة الكثافة سكانياً في الجبل)، وضريبتهم ١٨٨٤٨٠ «أقجه».

كانت صلخد أكبر قرية في الجبل سنة ١٥٩٦ وكان بها ٥٥ رب عائلة (خانة) و٢٥ عازباً (مجرّد)، مسلمون. و٥٠ رب عائلة (خانة) و٢٠ عازباً (مجرّد)، مسيحيون. ويعني هذا وفقاً لمنهج الحساب لـ«هوتروت» Hütteroth و«كمال عبد الفتاح» نحو ٧٥٠ نسمة بالمجموع(٦٩).

أما الضرائب هناك، كما في القرى الأخرى، فقد كانت تفرض بنسبة عالية على الإنتاج الزراعي تصل إلى ٤٠٪. موزّعة كما يلي: ٢٧٠٠٠ «أقجه» على القمح، ٣١٥٠ «أقجه» على الشعير، ٤٣٥٠ «أقجه» على المحاصيل الصيفية (بقوليات، بطيخ وخضار وغيرها)، ١٠٠٠ «أقجه» كمخالفات ورسوم زواج. ويعادل المجموع تقريباً ٣٦٥٠٠ «أقجه». ويعد ذلك أكبر مقدار من الضرائب في الجبل. وقد بلغ إنتاج صلخد في حينها: ٥١٩ غرارة حنطة و٦٠ غرارة شعيراً في العام. وبهذا يتضح أن صلخد كانت البلدة الرئيسية في الجبل(٧٠).

لم يرد في الدفتر ذكر مدن في حوران(٧١). وجاءت بصرى (ورد اسمها في الدفتر «نفس بصري») بعد صلخد وهي تحت نفوذ «بني نشايا» الذين امتد نفوذهم إلى ما بعد جبل الدروز. ويلاحظ أيضاً أن السويداء ما زالت تحمل نفس الاسم، وسنة ١٥٩٦ كان عدد ساكنيها ٥٠ ساكناً ودورها في الصف الثاني. ولعبت «القريّة» دوراً أهم في الناحية الوسطى مع ٥٠٥ نسمة، و٢٠٠ شوال حنطة و٥٢ شوالاً شعيراً في العام تقديراً. وأيضاً «شهبا»، البلدة الرئيسية في شمال الجبل فيما بعد، كانت قرية صغيرة مع ٥٥ ساكناً ولكن مع ٧٢ شوالاً حنطة ٣١-٣٢ شوالاً شعيراً في العام.

---

٦٨. Hütteroth / Abdulfattah, p. 19.

٦٩. Hütteroth / Abdulfattah, p.43. (عدد الخانة والمجرد ضرب ٥).

٧٠. الغرارة تعادل ١٣٠ أوقة. هوتروت/ عبد الفتاح، ص ٦٨.

٧١. Hütteroth / Abdulfattah, p. 51.

ولم يرد أي ذكر لزراعة العنب، والظاهر أن الدروز هم الذين أعادوا زراعته.

لم يكن الجبل مأهولاً إلا في الناحية الجنوبية (وهي تقابل الناحية الموجودة الآن في امتدادها الجنوبي والشرقي) وفي طرفه الغربي. أما شرق الجبل إجمالاً فكان في يد البدو الذين استخدموه كمرعىً صيفي. ويبيّن الـ«دفتر» الفرق الواضح بين وحدات الرحّل ووحدات القرى بالإشارتين: معمورة أو بادية. ويذكر الـ«دفتر» سنة ١٥٩٦ أن في «عتيل» «جماعة عربان الجبل» ويسكنون قسماً منها. وهذا يدل أن مجموعة من الرحل قد سكنوا في هذه القرية منذ وقت قصير فقط[٧٢]. ويذكر الدفتر تحت عنوان «ملاحظات خاصة» أن «قنوات» قد سكنتها مجموعة من الرحّل كما في قرية سلام («سليم»).

يلاحظ من المصادر أنه لم يكن هناك استقرار في القرى خلال القرنين التاليين (١٧ و١٨). إذ إن المصادر في بداية القرن ١٩ تذكر عن إخلاء قرىً وبلاد. أما أسباب هذا النزوح من القرى وإخلاء البلاد فما تزال قيد المناقشة. ومن أهم احتمالات هذه الأسباب تعود في الظن، إلى أنه:

- تتابع الجفاف والقحط لسنوات في المنطقة.
- مرور موجات متلاحقة من الجراد في البلاد.
- تعرّض السكان لأمراض ماحقة مثل الكوليرا والطاعون. (أورد «زتسن» سنة ١٨٠٥ أن وباء الجدري كان يمرّ بالبلاد كل ٥-١٠ سنوات. والطاعون كان يجتاح البلاد كل ١٥-٢٠ سنة قادماً من دمشق)[٧٣].
- ضعف السلطة العثمانية المركزية لدرجة أنها أصبحت عاجزة عن حفظ الأمن، الأمر الذي أدى إلى تغيير التوازن المحلي لصالح البدو.

لقد كان«فتسشتاين» سنة ١٨٥٨ شاهداً لموجة من الجراد، ويقول في ذلك:

«بينما كنت هناك كان الجراد قد أكل المزروعات في المثلث جنوب الجبل بين المدن «بصرى الشام» و«صلخد» و«أم الرمان». واكتظ في بصرى ونزل كالمطر، كسا الأرض، بحيث لم تعد رؤية الحجارة ممكنة في منطقة المنيطرة... ولم يكن موطن الجراد في الأراضي الزراعية بل كان عادة يأتي من بريّة البلقاء... وتمر موجاته كل ٣-٤ سنوات كما يحدث أحياناً أن يأتي في سنتين متلاحقتين. كما أن نقص الأمطار يشكل كارثة أخرى على الأرض. ويقال إن على الفلاح أن يتوقع ثلاثة مواسم جفاف كل ١٢ سنة تقريباً... والخطر

٧٢. Hütteroth / Abdulfattah, p. 28.

٧٣. Seetzen, p. 131; Panzac, **La Peste dans l'Empire Ottoman, 1700-1850**.

الثالث والأكثر سوءاً هو المضايقات المستمرة من البدو»(٧٤).

لقد كان ذكر منطقة حوران في التوراة والإنجيل سبباً لزيارة الرحالة الأوربيين إليها. وقد نقلوا في رحلاتهم الكثير من الكتابات والمنقوشات من العصور القديمة، بالإضافة إلى ما ورد عنهم خلال القرن التاسع عشر عن معالم المنطقة. وأحياناً قام الرحالة، وذلك في حالة معرفتهم باللغة العربية، بالاستفسار عن هذه الأماكن من السكان المحليين.

ولا شك في أن أكثر الرحالة الأوربيين تميّزاً هو «يوهان لدفغ بوركهارت» Johann Ludwig Burckhardt، (١٧٨٤-١٨١٧)، وهو سويسري درس العربية في «كامبريدج» وهيأ نفسه لرحلاته إلى الشرق بتمويل من «جمعية اكتشاف أواسط أفريقيا» The Association for Promoting the Discovery of the Interior Parts of Africa. واعتبر «بوركهارت» من أكثر الرحالة الجديرين بالثقة بين ممثلي « التفسير ما قبل الإثنوغرافي». وقد زار المنطقة مرتين سنة ١٨١٠ و١٨١٢ وأورد عن السكان فصلاً كاملاً ضمّنه معلومات واسعة عن وضعهم الاجتماعي (٧٥). وكذلك الرحّالة «أولرخ ياسبر زتسن» Ulrich Jasper Seetzen، زميل بوركهارت الأقل شهرةً من مدينة «يافر» Jever في شمال ألمانيا، الذي كان يتقن العربية. وقد زار حوران من ١ أيار حتى ١٣ حزيران ١٨٠٥(٧٦). وقد توافقت معلومات الرحالتين الاثنين مع ما أورده أيضاً الرحالة «ج. س. بكنغهام» J.S. Buckingham الذي زار حوران سنة ١٨١٦. واحتوت كتاباته عن حياة السكان الاجتماعية في منطقة جنوب سوريا قبل منتصف القرن التاسع عشر معلومات مفيدة جداً مع الحاجة إلى قراءتها بشيء من الحذر(٧٧).

لقد صدق على جبل حوران ما أورده الكثيرون خطأ عن جبل لبنان بأنه منطقة أصبحت بفضل حقول الحمم الصخرية الممتدة فيه ملاذاً للمحكومين والمطلوبين والفارّين من الضرائب من «أقليات بلاد الشام»(٧٨).

لم يكن الذين لجأوا إلى اللجاه دروزاً فقط. وخاصة أن «بوركهارت» قد صادف عرباً إلى جانب الدروز الذين كانوا قدموا من صلخد - كما مرّ آنفاً - ولا يستبعد أن يكون بعض من لجأ إلى اللجاه، قد جاء من جهات أخرى:

---

٧٤. Wetzstein, **Hauran**, p.43.

٧٥. عن أعمال بوركهارت ووفاته وثقافته العربية: Eickelman, **Middle East**, pp. 29-30

٧٦. عن حياة زتسن ووفاته في اليمن: Schäbler, Ulrich Jasper Seetzen.

٧٧. تقارير الرحالة كانت قديماً مصدر ثقافة، أما في النصف الثاني من القرن الـ١٩ فقد أصبحت «موضة».

٧٨. Havemann, Rurale Bewegungen; T. Scheffler, Die Drusen im Libanon: Probleme von Kohärenz und Hegemonie in einer Zwischenperipherie, Vortrag auf dem 37. Historikertag, Bamberg, 15.10.1988.

« . . . عربي مسكين مولود في مكان يبعد ثلاثة أيام من مكة المكرّمة هرب من الوهابيين الذين قتلوا أربعة من أشقائه. ففر من موطنه ولجأ إلى «داعل»، قرية في حوران، حيث أقام. وفي الصيف الفائت نهبت القرية على يد أعدائه أنفسهم ولم يبق له مما يملك شيء»[٧٩].

كذلك، قدم إلى الجبل مسيحيون نزحوا من الكرك ومن منطقة عجلون[٨٠].

و تكتسب النظرة دقة من أهمية السكن في القرى في التطور السياسي والاجتماعي للجبل. فقد تابع الرحالة كتاباتهم عن السكن والسكان؛ ويرد عنهم مثلاً أن «قنوات»، سنة ١٥٩٦ كان بها ١٢ عائلة مسلمة و٥ عائلات مسيحية، مما يعادل ٨٥ شخصاً، منهم مقيمون دائمون ومنهم بدو. ولكن عندما مر «زتسن» في المكان سنة ١٨٠٥ قال إنه لم يجد أحداً فيها. وعندما زارها «بوركهارت» في سنة ١٨١٢ وجد عائلتين درزيتين تقومان بزراعة الدخان. وفي سنة ١٨١٦ يذكر «بكنغهام» أنه علم بوجود ما بين ٥ إلى ٦ عائلات في الخرائب. وفي سنة ١٨٢١ ذكر «برغغرين» Berggren أن في قنوات ٣٠٠ نسمة أغلبهم من الدروز مع بعض العائلات المسيحية. وفي سنة ١٨٢٢ كان في قنوات ٦٠٠ نسمة وهم دروز فقط.

وقد أقيمت أقدم القرى التي أعيد إسكانها في طرف اللجاه (لحف) قرب «قلعة الله»، كما قالوا لهذه القلعة الطبيعية، ضماناً للأمن. أما اللجاه نفسها فكان يسكنها البدو[٨١].

وتقول الرواية الشفهية في الجبل نفسه إن أول المهاجرين الذين قدموا الجبل واستقروا فيه كان «الأمير المعني» (علم الدين) و«حمدان الحمدان» سنة ١٦٨٥هـ:

« . . . لقد أقاموا خيامهم على أرض هضبة «الدبّة» جنوب قرية بريكة، حيث كانت توجد بقايا قصر ارتفاعه ١٠ أمتار تقريباً ونبع ماء. وصدف أن مرّ جمع من البدو فدعاهم السكان إلى بيوتهم واستضافوهم وأكرموهم. وسرّ البدو بهذه المجموعة الغريبة كما سرّوا بلباسهم الغريب من الكشمير الأبيض والأصفر ثم ابتعدوا. وبعدها انتقلت المجموعة إلى «نجران». . . حيث كانت لهم صراعات كثيرة مع بدو «الفحيلي». . . وبعد مناوشات عديدة أثبتوا وجودهم في مواجهة البدو، السنيين (المسلمين) والمسيحيين القدامى»[٨٢].

ومن أقدم أسماء العائلات المهاجرة وجد «آل أبو فخر» الذين نزلوا في «ريمة اللحف»:

---

٧٩. Burckhardt, p.195.

٨٠. الرواية الشفاهية في «خرابة» و«جبيب»؛ Seetzen, p. 86, 94.

٨١. «الشلبي» (Çelebi)، رحالة عثماني جال المنطقة بين ١٦٨٠و١٦٧٠، بلاد خاوية ما عدا البدو. وصف البيوت والمطاحن القديمة.

٨٢. الصغير، **بنو معروف في التاريخ**، ص٤٠٤.

«. . . وفي سنة ١٦٩٢ انتصر الدروز على بدو «ولد علي» ووسّعوا منطقة استيطانهم حتى «دامة». . . وبمساعدة المهاجرين الجدد سكنوا أيضاً في قرى وادي اللوا، اللجاه، الهيت والهيات. ورحل بعدها آل الحمدان إلى السويداء»[٨٣].

وعندما جاء «زتسن» إلى الجبل سنة ١٨٠٥ وجد هذه الحدود السكانية، وفي طرف اللجاه الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي (لحف) إضافة إلى انحدار الجبل الغربي حتى «عرى» فقط.

أما المناطق المتاخمة للبادية فكانت مستخدمة من قبل البدو، مع كل مراحل الانتقال إلى الحضر، وهم العشائر التالية:

- بدو اللجاه: ويقول فيهم «بوركهارت» إنهم نصف فلاحين ونصف بدو ودعاهم: «السلمان، الصلوط، المدلج، الضوهرة، السيالة». أكبر القبائل كانت قبيلة المدلج بـ١٢٠ خيمة، تليها الصلوط بـ١٠٠ خيمة، والآخرون من ٥٠-٦٠ خيمة[٨٤].

«يقتنون أعداداً كبيرة من الماعز التي تقتات بسهولة ما ينبت بين الصخور. ويربي بعضهم الأغنام والأبقار، ويعمل الآخرون في زراعة القمح والشعير وكانت خيولهم قليلة العدد. المدلج مثلا كانوا يقتنون نحو ٢٠ فرساً ولكل من عشيرتي الصلوط والضوهرة حوالى ١٠-١٥ تقريباً»[٨٥].

وبدو اللجاه نادراً ما تركوا إقليمهم، أما بدو الجبل فيقول فيهم «بوركهارت» إنهم يسمّون «أهل الجبل»، وهم: «الشنابله، الحسن، الحضيّة، الغياث، الشرفات، المساعيد، الكراد (؟)، بني عضام، السمرات»[٨٦]. ومن القبائل المترحلة في داخل كل منطقة حورانَ: «السردية، اَلفحيلي، بنو صخر»[٨٧]. وأخيراً فإن قبائل البادية كانوا يؤمون حوران من شهر أيار حتى أيلول، مع مواشيهم؛ وأشهرهم: عشيرة «العَنزة»[٨٨].

أما القرى التي كانت في الشمال الغربي «لحف اللجاه» وهي: مَهجه وتبنه وخبب، فجلّ سكانها من المسيحيين وبينهم مسلمون. والقرى التي كانت وقتها في الجنوب الشرقي «لحف اللجاه» كان جلّ سكانها من الدروز والمسيحيين، وهي: السويداء (عاصمة الجبل

---

٨٣ . الصغير، بنو معروف في التاريخ، ص٤٠٥ .

٨٤ . Burckhardt, p. 198.

٨٥ . Burckhardt, p. 199.

٨٦ . Burckhardt, pp. 300-302; Guthe, **Dr. A. Stübel's Reise**, pp. 300-302; Oppenheim, **Die Beduinen**, pp. 343-345.

٨٧ . Guthe, **Dr. A. Stübel's Reise**, p. 301.

٨٨ . Burckhardt, pp. 476-481.

كان فيها ٢٠ عائلة درزية و٥-٦ عائلات مسيحية) وشهبا (مركز المقرن الشمالي في ما بعد، كان فيها ١٠ عائلات درزية و٤ عائلات مسيحية و٥ عائلات مسلمة)؛ وعرى (القرية الواقعة في أقصى الجنوب وفيها ٦ عائلات مسيحية)[٨٩]. لقد قدّر «زتسن» سنة ١٨٠٥ عدد سكان الجبل بـ٤٢٠٠ نسمة تقريباً في ٢١ قرية، بمعدّل ٢٠٠ نسمة في كل قرية[٩٠].

وقد تحدث «بوركهارت» سنة ١٨١٠ و١٨١٢، عن قريتي عفينة (٢٥ عائلة درزية) وهبران (وفيها أقل عدد من العائلات) الواقعتين في أقصى الجنوب. أما في الشمال على حدود البادية فقد وصل السكن الى قرية «الجنينة» وأحصي أنه من ١٤ قرية كان هناك ٧ قرى مختلطة «دروز ومسيحيون» ووجد في شهبا وازرع دروزاً ومسيحيين ومسلمين. وفي شعاره في «اللحف» الشمالي المسيحي استقرت وقتذاك مجموعة مكونة من ١٠٠ درزي ومسيحي.

وفي سنة ١٨١٦ وجد «بكنغهام» في بصرى مسلمين فقط فيما كان بها سنة ١٨١٠ دروز ومسلمون. كما وجد في نجران المسيحيين أكثر من الدروز وفي «شهبا» قل عدد المسيحيين والمسلمين وكثر عدد الدروز. وفي السويداء ١٧٠ عائلة درزية مع ٣٠ عائلة مسيحية (هنا يلاحظ أن النسبة بقيت متشابهة). أما في الجنوب، فقد تبين له أن حدود السكن الجنوبية قد تقدمت نحو الجنوب. فوجد في القريّة ١٠٠ عائلة درزية و٣٠ عائلة مسلمة و٢٠ عائلة مسيحية. وفي صلخد وصل حديثاً ٣٠ عائلة مسلمة و٢٠ عائلة مسيحية.

«لقد لجؤوا إليها حديثاً من «دبرين» بالقرب من «جرش» وهم يرون أنهم ليسوا، هنا، أكثر حماية من غزوات البدو من هناك»[٩١].

وفي سنة ١٨٣٨ قدر القنصل الفرنسي «بودان» Beaudin أنه:

«... يوجد جنوب دمشق أرض غنية جداً كانت قديماً كثيفة السكان. أما الآن فلا تتوافر فيها اليد العاملة اللازمة لاستغلالها. هذه المقاطعة تدعى «حوران» ويتألف السكان فيها من ٨/٣ من الدروز ويقدرون بين ٥-٦ آلاف نسمة وكذلك من ٨/٤ من الترك و٨/١ من المسيحيين»[٩٢].

وفي سنة ١٨٤٢ قدم «بودان» إحصاء دينياً لبشالك دمشق. ذكر فيه أن جبل حوران يحتوي على ٣١ قرية مسكونة مجمل سكانها ٥٠٠٠ نسمة، ٧٠٠ مسيحي، ٧٠٠ شيعي و٣٦٠٠ درزي[٩٣].

٨٩. أطلق الدروز على منطقتهم اسم الجهات: المقرن القبلي، المقرن الشمالي، المقرن الغربي، المقرن الشرقي.

٩٠. (ووجد في «سهوة البلاطة» ٢٠ بيتاً مسيحياً و٤٠ بيتاً درزياً). Seetzen, p. 104.

٩١. Buckingham, p.179.

٩٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Beaudin à Roussin, 17 Jan. 1838.

٩٣. Porter, **Five years**, p.181, 159.

وحتى سنة ١٨٥٢ كانت «القريّة» آخر القرى المسكونة في أقصى الجنوب وقد فشلت محاولة استيطان «صلخد» وتركها السكان من جديد[٩٤]. وبعد عدة سنوات لاحقة فشلت المحاولات الاستيطانية من جديد. فقد كتب «فتسشتاين» سنة ١٨٥٨ أن « . . . منذ ٤ شهور قامت جماعة صغيرة من المسيحيين والمسلمين بزراعة قسم من حقول المدينة بالقمح والشعير ولكن موجة الجراد أتلفت كل المزروعات. فبدأوا بترك القرية من جديد»[٩٥].

ولهذا، فقد انتزع الدروز من البدو ٧ قرى في الشمال الشرقي للجبل من جديد في الفترة بين ١٨٥٨-١٨٥٦. انتزعها شيخ «شقّا» «عباس القلعاني». ويوضح «فتسشتاين»:

« . . . على الإنسان أن يفهم ذلك جيداً. فقد احتفظ «القلعاني لنفسه بقريتين. ووضع في «بوسان» ذات الـ ٨٠٠ مسكن ١٢ عائلة وفي «المشنّف» نحو ١٨ عائلة وكذلك في كل من «تيما» و«داما» ١٦ عائلة تقريباً»[٩٦].

إن تنازع السكان على القرى في ذلك الوقت، يعني مسألتين هامتين تشخصان الموضوع في فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر كما يلي:

- إن الإسكان داخل الجبل لم يكن مستقراً، وكان سكان الجبل خليطاً من جماعات متنوعة.
- إن سكان مناطق الحدود كانوا يرتحلون جهاراً ويحاولون التوسُّع.

٤ - المسألة الإثنية في التعايش وفي أقسام العمل

«يقطن حوران أتراك ودروز وعرب ومسيحيون، وتزورها في الربيع والصيف بعض عشائر الصحراء»[٩٧].

هكذا يبدأ «بوركهارت» ملاحظته حول سكان حوران، ويعتبر المعتقد الديني أحد الملامح الرئيسية للتمييز بين الجماعات. أما «الأتراك»، فيقصد بهم «بوركهارت» الرعايا السنّيين التابعين للإمبراطورية العثمانية كما كان سائداً في أوربا، وهم فئة الأكثريّة المسيطرة. والعرب ويعني بهم البدو الرحّل، وهم من أهل السنّة ولهم أسلوب معيشتهم المختلف عن الفلاحين المقيمين. ويتكلم «بوركهارت» بتعابيره عن الـ«أمتين»: الفلاّحين والبدو. كما أن أوربيين آخرين، يعتبرون

٩٤. Ghazzal, **L'économie**, p. 39; Seetzen, p. 61

٩٥. Wetzstein, **Hauran**, p.66.

٩٦. Wetzstein, **Hauran**, p. 43.

٩٧. Burckhardt, p. 455.

في اصطلاحاتهم المذاهب أمماً[٩٨].

أما المسيحيون فهم الأقلية (الـ«ملّة» في الاصطلاح العثماني) الـ«كلاسيكية» من فئات الأديان. وأما الدروز فهم أقلية إسلامية بدون وضع خاص.

تتميز هذه الفئات بمظاهرها مثل اللباس وما شابه. وهكذا نستطيع الآن أن نتحدث في النهاية عن الجماعات وتعريفها في الاتجاه الذي رسم في البداية. إن عبارة «جماعة نحننية» تعني مجموعة من الناس، لهم وحدة شعور بأنهم ينتمون لبعضهم البعض، ويعتبرهم الآخرون كذلك. وفي ما يلي الفروق التي تميّز الجماعات، ببحث مستفيض عن اللباس[٩٩]. ونريد أن نطلع على هذه الملامح الرمزية المستخدمة لدى الجماعات للتحديد بينهم.

أما الملامح الخارجية الواضحة فإن المسلمين و المسيحيين كانوا يتبنون ملابس البدو قبل الدروز.

– البدو: يرتدي الرجال «القمباز» وهو رداء طويل من قماش قطني بسيط ويطرحون «عباءة» على أكتافهم. وعلى الرأس «كوفية» فوقها «عقال»، منسوج من وبر البعير مثبت على الرأس. الصدر والقدم مكشوفان كما كتب «بوركهارت». وأيام البرد يرتدي الرجال والنساء الفروة[١٠٠]. أما النساء فيرتدين «القميص»، قماش أزرق طويل فضفاض، وعلى الرأس شال أسود مع لثام[١٠١].

– المسيحيون: مثل لباس البدو (ولكن الصدر مستور).

– الدروز: يشبه لباسهم لباس غرب دمشق. على رؤوسهم «اللفة» والفتيان يلبسون الكوفية. سروالهم فضفاض. والمتدينون يرتدون القمباز فوق السروال. ولا يسير الدروز حفاة. أما النساء فألبستهن فضفاضة وفي ذلك دلالة على إمكانيات العائلة المادية. نساء الأغنياء يلبسن أسطوانة فضيّة على الرأس. فوقها غطاء أبيض طويل مطروح حتى يغطي الجبين من الأمام ويثبت بعصابة على الرأس. للباسهنّ مظهر رجولي. يكفكف الغطاء على الكتفين ويشكل لثاماً ولا يغطي العينين[١٠٢]. ويمكن أن تكون الأسطوانة فضةً أو نحاساً أو قصديراً أو قماشاً مقوى لدى الأقل يسراً[١٠٣]. في النصف الثاني من القرن ١٩، تطور لباس الدروز عما كان عليه سابقاً. فاقترب لباس رأس السيدة من الأزياء الحديثة. كما تطور لباس

---

٩٨. مثلاً **Henry Guys, La Nation Druse**.

٩٩. هناك خلاف في نمط الدروز عن المسيحيين والأتراك، أنظر: Burckhardt, p. 456, 472.

١٠٠. Burckhardt, p. 456.

١٠١. Seetzen, p. 121.

١٠٢. (في غطاء الرأس عند النساء الدروز) Seetzen, p. 95; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 142.

١٠٣. Niebuhr, **Reisen**, vol. 1, p. 163.

الرجال نحو لباس البدو. ويشير «بورتر» إلى لباس رأس الرجل غير المتدين سنة ١٨٥٢ أنه قد تبدّل: وأضحى العقال فوق الكوفيّة بدلاً من العصابة. وبقيت «اللفة» (وهي الطربوش الملفوف بالعصابة البيضاء) بالنسبة للمتدينين[١٠٤].

لقد لاحظ «بوركهارت» عامي ١٨١٠ و١٨١٢ أن المسلمين والمسيحيين يتخذون اللهجة البدويّة في كلامهم، في نطق القاف والكاف وغيرها. وما زالت لهجاتهم كذلك حتى اليوم. يقول:

«حتى يومنا هذا احتفظت الجماعات بحدود «إثنيات التميز» في ما بينها. فالمسافات بين القرى، مثلاً، في جبل الدروز كما في حوران، لا تتجاوز ٥ كم تقريباً. ولقد حافظ الدروز على لهجتهم ومظهرهم في لباسهم كما حافظ المسيحيون والمسلمون على مظهر لباسهم ولهجتهم. حتى أقلية القرية المختلفة لم تتأثر بأكثريتها، سواء أكانت درزية أم مسيحية أم سنيّة، بمظاهر بعضها إلاّ نادراً»[١٠٥].

ويكتب «زتسن» أيضاً أن سكان شرق حوران قد أخذوا مظاهر احتفالات البدو في احتفالاتهم وعاداتهم مثل تعابير المجاملة، وتقديم القهوة، وتحميصها بالمحماص الحديدي ودقها بالأجران الخشبيّة الصلبة، ثم غليها بأباريق نحاسيّة خاصّة. وتصفيتها من بعد، بتركها هادئة لفترة. وبعدها تدار في إبريق صغير وتصب للضيوف والحاضرين بكميات قليلة في فنجان صغير[١٠٦].

يستقبل الضيوف في المضافة (وما زالت العادة قائمة في البيوت القديمة حتى اليوم)، توقد النار لتحضير القهوة. ويرقد العازبون من رجال الأسرة غالباً في المضافة[١٠٧]. لقد أثر نمط العيش لدى البدو والفلاحين في بنية أجسامهم، بحيث يستطيع المرء أن يميّز الراشدين من كلا «الشعبين»:

«البدو قصار القامة بصورة عامّة. وجوههم ضيّقة. لحاهم خفيفة الشعر ونظراتهم حادّة. الفلاحون أجسامهم أضخم وأخشن. لحاهم كثيفة. ونظراتهم أقل حدّة... أما الأحداث فيتشابهون ولا يختلفون في هذه الملامح بشيء قبل سنٍّ السادسة عشرة من عمرهم»[١٠٨].

كانت هذه نظرة الأوربيين إلى سكان شرق حوران. وينهي «زتسن» قوله بالملاحظة التالية

١٠٤. Porter, **Five Years**, pp. 86-87; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 142.

١٠٥. المصدر السابق.

١٠٦. Seetzen, p. 113, 62.

١٠٧. Burckhardt, p. 458.

١٠٨. Burckhardt, p. 456.

سنة ١٨٠٥:

«هم أذكياء وأصحاب نكتة وليسوا شرّيرين بصورة عامّة مثل فلاّحي بافاريا، ولكنهم يشبهونهم بالملامح»[١٠٩]. فلم يكن فلاحو حوران غرباء عن البافاريين بالنسبة لهذا الرحالة القادم من شمال ألمانيا.

إن السؤال المهم بعد أن تعايشت جميع الفئات هو النّزاع والقتال على الأرض والماء، بين جماعة البدو الرّحل وبين القادمين الجدد.

من المعروف أن كتابة التاريخ الغربي تعتني في هذا السياق خاصة بالأقليتين المسيحية واليهودية في الإمبراطورية العثمانية. ومما لا شك فيه أنّ المصادر، من القناصل أو من أكثرية الرحالة، تشجع مثل هذه الرؤية لأن مؤلفيها كانوا يدقّقون «بعين مسيحيّة» ويتلاقون في جميع تقاريرهم القديمة، عند حقيقة واحدة هي أنّه لم يكن هناك أي تنازع دينيّ بين الجماعات الدينيّة على الإطلاق، مع أنّ «زتسن» الذي توقّف بين المسيحيين في كل مواقع سهل حوران كتب في تقارير عدة أن المسيحيين في السهل لم يكونوا مطمئنين للحالة الراهنة، حيث يمكن أن يغضب عليهم الآغا لو ساعدوه بنسخ كتابات قديمة إذ يمكن أن يظن أنهم يريدون إسقاطه بتجسّسهم لحساب الإفرنج[١١٠].

كما أضاف:

«يحس المسيحيون بالضيق تحت ضغط العثمانيين ولا يستطيعون أن يتصوّروا لماذا لا تأتي فرنسا وتخلّص لهم أراضيهم من الأتراك... وأينما يتجوّل المرء في سهل حوران الجميل، فمن الضرورة أن يشعر بالكره تجاه حكومة امتصّت السكان لدرجة أنها لم تترك لهم سوى النزر الضروري القليل مما يحتاجونه لعيشهم»[١١١].

إن هذه الصراعات كانت ذات طبيعة سياسية. فالمسيحيون في حوران لا يعتبرون «الضغط العثماني» ضغطاً دينياً وإنما هو عبء الضرائب الثقيل الذي تعاني منه المذاهب على اختلافها. كما لاحظ «زتسن» «أن المسيحيين يضعون على رؤوسهم عصابة بيضاء تحدياً، ما لم يسمح لهم به في المدن»[١١٢]. ويلاحظ أيضاً أنه في قرية «مُردك» في الجبل «يوجد ضريح الولي المهدي... يذهب لزيارته السكان كافة: المسلمون والمسيحيون والدروز»[١١٣].

١٠٩. Seetzen, p. 48, 50.

١١٠. Seetzen, p. 56.

١١١. Seetzen, p. 52.

١١٢. Seetzen, p. 48.

١١٣. Seetzen, S.103.

ويكتب «بوركهارت» الذي تردّد على الجبل خلال خمس أو سبع سنوات عن حالة تسامح ديني في المنطقة :

« . . . وضع هذا يشبه وضع ذاك . ولا تختلف معاملاتهم على اختلاف أديانهم . فإذا ما حصل نزاع ، لا يتردد المسيحي عن ضرب التركي المسلم ولعن دينه ، هذا الأمر الذي من الممكن أن يودي بحياته أو يعرضه لغرامة مالية صارمة في أي جزء آخر من سوريا . المسألة هي المعاناة في دفع الضرائب أو في شروط العيش . تتردى الأمور إذا ما كان الموضوع حماية أرزاق أو أملاك . وهنا لا بد من الكفاح كما تعوَّد المسيحيون . وكثيراً ما استعانوا بالدروز ، لأن الجهتين تتبادلان احترام معتقداتهما . ٤\٥ المسيحيين هم من اليونانيين . والنزاعات الدينية الوحيدة التي لاحظتها أثناء رحلاتي جرت بينهم وبين الكاثوليك»[١١٤] .

ويتحدث «زتسن» من جانبه عن النزاعات الدينية المسيحية بين فئتي الكاثوليك والأرثوذكس اليونان[١١٥] . فإن أحد الكهنة المسيحيين الذي نزل عنده «زتسن» ومتحدثون آخرون أجمعوا ، قبل كل شيء أن «الدروز يريدون المسيحيين أكثر من المسلمين»[١١٦] . وليس في هذا من عجب ، لأن الدروز يتعايشون والمسيحيين منذ القديم ، في جبال لبنان وفي جبال فلسطين وفي جبل الشيخ . و«بكنغهام» كذلك يأتي على ذكر نفس الموضوع ويؤكِّد أن المسيحيين والدروز يعيشون جنباً الى جنب دون أية كراهيّة بينما هم حذرون من الأتراك ، ويأملون في فتح البلد على يد الإفرنج[١١٧] .

وكما ذكر آنفاً ، كان في بداية القرن التاسع عشر تقريباً نفس العدد من القرى المختلطة دينياً والقرى ذات الطائفة الدينية الواحدة فقط ، بينما كانت هناك قريتان تضمان كافة الفئات المسلمة والدرزيّة والمسيحيّة . ويذكر «بكنغهام» عن موضوع التعايش :

«في القرية التي تتواجد فيها الملّتان ، يكون توازن في المصالح ويعيشون بانسجام . ولكن ، إذا ما تفوّق عدد المسلمين ، يتساند الدروز والمسيحيون كما لو كانوا لوحدهم . الدروز هم الأكثر مرونة ورحمة والمسلمون هم الملّة الأكثر تزمتاً في الدين من بين الملل الثلاث»[١١٨] .

ومع هذا لم تتأثر هذه الحدود الإثنية بالأحداث السياسية . فقد بقي المسيحيون والدروز

---

١١٤ . Burckhardt, pp. 456-457 .

١١٥ . Seetzen, p. 57 .

١١٦ . Seetzen, p. 75, 96 .

١١٧ . Buckingham, p. 207 .

١١٨ . Buckingham, p. 217 .

على الحياد تجاه أحداث الدروز والموارنة في لبنان، ويكتب «تشرتشل» Churchill في تقرير عن حملة حورانية درزية مسيحيّة سيرت ضد الموارنة:

«كانوا كالدروز تحت ظل سيطرة إقطاعية الشيوخ. يعيشون معاً بشكل طبيعي، على أساس الصداقة والانسجام التام. وخلال الحرب الأهلية الأخيرة بين الدروز والموارنة في لبنان سنة ١٨٤٥ انضموا بحرارة مع فئة الدروز»[١١٩].

إن تعايش الجماعات الإثنية يفهم في الإطار الكبير للشروط الاجتماعية. لقد تميّز النصف الأول من القرن التاسع عشر بعملية امتلاك الأراضي وبوجاهة صمود الوافدين الجدد تجاه البدو. حيث إن المقيمين الأصليين من المسيحيين، ينحدرون على الغالب من أصل غسّاني. إذ إن عباراتهم الدينية واردة بلغة عربيّة وآرامية، وثقافتهم باللغة العربيّة وباليونانية. لقد كان لهم دولة في حوران في القرن السادس. وشكلت مع الإمبراطورية البيزنطية سداً قوياً في وجه البدو[١٢٠]. لقد قوي هؤلاء السكان الأصليون بالقادمين الجدد، ومع أنه كان متوقعاً أن القادمين سيكونون الأسياد في المنطقة – كما ورد آنفاً – إلاّ أن امتلاك الأرض والقرى لم يكن مستقراً. وكان التورط في الأحداث العائلية والقحط وغيرها من الأحداث في تاريخ الجبل، سبباً في الترحال، كما في المثال التالي:

«عندما ترك «الحمدان» نجران متجهاً (إلى العاصمة السويداء لفرض زعامته – ملاحظة المؤلفة)، اقتحم حسين أبو عساف شيخ شقا، القصر وأعلن نفسه زعيماً مكانهم. واستعان في ذلك بجماعة من «نجران». فوقف قاسم ونصر الدين أبو فخر في وجه «أبو عسّاف» بمعارضة عنيفة. كما أن شجعان القلعاني من جهته مع إخوته السبعة ومع معاونيه، أعلن نفسه زعيم «شهبا»، حيث كان في مواجهة مع بدو «الفحيلي»، الذين كانوا يكافحون لإبعاد هؤلاء الدخلاء. ولكن «شجعان» هذا قهرهم. ويحكى أن أخاه حسين كان يحرس القرية ليلاً وتسبّب في دحر حملة من قرابة مئة رجل. فقامت بدويّة بتسميم لحم خاروف، وأطعمت «شجعان» منه بعد أن كان يطارد غزواً بدوياً حاول نهب قطعان للدروز. وضعف القلعاني بعد موت شجعان. وعندها تقدم «فارس عامر» مع مؤيّديه من «أم الزيتون» إلى «شهبا» ونزح «القلعاني» إلى «نمرة». وبقوا في نمرة يدفعون فدية للبدو، إلى أن تمركز نجم الأطرش في «عُرمان»، بعد سقوط الحمدان، ورفعها عنهم»[١٢١].

يتبين من مثل هذه القصص أن الأحوال الاجتماعية لم تكن خالية من النزاعات. وقد

١١٩. Churchill, **Druzes**, p. 168.

١٢٠. Hourani, **Syria and Lebanon**, p. 17.

١٢١. تختلف حجة العائلتين في الخلاف؛ أنظر الصغير، بنو معروف، ص٤٠٩؛ أحاديث مع أعضاء بيت أبو فخر.

يتوقف استمرار العائلات قبل كل شيء على عدد أعضائها وقدراتها القتالية. في حالات القتال، عندما يكون عدد المقاتلين غير كاف، كانوا ينسحبون إلى المكان الأعلى، وقد يكون المكان الجديد أقل من سابقه خصوبة. أمّا إذا فضّلوا البقاء في موقعهم، بقتال أو بدونه، فكان الأمر يتعلّق بقرار شيوخهم، وتعامل الشيخ الجديد من بعد، هذا على اختلاف أديانهم طبعاً. وكثيراً ما كان المسيحيون يفضّلون الدروز ويفضّلون البقاء معهم. وكان الدروز من جانبهم يعتبرون المسيحيين تحت حمايتهم. ولم يكن بينهم ميثاق حماية بالمعنى المدوّن، ولكن المسيحيين كانوا يقرّون بذلك دوماً. ومع ذلك فقد كان بين المسيحيين عشائر لم تقبل بالحماية، وانسحبت إلى غرب الجبل. وخير مثال على هذا «آل الدحدل». ويعتبر آل الدحدل «من أقدم المسيحيين وأعرقهم الذين قدموا إلى الجبل»[١٢٢]. لقد سكنوا السويداء بعد أن قدم إليها «الحمدان» واتّخذوها عاصمة. حيث تنقلوا بعدها في قرى عدة («معربة»، «الطيبة» و«غصم»)[١٢٣]، الى أن استقروا في «تسيّا» أواسط القرن الـ١٩ على حدود الجبل الجنوبية الغربية، وقد دافعوا عن مقرهم الجديد بكل استبسال ضد أهل القريّة وغيرهم من الدروز. حيث كان هؤلاء يحاولون ضمّه إلى نفوذ «الأطرش». وما زال المسيحيون يتناقلون الحديث عن زعيم العشيرة «عازر بن فرح الدحدل» بكل فخر، وعن شجاعته في الدفاع عن أرضه.

«... كان الناس في «تسيّا» أشدّاء وكلهم أقرباء. ويقال إن «ذوقان الأطرش» ذهب إلى تسيّا بعدد قليل من الخيالة بهدف امتلاك ربعها. فأنذرهم أصدقاؤهم من الدروز. فجمع الدحدل أكواماً كبيرة من الحجارة في ساحة القرية وتمترسوا خلفها. وتقابل ذوقان وعازر، وقال ذوقان: «أين يقف حصاني فهو ملكي». فأجابه عازر: «نزحنا من السويداء إلى أطراف الصحراء وهذه أرضنا. أنت ضيفي وأدعوك للطعام.» وعندما لاحظ ذوقان هذا الاستعداد لديهم حيّاهم وانصرف. وبذلك حمى الدحدل أرضه»[١٢٤].

ومما تقدّم نرى أنه كان بإمكان المسيحيين أن يدافعوا عن أراضيهم ويحتفظوا بها. فيحكى في قرية ذبين أن: «عازر الدحدل رجل شجاع، صاحب مضافة، قد ترك أمامها ساحة تتّسع لخمسين فارساً تقريباً».

وهكذا كانت القاعدة مألوفة أن يجعل شيخ بسيط نفسه زعيماً ذا أهمية وحماية للآخرين. فكانت قرية «الهيت» مثلاً خلال العامين ١٨١٠ و١٨١٢ قرية مسيحية (يسكنها كاثوليك

١٢٢. مقابلة مع فؤاد شلش (ولد ١٩٤٠)، جبيب، في ٢٩/٩/١٩٩٣.
١٢٣. الصغير، بنو معروف في التاريخ، ص٤٠٥.
١٢٤. فؤاد شلش (ولد ١٩٤٠) مقابلة ٢٩/٩/١٩٩٣؛ «طيسيا» في قطاع أطرش القريّة، نهبت نحو ١٩٠٧.

وأرثوذكس) اعترفت بسيادة آل عامر.

لقد تشكّل نوع خاص من تعاون درزي مسيحي عبر النزاعات وحروب الجبل الكثيرة – وقد ذكر ذلك «بورتر» Porter ولكن بدون أي وعي – وذلك وقت حروب الدروز ضد العثمانيين حيث كان الدروز يودعون أشياءهم الثمينة عند المسيحيين، دون بيّنة أو ضمان، وكان المسيحيون ينقلونها معهم إلى دمشق طلباً للأمان[١٢٥]. وعندما يكون غير مسموح للدروز أن يرافقوا قمحهم إلى دمشق، كانوا يأتمنون المسيحيين عليه ويقومون مقامهم. وقد صادف «بورتر» قافلة تضمّ أكثر من مئة جمل، محمّلة قمحاً من شقا والهيت والهيات إلى دمشق مع أنه ليس في شقا والهيات مسيحيون. كان مرافقو القافلة من المسيحيين فقط، وعددهم قرابة ٣٠ رجلاً[١٢٦]. وحتى خلال «الثورة السوريّة الكبرى» (١٩٢٥) أودع الوجهاء الكبار من الدروز أثاثهم، والبورسلان وغير ذلك من الأشياء الثمينة عند المسيحيين لحمايتها. وكذلك في الغزوات، كان المسيحيون يشاركون في الغزو أو بوضع الخيول بتصرّف المقاتلين الدروز. لقد كان من بين الأسماء المسيحية المشهورة في الجبل، اسم «عقلة القطامي» في النصف الأول من القرن العشرين[١٢٧]. وكان المسيحيون المحميون، مثل بسطاء الدروز، حتى منتصف القرن العشرين يخدمون الـ«سخرة» (خدمة مجانية) للشيوخ الكبار[١٢٨].

وهكذا كان مع الزمن، اجتماع وتلاق بالسكن المشترك المسيحي الدرزي في قرى عدة. وقد بدّل المسيحيون ثيابهم ولهجاتهمً في أكثر المواقع بحيث أصبحوا في أواخر القرن العشرين، لا يُعرفون إلا من طقوسهم وتقاليدهم الدينية[١٢٩]. ولم يكن في الجبل تعصب واضطهاد ديني في تلك الفترة. ومن الجدير بالذكر، خاصة بالمقارنة مع الأوضاع في جبل لبنان، بغض النظر عن بغض الاستثناءات، أن محاولات «تصدير» الخلافات الدينية من هناك لم تنجح.

٥- مسألة الأرض

كيف جرى امتلاك الأفراد للأرض بالتفصيل؟ هذه مسألة هامة جداً لفهم الهيكليات

١٢٥. Porter, **Five Years**, p. 42.

١٢٦. Porter, **Five Years**, p. 26.

١٢٧. Carbillet, **Djebel Druse**, p. 84, 106.

١٢٨. عن مقابلات المؤلفة في قرى مسيحية مختلفة.

١٢٩. يذكر الجبرتي (١٨١٢) درزياً اسمه الياس. **الجبرتي** ٤، ج، ص١٥٤.

الزراعية والاجتماعية وخصوصيتها في الجبل، وتستحق لذلك نظرة خاصة. ونحتاج أولاً إلى توضيح مسألة الأرض في الدولة العثمانية بصورة عامة[١٣٠]. يعتبر النمط التقليدي لنظام الأرض في العهد العثماني نظاماً سياسياً مركزياً للغاية وينظر إلى السلطان كقمّة ورمز أعلى للنظام وهو صاحب كل الأراضي الزراعية التي تسمى الأراضي الأميرية (أو «ميري» في الاصطلاح العثماني). أما الملك الخاص فكان مقتصراً على منازل أو حدائق مرويّة في محيط المدن («مُلك»). وإلى جانب الميري والمُلك، هناك أراضي «الوقف» والأرض «الموات». والجدير بالذكر أن كل هذه كانت تعابير قانونية ولها قيمة نسبية فقط في شرح استخدام الأراضي الفعلي. وهكذا وبشكل نظري تعتبر جميع الأراضي المفلوحة ملكاً للسلطان والفلاحون يملكون حق التصرّف فقط.

وهذا سؤال أكاديمي فقط[١٣١]. وأهم منه في هذا السياق الأسئلة التالية:

أ- من كان يراقب الأرض واستصلاحها إدارياً؟

ب- من الذي يملك حق الاستثمار ومن هو الوارث لهذا الحق؟

نظراً لقلة كثافة السكان مقابل وفرة التربة الزراعية كان من صالح الدولة أن تؤمن استثمار الأرض. ولهذا ففي تنظيم الأرض التقليدي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت أرض الفلاح مصانة له، ما دام يستعملها لمدة ثلاثة مواسم متواصلة[١٣٢]. كما كان من حقّه أيضاً أن يبيع حقه للتصرّف بها[١٣٣]. وفي ما يلي بعض الخصائص والاصطلاحات عن الأرض وأنواعها:

المشاع

إن الأراضي الزراعية في الجبل كجزء من «شريط القمح» حول دمشق تعتمد على مياه المطر. و كانت تعتبر من الأراضي الميرية الموجودة في يد الفلاحين. ولا بد من التفريق بين أنواع أخرى من الأرض، أي الأرض التي يمتلك الأفراد حق التصرّف بها، «الميري»، والأرض التي هي للمجموع، «المشاع». ومنذ قدوم الانتداب الفرنسي والبريطاني واكتشاف هذا النوع من الملكية، والحديث لا ينقطع في تنظيمها. كما لا تتوفر نظرية أو معلومات تبيّن كيف نشأت أراضي المشاع هذه[١٣٤]. يعبّر «أوون» Owen عن ذلك بقوله:

---

١٣٠. راجع الفصل الأول.

١٣١. Johansen, **The Islamic Law on Land Tax and Rent**.

١٣٢. Gerber, **Social Origins**, p. 22.

١٣٣. المصدر السابق.

١٣٤. حول المشاع راجع Shaelber, Practicing Mucha.

« ... من المؤسف ... أن هذا الجدل يبقى افتراضاً مقيداً، طالما بقيت بيّنات إثباته غير متوافرة»[١٣٥].

بالنسبة للحالة في الجبل، نضيف، بدورنا، ملاحظات الذين يؤكدون معايشاتهم لهذه المسألة. فقد خلق موضوع المشاع في البداية مشكلة شقاق كبيرة، ثم وضع له حلّ في النهاية. ولقد عَرّفت بعض المصادر المشاع بما يلي:

« ... إن مصطلح «مشاع» باللغة العربية، وأقرب ما يقابله في الإنكليزية communal، هو متداول في سوريا عموماً، مع أنه غير معرّف ومحدّد بالقانون. إنه يشير لنوع من ملكية الأرض، يتم بموجبه، بشكل أو بآخر، وضع أرض واسعة - كتلة واحدة - تحت تصرّف مجموعة من الأفراد، قد تكون القرية بكاملها. وتقسّم هذه الكتلة إلى حصص، بطريقة رسمتها العادات والتقاليد على مرّ السنين»[١٣٦].

ومن الجدير بالذكر أن هذا المصطلح غير معروف في أكثر نواحي سوريا اليوم. أما في جبل الدروز، فيسود الاصطلاح «إعادة توزيع الأرض».

تأخذ حقول «المشاع» أشكالها غالباً على النحو التالي:

« ... تكون الأرض الزراعية مقسمة بأقسام كبيرة بنفس الجودة نظراً إلى صلاحيتها وخصوبتها . . . ثم توزع حسب الأسهم على شكل شرائح مستطيلة»[١٣٧].

قد يصل طول الشريحة عدة كيلومترات. وغالباً ما تكون قليلة العرض، وكثيراً ما لا تتجاوز بضعة أمتار فقط. وقد تدوم الفترة بين التقسيم وإعادة التقسيم من عام واحد إلى تسعة أعوام. وهناك أسلوبان للتوزيع. في البداية: كان التقسيم يشمل السكان المتواجدين في القرية عند إجراء التقسيم. ويجري التقسيم على الأسهم. كان معيار الأسهم هو عدد الرجال الذين يستطيعون العمل في الأرض. أو يتمّ حسب عدد «الأفدنة» أيّ عدد أزواج البقر التي يستطيع الفلاح أن يسيّرها في فلاحة الأرض. أما في الأسلوب الثاني: فقد كان يتمّ توزيع الأسهم مرّة واحدة حسب الأسلوب الأول. وإذا ما أعيد التقسيم، لا يؤخذ في الاعتبار الذين وفدوا إلى القرية مجدّداً، بعد أن جرى توزيع الأسهم سابقاً. فلا ينالون أرضاً أو أسهماً.

هل تطور أسلوب التقسيم الثاني من الأول أم لا؟ هذا السؤال ما يزال مطروحاً. المهم فيه أن هذه الأساليب في التقسيم وإعادة التقسيم قد استمرّت. وتورد مصادر الانتداب الفرنسي كما البريطاني أن نظام المشاع هذا قد استمرّ طوال القرن التاسع عشر. وأن أكبر

---

١٣٥. Owen, **Middle East**, p. 258.

١٣٦. Klat, Musha holdings and land fragmentation in Syria, p. 12.

١٣٧. Wirth, **Syrien**, p. 227.

مشكلة في تحليل أرض المشاع هي أن معظم المعلومات عنها تعود إلى فترة الانتداب[١٣٨]. ولوحظ أيضاً أن الأرض في المناطق الجبلية هي ملكية فردية، لأشخاص توارثوها ويعيشون فيها منذ القدم، في جبال سوريا أو في جبال فلسطين. أما السهول فقد سكنت بعد الجبال وبذلك عمّت فيها أرض المشاع[١٣٩].

لقد حاولت الآراء توضيح مبدأ المشاع ورُدّ بعضها إلى نمط عيش الجماعات، فالبعض يعتقدون أن المشاع كان نتيجة تحوّل بعض الرحّل الى فلاحين مستقرّين. فكان لا محيد لديهم عن هذا النظام فاتّبعوه[١٤٠]. والبعض الآخر يعتقدون العكس. إذ يعود المشاع في رأيهم إلى حياة فئة ما، في تملك خاص للأرض، وكان نتيجة ذلك المشاع[١٤١].

ثمّة آخرون يعتبرونه ناجماً عن تنظيمات حكومية قديمة (من عهد المماليك)[١٤٢] تعود إلى الضرائب الجماعية التي تفرضها السلطات العثمانية[١٤٣]، أو إلى صلاحية النظام لاحتياجات الزراعة في مناطق على حدود البادية تعتمد على المطر وترافقها تربية المواشي[١٤٤].

أما في جبل الدروز بالذات، فيعتبر من المفيد ما كتبه «بوركهارت» عن المشاع سنتي ١٨١٠ و١٨١٢، رغم أنه لم يستخدم المصطلح نفسه، وهو أقدم وصف لهذا النظام:

«... على كل قرية مسجّلة في دفتر الباشا أن تدفع مبلغاً بقيمة محدّدة على القرية المسكونة. دون أن يؤخذ بعين الاعتبار عدد السكان. وهكذا كانت الأراضي تقسّم في الربيع من كل سنتين أو ثلاث أو في حالة إذا لم يفد إلى القرية فلاّحون جدد... ويأخذ كل فلاح ما يشاء لاسيما أن الأرض متوافرة بكثرة. وبعدها يقدِّر الشيخ ما يلحق كل فلاح من الضرائب في ذلك العام، حسب عدد أفدنته... ولقد كانت قطع الأرض تتميّز عن بعضها، بأكوام من الحجارة، كعلامات حدود لها»[١٤٥].

يقصد «بوركهارت» الجبل بهذا الوصف لأن الحجارة الكبيرة ليست موجودة في السهل. ولكننا نرى أن الحدود بالحجارة تدل على أن إعادة التوزيع قد تمت بشكل جازم إلى قطع

---

١٣٨. Owen, **Middle East**, p. 257.

١٣٩. Gerber, **Ottoman Rule**, pp. 208-209; Owen, **Middle East**, p. 257.

١٤٠. Latron, **La vie rurale**, pp. 184-185; Weulersse, **Paysans**, p. 108.

١٤١. Hütteroth, Die Bedeutung kollektiver und individueller Landnahme für die Ausbildung von Streifen- und Blockfluren im Nahen Osten.

١٤٢. Wirth, **Syrien**, p. 228.

١٤٣. Mundy, **Share holders**, p. 231; Owen, **Middle East**, p. 258.

١٤٤. Lewis, p. 63, 221; Owen, **Middle East**, p. 256-259.

١٤٥. Burckhardt, pp. 467-468.

محددة. ولم يحمل الفلاحون الحجارة من مكان إلى آخر لتغيير القطع. كما أن القادمين عمروا أراضي جديدة لأنفسهم بتنظيفها من الحجارة[١٤٦].

إن «الجبل» الذي نتحدث عنه الآن هو الجزء الشمالي من جبل حوران فقط. أما السهول الجنوبية فلم تكن بعدُ مأهولة. وتجدر الإشارة أيضاً، أنّ المساحات في قمم الجبل – مع ضيقها – كانت تقسَم شرائح طويلة وضيقة العرض. و قد كان المشاع في مطلع القرن التاسع عشر قائماً، وكان أسلوب التقسيم متبعاً. حيث يؤكد «بوركهارت» أن قدوم السكان الجدد كان يحتِّم تقسيماً جديداً. وتضاف مع قدومهم، ضرائب جديدة على القرية. وبعد منتصف القرن التاسع عشر لم تتكرر إعادة التوزيع الآنف الذكر في الجبل. ومن المصادر المؤكدة «للمقرن الشمالي»، الحديث مع الشيخ «هاني أبو فخر»، المولود عام ١٨٨٣ في «كفر اللحف». وهو وجيه عائلته واطلاعه الواسع يعود إلى سنة ١٨٦٠[١٤٧]. أكد لنا الشيخ هاني أنه لم يكن هناك توزيعات في «المقرن الشمالي». ونستنتج من ذلك أن التوزيعات الجديدة قد توقفت في المقرن الشمالي بين السنوات ١٨١٠–١٨١٢ حتى ١٨٦٠ تقريباً. وثُبتت الأسهم (الحصص) ولم يبقَ مما يسمى «مشاعاً» سوى المراعي، التي خصصت لمواشي القرية وحدها. ولا دخل للقرى الأخرى فيها. وإذا ما سألت أحداً عن المشاع الآن، فيجيبك عن هذه المراعي فقط[١٤٨]. قد يظن أن سبب وقف التوزيع السابق، أي وقف المشاع في شمال الجبل – المقرن الشمالي –، يعود إلى أن القرى قد اكتملت طاقتها السكنية في حدود سنة ١٨٦٠.

بيد أن مبدأ المشاع قد استمر الأخذ به في جنوب الجبل. ونظراً لاستمرار توافد القادمين الجدد، فقد استمر التقسيم. وإن ذلك ما زال حياً في أذهان الناس منذ ١٨٦٠. وكان الوافدون يصلون على شكل عشائر أو عوائل بقيادة زعيم. ويتوزعون المساكن والأرضي الزراعية في ما بينهم. وكانت طريقة التقسيم تتبع النمط التالي: تقسم الأراضي الزراعية إلى أربعة (وفي بعض الحالات خمسة) أقسام «وجهات». وكل ربع يقسّم على فئة من الناس. كل حسب أسهمه، بمعرفة شيخ القرية ومجلس كبار رجال القرية. وكانت الأقسام عبارة عن شرائح مستطيلة، يطلق على الشريحة اسم «السهم» وكانت وحدة القياس «الذراع» والـ«مرَسة»[١٤٩]. وعدد أسهم الشخص الواحد هي عدد «الأفدنة» التي يمتلكها أو حسب

---

١٤٦. هكذا عن محادثات شفهية في المنطقة الجنوبية. ١٤٧. حديث مع هاني أبو فخر (صورته في الملحق).

١٤٨. معضاد قرقوط: أضواء على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمحافظة السويداء.

١٤٩. مقاييس الطول: الذراع (في سوريا ٦٨, ٠ م، في الجبل ٧٠, ٠ م) والمرسة (تختلف من مكان إلى مكان؛ في عرى ١٨-٢٠ م، في إمتان ٣٢ م).

قدرته على استعمال الأرض. وهي مأخوذة من كل ربع[١٥٠]. أما تحديد المواقع الجماعية (أي الأرباع) أو الشريحة الفردية (أي السهم)، فقد كان يتم بالقرعة على النحو التالي: يقدم المساهم إشارة (قطعة خشب أو قماش صغيرة إلخ) وتطمر بهرم أو كتلة من التراب. يقوم رجل محايد بفرزها. ولا يحق للفارز أن يطلع على دفنها. وعندها يتبع كل سهمه حسبما تقع القرعة[١٥١]. لقد كتب «بورون» Bouron حول ذلك سنة ١٩٢٧ إذ يقول نقلاً عن الرواية الشفوية بأن التقسيم كان يتم حسب أهمية العوائل[١٥٢]. إن في هذا إشارة إلى أنه كانت في المقرن الجنوبي من جبل حوران، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، قوىً فاعلة في التملك والسكن. وهذه القوى تتعلّق بشخص الوجيه واقتداره وأتباعه. لقد كان معظم النازحين جماعات قدمت من لبنان ومن فلسطين، تقاسمت الأرض حسب استحقاقاتها كما سبق ذكره آنفاً. وعندما تكاثر عدد السكّان وقلّت الأرض الزراعيّة، عمّ أسلوب ترحيل الناس غير المرغوب بهم في القرية، واستقدام أناس أفضل. ومن المحتمل أن التوزيع قد تم حسب النظام الأول.

وما زال الناس حتى يومنا هذا يتحدثون عن الترحال والإقامة وعن كيفية توزيع الأراضي. وإن هذا التوزيع الاعتباطي وبالأحرى هذا الأسلوب في التملك والتمليك، كان سبب انتفاضة الفلاّحين (١٨٨٩-١٨٩٠) المسماة «العاميّة» التي وضعت حداً لهذه العادات. لقد نقل لنا الشيخ «حمد قرقوط»، وهو مسنّ من قرية «ذبين»، من مواليد عام ١٩٠٦، عن والده أنه في عام ١٨٨٥ («أربع سنوات قبل العاميّة»)، حدث توزيع في قريتهم. فقد قسمت القرية إلى أرباع. وكل ربع قسم إلى ١٨ سهماً. وكان مجموع الأسهم ٧٢ سهماً. وحصلت كل عائلة من العائلات الأوائل الكبيرة على سهم في كل ربع. سنة ١٩١٨ «حسب طلب الناس» أعيد التقسيم من جديد وتم ذلك مرة أخرى إلى ٧٢ سهماً[١٥٣]. وهذا يعني:

- أولاً: تثبيت عدد أسهم القرية واستقرار نظامها.
- ثانياً: كان التقسيم بين المالكين فقط.

ويستنتج من هذا أن القلق كان يساور الفلاحين ليس من النظام نفسه بل من عدم اطمئنانهم إلى استغلال الشيوخ لهم من خلال تزايد التوجه إلى السوق. كما يشير إلى هذا أحد المصادر المعاصرة:

١٥٠. Bouron, **Les Druzes**, p. 334.

١٥١. حديث شفهي مع فلاحين.

١٥٢. Bouron, **Les Druzes**, p. 334.

١٥٣. أعيدت قسمة أرضه جزئياً في سنة ١٩٤٧.

«كان ذلك نتيجة تصرّف قديم. ولم يكن يخطر ببال أحد أي شك، لو أن «الأطرش» (العائلة السائدة في حينها - ملاحظة المؤلفة) لم يستغل نفوذه لمصلحته الشخصيّة، في إعادة التقسيم المستمر، ويفيد نفسه بتنقله من أرض إلى أخرى على حساب أتعاب الفلاحين، فيما استصلحوه من الأرض»[١٥٤].

ويؤكد «حمد قرقوط» في قوله إنه قديماً كانت إعادة التقسيم تحدث «من أجل العدالة» بسبب قدوم سكان جدد إلى القرية. وكان هذا واجباً يقرّه الجميع. ولكن بعدئذ تغير الوضع. فقد أخذ الشيخ والمتنفذون يحتفظون لأنفسهم بالمواقع الجيدة من أراضي القرية ويتركون ما استثني من الأرض للوافدين غير المرغوب فيهم[١٥٥].

بذلك تكون النتائج المستخلصة في جبل الدروز، في موضوع المشاع ما يلي:

١- إن ما ورد في وصف «بوركهارت»، وهو أقدم وصف للمشاع، في ربط عدم استقرار المواطنة وترحال الوافدين، بعلاقة الضرائب الجماعية المطروحة على القرى المشاع قد ثبت بمنهج التاريخ الشفوي.

٢- و هذا يثبت فيما يخص قضية جبل الدروز بأن المشاع قد استخدم اتخاذ أراض جديدة للسكن. وأن هذا «النظام» قد طبق في السكنى جنوب الجبل بعد ما أوقف في الجزء الشمّالي.

٣- وسنوضح لاحقاً وصف الأوضاع الاجتماعية في الجبل، وأن هذه النظام الزراعي كان مناسباً للدفاع المشترك عن القرية، حيث كان الفلاحون يذهبون مسلحين للعمل في الحقول. ويعتبر جبل الدروز كمثال واضح بأن هذا النظام كان موجوداً خصوصاً في المناطق الزراعية المعتمدة على المطر وأنه مناسب خاصة للمناطق الحدودية (ما يسمى the frontier في تاريخ أميركا الشمالية).

٤- إن جبل الدروز يبيِّن حالة خاصة به هي نزوعه لحكم نفسه بنفسه[١٥٦]. فإن شيخ القرية، مثلاً، الذي كان يعتبر «المالك العام» للقرية، يحتكر ربع الأراضي لنفسه (أنظر الفصل التالي).

٥- إن دافع العدالة يبرز حتى في الشكل السيادي للنظام. فالشرائح الطويلة وتقسيم القرى ينبغي أن يضمن أن كل عضو في القرية سوف يحصل على نصيب متساو من الأرض من حيث الخصوبة والقرب من القرية[١٥٧]. والمشاع بشكله الأولي (التقسيم غالباً للكل) يتبع بشكل

١٥٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 14 Mars 1889.

١٥٥. حديث مع حمد قرقوط؛ معضاد قرقوط، أضواء، ص١٠.

١٥٦. Hütteroth, **Bedeutung**.

١٥٧. Wirth, **Syrien**, S. 227.

واضح النمط الإنتاجي لما قبل الرأسمالية والمؤسس على الاكتفاء الذاتي و«الاقتصاد الأخلاقي» (E.P. Thompson). ويؤكد ذلك الاستهجان المستمر لموظفي الانتداب الأوربي حول مساوئ هذا الشكل الإنتاجي «غير المناسب لمجتمع قديم»[١٥٨]. أما السبب في وقف إعادة التقسيم فيوضح لي أن السكنى في المنطقة قد بلغت حدودها.

٦- هذا الوضع في جبل الدروز طرح تطورات جديدة: فبينما كان التقسيم في بدايته مضموناً وقائماً على العدل، اعترضته المصالح الخاصّة في الحقول البعليّة طبعاً[١٥٩]. والزراعة في الجبل لم تعد تقتصر على الحبوب فقط، بل توجهت حسب متطلبات السوق. وبعد منتصف القرن الـ٢٠ رغب الفلاحون في تغيير أسلوب النظام القديم وطالبوا بتثبيت الأراضي لأجل استصلاحها. بيد أن الشيوخ رفضوا ذلك لكي يحافظوا على احتكارهم السلطة ومصالحهم الاقتصادية.

الجَذَر

مع السعي للاستقرار، ظهر نوع جديد من ملكية الأراضي مواز للمشاع، هي ملكية الأرض المحيطة بالقرية والتي استمرّت مزروعة بالكروم والخضار والتّي تطلبت عنايةً طويلة الأمد[١٦٠]. لقد لاحظ «بوركهارت» (١٨١٠-١٨١٢) عدم وجود بساتين من الأشجار المثمرة، ورداً على سؤاله أجابه أحد الفلاحين:

«أونزرع للأغراب؟ فسر من قولهم «أغراب» واعتقدهم يعنون به القادمين بعده من جهة والبدو من جهة أخرى»[١٦١].

إذاً الموضوع هو عدم اطمئنان واستقرار. ولكن يذكر «زتسن» من جهته أن الحورانيين فسّروا عدم وجود الأشجار بكون الأرض «ميري» بينما تغطى عجلون بالأشجار، وتعتبر كل الأراضي مملوكة[١٦٢].

لقد نُظم الـ«جَذَر» في الجبل في النصف الثاني من القرن الـ١٩ ولم يؤكد، فيما إذا كان تنظيمه تشجيعاً من السلطة العثمانية أم كان بدافع ذاتي من السكان وهذا هو الأرجح[١٦٣]، وبذلك انتشرت الكروم وأشجار الفاكهة على مساحات تحيط بالقرية. وكان يراعى في

---

١٥٨. Wahlin, p. 375.

١٥٩. Owen, **Middle East**, p. 258.

١٦٠. كلمة جذر، ربما جاءت عن الجذور العميقة.

١٦١. Burckhardt, p. 467.

١٦٢. Seetzen, p. 94, 123.

١٦٣. راجع فصل: «التطور الاقتصادي الاجتماعي» في هذا الكتاب.

توزيعها عدد «الأفدنة»، أي عدد الأسهم التي يمتلكها الفرد في القرية، ولم يعد الجَذَر موضع تقسيم وذلك في حالة إعادة التقسيمات. وكانت نسبة الجَذَر مقارنة مع الـ«ميري» تقدّر في قرية ذبين، مثلاً بـ٣٪ تقريباً[١٦٤].

الفدّان

والنقطة الرئيسة لفهم مسألة الفدان هي عدم الاستقرار بالنسبة للسكن في المناطق الحدودية. وفي الواقع كان للحياة الفلاحية مطلع القرن الـ١٩ طابع شبه بدوي، حيث يذكر «بوركهارت» في ذلك ما يلي:

«إن ضغط السلطة على الفلاحين من جهة، وضغط البدو من جهة ثانية، جعلهم في وضع أشبه بوضع الرحَّل، سواء أكان هؤلاء من الفلاحين الدروز أم المسيحيين. وقلّما كان يموت أحدهم في القرية التي ولد فيها. فهم في ترحال مستمر من قرية إلى أخرى. وكان التعامل في السنين الأولى على العموم معقولاً بين الشيخ والفلاّح الوافد كما يلاحظ. وحتى إذا ما ظهر سأم ما، ارتحل الفلاّح إلى جهة أخرى، قد تؤاتيه أكثر، ومع ذلك يكتشف أن النظام نفسه يسيطر على كل مكان[١٦٥].

- يقصد باصطلاح فدّان مدلولات عدة:

- «الفدان» مساحة من الأرض تشغل رجلاً عاملاً وزوجاً من الثيران لمدة عام كامل، فلاحة، وزرعاً وجنياً للموسم. وقد رمَزَ إلى أسهم القرية بالأفدنة، مثلاً، المالك الذي كان يستطيع تأمين زوجين من الثيران ويتمكن من تشغيلهما، يتملك فدانين في القرية[١٦٦].

- كما أن «الفدان» وحدة أسهم متساوية في القرية. ولكنها ليست وحدة تساو في الإنتاج. بل هي وحدة مقارنة، حيث إن القدرة على الإنتاج هي مساحة الفدان التي تتّعلق بعوامل كثيرة، من إتقان في تحضير الأرض إلى جودة في الأرض وقربها وبعدها عن القرية، إلخ.

كان عدد الأفدنة يحدد في القرية، حسب عدد السكان في النهاية واتساع رقعة القرية، بالإضافة إلى خصوبة الأراضي واتساع رقعتها ونسبة وعورتها. هذه العوامل قد حدّدت تقدير مساحة الفدان من قرية لأخرى. يضاف إلى ذلك نفوذ الشيخ في موقعه وقدرات تابعيه[١٦٧].

إذن الفدان ليس مساحة «متريّة» ولا هو حتى وحدة مقياس المساحة، فهو أقرب أن يكون

---

١٦٤. حديث مع حمد قرقوط: الجذر بقي ثابتاً في قسم ١٨٨٥.

١٦٥. Burckhardt, p. 466.

١٦٦. Burckhardt, p. 461.

١٦٧. قرقوط، أضواء، ص٩؛ Bouron, **Les Druzes**, p. 334; Latron, **La vie rurale**, p. 26.

تعبيراً عن وحدة اجتماعيّة وتعبيراً عن مقدار نفوذ بيت معين وغناه[١٦٨]. يقول «بوركهارت»:
«إذا سألت أحداً عن ثروته («الّو غروش»)، يجيبك بأنه يسيِّد كذا فداناً («كثيار، بيماشي ستة فدادين»)»[١٦٩].

وهكذا نجد أن مساحة «الفدان» تختلف من قرية إلى أخرى[١٧٠]، أما الوحدة المعترف بها في جميع القرى فربما كانت المُدّ للبذور[١٧١]. ويعبَّر عن كلمة الفدان بتعبيرات مختلفة:
- بالمساحة يعني بالدنم (٣,٩١٩ م مربع وبعد إدخال النظام ١٠٠٠م مربع)[١٧٢].
- بالغلة يعني بالمد (والمد في الجبل يساوي ٢٠ كغ)[١٧٣].
- بالبذار يعني بالمد أيضاً.
- بالحصص المعنوية يعني بالسهم (ومجرح الكسر ٢٤).
- بوحدات فرعية يعني بالقيراط (٢٤ قيراطاً يساوي ١٠٠٪).

إن المخطط المرفق بالدراسة، والذي يبيّن أرض العائلات في جبل الدروز يتضمن هذه المعلومات. وكما سبق، فقد كان يعبّر عن مساحة القرية بعدد الأفدنة، وعن ملكية الشخص أيضاً بعدد الأفدنة. كما كان يعبّر عن المساحة بالمدّ، فيقال: «مبذر كذا مداً». وعندما سألت فلاحاً مسنّاً في قرية ما هو الفدان، فإن إجابته أنه في الشمال حيث الحقول صغيرة الحجم فهو مبذر عدد من الأمداد بينما في الجنوب مع حقوله الواسعة هو مبذر عدد من الدنمات. وهكذا فهي اصطلاحات تقريبية في مجملها[١٧٤].

لدى دراسة المخطّطين المرفقين اللذين يحدّدان أراضي الشيوخ وثروتهم الحيوانية (ينصح بالاطلاع عليهما وقراءتهما معاً) نستنتج من عدد الثيران المساحات المفلوحة بالتقريب - كل زوج ثيران هو فدان أرض ويدل عدد الخيول على عدد الفرسان بالتقريب. ويلاحظ أن القرى الغنية بالخيول هي في المقرّن الجنوبي، وتحديداً في قرى الحدود المحاذية للبدو، حيث تستورد الخيول. ففي قرية القريّة مثلاً، نجد في عهد «سلطان الأطرش» قرابة ١٠٠ فرس. أما دور الجمال فقد كان نقل الغلال من الحقول وتوريد الحبوب إلى دمشق.

---

١٦٨. Latron, **La vie rurale**, pp. 11-13.

١٦٩. Burckhardt, p. 461.

١٧٠. الفدان في جبل الدروز يختلف عنه في مصر.

١٧١. Latron, **La vie rurale**, p. 16; Bouron, **Les Druzes**, pp. 334-335.

١٧٢. Latron, **La vie rurale**, pp. 27-28.

١٧٣. Bouron, **Les Druzes**, p. 334.

١٧٤. **MAEN**, Beyrouth, 2381, NA RG 84/3247/7.

واستمر الاستيطان مع مرور الزمن وأصبحت الأجيال تتوارث الحقوق بالأرض. والسهم كان بمثابة سند تمليك، بخاصة في الإرث والوصيّة، إذ إن المذهب الدرزي يجيز الوصيّة ويحتم تنفيذها. وهذا أدّى إلى تبعثر الملكيات، فصغرت المساحات التي يمتلكها الفرد:

«كما يمكن أن يتكوّن السهم من ٢٠ قطعة من الأرض، وكان يصل عرض السهم إلى أقلّ من ١٠ أمتار أحياناً بينما طوله يصل إلى ما يقارب ١٠٠ متر»[١٧٥].

يختلف تنظيم الإرث عند مذهب الدروز عن قاعدة السنّة الإسلامية في الإرث. فيكفي أن يشهد موثوق عن لسان المتوفى، بوصيّته، كي يعمل بها عرفاً. وفي ما عدا الوصية يكون المبدأ: «ما ورّثه بيّك لك ولخيّك»[١٧٦].

وربما كان سهم واحد ينتقل إلى أخوين. ولكن المنزل يورث دائماً للإبن البكر الذي حل محل الأب.

٦- السياسة والاقتصاد والمجتمع العشائري

في دراسة مجتمع جبل الدروز ندرس مجتمعاً عشائرياً. ولكن ماذا نعني بكلمة عشائرية؟ إن النظام العشائري في الجبل هو ما عناه «دوستال» Dostal باستخدام المصطلح المحلي «النظام المشيخي» أو «نظام المشيخة»[١٧٧]. لقد كان في الجبل في بداية القرن التاسع عشر مشيخات ثلاث كما يذكر «صلاح مزهر»: مشيخة آل الحمدان في السويداء، ومشيخة آل أبو فخر في نجران، ومشيخة آل القلعاني في شقّا[١٧٨].

ويورد «بوركهارت» أنه كان لآل الحمدان، منصب «شيخ المشايخ» والمشيخة تعني مرتبة رئيسة، وكان «آل الحمدان» في مرتبة الرئيس ورمزها «العباءة». وحسب الرواية فقد لبسها «حمدان الحمدان» عن الأمير علم الدين المعني. ويعتبر آل الحمدان من أعرق العائلات في جبل الدروز. والمبدأ البنائي الأساسي لهذا المجتمع (وكل المجتمعات العشائرية بشكل عام) السلالة و الفرع أو العائلة. طبعاً أبوية النسب (في الذكور)، تقوم على نظام صلات القربى المتحدرة من سلف عريق مشترك.

يفرّق «الأنتروبولوجيون» بين السلالة lineage والعشيرة tribe. فأفراد السلالة هم

---

١٧٥. سلامة عبيد، الثورة السورية الكبرى، ص١١٠.

١٧٦. حديث محمدطربيه.

١٧٧. Dostal, **Sozio-ökonomische Aspekte**, p. 2.

١٧٨. مزهر، الثورة، ص٧٠؛ النجار، أبو راشد.

المنحدرون من جد واحد مؤسس. أما العشيرة، فليس بالضرورة أن ينحدر جميع أفرادها من جد واحد، ولكنهم يفترضون أن أصولهم البعيدة مشتركة[١٧٩]. ليس لهذا التفريق أهمية كبيرة في إطار هذه الدراسة، وسنستمر لذلك بالكلام على العشيرة أو العائلة[١٨٠]. ويخضع الفتيان عادة للتوجيه في نزاعاتهم، ويفضل الزواج بين أبناء العم، (ابنة الأخ لابن عمها) إذا لم يكن الزواج من أغراب عن العشيرة لعقد استراتيجي (تحالف مثلاً). إن هذا المظهر من التقارب يسمى «البنعميّة». وقد أهمل هذا الأسلوب من التقارب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وأصبح له مغزى سياسي مميّز[١٨١].

لقد شاع بين سكان جبل الدروز اصطلاح «العشيرة» كمرادف لـ«عائلة» أو «بيت». وقد نوه «بوركهارت» بذلك سنة ١٨١٢ عندما كتب أن:

«العائلات تشكل عشائر لا تربطها رابطة، فقد تكون هذه العائلات في نزاع مستمر. والإساءة عندهم تجرّ التهديد، وقواعد الثأر للدم بينهم على أشدها»[١٨٢].

أما الأكثر وجاهة بين أفراد العائلة فهو إما الأكثر احتراماً، أو الأغنى أو الأكثر نفوذاً بينهم، وهو الذي يمثل العائلة في الخارج، أي الزعيم. وللزعيم من العائلة الأكثر شرفاً منصب «شيخ مشايخ». وكان شاغل هذه الوظيفة سنة ١٨١٢ «وهبة الحمدان»:

«... ورغم أن زعامته كان يجب أن تؤكد من الباشا العثماني فمنذ زمن طويل أصبحت إرثاً بين الذكور من «آل حمدان». كما جرت العادة أن يسمى «شيوخ القرية» من قبل «شيخ المشايخ». ثمانية منهم من أقربائه والباقي من العائلات الدرزية الكبيرة»[١٨٣].

لقد كان «وهبة الحمدان» «شيخ المشايخ»، وقتها مسناً في الثمانين من عمره، مركزه السويداء، «عاصمة الجبل»، وشيخاً للقرية. وكان معلوماً أن «شبلي الحمدان» من «عرى»، سيخلفه بعد وفاته[١٨٤]. وقد كتب «بوركهارت» عن هذا التنظيم للخلافة:

«بعد وفاته خلفه من عائلته من هو أكثر احتراماً بسبب ثروته وصفاته الشخصية، وقد أيده في منصبه الباشا العثماني»[١٨٥].

مما تقدم، يتبين أن الخلف كان إرثاً ولكن كان اختياره متعلقاً بإمكانياته الشخصية أيضاً.

---

١٧٩. الإثنان موجودان في الجبل.

١٨٠. Vivelo, p. 228, footnote 7.

١٨١. Bourdieu, **Entwurf**, chap. 3.

١٨٢. Burckhardt, p. 472, 455.

١٨٣. Burckhardt, p. 472, 455.

١٨٤. Burckhardt, p. 472.

١٨٥. المصدر السابق.

لم يكن لمنصب «شيخ المشايخ» إيرادات خاصة، وكل ما كان يأتيه هو ما يأتي من منصب «شيخ القرية» إلى العاصمة يعني «السويداء» في هذا السياق.

وكان «شيخ المشايخ» مسؤولاً أمام والي دمشق عن جميع ضرائب جبل الدروز. ولذا استولى على ما يستطيع من القرى مع إخوانه أو أبناء عمه أو أبنائهم، كي يزيد من نفوذ عشيرته وثروتها. هكذا كان للعشيرة «زعيم سلالة» ولكل قرية «شيخ» من عائلة هامة. وبقدر ما يكون للعائلة قرى وشيوخ بقدر ما تزداد قوةً ونفوذاً وثروة. وهكذا تتشابك الهيكليات السياسية العائلية والاجتماعية الاقتصادية. والجدير بالذكر أن الدفاع عن القرية، كان يقع على عاتق القرية نفسها، وليس على العشيرة، وكان لكل قرية بيرقها (علمها الخاص)، تدافع تحته وتحت قيادة شيخها. أما منصب الـ«بيرقدار» فكان عادة مع عائلة صغيرة فقيرة بدون نفوذ حيث تنال بذلك «رأسمال الشرف والتكريم» (Bourdieu)[١٨٦].

أما شيخ القرية فهو سيِّدها، يتعاون مع الوجهاء من عائلاتها، يمثل القرية تجاه الخارج وتدفع له ضرائب «الميري» التي يقدرها على الفدان ويرسلها إلى «شيخ المشايخ»[١٨٧]. كما يقسم العمل الزراعي في القرية – واستمر ذلك حتى منتصف القرن الـ٢٠. ويجتمع الفلاحون في مضافة الشيخ حيث يقرر الأعمال المشتركة لليوم القادم (فلاحة، زرع، حصد)[١٨٨]. ويقصد بهذا التنظيم أسباب عدة:

أ – التوجيه الزراعي في المواسم الثلاثة وتوحيد نوعية المادة المزروعة. كذلك مسألة وصول كل فلاّح إلى «سهمه» حيث عليه أن يمرّ بسهم جاره. كما أن مراعي المواشي تطلبت أراضي بوراً متلاصقة[١٨٩].

ب – كما في كل المناطق الحدودية كان الأمن هو المسألة الأهم. كان الفلاحون حتى تسعينيات القرن الـ١٩ يذهبون إلى حقولهم وسلاحهم معهم.

ج – عندما يعمل الجميع في الجهة نفسها، تكون القرية على أتم الاستعداد للدفاع عن نفسها.

د – كان من حق الشيخ أن يفرض على الفلاحين «السخرة» أي أن يساعدوه في فلاحة أرضه وجني محاصيلها.

وكان الشيخ أيضاً هو القائد الحربي في القرية، يقود السكان للدفاع عنها أو في الهجوم

١٨٦ . راية البيرق ربما كانت استطراداً عن علم الدين المعني ورايته.

١٨٧ . مزهر، **الثورة**، ص٧٠؛ حنا، **العامية**، ص١٢٤، الصغير، **بنو معروف**، ص٢٠٢؛ Burckhardt, p. 455, 471.

١٨٨ . مزهر، **الثورة**، ص٧٠؛ حنا، **العامية**، ص١٩٥، ١٥٠.

١٨٩ . Wirth, **Syrien**, p. 227.

على الخصوم من البدو، إذا ما اعتدوا على مياه القرية أو مراعيها. كما كان له الحق في جباية بعض الرسوم، وهي «القود» على المراعي، «القلاط» على الماء و«القُصرة» لحماية المهاجرين الجدد.

وكان للمضافة دور كبير وأهمية مميزة في القرية ويتعلق مقامها بقوة الشيخ أو ضعفه. وكانت المضافات الكبيرة أبنية مستقلة بجانب دار الشيخ في مركز القرية وتشغل بهواً واسعاً في الطابق الأعلى، لإعطاء الضيف منظراً عاماً للقرية. وفي داخل المضافة يبنى إفريز من الحجارة ملتصق بالجدران وفي مركزها النقرة (الموقد)، وأباريق القهوة. وفي المضافة تبحث المصالحات وكل الأمور الهامة. وبذلك تعد المضافة المركز السياسي للقرية. وكل غريب يدخل القرية يعلم الشيخ به ويمثل لديه. وكان حجم المضافة ومقدار الضيافة فيها شعاراً لهيبة الشيخ وسمعته[١٩٠]:

«وكانت عبارة «تتسع مضافته لـ٥٠ حصاناً (فارساً - ملاحظة المؤلفة)» متداولة لوصف شيخ ما»[١٩١].

لقد شبه «بوركهارت» المضافة بالمطعم والفندق، والتكاليف على حساب المضيف[١٩٢]. يؤوي الضيف في المضافة ويطعمه ويؤوي حصانه ويعلفه. ويورد «بوركهارت» عن حديث لشيخ معه:

«أنت لا تعرف عادات البلاد. فإذا رأيت أن مضيفك لا يهتم بحصانك، فإن عليك أن تطلب منه أن يقدّم مدّ شعير يومياً علفاً له، ولا يستطيع رفض ذلك»[١٩٣].

وكان جنود الباشا عندما يقدمون إلى القرية يستضافون على هذا النحو - رغم أن كل التقارير المعاصرة مليئة بالشكاوى من سلوكيّة «الدالاتية» عند حضورهم إلى القرية[١٩٤].

لقد شكا الشيوخ من مصاريف المضافة. وقد ذكر ذلك كل من «بوركهارت» و«زتسن» أيضاً. وبناء على ذلك، اتخذوا لأنفسهم الحق في أن يعفوا من ضرائب قسم من أفدنتهم[١٩٥] وأن تقدم لهم القرية كمية من الحبوب لمساندتهم[١٩٦]. ويختلف تقدير هذه الضرائب وأيضاً الـ«سخرة» من قرية الى أخرى. كان «بوركهارت» صديقاً لشبلي الحمدان، وقد كان يلاحظ

١٩٠. Bruinessen, Agha, Scheich und Staat. (نسبة للأكراد).

١٩١. عن حمد قرقوط، مقابلة شفوية.

١٩٢. Burckhardt, p. 461.

١٩٣. Burckhardt, p. 461.

١٩٤. رافق، «مقاطعة» ص٣٦ (الدالاتية).

١٩٥. Burckhardt, p. 469.

١٩٦. Burckhardt, p. 469.

دائماً أن «شيخ المشايخ» معفى من ضرائب ستة أفدنة في «عرى»، ويحتجز كمية من ٢-٣ «غرائر» حبوباً من الفلاحين سنوياً(١٩٧).

وحسب الرواية الشفاهية في الجبل نفسه، كان على سكان القرية تهذيب العادات وتعزيز الإقطاعيّة، وأن يدفعوا أجرة القهوجي في مضافة الشيخ. كانت العادة في القرية عندما يتزوج أحدهم أن يعطي هدية نقدية إلى الشيخ، وكذلك ضرائب المهاجرين الجدد والبدو. كما كان الشيخ يستبقي لنفسه قسماً من «الميري» التي تجبى من الفلاحين. ويمتلك الشيخ ربع أراضي القرية الزراعية (وبقيت له هذه النسبة من الملكية حتى ثورة «العامية») التي كان يعمل فيها في الغالب، مطلع القرن التاسع عشر، العبيد السود (النخاسة)، بينما الشيوخ المسلمون والمسيحيون كانوا يستخدمون اليد العاملة المأجورة(١٩٨).

والآن، ما مدى سلطة الشيخ في القرية؟ كان عدد السكان في مطلع القرن التاسع عشر قليلاً، فكانت سلطة الشيخ محدودة، وكانت العائلات ترحل عندما تجد نفسها عاجزة عن تحمل طلبات الشيخ. ولقد شهد «بوركهارت» مرة جدالاً بين شيخ وفلاح مسيحي، إذ طلب سقفاً معيناً من الضريبة كان على الفلاح أن يدفعها في العام القادم، مع أنه يومها كان ينقصه فدان عن العام السابق، فهدد الفلاح بأنه لن يبذر أرضه وهيأ نفسه لمغادرة القرية(١٩٩). ولكنهما لم يلبثا أن تصالحا وبقي الفلاح في أرضه.

وعلى عكس ذلك كان للشيخ القدرة على طرد فلاح غير مرغوب به من القرية، بالاشتراك مع تابعيه من رؤساء العائلات. ولكن خُفضت هذه القوة لضرورة أنه كان من مصلحة القرية أن تمتلك عدداً كبيراً من الأفدنة وأن يوزع عبء الضريبة الجماعية على عدد كبير من الأكتاف.

بالإضافة إلى ذلك أعفي من أعمال كثيرة كونه غالباً قريباً للفلاحين الأصليين في قريته - إما أن يكونوا تابعين لعشيرة كان مرتبطاً بها «بزواج استراتيجي» أو من عشيرة معارضة ذات نفوذ. كانت قرية سميع مثلاً مسكونة من قبل أفراد عائلة النصر الذين كانوا «أبناء عمومة جميعاً». أما قرية اللحف فكانت فيها في القرن الـ١٩ فقط عائلات أبو فخر، وهم غالبية السكان، والعائلات الأصغر سلام وزهر الدين(٢٠٠). ومن الجدير بالذكر أن الفلاحين في القسم الشمالي للجبل (وهو المنطقة الإسكانية الأقدم مسكون من قبل العائلات الأصلية)

---

١٩٧. Burckhardt, p. 469 .

١٩٨. Burckhardt, p. 464 .

١٩٩. Burckhardt, p. 476 .

٢٠٠. مقابلات مع أعضاء من بيت أبو فخر، صيف ١٩٩٣.

كانوا أبناء عشائر أو كان في إمكانهم، حتى وقت زيارة «بوركهارت»، أن يدخلوا صفوف عشيرة ما. وبعض العائلات اتخذت لنفسها اسم المكان الذي قدمت منه مثل «الحلبي» و«الشوفي» و«الصفدي» إلخ، وقبلوا الرجال الذين لا قرابة لهم بمؤسس العائلة[٢٠١]. أما عائلة الحلبي التي ذاع صيتها ونفوذها في المنطقة الشمالية للجبل فكان مؤسسها عبد الغفار سلطان[٢٠٢]. وأهم رأسمال لصعود عائلة ما كان عدد الرجال. حيث إن الرجال هم المحاربون وهم أيضاً اليد العاملة؛ وكذلك الأمر بالنسبة لتوفير رأسمال الشرف (Bourdieu) المتجمع في الشخصية.

كان المجتمع في تلك الفترة منقسماً إلى «عامة» و«خاصة». والمشيخات الثلاث المعروفة تنتمي إلى الخاصة أما العائلات الصغيرة الضعيفة التأثير فتنتمي إلى العامة. وحتى منتصف القرن نمت صفوف الخاصة والعامة إذ كان الجبل حتى ذلك الوقت إقليماً لاستقبال المهاجرين، وكان بإمكان المهاجرين الجدد الصعود إلى المرتبة الخاصة من خلال بعض الأجيال. وقد نجح الطرشان بعد منتصف القرن في الصعود الأسطوري. وبالعكس تراجعت بعض العائلات التي كانت مؤثرة وذات نفوذ من قبل إلى مكانة دونية. فقد تراجعت بعد منتصف القرن عائلة القلعاني التي كانت تعد في بداية القرن إحدى العائلات الثلاث ذات المكانة حيث كان لديها مشيخة شقا. وأكبر مثال على السقوط الاجتماعي إلى الحضيض ما أصاب الحمدان في النصف الثاني من القرن الـ١٩ الذين لم يفقدوا فقط مكانة شيخ المشايخ بل تراجعوا إلى العامة والنسيان. وفي سنة ١٩٢٤ كان يوجد ١٥ عائلة أصيلة وشريفة تنتمي إلى الخاصة وهم متدرجون كالتالي:

١. الأطرش
٢. العامر
٣. الحلبي
٤. عزّام
٥. هنيدي
٦. سلام
٧. قلعاني
٨. أبو فخر

---

٢٠١. حنا، العامية، ص١٨٤.
٢٠٢. جاد الله عز الدين، مقابلة ٢٧/ ٩/ ١٩٩٣.

٩ . صحناوي
١٠ . أبو عسّاف
١١ . شلجين
١٢ . نصّار
١٣ . درويش
١٤ . كيوان
١٥ . قنطار .

والقسم الأكبر منهم من أصول شمالية من المقرن الشمالي والذي يدعى أيضاً «المقرن العائلي»[٢٠٣] . وفي الجنوب كان يوجد فقط الطرشان .

وفي الطبقات الدنيا للعامة كان إلى جانب العائلات الصغيرة التي تمتلك أراضي على الأقل «الفلتية»[٢٠٤] . والفلتية هؤلاء لم يكونوا يمتلكون أراضي ، وكانوا يستطيعون العمل إما كعمال يوميين أو من خلال عقود عمل . و كان عقد العمل المستخدم في جبل الدروز (مثل باقي المناطق الحدودية من بلاد الشام) عقد المرابعة . والمرابع يعطي قوة عمله رهن الإشارة ويأخذ مقابل ذلك من صاحب العمل : «الثيران والمحاريث والبذور . والعامل الذي يكون تحت رعيته فدان أو ثوران يحصل عموماً في وقت بذر البذور على غرارة حبوب . وبعد الحصاد يحصل على ثلث محصول الحقل . ولكن عند الدروز كان يحصل على الربع . فالمالك يدفع إلى الحكومة ما يعرف بضريبة الميري والعامل يدفع عشرة قروش سنوياً»[٢٠٥] .

والمرابع كان يسكن عند صاحب الأرض أو شيخه وينام على نوع من «الدكة» الملاصقة للجدار . ويعتبر جزءاً من العائلة ، يعيش معها ، هذا إذا لم يكن لديه أرض خاصة كافية للمعيشة ويعمل إضافة إلى ذلك كمرابع[٢٠٦] .

و قد ذكر «زتسن» في بداية القرن الـ١٩ أن متاولة من جبل عامل كانوا يعملون كعمال موسميين في السهل[٢٠٧] . ومع ازدياد الإسكان في الجبل كان فلاحون مسلمون فقراء من السهل أو دروز من الجبل نفسه من العائلات الكبيرة التي لديها ملكيات صغيرة وعدد يزيد عن الحاجة من الأبناء يعملون لدى الشيوخ أو أغنياء الفلاحين في الجبل كمرابعين[٢٠٨] .

٢٠٣ . فضل الله هنيدي (مولود ١٩٣١) ، مقابلة ٢٠/٨/١٩٩٣ .
٢٠٤ . تعبير «فلتية» عن عبدالله حنا ، العاميّة . أشكر الدكتور عبدالله حنا لمساعدته الكريمة خلال البحوث لهذا الكتاب .
٢٠٥ . Burckhardt, p. 464.
٢٠٦ . Latron, **La vie rurale**, pp. 85-86.
٢٠٧ . Seetzen, p. 61.
٢٠٨ . جمال الخطيب (صميد ، مولود ١٩٠٠) مقابلة ٢٣/٨/١٩٩٣ .

وقد امتد نظام المرابعة حتى الأربعينيات والخمسينيات من القرن الـ٢٠، إذ إن الفقراء وكذلك الذين لا يملكون الأراضي تركوا الجبل في موجات هجرة كبيرة إلى ما وراء البحار.

والفلتية كان عليهم أن يعملوا كعمال يوميين:

«إن السكان الباقين من الحورانيين الذين يعملون في الأرض هم عمال مياومون. وعموماً هم يكسبون خبزهم بالصعوبة. فإنني قد قابلت مرة شاباً خدم طوال ثماني سنوات من أجل لقمة العيش. وبعد مرور هذا الوقت تزوج من بنت سيده والتي مقابلها كان يجب أن يدفع ٧٠٠-٨٠٠ قرش. وعندما قابلته كان متزوجاً منذ ثلاث سنوات وقد شكا من والد زوجته الذي لا يزال يكلفه بأقسى الخدمة بدون مقابل...»[٢٠٩].

وحسب «بوركهارت» يعتبر غنياً من يملك زوجين أو ثلاثة أزواج من الثيران وجملين وحصاناً أو بعض الحمير و٤٠-٥٠ رأساً من غنم أو ماعز[٢١٠].

والواقع أن عائلات من الصف الأول والثاني وحدها، صاغت التاريخ. ومن اللازم أن ندرك أنهم كانوا عبارة عن جزء صغير من مجموع السكان نسبياً. وهذا ينطبق بشكل خاص على جنوب الجبل الذي كان يستوطنه الطرشان بكل ما للكلمة من معنى.

٧- تركيبة مجتمع إقطاعي؟

خلال العهد العثماني، ونتيجة التأثر بمنهج التاريخ الاجتماعي، ابتعد المؤرخون عن النظريات الكبرى مثل «نمط الإنتاج الآسيوي في الشرق الإسلامي». ولكن البديل ليس في وصف وحدات صغيرة وأصغر من ذلك. كما ذكر ألكسندر شولخ Alexander Schölch:

«تشغل مشكلة النظرية خصوصاً هؤلاء المؤرخين الذين يهتمون بالأسئلة التطورية العامة والذين ينظرون إلى تحليل الطبيعة والحركية الداخلية وتطور هذه المجتمعات باعتبارها أهم واجبات بحوثهم»[٢١١].

وكان «شولخ» درس مشكلة الإقطاع غير الأوربي في مثال جبل لبنان وفلسطين[٢١٢].

وينبغي أن ندرك أن درجة اندماج الأقاليم المختلفة داخل الدولة العثمانية كانت مختلفة، «البعض كان مندمجاً بشكل قوي في إطار الدولة (أي مراقباً إدارياً من إسطنبول) والبعض

٢٠٩. Burckhardt, p. 464.

٢١٠. Burckhardt, p. 461.

٢١١. Schölch, **Zum Problem**, p. 107.

٢١٢. Schölch, **Zum Problem**, p. 119.

الآخر بشكل ضعيف فقط»[٢١٣]. فالمناطق الجبلية كانت بعيدة عن رقابة عواصم المقاطعات والإمبراطورية بشكل خاص، وكان من الممكن أن تنشأ فيها تركيبات مستقلة قريبة من التركيب الاجتماعي الإقطاعي إلى حد ما. وإحدى هذه المناطق التي تثير مسألة الإقطاعية هي منطقة جبل الدروز.

وقبل أن نناقش السؤال إذا ما كنا سنتعامل في قضية جبل الدروز مع تركيبة اجتماعية إقطاعية، لا بد أن نوضّح تعريف الإقطاعية. ومن أكبر المشاكل في المناقشة حول الإقطاعية أن ليس هناك «تعريف علمي مقبول عند الجميع للإقطاعية، أي يجمعون عليه عندما يتكلمون عن الإقطاعية وعن المجتمع الإقطاعي والنظام الإقطاعي»[٢١٤].

ولكي نـنطلق من منطلقات واحدة على الأقل في ما يخص المناقشة حول «الإقطاعية في بلاد الشام» سنتطرق إلى التعريف المقدم من «شولخ»، خاصة وأن تعاريفه للبنان ككيان شبه إقطاعي، وإلى جبال فلسطين ككيان غير إقطاعي دخلت صلب الموضوع. وأهم من ذلك واقع التعامل في قضية جبل الدروز مع بلد جاذب للمهاجرين، قدمت أغلبية مستوطنيه من مناطق جبلية مشابهة. وأخيراً وليس بالآخر، فإن المناقشة معقولة فلا مؤرخو الجبل نفسه ولا مؤرخو سوريا بشكل عام عالجوا مشكلة الإقطاعية في جبل الدروز. وسنستخدم المناقشة لبعض التأملات المبدئية على أساس وجهة نظر أنثروبولوجية. وقد أسس «شولخ» عرضه، بناءً على «أندرسن» Anderson و«كوخنبوخ» Kuchenbuch و«كاهان» Cahen و«هال» Hall، على التعريف التالي:

«إن الأساس الاقتصادي للمجتمع الإقطاعي هو الإنتاج الزراعي و«اقتصاد الفلاحين». ووسائل الإنتاج فعلاً في حيازة الفلاحين الذين يتنظمون في العمل في الأرض بشكل مستقل. ويأخذ «سيد الإقطاع» الزيادة في الإنتاج بشكل فرائض عمل وأشياء عينية ونقود باستخدام ما يسمى «بالقهر غير الاقتصادي» أي ليس فقط من خلال علاقات اقتصادية ولكن على أساس التبعية السياسية الشرعية أو العرفية. وتُستخدم هذه الفرائض لأهداف استهلاكية، مقابل حماية الفلاحين. ويزرع جزءاً من الأراضي لمصلحته أو يجبر الفلاحين على زراعته لمصلحته هو.

فإن محتوى ونتيجة تنظيم الحكم هما تشابك السلطة السياسية الشرعية مع التحكّم الاقتصادي. وعنصرها الأساسي انقسام السلطة وارتباط إقليم كبير لا يصنع من خلال إدارة

---

٢١٣. Schölch, **Zum Problem**, p. 108.

٢١٤. Schölch, **Zum Problem**, p. 109.

مركزية أو «بيروقراطية حكمية» بل من خلال شبكة من التابعيات. وصلاحيات السيادة لا تقسم المؤسسات بل الأشخاص وتنفيذها مرتبط بالتحكّم الاقتصادي لـ«أقسام السيادة». ويدين كل صاحب «قسم» لصاحبه بالطاعة، وقبل كل شيء الطاعة العسكرية. وهو موجود في مقر سلطته. وأساس سيادته هو وسائل القهر المتوافرة له (فرسان مسلحون) وسلطته الشرعية هي الطريقة الرئيسة لتنفيذ القوة السياسية.

إن «المجتمع الإقطاعي» هو «مجموعة من أصناف طبقية». ويعني هذا أنه ليس من الممكن أن يفسر التركيب الاجتماعي من خلال التحكم بوسائل الإنتاج فقط وأن التدرج الاجتماعي يُعرَف اقتصادياً وسياسياً وقانونياً. وفي المركز يبرز الخلاف بين طبقة متدرّجة شريفة تحمل السلاح وتبرر مكانتها من خلال مناصبها العسكرية من جهة، وطبقة فلاحية من جهة أخرى. ومبدأ العلاقات الاجتماعية هو مبدأ الولاء والتبعية الشخصية، والحماية الشخصية كما التبعية الشخصية، مع أن العلاقات الاجتماعية فوق مستوى المنتجين البدائيين متماثلة عموماً، بينما كانت العلاقات بين الفلاحين والأسياد غير متماثلة. والمنطقية وراء هذه الحالة غير المتساوية على هذا المستوى هي أنه كان في النية أن يكون الفلاحون مرتبطين بالأرض التي يعملون فيها»[٢١٥].

وطبقاً لـ«شولخ» كان في جبل لبنان نوع من الإقطاعية، أما في فلسطين فكانت هناك عناصر إقطاعية ولكن لم يكن هناك نظام متطور «يسمح أن نتكلم على نوع من الإقطاعية»[٢١٦].

ولإدراك خصوصية التراكيب الاجتماعية في جبل حوران، من المفيد أن نقارنها مع الأوضاع في المناطق الأصلية للمهاجرين، وخصوصاً، بطبيعة الحال، مع جبل الدروز في جنوب جبل لبنان البارز سياسياً وديموغرافياً.

من اللازم أن يكون مركز المقارنة نظام «الإمارة» الذي كان مزدهراً في جبل لبنان منذ عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني(١٥٨٥-١٦٣٥). وبعد أن انتهت سلالة المعنيين سنة ١٦٩٧، ورثهم الشهابيون حتى أعلنت الدولة العثمانية نهاية الإمارة سنة ١٨٤١[٢١٧] وأدمجت الإمارة بالدولة العثمانية بشكل ثابت؛ وتلقى الأمير الحاكم الشهابي «عباءة الإمارة» وهي لباس شرف سنوي يخلعها عليه الوالي العثماني[٢١٨]. إن جبل لبنان مختلف بعض

---

٢١٥. Schölch, **Zum Problem**, p. 110; **Palästina**, p. 16.

٢١٦. Schölch, **Palästina**, p. 168.

٢١٧. Harik, **Politics**, chap. 3, p. 37-73; Schölch, **Zum Problem**; Akarli, **The Long Peace, chap.** 1.

٢١٨. Harik, chap. 3, p. 37-73.

الشيء بالمقارنة مع جبل الدروز بكونه ليس «منطقة لجوء أقليات» بل منطقة مركزية بين صيدا ودمشق. كل ذلك جعل تلك المنطقة ذات أهمية سياسية. لقد كان إطاره السياسي معرفاً من الداخل وليس محدداً من قبل اسطنبول. وهكذا «فقد فُرضت الضرائب رسمياً باسم السلطان، ولكن كان الأمير الحاكم يرسل بالواقع إتاوة متفاوتة المقدار، حسب توازن القوة»[٢١٩]. وهذا الوضع يشبه وضع جبل الدروز؛ إلا أن الخلاف، كان في الفرق بين النظامين السياسيين «الإمارة» و«المشيخة».

فداخل الإمارة، كانت المركزية السياسية قد خطت خطوة أبعد وكذلك كانت المهمات والمؤسسات أكثر تحديداً. والمنطقة التي يمثلها الأمير مؤلفة من مقاطعات، كان التحكم السياسي الشرعي والاجتماعي الاقتصادي في يد العشائر الكبيرة الممثلة بالمقاطعجي الذي كان منصبه محدداً من خلال علاقته بالأمير وليس بالسلطان. كان الفلاحون داخل «قسم السلطة» يشتغلون في أراضيهم الخاصة، أو يخدمون في أراضي المقاطعجيين أو أملاك نبلاء آخرين. وبالنسبة للإدارة الضرائبية العثمانية، فلا احتكاك مباشراً لها بالفلاحين، بل كانت تحصّل بأشكال مختلفة، وغالباً ما كانت تجبى بلا انتظام أو بمصادرات تحصّل قسراً من فائض الغلّة تحت أشكال مصاريف أو نفقات، أو أعمال سخرة أو إتاوة تحصّل بطريقة غير شرعية من قبل المقاطعجيين.

كان الأمير الحاكم هو القائد العسكري العام، ويستطيع دعوة المقاطعجيين للخدمة. ولم يكن يستطيع الحكم بالإعدام ولكنّه كان ينفي غير المرغوب فيهم من المقاطعجيين ويصادر أملاكهم، فتجنى أو تقلع غراسهم وتؤخذ تدابير أخرى ضد أملاكهم[٢٢٠]. ولم يكن للمقاطعجيين الحق في أن يثوروا ضدّ الأمير إلا بقيادة أمير آخر من بيته[٢٢١].

كانت الفئات الاجتماعية تعرف حدودها الفاصلة فيما بينها بدقّة، وعلاقاتها ببعضها خاضعة لأساليب بروتوكوليّة معيّنة. كما كانت الألقاب والوجاهات تتدرّج بين الأمراء والمشيخات كالتالي:

الأمراء: آل معن، آل شهاب، آل أرسلان، آل علم الدين، آل أبو اللمع.

المشيخات: آل عماد، آل القاضي، آل الخازن، آل تلحوق، آل عبد الملك، آل عيد، آل جنبلاط، آل أبو نكد.

---

٢١٩. Schölch, **Zum Problem**, p. 112.

٢٢٠. Harik, **Politics**, p. 63.

٢٢١. Harik, **Politics**, p. 53.

وكان ضمن هذه الفئات تدرج صارم أيضاً لم يبرز في القائمة المذكورة أعلاه[٢٢٢]. وهكذا فقد ازداد هذا التقسيم ثباتاً مع الزمن، ويصف ذلك «حريك» بقوله:

«لم يكن الرجال متساوين، فلكل فرد مكانة يحدِّدها ميلاده والرجال يولدون إمّا «عامّة» أو «شيوخاً» . . . أو «أمراء» ولكل طبقة مكانتها الخاصّة وحقوقها في المجتمع»[٢٢٣].

أما فلسطين فقد كانت، بعكس لبنان، مندمجة إدارياً في الدولة منذ الفتح العثماني اندماجاً ثابتاً بحكم موقعها الاستراتيجي وأهميتها التجارية. ولكن مع الانحدار المستمر للسلطة العثمانية، بدأت عائلات نبيلة تصعد والكثير منها من أصول بدويّة. وهكذا فقد انقسمت المنطقة إلى مراكز سياسيّة عائلية ذات علاقات تبعية اجتماعية واقتصادية وسياسية وشرعية بين الفلاحين والسادة المحلّيين. لكنها لم تتطور إلى «أنظمة منغلقة ذات سيادة وقيادة متمركزة في ذاتها، بل بقي السلطان والوالي العثماني المرجعية المباشرة للسادة المحليين. ولم يكن هناك أمير يرسل الضرائب، وإنما كان والي دمشق يتولى جمع الضرائب ضمن حملة سنوية تسمى «الدورة»، أو يحاول ذلك على الأقل . . . و بهذه المناسبة كان الشيوخ وحكام المناطق يعينون أو يعزلون»[٢٢٤] . وكان دور الدروز في فلسطين ثانوياً جداً. ولكنهم حملوا تجربتهم هذه في حالة ترحالهم إلى جبل حوران.

إن جبل الدروز بالمقارنة مع لبنان وفلسطين، يقع في موقع وسط بين المنطقتين. ومن أجل فهم العلاقات الاجتماعيّة الداخليّة في جبل الدروز هناك عنصر هام لا بد من أخذه بالاعتبار: إن القادمين إلى الجبل جاؤوا إلى منطقة تسيطر عليها عشائر بدوّية صغيرة. وهكذا أثر المجتمع البدوي على التركيبات في الجبل بشكل حازم.

وإذا ما أخذنا بالاعتبار المقاييس الرسميّة كما في جبال لبنان والاختلاف مع جبال فلسطين، نجد أنّه في جبل حوران قمة تدرجية في نظام حكم منقسم. ومع أن وضع «شيخ المشايخ» من ناحية البنية السياسية لم يكن متشكلاً مثل حكم الأمير الحاكم في لبنان إلا أنه كان موجوداً وقابلاً لذلك. فواحد من جوانب تاريخ جبل حوران الشيّق، هو بداية محاولات «الأطرش» للبروز والتوسّع كإمارة منذ النصف الثاني من القرن الـ١٩.

منصب «شيخ المشايخ» كان يسميه والي دمشق مباشرة. وكان «شيخ المشايخ» مسؤولاً عن جمع ضرائب «الميري» وتحويلها إلى دمشق. وبذلك فقد كان أشبه بمقاطعجي، مع أن هذا التعبير لم يرد في جبل الدروز إلا نادراً (في ما عدا مصدر عربي من فترة ما قبل الإصلاح

٢٢٢. Harik, **Politics**, p. 40.

٢٢٣. Harik. **Politics**, p. 40.

٢٢٤. Schölch, **Palästina**, 166.

الإداري قبل سنة ١٨٦٤ تحدث عن «مقاطعة جبل حوران»).

لم تكن الضرائب في الجبل تجمع من قبل موظفين عثمانيين في «دورة» كما في جبال فلسطين، أو في سهل حوران وإنما كانت الضرائب تجمع من قبل شيوخ القرى، وهؤلاء يدفعونها بدورهم إلى «شيخ المشايخ». وتشير الشكاوى العثمانية الكثيرة من الضرائب المتأخرة إلى أن هناك إمكانية ألا يحدث ذلك على حساب توازن القوى في كل سنة. وهذا يشبه إلى حد ما الإتاوة التي كانت تدفعها القبائل البدوية.

كانت السلطة في جبل الدروز، حتى منتصف القرن الـ١٩، تتجه إلى الداخل وليس إلى اسطنبول ولا حتى إلى دمشق. واعترف المسؤولون العثمانيون وقتها بتوازن القوى فقط ولم يتدخلوا بذلك. وهكذا كان الفلاحون يرتبطون بالشيخ أولاً الذي هو المسؤول القضائي والاقتصادي والاجتماعي بالنسبة لهم، يدير شؤونهم ولا ينظرون إليه كموظف عثماني. والشيوخ في القرى، كانوا يعالجون أمورهم في ما بينهم أولاً أو يعودون إلى «شيخ المشايخ» ومن هذا الجانب يستطيع المرء أن يتحدّث عن نوع من الإقطاعية:

ففي محيط الإنتاج كان اقتصاد الفلاحين هو المسيطر، ووسائل الإنتاج كانت في حيازتهم وتحت تصرفهم. ويخصّ الشيوخ أنفسهم بفائض الإنتاج على شكل فرائض عمل، أو أشياء عينية، أو قيمة نقديّة من خلال ما يسمى القهر غير الاقتصادي. ويتم ذلك ليس على قاعدة اقتصادية، وإنما على قاعدة تبعية سياسية شرعية. وهكذا يستطيع المرء أن يتحدث في مجال الاقتصاد عن نوع من النظام الإقطاعي، وفيه بدايةً مشاكل هامّة في دائرة التحديد: والحماية التي كانت تتوفر للفلاحين مقابل دفع «القُصرة» تم استبقاؤها على القادمين الجدد فقط، كون القرية بمجموعها تدافع تحت قيادة الشيخ. وحتى منتصف القرن الـ١٩ لم يكن للشيخ قوة من المحاربين النبلاء الذين يحملون السلاح ويدافعون عن الفلاحين المرتبطين بالأرض (كما كان الحال في أوربا).

ونأتي هنا إلى نقطة هامة: فليس من فصل حاد بين الفلاحين والنبلاء (كما في النظام الإقطاعي الأوربي). لماذا؟ السبب أننا نتعامل هنا مع جماعة قبليّة تقوم هيكلياتها على القربى. والفلاّح هو من أفراد العشيرة، إلاّ أنه فقير خاضع لضغوط الشيخ. أما الحماية فهي مؤمنة لمن هم من خارج العشيرة، والعشيرة حسب المفهوم المحلي قد تكون العشيرة بمجملها أو فرعاً منها.

ولهذا فقد كانت هذه النقطة هامة جداً إذ إنّها تقدم نظرياً مبدأ هاماً للبحث في إقطاع غير أوربي – ولذا من المفيد جداً أن يكون للدراسة استطراد عن المجتمع العشائري.

هناك آليات نظرية لتحليل المجتمعات العشائرية من قبل الأنثروبولوجيا التي نستمد منها

المصطلحات . وقد شغف الباحثون بدراسة المجتمعات العشائرية لأسباب مختلفة . أولاً ، كان من الممكن أن يتم الوصول عبر الدراسة العملية لهذه المجتمعات إلى نظرية عامّة لعناصر تركيب المجتمع الإنساني ، الأمر الذي أنجزته مدرسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية الإنكليزية . ثانياً ، كان لهذه «المجتمعات التي هي بدون دولة» طاقة ضخمة لمقاومة الاستعمار التي حرّكت بحثها ، وهكذا تمثلت في عيون الكثيرين في السبعينيات من القرن الـ٢٠ «قدرة للتقدم الاجتماعي» ، كما جاء في قول الباحث الألماني «زيغرست» Sigrist :

«المقاومة الشرسة ضد الاستعمار من قبل عشائر تركيبها السياسي بسيط للغاية ولا رئيس لها حتى (ولذلك أطلق عليها «إيفانز بريتشارد» Evans Pritchard التعبير العلمي «أكيفال» - akephal ، «بلا رأس») أدّت بالأنثروبولوجيين البريطانيين وقت الاستعمار لطرح موضوع الجوانب السياسية للنظام الاجتماعي لهذه العشائر المتمردة ، بدلاً من تصنيف النظام السياسي لعشائر بسيطة التركيب ظاهراً كنظام ناقص فقط»[٢٢٥] .

هذا وقد عرّف «فيفلو» Vivelo المجتمعات العشائرية كمجتمعات «أكيفالية» أي «بلا رأس» :

«إن تركيب العشيرة ، هو أشبه ببناء من عناصر مسبقة الصنع ، أي وحدات صغيرة تتكامل في سلسلة متتابعة إلى أكبر فأكبر ، حتى تصل إلى مستوى العشيرة . ومن المهم أن ندرك أنه لا توجد أي سلطة مركزية على مستوى العشيرة»[٢٢٦] .

إن العنصر الأساسي في هذا التركيب هو البيت household . ومجموعة بيوت قريبة تشكل ما يسمى السلالة lineage أو العائلة أو الحمولة clan .

إن مجموعة عائلات تشكل قرية ومجموعة قرى تشكل ناحية (دائرة) ومجموعة النواحي هي العشيرة . وحسب مكان السلطة يتم التعامل هنا مع «مجتمعات منقسمة» أو مع «مشيخات» . فإذا كان مركز السلطة السياسيّة على مستوى أعلى من العناصر البدائية ، فالسيد نقطة وصل بين النواحي وبين مستوى العشيرة ، وبهذه الحالة نتعامل مع مجتمع مشيخات . وهذه المشيخات بدورها تتكون من عدة مجموعات نسب (أي فروع وعائلات وحمائل) متدرجة ، وبينها مجموعة تعتبر مجموعة الشيخ أو النبلاء (الشرفاء) . ومن هذه المجموعة يأتي الشيخ الذي هو سيد عائلات المشيخة وسيد الأرض التي يستغلونها وتتبع لهم . ومجموعة من المشيخات تشكل العشيرة[٢٢٧] .

---

٢٢٥ . Christian Sigrist, "Gesellschaften ohne Staat und die Entdeckung der social anthropology", in: Christian Sigrist/Fritz Kramer, **Gesellschaften ohne Staat**, Frankfurt, 1978, pp. 29-31.

٢٢٦ . Vivelo, **Handbuch**, p. 202.

٢٢٧ . Khoury/Kostiner, **Tribes and State Formation**.

وفي جبل الدروز خطت عملية مركزية القوة السياسية خطوات أبعد. وكان هناك سلطة مركزية هي سلطة «شيخ المشايخ» المتعاون مع فئة «الخاصّة». وسياسة السيادة الداخليّة في الزعامة لم تكن كثيفة جداً، بالرغم من وجود قمة سياسية، - وكان «شيخ المشايخ» والزعماء الآخرون عبارة عن سلطات تنفيذية للإرادة العامة التي تتشكل كل يوم من جديد، مع أنهم تحت رقابة الشيوخ والهيئات الاختيارية في القرى، ويمكن لهؤلاء أن يعزلوهم. وعلى كل حال، فقد كان كل الزعماء مرتبطين «بحق العرف والعادات». ولذلك كان التنافس بين رجال العشيرة وبين العشائر نفسها مستمراً دائماً. والعائلات الصغيرة تحاول أبداً رفع مستواها بكل إمكاناتها عبر علاقات حماية وتحالفات و«سياسة المصاهرة».

وهكذا نلاحظ في هذا المجتمع حركية كبيرة - وتبذل جهود غير محدودة في سبيل الشرف والجاه، وهذا أدى إلى تفضيل الفرد لمصالح العائلة على مصالحه الفردية.

إن افتراضي هو أن في التركيب الاجتماعي والاقتصادي لجبل الدروز كما في جبل لبنان (ومن الممكن أن يكون مستورداً من هناك) عناصر إقطاعية، وكذلك في التركيب السياسي الإداري للدولة العثمانية.

ولكن كان هناك تركيب ثان أرغب بتسميته تركيباً اجتماعياً وسياسياً بمفهوم فكرة «السلطة كممارسة اجتماعية»[٢٢٨]، وأساسه فكرة المساواة بين كل رجال العشيرة أو العائلة[٢٢٩]. والعشيرة أو العائلة هي صاحبة رأسمال الشرف الذي يشترك فيه حتى أفقر أعضائها. وهي أيضاً المطالبة بالثأر ودافعة الدية[٢٣٠].

أمّا هذه المشكلة الاجتماعيّة فلم تزل تشغل الخطاب السياسي في الجبل حتى يومنا هذا. وبمناسبة الذكرى المئة لحركة «العاميّة» التمس دروز الجبل من مؤرخ سوري أن يؤلف كتاباً في هذا الموضوع[٢٣١]، على أن يكون الكتاب المطلوب موضوع نقاش، قبل إخراجه، من قبل مجموعة من الشباب المثقفين. وقد أتيحت لي فرصة حضورهذه الجلسة. فبالرغم من الإقرار بمبدأ «الإقطاعية» والتحليل الطبقي، فقد اجتهد في إيضاح خصائص الإطار العشائري، من خلال تصنيف علاقات السيد آنذاك، وقد تبين أن علاقته مع الجماعة كانت «نصف ديموقراطية». وكذلك عن الاستعمال المتكرر لتعبير «العصبية القبلية» قد أعطي مدلولها أحقيته وكان في محله. أما بالنسبة لتصنيف «الشيخ» آنذاك فقد كانت له صفة «إقطاعي متعصب».

---

٢٢٨. Lüdtke, **Herrschaft als Soziale Praxis**, Einleitung.

٢٢٩. استخدم أيضاً حنا أبو راشد العبارات «عائلة» و«عشيرة» بنفس المعنى.

٢٣٠. Gellner, Tribal Society, in: Tapper, **The Conflict**, p. 440.

٢٣١. كانت الغاية أن يؤرخ للمرحلة مؤرخ تقدمي من خارج الجبل.

وقد رفض هذا من قبل الحاضرين - وليس فقط من المرتبطين بعشيرة ذات نفوذ بل أيضاً من قبل مثقفين تقدميين - ولم يوافقوا على هذا الوصف كمطابق للعلاقات السياسية التاريخية في الجبل، خاصة أن التطور الاجتماعي الذي حدث لدى تطبيق السياسة الإقطاعية، في مجتمع الجبل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، استدعى قيام حركة «العاميّة».

وللإشارة، ما زال الوعي موجوداً بأن هناك اختلافاً مع الإخوة في لبنان حتى يومنا هذا. وعن متحدث من الجبل قوله:

«ما زال في لبنان مع الأسف تدرج قوي - ولكن في الجبل نحن ندافع عن أنفسنا ضد الظلم»[٢٣٢].

إن تاريخ جبل الدروز حتى منتصف القرن ١٩ قائم فقط على التوتر المستمر بين الإقطاعية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسة الإدارية في العهد العثماني وإطاراته من جهة، وعلى العلاقات المتعارضة الداخلية في التطبيق الاجتماعي من جهة ثانية.

أما بالنسبة لموضوع الهيكلية العشائرية في جبل الدروز، فيظن أنها استحدثت نتيجة الاختلاط الحضاري مع بدو الجبل و البادية، وأنها لقيت ظروفاً ملائمة عند «الدروز كجماعة» نحننية ذات طابع خاص، كما يمكن أن يضاف إلى ذلك، كونهم مهاجرين وافدين ليس لهم اهتمام بتقليد نفس الهيكليات التي سببت طردهم[٢٣٣].

يدور في الجبل حديث واسع وذاكرة نشيطة عن بعض الملامح البدوية في ثقافة الدروز، حيث إنها تدل على أصول يمنية، أي أنهم ينحدرون من جذور بدوية قبائلية ودمهم «عربي نقي» (بصيغة «الأبولوجية» لهذا الافتراض) أو أنهم اكتسبوها في احتكاكهم بأهل الجبل القدماء وبقبائل البادية. ومن الملاحظات التي تجيز الاعتقاد بما تقدم، ما يلي:

١- تقديم القهوة مترافقة مع طرق إيقاعي «للمهباج» والأغاني البطولية.

٢- أسلوب الأناشيد وإطراء الأبطال المكافحين بشكل عام.

٣- الربابة، الكمان العربي البدوي.

٤- العزوف عن بعض المهن اليدوية وبعض التجارات (مهنة البيطار مثلاً، كانوا يقدمون إلى الجبل من «دير عطية»)[٢٣٤]. وحتى بعد أن بدأوا يمارسون المهن فقد بقوا بعيدين عن المهن الوضيعة[٢٣٥] مثل صناعة البارود مثلاً[٢٣٦].

---

٢٣٢. مقابلة مع فرحان الجرمقاني، ٦/٨/ ١٩٩٣.

٢٣٣. كان الجبل ملاذ القادمين من لبنان.

٢٣٤. حنا، **العاميّة**، ص١٦٢.

٢٣٥. Burckhardt, pp. 202-203.

٢٣٦. **MAEP**, CCP, Guillois à Ribot, 5 Avril 1890: «الصناعة الوحيدة في جبل الدروز هي صناعة بارود الأسلحة».

٥- اقتناء العبيد السود كما يفعل البدو.

٦- حماية الدخيل إذا ما دخل الحمى، واستجار أو أشهد بأنه يستجير. ولقد كتب «فتستشتاين» عن هذه العادة ما يلي:

«... إذا ما دخل الدخيل بيتاً أو خيمة، يعقد طرف كوفية سيد المكان ويقول: «أنا دخيلك» ويخبره بأمره. وإذا أراد صاحب البيت أن يحميه رحب به... والمدة الأدنى هي ثلاثة أيام وثلث اليوم الرابع ويحصل عليه عبر دخول خيمة البدوي أو تناول الأكل عنده»[٢٣٧].

هذه العادة معروفة ومطبقة عند الدروز. والملاحظ أن حماية الدخيل قد سببت للموظفين الفرنسيين مشاكل عديدة. كما أن الديّة والثأر للدم، كلها عند الدروز أمور معتادة.

لقد هدفت مؤرخة الريف السوري في عملها لتفسر تاريخ حوران من ناحية اقتصادية، وتوصلت من خلال بحثها في زراعة القمح في أواخر العهد العثماني إلى الاستنتاج التالي:

«إن حقيقة استمرار فلاحي سوريا، بالانتفاضات جيلاً بعد جيل، ربما تعتبر مؤشراً قوياً إلى أن «شيئاً ما» في تركيبة المجموع الفلاحي المحلي، الاجتماعية والسياسية، كان يغذيها ويمدّها بالطموح والدوافع لمتابعة النضال. وإلاّ فكيف تستطيع تفسير حقيقة أن فلاحي سوريا في العهد العثماني استطاعوا المحافظة على موقع مساومة لصالحهم، أقوى منه لدى أي مجموع مماثل في المناطق الريفية، سواء في منطقتهم أو في مناطق أخرى كثيرة في العالم»[٢٣٨]؟

هذا «الشيء» هو الهيكل الاجتماعي العشائري المميز في جبل الدروز، حيث كان أشد بكثير مما هو عليه في السهل، الأمر الذي أدى إلى «حركات ريفية اعتراضية»[٢٣٩]. ومن الجدير بالذكر أن «العاميّة» حدثت في الجبل فقط ولم تتعدّ إلى السهل[٢٤٠].

٨- جبل الدروز في نهاية خمسينيات القرن التاسع عشر

لقد كان جبل الدروز، حتى منتصف القرن التاسع عشر، آخر المناطق التي استطاعت أن تحتفظ باستقلاليتها في بلاد الشام. فلم يفلح إبراهيم باشا «المصري» في فرض الجنديّة

٢٣٧. Wetzstein, **Hauran**, p. 148, Gräf, **Rechtsordnung**, p. 28.

٢٣٨. Schilcher, **Grain economy**, p. 195.

٢٣٩. راجع الفصل الأول.

٢٤٠. تعتبر «شِلخر» في بحثها: الجبل وحوران، الجبل وحده بالرغم من تأثير الجبل على حوران.

الإلزاميّة على الدروز، كما فشلت أيضاً محاولات الباب العالي العثماني سنة ١٨٥٢ بفرض ذلك. ومرة أخرى كانت اللجاه ملجأ العصيان عن الخدمة من السهل والجبل. كما كانت البراهين المقدمة في عدة مضبطات (عرائض) حول الخدمة الإلزامية تقوم على المجال الاقتصادي وطريقة الدفاع والحماية. ولقد كتب الشيوخ المسلمون في السهل[٢٤١] وشيوخ الدروز في الجبل إلى السلطات يذكّرونها: بأنهم يحتاجون إلى شباب السهل وشباب الجبل في الزراعة وخدمة الأرض، كما في صدّ هجمات البدو المستمرّة عليهم، خاصة أن السلطات الرسميّة لا تستطيع حمايتهم[٢٤٢]. ولاسيّما أن البدو غالباً يهزمون القوات العثمانية في ثوراتهم ضدها. ولأول مرة، فإن بعض القادمين الجدد (لم يمض على وجودهم في الجبل فترة بعيدة) يجعلون من أنفسهم ثوريين قياديين، ويعدون بمستقبل زعامة باهر: فقد طلب «إسماعيل الأطرش» مع «آل عامر» إلى «واكد الحمدان» أن يتخلّى عن منصب «شيخ المشايخ». كما أن إسماعيل الأطرش قد تقدم أكثر وأعلن نفسه ثائراً ضد العثمانيين، وخاصة أن محمود عامر لم يشارك في الحرب الأخيرة ضدهم. وهكذا بدأ «الأطرش» يؤسس سلطته. لقد دام الصراع بين العائلتين حتى القرن الـ٢٠. وبينما كانت «للطرشان» علاقة مع القنصل البريطاني «وود» Wood، أقام «العوامرة» علاقة مع القنصل الفرنسي. وكان من نتائج انتفاضة ١٨٥٢، أن أقام الطرشان صداقة مع «سعيد جنبلاط» الذي قام مع «وود» بتوسط بين الطرفين الدرزي والعثماني. وكانت نتيجة هذا التوسط أن أعفي الدروز من الخدمة في الجيش، ولكن كان عليهم أن يدفعوا ضرائب ثلاث سنوات كانت متأخرة في ذمتهم. كما كان عليهم أن يدفعوا ضماناً كان متبقياً للبدو أيضاً. ونال بذلك زعماء الدروز العفو بشرط أن يعيدوا الأسلحة التي غنموها خلال الحرب[٢٤٣].

كان القناصل الأوربيون يتنافسون في كسب الصداقات والنفوذ، عبر التوسط لدى الحاكم العثماني وتدخّل دولهم لدى الباب العالي في حل القضايا المهمة لمصلحة من يرغب في صداقتهم ومعاونتهم. مع ملاحظة أنه في خضم هذا التنافس كان القنصل البروسي على جانب هامشي، وكان دوره، حسب تقاريره، كمن يجر عربة ليس أكثر، وليس له ظهور سياسي في الموقع[٢٤٤]. والآن، لمن سيكون الدور الأول بين الوسطاء: «وود» أم نظيره «فتسشتاين»؟ يظهر أن النزاع قد تفاقم بينهما[٢٤٥].

٢٤١. **MAEP**, CPC Turquie-Damas, vol. 2, Murry à de Lhuys, 7, 13 Dec. 1852; Firro, **History**, p. 111.

٢٤٢. Ma'oz, **Ottoman Reform**, p.123; Firro, **History**, pp. 110-111.

٢٤٣. Ma'oz, **Ottoman Reform**, p. 128.

٢٤٤. Huhn, **Wetzstein**, pp. 193-194; Die Ausschreitungen, p. 180.

٢٤٥. Porter, **Five Years**, p. 4; Petermann, **Reisen**, pp. 80-81; Huhn, **Wetzstein**, pp. 165-167.

بعد «حرب الدروز» في سنة ١٨٥٢ ، كما دعاها الأوربيون وقتئذ ، أصبح الجبل يعرف باسم «جبل الدروز» ، وقد استخدم اسمه القديم ، «جبل حوران» ، لدى الأجانب فقط كما كتب «بورتر» Porter سنة ١٨٥٣[٢٤٦] .

أما الوضع داخل الجبل ، فقد ذكرنا محاولات الاستيطان وحدوده . وبقي علينا أن نعطي بعض المعلومات عن الظروف الاجتماعية والسياسية في الجبل في نهاية خمسينيات القرن الـ١٩ . فقد زار «بورتر» Porter الجبل سنة ١٨٥٢ وقابل ابن «شبلي الحمدان» في «عرى» وذكر أربعة زعماء آخرين . وأن «الحمدان» ما زالت العائلة الأقدم وجاهة . ووصف «بورتر» «شيخ المشايخ» واكد الحمدان ، بأنه :

« . . . يمتطي مهراً أبيض أنيقاً . يرتدي عباءة قرمزيّة وعمامة بيضاء . . . من أشرف عائلات حوران معترف به كأعلى مرتبة شيوخ الدروز . . . ولكن ليس من شجاعة كبيرة في ميدان القتال»[٢٤٧] .

حيث كان واضحاً أن أيام هذه الأسرة أصبحت معدودة . والخصم الذي سيسقطهم كان «إسماعيل الأطرش» المذكور وقد كتب عنه «بورتر» :

«الشيخ إسماعيل الأطرش (إسماعيل الأصم) ، يعرف عنه عموماً بأنه الأشجع ، يتحدر من عرق شجاع ، فهو يتفوق على كثير من الزعماء الآخرين في شجاعته وبراعة شخصيّته . بهذا فقد حصل على نفوذ وتأثير كبيرين ، ليس عن طريق مكانة اجتماعيّة أو ثروة ، وليس عن نسب قديم وشريف بل «كمقاتل الحظ» استطاع بسيفه أن يشق طريقه نحو الزعامة»[٢٤٨] .

كما يورد «بورتر» أن عائلة «أبو فخر» تنتسب إلى عشيرة قديمة ، إلاّ أنها لم تستطع أن تحافظ على نفوذها وكان شيخها «قاسم أبو فخر» وهو الوحيد الذي رآه «بورتر» يدخّن[٢٤٩] . ولقد كان من الزعماء الصاعدين أيضاً «فارس عامر» ويصفه «بورتر» منافساً لواكد الحمدان ويقول فيه :

« . . . هو أعظم الزعماء قوة في حوران ، وهو الذي يستطيع أن يجلب أكبر عدد من الأتباع إلى ميدان القتال»[٢٥٠] .

وهناك شيخ آخر هو «عبّاس القلعاني» ، وقد ذكرنا استيطانه لقرى مهجورة في شمال

٢٤٦ . Porter, **Five Years**, p. 57.

٢٤٧ . Porter, **Five Years**, p. 128.

٢٤٨ . Porter, **Five Years**, p. 190

٢٤٩ . Porter, **Five Years**, p. 190.

٢٥٠ . Porter, **Five Years**, p. 68.

الجبل. كما كان هناك بعض الشيوخ أدنى مرتبة مثل «هزيمة هنيدي» و«حمزة درويش» وغيرهما.

المخطط المرفق يبيّن التوزيع العائلي والنفوذ في منطقة جبل الدروز في أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر. لقد تبيّنت النتائج الداخلية «للديناميكية العائلية» الكبرى في السنوات التالية حيث تبين مستقبل «إسماعيل الأطرش» في انقلاب يصفه «حنا أبو راشد». ونُقل أن الأب الأول للعائلة «عبد الغفار بن علي العكس» قد قدم من الجبل الأعلى بالقرب من حلب. وفي أواخر القرن الـ١٨ وصل إلى «برمانا» في جبال لبنان. ومنها نزح أحد أبنائه إلى قرية «بقعسم» في «إقليم البلاّن» ومن هناك انتقل إلى «مرجانة» في حوران[٢٥١]. وحسب مصدر شفهي فإن محمد، والد «إسماعيل الأطرش» (الأصم)، ومنه جاء اسم العائلة، غادر إلى «عريقة» ومنها ارتحل إلى «العفينة» ثم إلى «رساس» إلى أن سمح له «شيخ المشائخ» «واكد الحمدان» أن يستقر في «القريّة»، مقابل أن يدفع الأطرش إلى الحمدان سنوياً عُشر ذكور المواشي التي ستولد في كل سنة. وهكذا كان «إسماعيل بن محمد الأطرش» هو الذي أسس وجاهة «آل الأطرش»، التي كانت الأقوى نفوذاً وقتئذ، والأكثر تأثيراً، وصعدت إلى زعامة العشائر في «جبل الدروز». لقد كانت «القريّة» في مطلع القرن الـ١٩ من أول القرى المسكونة في جنوب الجبل. اشتبك «محمد الأطرش» سنة ١٨٤٦ مع «محمد الدوخي»، وهو الشيخ الأول لبدو «ولد علي» الذين هاجموا «القريّة»، وصدف أن كان إسماعيل غائباً، وقتل فيها قرابة ٧٤ نسمة[٢٥٢]. ففي المعركة ضد البدو، (ومما يذكر أن إسماعيل كان يجبي «القلاط» من البدو، أي ثمن الماء الذي تستهلكه مواشيهم فوق أرضه)؛ وضد العثمانيين سنة ١٨٥٢ (لبس خلال المعركة درعاً ووضع على رأسه ريشة) أظهر من البطولة والبسالة ما أبرز اسمه كمحارب مشهور في الجبل[٢٥٣]. كما كان له دور آخر زاد في سمعته الحربيّة وحنكته، وذلك في معركة سنة ١٨٦٠ التي سيأتي الحديث عنها في فصل قادم.

---

٢٥١. أبو راشد، جبل، ص٥١.

٢٥٢. Wetzstein, **Hauran**, p. 143.

٢٥٣. Porter, **Five Years**, p. 191.

الفصل الثاني

العاميّة


Universitäts- und Landesbibliothek
Sachsen-Anhalt

أ . الحكم العثماني المتجدد والانتفاضة في الداخل

١ . بلاد الشام كجزء من الدولة العثمانية في عهد التنظيمات

خلال النصف الثاني من القرن الـ١٩ حدثت العمليات الكبرى لقضيتي القرن اللتين فعّلتا، في جميع الأحوال، الانعطاف الحاد، للعهد العثماني، لأبعد الحدود، وهما: ربط الدولة بالسوق العالميّة وسعي الدولة إلى السلطة المركزيّة. لقد كانت سياسة السلطة في هذا السعي، هي في آلية مبدأ «التنظيمات». هاتان القضيتان، فرضتا التلازم والتوأمة في ما بينهما، وأدتا إلى هزات متعدّدة بعيدة المدى في المنطقة. وعندما سارتا في أهدافهما، أدتا معاً إلى العديد من «الحركات» شكلت بمجملها حروباً أهلية بين الموارنة والدروز في جبل لبنان خلال فترة ١٨٤٠-١٨٦٠، وكان تقدير الضحايا فيها، خلال أربعة أسابيع من صيف ١٨٦٠ قرابة ١٥,٠٠٠ مسيحي مع نزوح قرابة ١٠٠,٠٠٠ من ديارهم[١]، انتهوا في مذبحة دمشق. وردّ العثمانيون مباشرة على ذلك بقوة صارمة، متهمين أطراف المنطقة «بالممتنعين» عن دفع الضرائب ممّا يوجب ضبطهم وربطهم بنظام السّلطة.

وعلى غرار الإصلاحات التي قادها إبراهيم باشا في سوريا، جاء أول إصلاح من الباب العالي، مع التفاتة إلى الأفكار الغربية، في قوانين الإصلاح المهملة («خط شريف من كلجانة») لعام ١٨٣٩، كقانون مفصّل لتابعي السلطنة. والواقع أن القانون كان برنامجاً مهيّأً لإصلاحات مستقبلية هي التالية: في المجال العسكري تجنيد نظامي، وفي المجال الإداري إلغاء تعهد الضرائب. وفي العدالة والمساواة إلغاء الجزية وتحريم حمل السلاح. تلك كانت

١ . Salibi, **Modern History**, p.106 .

أهم مواضيع القانون («خط همايون») لعام ١٨٥٦ .

وهكذا توالى إصدار القوانين الجديدة والتصديق عليها حتى سنتي ١٨٦٠-١٨٦١ ، وصدرت في مجلّدات عدّة هي : قانون الجنايات لعام ١٨٥٠-١٨٥١ ، وقانون التجارة لعام ١٨٥٠ ، وقانون الأراضي لعام ١٨٥٨[٢] . ولقد عرفت فترة الإصلاحات القانونية منذ ١٨٣٩ تحت اسم «عصر التنظيمات» وانتهت مرحلتها الأولى بوفاة السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١[٣] .

كانت أهم مقاصد الباب العالي في «التنظيمات» هي تنفيذ الحكم المباشر وإبعاد الوسطاء على قدر استطاعته . ويقصد بهذا مركزية السلطة ، خاصة في المناطق شبه الاستقلالية وأطراف المناطق غير المرتبطة ، مثل حال جبل الدروز . أما سوريا فقد أخذت ، مثل مقاطعات عربية أخرى ، بهذه الإجراءات في وضع خاص تحت شروط خاصة . فقد تضمنت هذه الشروط حصر الشرعية الإسلامية بالسلطة العثمانية وتنظيم قافلة الحج من جهة ، ومن جهة أخرى إعادة السيادة العثمانية على المناطق التي كانت تحت الحكم المصري ، لاسيما أن الهيبة العثمانية كانت قد ضعفت في العديد من المقاطعات الأوروبية[٤] .

كانت السياسة الإدارية الجديدة كما ذكر «ماؤوز» Ma'oz عبارة عن إعادة نظام «الباشالك» القديم الذي قد شجع «اللامركزية»[٥] . وهكذا فقد أعيد تقسيم سوريا إلى ثلاث ولايات هي : دمشق (الشام) وصيدا وحلب وقسمت كل ولاية إلى «سناجق» أو «ألوية» . وكل سنجق قسم إلى «أقضية» وكل قضاء إلى نواحٍ ، والناحية هي جزء من مدينة أو مجموعة قرى . وعلى رأس كل ولاية يسمى والٍ وعلى رأس كل قضاء يسمى قائمقام ، وعلى رأس كل ناحية يسمى مدير ناحية ، وفي كل قرية أو مجموعة قرى يكون مختار .

لقد تفاعلت شروط المركزية المقصودة بشكل واضح في السياسة التي كان يرسمها الحكام . فقد كان الوالي يستدعى من منصبه كل عام تقريباً . ولم يكن له أية سلطة على القوات النظامية بل كانت قيادتها في يد «السرعسكر» أي القائد العسكري في الولاية . وقد كان هناك منصب مهم أيضاً ، يتصل مباشرة بالباب العالي في اسطنبول ، هو منصب المدير المالي («الدفتردار») ، كما أقيمت هيئة جديدة هي «المجلس» أي مجلس الولاية الذي يمثّل وجهاء المنطقة . وقد قُسّم هذا المجلس عام ١٨٥٤ إلى مجلسين : «مجلس الإدارة» ،

---

٢ . Ma'oz, **Ottoman Reform**; Hurewitz, **Diplomacy**, I, pp. 113-116, 149-153.

٣ . Ma'oz, **Ottoman Reform**, p. 29; Davison, **Reform**; Shaw, **History**, II, chap. 3.

٤ . Masters, "Ottoman policies toward Syria in the 17th and 18th centuries".

٥ . Ma'oz, **Ottoman Reform**, p. 31.

و«مجلس التحقيق»[٦]. ثم أعيد النظر في الحدّ من السلطة السياسية للوالي سنة ١٨٥٢. وألحقت بعد ذلك بالوالي قيادة القوات النظامية، كما ألحق به المدير المالي والمجلس. وكانت مهام الحاكم والقائد العسكري منوطة بشخص واحد حتى تنظيمات سنة ١٨٦٠.

ومن الجدير بالذكر أن قوة الوالي الفعلية كانت مرتبطة بشخصيته من جهة، ومن جهة أخرى بالظروف التي سبقت ورافقت توليه المنصب. هكذا يتضح في البحوث التاريخية الجديدة أن المناقشات بين المصالح المحلية ومصلحة العرش المركزية قد أصبحت قضية مساومة صريحة بين المجلس المحلي والوالي كممثل للعرش، وقد حلت هذه الرؤية محل صورة «الوالي المصلح والأعيان الرجعيين في المجلس»[٧]. وكذلك كانت العلاقة بين الوالي في دمشق وبين القائمقامين التابعين له في المناطق الريفية.

كان هناك عامل يثقل النظام بصورة جسيمة، وهو القوات غير النظامية مثل الدرك («الضابطية») وقوات الـ«باشي بوزوق» (أي «فارغي العقل») أو «الدلي» (أي «المجنون») كما كانوا يدعونها. لقد كانت مهمة هذه القوات هي جباية الضرائب وحماية القوافل والأمن بشكل عام. ولكن كان الرجال الذين يتنمون إلى هذه القوات، من الطبقات الشعبية الدنيا بصورة عامة، لا ثقافة لهم ولا حتى انضباط عسكري. ولم يكن آمرهم بأفضل منهم، بل كان مغامراً مثلهم، ومن نفس الطبقة، لا يتميز عنهم بشيء. لقد كان التعامل معهم يولد الكراهية والخوف في نفوس الفلاحين، كما كانت تدخلاتهم في أية قضية تزيدها تعقيداً. وكان يستثنى من هؤلاء أولئك الفلاحون الذين كان لديهم - مثل الدروز - عصبية قبلية ولهم جاهزية حربية وملجأ في الأراضي الوعرة. فقد كانت تشكل هذه الجماعات، وبينها الدروز والأكراد والشيعة في جبل عامل، فرق غير نظامية، تحت قيادة واحد من صفوفهم وكانت هذه الفرق توضع تحت تصرّف الإمبَراطورية لمدد محدودة.

وأثناء حرب القرم فشلت كل المحاولات لتقليص عدد هذه الفرق في الجندية العثمانية أو لإصلاحها. و شُكلت في فترة ١٨٥٧-١٨٥٩ فرقة من سكان محلّيين، فلاحين ومدنيين وبدو، وكانت يُدفع لها مباشرة وليس عن طريق ضباطها. وقد استوجبت الفوضى التي عانت منها إعادة تنظيمها مجدداً. فأعطيت ألبسة موحّدة ورتباً ووضعت تحت قيادة الجيش النظامي مباشرة[٨].

كان لدمشق قيادة «أوردو» (الجيش) الخامس، جيش «عربستان»، في إعادة تجهيز

---

٦. Ma'oz, **Ottoman Reform** p. 95.

٧. Thompson, **Ottoman political reform**, pp. 457-475.

٨. Ma'oz, **Ottoman Reform**, p. 59.

الجيش السلطاني سنة ١٨٤٣ . وقد تقرر أن يبلغ عددها ٢٥,٠٠٠ رجل، ولكنها لم تبلغ ذلك، لأن الوضع المالي للإمبراطورية عجز عن دفع رواتب الجنود. فتبع ذلك تمرد، واصطدم الشعب مع الجيش، واعتبر جنود الباشا غير انضباطيين يتعدون ويسيئون وينهبون. وهكذا أصبح الاستدعاء إلى الجندية والتجريد من السلاح نقطة الخلاف الرئيسة بين الجيش السلطاني والمصالح المحلية الريفية، وأدت إلى حملات واقتتال مرير وبخاصة في مناطق حدود البادية، حيث الخلافات على أشدها حول الأراضي والماء بين البدو والفلاحين، لاسيّما أن العداوات بين العشائر والعائلات تستوجب حمل السلاح. كانت هاتان النقطتان هامتين جداً بالنسبة لحياة السكان، (حمل السلاح والإعفاء من الجندية) من جهة، ومن جهة ثانية، تمسّان باستقلالية هيكلية اجتماعية محلية قدّر لها أن تكون قوة دفاعية. وقد كان الجيش العثماني عاجزاً عن قهر بدو الصحراء ودروز حوران سنة ١٨٥٢، بالرغم من نجاحه في حلب وغيرها من الجهات.

لقد كانت الحاجات العسكرية للإمبراطورية أكبر أهمية في دعم الإصلاحات. ولكي يمكن ذلك كان لا بد من البحث عن مصادر تمويل تؤدي إلى رفع مداخيل الدولة، وكان الحل الحاسم في الإنتاج الزراعي.

فشلت جباية الضرائب المباشرة في سوريا، بموجب تجربة عام ١٨٤١ عملاً بالنظام المفروض عام ١٨٣٩، على نمط تطبيقه في الأناضول. وتم اللجوء إلى الإبقاء على نظام الالتزام، بعد أن يرسو على ملتزم بطريق المزايدة[٩]. وعلى عكس سياسة إبراهيم باشا الذي حاول إعادة إسكان القرى المهجورة وترضية البدو من خلال توطينهم، عاد العثمانيون إلى سياسة «فرّق تسد». وحيثما كانوا يلاقون تمرداً كانوا يحرّضون أخصام المتمرّدين عليهم، أو يحرضون بعض الجوّالة من العشائر أو فروع العشائر ضد بعضهم البعض لإضعافهم وإضعاف العصاة. وقد وضحت نتيجة هذه السياسة مباشرة إذ ما لبث أن أخليت معظم قرى المنطقة هرباً من متعهدي التحصيلات والضغوط القوية ومطاردات المحاكم لصالح محصّلي الضرائب. أما القرى الباقية وعددها ١٦ قرية فقد هدّدت بالرحيل بعد أن أنذرهم «الدفتردار» بوجوب دفع ضرائب الهاربين[١٠].

كانت الإمبراطورية العثمانية منذ مطلع القرن الـ١٩ قد ازدادت ارتباطاً بالسّوق العالمية، وهذا يعني أن أسواقاً فتحت للأوربيين، وبدأت الارتباطات التجاريّة منذ انطلاق التنظيمات،

---

٩. Owen, **Middle East**, p. 80.

١٠. **MAEN**, Fonds Constantinople, Correspondance, ? à de Bourqueney, 23 Août 1843; FO 78/538, 30 July 1843; Owen, **Middle East** p. 81.

مثل الاتفاقية «الإنكليزية – التركية» سنة ١٨٣٨ ، والتي أنهت الاحتكار في جميع أنحاء السلطنة . وتدنت العائدات الجمركية . وكان على المورّدين الإنكليز إلى البلاد العثمانية أن يستوردوا ٥٪ بضائع عثمانية ، تخضع إلى ضريبة جمركية إنكليزية بمقدار ١٢٪ ، كما اتبعت المعاهدات التجارية مع الدول الأخرى نفس الاتجاه والتوجيه . وكان بالنتيجة أن أصبح للتجار الأوربيين حرية الوصول إلى الإنتاج الزراعي في السلطنة والاستيلاء عليه . ولقد كان الباب العالي في الوقت نفسه ، عاجزاً عن المراقبة الكافية على المبيعات[١١] . ومن انعكاسات هذا الانفتاح كان تطور الزراعة للتصدير من جهة ومن جهة أخرى تطور بعض الصناعات ، مثل صناعة الحرير والنسيج . والأمر الواضح – وقد بحث بحثاً كاملاً – أن النشاطات الاقتصادية للأوربيين ولشركائهم قد هزت بشدة الهيكليات الاجتماعية في المناطق الأكثر اندماجاً في السوق العالمية .

وهكذا كان لبنان خير نموذج لتفاعل هذه القوى المختلفة ، أي الاندماج في السوق العالمية والمركزية العثمانية ، ومدى تأثيراتها المشتركة فيه ، أضف إلى ذلك الهزات السياسيّة والاجتماعية التي تتبعها .

وعلى هذا كانت جبال لبنان المكان المناسب ، إذ يتمتع الموارنة في لبنان بعلاقة قوية مع فرنسا – حيث جعلهم «لويس الرابع عشر» سنة ١٦٤٩ تحت حمايته – فالتفتت فرنسا إليهم وسيطرت على إنتاج الحرير وتجارته ، كما دعمت موقفهم ضد الدروز[١٢] . وبدعم الإكليروس الطموح الذي حصل علومه في روما ، وبعض أعضاء البورجوازية التجارية الجديدة الذين نظروا لأنفسهم كبديل للمقاطعجيين الموارنة المرتبطين بالدروز ، تحدى الثوار الموارنة ليس فقط الأرستقراطية المارونية ، بل كان عليهم أيضاً ، أن يحصروا نفوذ «المقاطعجية» الدروز في مناطق سكنهم الرئيسة ويجعلوهم على خلاف مع دروز القسم الجنوبي من جبل لبنان . وإلى جانب ذلك لعب الضعف الذي ألحقته التنظيمات العثمانية بالأرستقراطية الإماراتية (حين استبدلت بها موظفين عثمانيين) دوراً كبيراً . وقابل هذه الطموحات المتزايدة لجانب الموارنة ، تحسّب متزايد لدى الدروز . وكانت نتيجة تلك المسائل صراعات دامية بين الفريقين ، وهي التي سميت بحوادث ١٨٤٠–١٨٦٠[١٣] ، والتي أدت إلى مذبحة ١٨٦٠ في دمشق .

---

١١ . Owen, **Middle East**. p. 91.

١٢ . Chevallier, **La société**; Owen, **Middle East**, chap. 6.

١٣ . Chevallier, **Aux origines**; Havemann, **Rurale Bewegungen**, Scheffler, **Harakat**; Fawaz, **Occasion for War** ؛ العقيقي ، لبنان .

٢- العام الحاسم - ١٨٦٠

كان عام ١٨٦٠ عاماً حاسماً في تاريخ بلاد الشام، وهذا لعدة اعتبارات. ويصدق هذا القول أيضاً، بصورة خاصة، على جبل حوران. وقد يكون من الصواب اعتبار هذا العام بداية تاريخ ما قبل «العاميّة».

وهناك سبب آخر لدخولنا بوقائع ١٨٦٠، وفي كتاب «هون» Huhn عن القنصل البروسي «فتسشتاين» Wetzstein، رؤية عن قنصل أوربي بكل ما له من دماثة سياسيّة وتحفظ في طرح أحكامه الشخصيّة، نجد من الواجب الرجوع إليها قليلاً ووجوب مراجعة نتائجها وتبيان الحقيقة فيها[١٤].

من المعروف أن إسماعيل الأطرش استغل المناسبة ليكسب لنفسه سمعة حربيّة. فهاجم مع ٢٠٠٠ رجل في شهر تموز ١٨٦٠، منطقة الحرب الأهلية في حاصبيا ثم في راشيّا، حيث حارب المسيحيين هناك[١٥]. والسؤال المطروح لماذا ومن دعاه لذلك؟ لقد كتب «تشرتشل» Churchill الذي كان يعرف دروز لبنان جيداً، عام ١٨٦٢ أن سعيد جنبلاط قد التمس منه المساعدة[١٦]. أما «فتسشتاين» فكتب تقديراته في سنة ١٨٨١، أي بعد ٢٠ عاماً فقط، وقال فيها إن «الجيش التركي قد استخدم الدروز . . . وتحكم في تصرفهم»[١٧]، حيث استغرق المبعوثون الأتراك مدة ٤ أيام حتى تسنّى لهم « . . . وعد بتقديم العروض التي قدمت للمساومة على شراء حليف» - في عرض فاوض عليه إسماعيل الأطرش قائد دروز حوران[١٨] - لم يصل الدروز بسهولة لقرار جعل إسماعيل جهازاً في خدمة الدولة العثمانية[١٩]. فقد عقدت «لجنة تنفيذية درزية سرية ثلاثة اجتماعات» في «الخلوة» قبل أن يوافق الدروز في النهاية[٢٠].

من المحتمل أن ما ذكره «فتسشتاين» عن هذا التفاوض مع العثمانيين كان من إنتاج خياله. حيث إن إسماعيل الأطرش قد بنى سياسته على أنه عدو لدود للعثمانيين وعاص لهم. فلا

---

١٤. Ingeborg Huhn, **Der Orientalist Johann Gottfried Wetzstein als preußischer Konsul in Damaskus (1849-1861), dargestellt nach seinen hinterlassenen Papieren**, Berlin 1989.

١٥. Salibi, **Modern History**, p. 101; Bouron, **Druzes**, p. 209.

١٦. Churchill, **Druzes**, pp. 149-150.

١٧. Huhn, **Wetzstein**, p. 238.

١٨. Huhn, **Wetzstein**, p. 239.

١٩. Huhn, **Wetzstein**, p. 238.

٢٠. Huhn, **Wetzstein**, p. 239.

يعقل بشكل أن يقبل لنفسه أن يكون جهازاً قيادياً للسلطة العثمانية. وإذا حصل مثل هذا، فسيكون انتحاراً سياسياً بالنسبة له. لاسيّما وأنه من الواضح جداً عن إسماعيل الأطرش وحتى عن أقوال السياسيين فيه أنه لا يدع فرصة حظ تفوته، دون أن يزيد بها من رأسماله السياسي، وبخاصة عندما يؤكّد، بقدراته القتالية وبصحبة ٢٠٠٠ مقاتل، من إمكاناته القيادية، برهاناً جديداً عن مكانته، وأنه قد أصبح ذا فضل على أحد أقدم وأعرق عائلات لبنان – جنبلاط. ولقد كان واضحاً أيضاً أنّه عندما عاد إلى قريته لم يمسّ شعرة مسيحي مقيم هناك. هذا مع الإشارة أيضاً إلى أن دروز جبل حوران لم يشتركوا في مذبحة المسيحيين في دمشق[٢١]. ويغلب الظن أن الذين قاموا بذلك هم الدروز المقيمون في المناطق القريبة من دمشق. بل على العكس تماماً. فإن عدداً كبيراً من شيوخ جبل الدروز قدّموا المساعدات للمسيحيين، فإن آل عامر جهّزوا المرافقين الذين سلّحهم الأمير عبد القادر الجزائري ورافقوا المسيحيين وأوصلوهم إلى بيروت. وكتب «فتسشتاين» نفسه أن شيخاً درزياً قد حمى اليهود في حيّهم مقابل أجر[٢٢]. كما أن حسين الحمدان أرسل إلى دمشق كي يساعد في تهدئة الحالة. وذكر أن أحد رجاله حاول ترهيب الناس لوقفهم في حي العقيبة والميدان وهدد بالنهب[٢٣]. والملفت أن «فتسشتاين» تستر في عرضه على دور الدروز في دمشق، لاسيما أنه كان على اتصال بهم، ولم يأت بأوراقه على مساعدة آل عامر للمسيحيين (ولربما كانت القافلة التي رافقها بنفسه مثلاً، مجهزة من قبل القنصل الفرنسي)[٢٤].

بقي اسم «جبل حوران» متداولاً حتى ١٨٥٣، وبعد معركة ١٨٦٠، استبدل وصار «جبل الدروز». ولقد أصبح بحكم دوره السياسي وقدراته الحربية أقوى مركز درزي، بعد أن كان ذلك حصراً بمنطقة جنوب لبنان.

كان آلاف اللاجئين من اللبنانيين، بعد الحرب المارونية – الدرزية مباشرة، يبحثون عن ملجأ لهم في جبل الدروز. وقد كان الفرنسيون ومبعوث الوالي فؤاد باشا قد شرّدوا قرابة ٣٠٠٠ درزي باتجاه حوران. فكان بهم هاجس خوف من المسيحيين في حوران كما تخوّف منهم القناصل الأوربيون في دمشق، أيضاً، وفي مقدمتهم الفرنسي والبروسي، إذ اعتبروا مسؤولين عن إراقة الدماء الجديدة[٢٥].

---

٢١. Schatkowski Schilcher, **Families**, chap. IV; Fawaz, **Occasion for War**, p. 85.

٢٢. Huhn, **Wetzstein**, p. 220.

٢٣. Huhn, "Ausschreitungen", p. 166.

٢٤. Schatkowski-Schilcher, **Families**, p. 88; Gross, **Ottoman Rule**, p. 349.

٢٥. **MAEP**, CPC, Turquie-Damas, vol. 6. Outrey à Thouvenel, 99, 1 Oct. 1860; 100, 6 Oct. 1860.

إن جبل الدروز كان في الحقيقة في وضع سلام عادي، بالنظر إلى أحداث الحرب الدائرة في لبنان وإلى مذبحة دمشق[٢٦].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد ورد تقريران مهمان عن وصول هؤلاء اللاجئين إلى جبل الدروز. الأول عن «فتسشتاين» حيث وجدت بين أوراقه قصاصة جريدة تتحدث عن ثلاثة شيوخ دروز قدموا إلى خبب (قرية كاثوليكية فيها مطرانية)[٢٧]، وهم خطار وملحم وبشير العماد وكان معهم ٤٢٠ فارساً، وطلبوا من خبب ٤٢٠ مداً من الشعير علفاً لخيولهم[٢٨]. ثم تابعوا إلى قرية شعارة المهجورة. وهكذا عمّ الخوف والذعر لدى المسيحيين في حوران. أما التقرير الثاني فقد ورد عن كاتب درزي قوله إن المحطة الأولى لهؤلاء اللاجئين كانت عند الشيخ إبراهيم أبو فخر في نجران. وقد كتب «أبو شقرا» تفصيلاً عن ذلك كما يلي:

« . . . كما هو مألوف عند الدروز وقتها، أمر الشيخ بأن تشعل نار كبيرة فوق التل. وأن تفعل القرى الأخرى مثله، وهكذا عمّت الإشارة كل المنطقة إعلاماً بالحرب. فتوافد الجميع إلى نجران، وعندها اقتسم أهل القرى الوافدين من الشوف واستضافوهم»[٢٩].

فتوزّعت فرق الوافدين انطلاقاً من نجران: خطار العماد نزل ضيفاً على شبلي الأطرش، وبشير أبو نكد نزل ضيفاً على محمد أبو عساف في سليم، وعلي حمادة نزل على حمد عزّام في عاهرة وأقاموا في الخيام في هذه القرى[٣٠].

بالنسبة للمنطقة، كان إطعام ٣٠٠٠ فارس مع خيولهم مشكلة كبيرة، لا سيّما أن موسم عام ١٨٥٩-١٨٦٠ كان سيئاً جداً[٣١]. يذكر «فتسشتاين» أن شيوخاً مسيحيين في درعا، إزرع، بصرى، حباب والسجن، طلبوا منه التوسط، «لأن المجلس العمومي لا يهتم بتدهور حالنا لأنّنا بعيدون عن المركز». وادعى هؤلاء أنّه لم يبق في قراهم مواد غذائية أو بذار. وما كان لديهم قد سلبهم إياه «أهل الفتنة والفساد»[٣٢]. وإذا كان «الخدام المطيعون، فلاحو السلطان»، لا يساعدونهم، فليس باستطاعتهم زرع أراضيهم. لا يمكن لكل السكان في حوران أن يكون لهم الاطمئنان – مع الإشارة إلى أن الدولة كانت عاجزة عن عمل القليل ضد

---

٢٦. Huhn, **Wetzstein**, p. 225; ibid., p. 226.

٢٧. مداخلاته في أحداث ١٨٦٠- Wetzstein-Nachlass (WN), Konvolut 48, Handschriftenabteilung der Staats- bibliothek Preussischer Kulturbesitz, Berlin;

٢٨. Huhn, **Wetzstein**, p. 225.

٢٩. حسين غضبان أبو شقرة، ملحق ٢ من زكّار، **بلاد الشام**، ص ٣٦٦.

٣٠. المصدر السابق.

٣١. Schatkowski-Schilcher, **Families**, p. 98.

٣٢. **EI**, N.E., vol. II, p. 930.

الدخلاء. ويظهر أن بعض المسيحيين رحلوا عن بعض القرى المختلطة. فقد أنبأنا الشيخ هاني أبو فخر، عن نفس المقولة (وعمره نيف و١٠٠ سنة):

«... سنة ١٨٦٠ جاء خطار وملحم بعد أن حُكم عليهما بالإعدام إلى الجبل. فوصل ملحم إلى نجران، وكان المسيحيون راحلين عنها. نال ملحم ومن معه نصف نجران من إبراهيم أبو فخر. وعندما أُعفي عنهم، باعوا إلى آل عزام الأرض سراً. فغضب إبراهيم أبو فخر وجرى قتال بين أبو فخر وعزام»[٣٣].

تتحدث هذه القصة عن صلب موضوع هام، لقد أثّر آلاف «الشوافنة» (أهل الشوف) في توازن المنطقة بوضوح. وكانت نتائج هذا التأثير في السياسة الداخلية للجبل، خصوصاً في الاتفاقات والاتجاهات السياسيّة التي تبلورت تبعاً للوضع؛ من حيث أسباب التنافس بين آل الأطرش وآل عامر. ثم تشير وثيقة أخرى مكتوبة تركها «فتسشتاين» إلى أن فؤاد باشا قرّر في نهاية سنة ١٨٦٠-١٨٦١ وتحت ضغط من القناصل الأوربيين (باستثناء القنصل البريطاني)، أن تفرض عقوبة جماعيّة على الدروز. واعتقل على أثر ذلك دروز كثيرون في جبال لبنان وفي وادي التيم وفي محيط دمشق[٣٤]. وبذلك استثيرت حفيظة الدروز وحميت مشاعرهم ولاذ كثير منهم بالفرار إلى جبل الدروز.

لقد سمّي في دمشق الضابط صالح زكي بك مطلق الصلاحيات، وعليه أن يعمل لدى دروز حوران على إعادة المنهوبات من حاصبيا وراشيا[٣٥]. واستجابة لتلك الظروف، يظهر أن فارس عامر قد توجّه برسالة إلى القنصل البروسي عن تقديراته للموقف، وجاء ملخص لهذه الرسالة في بداية تذكير لأمين باشا ١٦ كانون الثاني ١٨٦١[٣٦].

عن فارس عامر أن الدروز طلبوا إلى «مشايخ الحوارنة» (أي مشايخ حوران) و«مشايخ الجوادرة» (مشايخ الجيدور)، أن يتوسطوا لدى الحكومة بشأن المنهوبات، وقد فعلوا. ثم تفاوضوا مع صالح زكي بك المذكور أعلاه بهذا الأمر وأبلغهم في اجتماع في السويداء شروط الدولة.

وقد كان الاجتماع في منزل خطار بك العماد الذي تزعم مع إسماعيل الأطرش الجناح الصارم في الخلاف. وأبلغ الدروز الضابط عن استعدادهم لإعادة المنهوبات بشرط صدور عفو عام. كما أنّهم أعلموا الدروز بهذه المفاوضات. (كان جناح آخر يفاوض بموضوع

٣٣. حديث هاني أبو فخر ٢٠/٨/١٩٩٣ في كفر اللحف.

٣٤. **MAEP**, CPC Turquie-Damas, vol. 6, Outrey à Thouvenel, 107, 24 Jan. 1861.

٣٥. **MAEP**, CPC Turquie-Damas vol. 6, Outrey à Thouvenel, 107, 24. Jan. 1861.

٣٦. نص بالعربية عن أمين باشا، ضابط تركي ألماني؛ **WN**, Konvolut 48.

الذين كانت مشكلتهم مع الدولة في دمشق، ممثلاً بفارس وأسد عامر، لا سيّما أنهما لم يشتركا في حملة راشيا وحاصبيا)[٣٧]. لم يكن زكي بك مفوضاً لمنح العفو ففشل الاجتماع. فطلب فارس عامر من السلطة التدخل العسكريّ السريع، غير أن ذلك لم يكن ممكناً في فصل الشتاء. كما أن السلطة رأت في التأجيل خطراً بالنسبة لها، للأسباب التالية:

– المسيحيون في خوف من الشوافنة لا سيّما أن عددهم ٣٠٠٠ رجل.

– الشوافنة أخذوا يقوون جناح المعارضة. وبقدر ما يطول الزمن بقدر ما تكبر الاحتمالات، وخاصة أن الحوارنة والجوادرة قد بردت عزيمتهم، وبدأت وشوشاتهم في تقوية حملة ضد الدروز.

– هناك خطر جديد، وهو احتمال تدخل العشائر العَنَزة في الحرب لأن إسماعيل الأطرش وفيصل بن شعلان هم أصدقاء.

باختصار فإن التأجيل يضعف «العوامرة» بينما الإجراءات الصارمة تضعف «الطرشان».

إعتبر «فتسشتاين» نفسه معنياً بهذا الموضوع واقترح الدعوة لاجتماع يضم كلاً من مسؤولي الحكومة وشيوخ حوران والجيدور، وأن يوجهوا رسالة إلى شيوخ الدروز يطالبونهم فيها معاكسة خطار العماد على أن يستثنى من الرسائل فارس عامر وبشرط أن يعقد الاجتماع في شيخ مسكين (وهي مقر «شيخ المشايخ» الحوارنة السنيين)، وألاّ يكون بأية حال من الأحوال في أم ولد قرية خصمه الرّفاعي بينما أحمد الترك الحريري معترف به وكلمته محترمة بالإضافة إلى تكريمه لحمايته للمسيحيين[٣٨]. بينما محمد الرفاعي، هو رجل سيّئ النية وكانت له أعمال نهب ضد المسيحيين. أما الدروز الذين اقترحت دعوتهم لهذا الاجتماع، بالإضافة إلى فارس عامر، فهم:

قاسم أبو فخر، حمزة درويش، عزالدين الحلبي، أبو عبدي الأطرش ورجل من آل القلعاني.

ولقد ورد في خاتمة الوثيقة، خلاصة الرد العثماني الذي توصل إليه «فتسشتاين» وفيه عبارة مهمة تلفت النظر إلى أن الحورانيين لا يرغبون في التسوية والصلح لأنهم يخشون من أن السلطة، في هذه الحال، ستسحب العسكر حتماً من حوران والجيدور إذا صالحت الدروز وأذعنوا لها. وبذلك تخلو المنطقة بكاملها للدروز. وحيال هذا فقد اقترح «فتسشتاين» نقل الاجتماع إلى دمشق.

---

٣٧. نص تدخل به العقيد «غيسلر»؛ Wetzstein-Nachlass.

٣٨. كان أحمد الترك شيخاً ولكن ليس للدروز، كما كتبت «هون»؛ Huhn, **Wetzstein**, p. 199.

أما ما كان من نتيجة هذا الاقتراح فهو غير معلوم. القنصل الفرنسي من جهته اقترح تدخل الأمير عبد القادر الجزائري في مساعي الصلح، لا سيّما أنه كان قد بعث برسائل إلى كل من خطار العماد وإسماعيل الأطرش يطلب إليهما وقف هجماتهما على القوات العثمانية، حيث إنه كان يسعى لعفو سنة عنهم، غير أن هذه المبادرة باءت بالفشل أيضاً. لقد اتبع العثمانيون من جديد السياسةَ الكلاسيكية «فرّق تسد» كمحاولة للشقاق بين الدروز. فإن حليم باشا، قائد الجيش الخامس، منح عفواً للشيوخ من جناح العامر ومعهم آخرون مثل محمد أبو عسّاف وأحمد أبو سلامة لكي يفصلهم عن إسماعيل الأطرش وخطار العماد. ولقد كان آل عامر هم الوحيدين الذين صدّروا مواد غذائية وحبوباً إلى دمشق في أزمة سنة ١٨٦٠. وقد حاول القنصل الفرنسي من جهته أيضاً أن يوظّف أسعد عامر في الإدارة العثمانية[٣٩]. وقد سُمّي أسعد، فعلاً، من قبل سلطات دمشق، قائد مجموعة خيالة قوامها ١٥٠ رجلاً، مهمّتها حراسة اللجاه[٤٠]. إلاّ أن القنصل الفرنسي كان متشككاً في صمود هذا الإخلاص تجاه الحكومة في حال صدام حربي[٤١].

وهكذا فقد اتفقت فئة من الدروز غير الخاضعين للحماية مع بعض البدو على غزو المسيحيين، مثلاً في قلعة جندل لاغتنام بقايا ماعز هناك (حوالى ١٠٠ رأس) أو للتعرض لقافلة آتية من صفد[٤٢]. وقد فسّر القنصل الفرنسي تلك الحوادث أنها كانت بدوافع نقص الغذاء من جهة، ومن جهة ثانية هي سياسة للتعجيل بالصلح وثمناً له، والشعار فيه هو أن يكون العفو للجميع مقابل وقف مثل هذه الحوادث[٤٣]. كان هناك جناح درزي طليق أيضاً، هو جماعة تطاردها السلطة العثمانية، فلجأت إلى اللجاه وهم: الدرزي خنج العماد ودعاس آغا الجارودي والأخوة حرفوش من بعلبك مع تابعيهم. وانطلاقاً من اللجاه أصبحت المنطقة غير آمنة. حيث إن الجبل وحوران كانا جبهة الخارجين على السلطة العثمانية (الرافضين لقوانينها). وقد دام العصيان في المنطقة لغاية سنة ١٨٦٤ حتى تمكّنت القوات العثمانية من إخضاعهم والحكم على قادتهم[٤٤].

ازدادت المضايقة على دروز الجبل بصورة أكبر وكان العفو لحالات معيّنة فقط. ففي

---

٣٩. **MAEP**, CPC Turquie-Damas, vol. 6, Outrey à Thouvenel, 100, 6. Oct. 1860.

٤٠. **FO**. 195/677, Wrench to Bulwer, 4, 25 Feb. 1861.

٤١. **MAEP** CPC, Turquie-Damas, vol. 6, Outrey à Thouvenel, 111, 27 Feb. 1861.

٤٢. Gross, **Ottoman Rule**, pp. 86-88.

٤٣. **MAEP** CPC, Turquie-Damas, vol. 6, Outrey à Thouvenel, 107, 24. Jan. 1861; Gross, Ottoman **Rule**, p. 86.

٤٤. Gross, **Ottoman Rule**, p. 89.

صيف ١٨٦٢، تدخّل بعض وجهاء دمشق ممن لهم مصالح اقتصادية في سهل حوران، وأولهم أحمد آغا اليوسف، وهو كرديّ غنيّ مالاً ونفوذاً[٤٥]. وقد عرض هذا نفسه لوساطة بين المقاومين والعثمانيين. حاول في الوقت نفسه أن يهدم الحلف الذي جمع فيه إسماعيل الأطرش البدو والحوارنة والدروز في حال إذا ما نوى العثمانيون القيام بهجوم. وبعد اتصالات ومحاولات كثيرة تم لأحمد آغا ما سعى إليه، إلاّ أن إشكالاً حدث فجأة بين الأطرش وسكان بصرى، إذ اصطدم شقيق إسماعيل الأطرش مع ابن شيخ بصرى الحريري. وحاول إسماعيل تسوية الموضوع بحل سلمي وعرض دفع الديّة التي يطلبها شيخ بصرى. وعندما جاء أخ آخر لإسماعيل إلى بصرى، قتل مع مرافقيه. فكان ذلك كلّه على حساب أحمد آغا. وهكذا انفجرت عداوة دامية بين الفريقين واستحكم الشقاق بين السهل والجبل.

ردّاً على ذلك تفجّر خلاف بين آل الأطرش وآل عامر في الجبل. فحصل الشقاق من جديد بعد أن كان لُحم بعناء كبير. لقد كان جميع شيوخ الجبل الكبار، والحالة هذه، وكأنهم في حالة شلل. كل هذا بالإضافة إلى العداوة مع المقتدرين من شيوخ السهل. وقد رافق هذا أيضاً تهديد باحتمال هجوم عثماني على الجبل. وهكذا ظهر «شيخ العقل» حسين الهجري من قرية قنوات على الساحة وأوصل الحريري والأطرش إلى الصلح، كما وحّد بمساعيه صفوف الدروز. بيد أنه، بأمر من حليم باشا، زحف في شهر تموز ١٨٦٣ «السرعسكر» الذي رغب تحت قيادة فؤاد باشا بمهاجمة حوران، مع قوة من ١٠,٠٠٠ رجل، وقاد حملة عسكرية إلى حوران. وبعد عدة اشتباكات استسلم الجناح الصارم ووافق إسماعيل الأطرش على دفع الضرائب المتخلّفة بالإضافة إلى عقوبات ١٨٦٠ التي اضطر لطرحها على الدروز والبدو[٤٦].

وفي شهر تشرين الأول سنة ١٨٦٤، أصدر السلطان عفواً عن كل المطاردين بمذابح دمشق سنة ١٨٦٠، مهما كانت مسؤوليتهم، باستثناء المتمرّدين اللاجئين إلى اللجاه. وبعد مفاوضات شتاء ١٨٦٤، اشترط الوالي أن يدفع الدروز كل الضرائب المتخلّفة وأن يقبلوا برفع الإعفاء من الجندية مع طرد العصابات من اللجاه. فرفض الدروز شرط عدم الإعفاء من الجندية. وهكذا اندلع النزاع من جديد مع السلطة العثمانية. وما لبث الدروز في النهاية أن قبلوا بدفع ٢٤٠,٠٠٠ قرش ضريبة مقطوعة سنوية من ضمنها مبالغ أضيفت بدلاً من الجندية. وللمرة الأولى أيضاً قبل الدروز تعيين مدير عثماني في جبل الدروز[٤٧].

٤٥. Schatkowski Schilcher, **Hauran**, p. 162.

٤٦. Gross, **Ottoman Rule**, p. 49, footnote 55.

٤٧. Gross, **Ottoman Rule**, p. 91.

بعد جني الموسم توجهت قوافل القمح والحبوب إلى دمشق من أجل التحضير لدفع الضرائب، كما أعلن عفو عام من السلطان في آب ١٨٦٥ شمل كل جماعات الدروز. وهذه كانت نهاية النظرة في النتائج المباشرة لسنة ١٨٦٠.

لكن النتائج غير المباشرة لتلك الحوادث كانت قد بدأت من سنة ١٨٦٠-١٨٦١ حيث تشابكت التنظيمات العثمانية المتشدّدة، والاندماج الاقتصادي في اقتصاد الشرق الأوسط والسوق العالمية مع تطورات داخلية لدى مجتمع جبل الدروز. كل هذه العوامل تشابكت في مطلع تاريخ «العاميّة».

٣- اندماج الزعامة السياسي - «العثمنة»

انشغلت الإمبراطورية العثمانية منذ إعلان التنظيمات في دمج المقاطعات المختلفة التابعة في الإدارة العثمانية. وقد تعمقت سياسة الاندماج هذه في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩)، خاصة بعد مظاهر الإفلاس سنة ١٨٧٥ التي اعترت السلطنة، على أثر فقدان الممتلكات، بعد الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨). ولهذا فقد علق السلطان أهمية أكبر على الولايات العربيّة بالمقارنة مع سلفه[٤٨].

كان مسرح أهم المقاومات في ولاية سوريا في «سنجق حوران» وخاصة على أرض جبل الدروز واللجاه. وقد تم دمج المنطقة في النظام العثماني منذ منتصف القرن الـ١٩ حتى «العاميّة» بشكل سلمي وسطحي. وبالرغم من أن حملة إبراهيم باشا المصري على الدروز قد تكشفت عن خسائر فادحة في الأموال والأرواح، كما أن الوضع المالي للولاية كان لا يعتمد عليه (بالرغم من أن العسكريين العثمانيين كانوا يعلمون ذلك جيداً، فقد كانوا يميلون إلى سياسة الحرب). مع ذلك فقد استداروا حكماً إلى سياسة «خطوة خطوة»، وأمّنوا هكذا المدخل إلى «منطقة اجتماعية» لا يسهل اختراقها. وبسياسة النفس الطويل من جهة السلطة، كثيراً ما كانت تنتهي النزاعات إلى بناء ثكنة جديدة، بتفهّم من الشعب، وتحسم الخلافات بدور يلعبه زعماء المنطقة طبعاً. ومن خلال هذا الدور، تطور ما وصفه «ألبرت حوراني» Albert Hourani بـ«سياسة الوجهاء» politics of notables[٤٩]، وهكذ تشكل وجهاء محليون قاموا بمفاوضات بين الأهالي وبين قوات السلطات العثمانية. وباتت هذه

٤٨. Owen, **Middle East**, pp. 101-103; Shaw, **History**, II, p. 191.

٤٩. Hourani, "Politics of Arab Notables".

الزعامة المنشودة، أولاً في شخص إبراهيم الأطرش. وتعلق وضعهم الاجتماعي بالسؤال كيف يمكن أن يمثلوا «العصبية الدرزية» والثقافة العثمانية في نفس الوقت. وعلى هذا النحو من التوتر تتابع تاريخ الجبل في السنوات اللاحقة إلى أن تفجّر الوضع.

في نيسان ١٨٦٥ عُمّم في بلاد الشام تطبيق قانون الولايات، الصادر في عهد «الصدر الأعظم» (الوزير الأول) فؤاد باشا، والذي صدّق في ٨ تشرين الثاني ١٨٦٤. وقد تشكلت بموجبه «ولاية سوريا» بالمقاطعتين: دمشق وصيدا[٥٠]. وبهذا، تشكلت أيضاً «متصرفية الشام» و في جنوبها «متصرفية حوران».

كان لكل متصرفية متصرف وقسّمت المتصرفية إلى أقضية ولكل منها قائمقام، وكل قضاء إلى نواح (مجموعات قرى) ولكل ناحية مدير. وقد تدنت في هذا التنظيم، صلاحية المدير ولم تكن موضّحة في القانون[٥١]. وقد نصت الفقرة ٢٥ على تشكيل «المجلس العمومي» على مستوى الولاية، يرسل إلى كل متصرفية أربعة منتخبين، تنحصر مهمتهم في الأعمال النافعة مثل شق الطرق، الأمن العام، تنمية الزراعة والتجارة، ومسائل الضرائب. ويرسل الوالي قرارات المجلس إلى الباب العالي للنظر. ويشكل مجلس على مستوى المتصرفية أيضاً، وهو «مجلس الإدارة»، ويتكون من: قاضي مركز القضاء، ومفتي المدينة الكبرى، ورؤساء الأديان غير المسلمين، وموظف مالي، وأربعة أعضاء دائمين، اثنان مسلمان واثنان غير مسلمين(عملاً بالفقرة ٣٣ من القانون)، ومهمة هذا المجلس بحث القضايا العامة ما عدا القانونية منها. كانت للقائمقام السلطة في قضائه وكان عليه مساندة المتصرف، وله لقب «المعاون» (الفقرة ٣٥). أما وحدات الأمن فتتبع للمتصرف وعليه أن يوزعها على الأقضية. أما السلطة القضائية فهي منظمة بالفقرة ١١. فلكل متصرفية قاض يسميه شيخ الإسلام، على أن يكون في المدينة العاصمة للمتصرفية قاضيان: مدني وجنائي. والقائمقام هو المسؤول في قضائه عن: الإدارة والمالية والشرطة، وهو تحت سلطة المتصرف (الفقرة ٤٣). كما أن القائمقام مسؤول عن جباية الضرائب وإرسالها إلى المتصرفية، وله أيضاً مجلس إدارة يتألف من ثلاثة أعضاء مسلمين واثنين من غير المسلمين. وتكون في مركز القضاء محكمة محددة المهمة (الجرائم والشجارات بين المسلمين وليس لها دخل في القضايا التجارية). كل قرية أو مجموعة قرى تنتخب مختارين يعملان مع «مجلس الاختيارية» المنتخب لصالح القرية (ميزانيتها وضرائبها - وهذا في القرى المختلطة حسب الملل المختلفة) (الفقرات

٥٠. Gross, **Ottoman Rule**, p. 107; Appendix A, pp. 541-55.

٥١. Gross, **Ottoman Rule**, p. 541.

٥٤-٦٢).

لقد هدف هذا الإصلاح إلى تبديل السلطة المؤسساتية بالسلطة الشخصية. هذا التحديث في ميدان السلطة كان لا بد أن يستدعي معارضة القبائل، وخاصة في حوران:

«كانت متصرفية حوران المسرح الرئيسي للصراع، في ما يتعلق بمشاكل الدروز والبدو، بما في ذلك الفلاحون المستقرون الذين يتّحدون عندما يتعلق الأمر بتطبيق الإصلاحات العثمانية بالذات، وكذلك بالنسبة للأمور الأخرى مثل تطبيق نظام الجندية وتسجيل الأراضي أو إجراء إحصاءات السكان. كل ذلك لم يكن تنفيذه سهلاً لأن جميع الفئات ستتحد لتدافع عن سيادتها الذاتية»[٥٢].

كان رشيد باشا والياً لم ترهبه مهامه، فوصل دمشق سنة ١٨٦٦ واعتقل المتصرف محمد سعيد شمدين بك (شيخ كردي متشدّد) بسبب تسلّطه الوظيفي. وبعد ذلك توجه إلى الدروز والبدو. أما المدير العثماني فقد بدأ عمله في جبل الدروز في مدينة السويداء. لكن سلطته لم تكن معترفاً بها من حيث المهام التي واجهه بها بعض موظفي السلطة العثمانية في دمشق بأن يمارس الشدة منذ البداية. ولكن رشيد باشا مارس سياسةً صارت مثالاً يحتذى بالنسبة للجبل: فقد اعترف للجبل بشبه استقلالية، وحاول أن يشرك المتشدّدين من جناح السياسيّين في الخدمة العثمانية كموظفين. مع أن واكد الحمدان كان ما زال «الشيخ الأول» رسمياً فقد تجاوزه واتجه إلى إسماعيل الأطرش الذي كانت لديه القوة الفعلية في المنطقة منذ نزاعات ١٨٦٠. عن «غروس» Gross ما يلي:

«دعا الأطرش إلى دمشق، الذي لم يظهر هناك منذ أكثر من ١٨ سنة. فأجزل عليه مظاهر التكريم ومنحه لقب مدير جبل الدروز»[٥٣]. وهذا المنصب مخصّص لمكلّف يرافقه ٢٠٠ فارس[٥٤].

وليس ذلك من أجل مجابهة «شيخ المشايخ» فحسب، ولكن من أجل العائلات المزعجة أيضاً مثل أبو فخر، وحفظ سلامة تجار الحبوب وراحة آل عامر. وعندما حدثت نزاعات على الأرض بين الصلوط والأطرش اندلع قتال جدي هناك. لم يكن هذا المقصود بتعيين إسماعيل الأطرش مديراً، فدعاه الوالي إلى دمشق وأعفاه من منصبه. وأعلن في آذار ١٨٦٩ أن جبل الدروز قد أصبح قضاء بدلاً من ناحية وأنه يتبع لمتصرفيّة حوران، وأن القائمقام

---

٥٢. Gross, **Ottoman Rule**, pp. 151-152.

٥٣. Gross, **Ottoman Rule**, p. 126.

٥٤. المصدر السابق.

عثماني. أما «المشيخات» الأربع فأصبحت أربعة مناصب «مدراء نواح»، تابعين للقائمقام وهم: واكد الحمدان (مدير السويداء)، حمود عامر بن فارس المتوفى سنة ١٨٦٧ (مدير شهبا)، هزيمة هنيدي (مدير المجدل)، وإسماعيل الأطرش (مدير عرى ومنطقة جنوب الجبل). بهذه التنظيمات دفعت السلطات العثمانية ثمناً مكلفاً. ولكنها أملت بذلك تجزيء النزاعات لتخفيف المقاومات وإضعافها، لاسيما أن في التنظيمات ثلاثة شيوخ جدد أُضيفوا إلى الخدمة العثمانية[٥٥].

برز تصاعد نفوذ الطرشان كحقيقة في السياسة الداخلية للجبل. إن المقولات المكتوبة التي يرد فيها سقوط الحمدان بعد نفوذ قارب من ١٥٠ عاماً، تعيد أسباب ضعفهم إلى التنافس الداخلي بين «بيت عرى» وبين «بيت السويداء» حول منصب «الشيخ الأول» وانقسموا بحيث لم يعد بإمكانهم المحافظة على وحدة الجماعة إلى جانبهم، لأن وحدة الزعامة قد صدّعت «الوحدة اللازمة لحفظ السلطة والنفوذ»[٥٦]. يضاف إلى ذلك أنهم قد عزلوا أنفسهم عن الجماعة، كما أنهم قد فوّتوا الفرصة في زمن الستينيات من القرن التاسع عشر - وقت عاصفة الأحداث في التوافق مع السياسات - وعجزوا عن التنسيق مع القوى الحديثة في الجبل، على الأقل، لاسيما أن مؤرخي «العاميّة» قد بادروهم بشيء من هذا القبيل إلاّ أن الحمدان كانوا غير منصفين، وجابهوا الفلاحين بطلبات المدفوعات وتعنّتوا بالضغط[٥٧]. وبالمقارنة، فقد أظهر إسماعيل الأطرش استجابة إيجابية ووضع نفسه في طليعة الغاضبين من الوضع، كما أنه ساعد التجار الذين نهبهم البدو في حوران، على استرداد بضائعهم، بينما واكد الحمدان لم يلاحق السطاة بحرّاسه. أضف إلى ذلك أن الأطرش كان يسرع لنجدة المستغيثين (أهم عناوين الشرف في الجبل) ويجهد بكل حيويّة في تأمين الرّاحة والنظام. ولكن لكل هذه القصص نبرات تبريرية لاغتصاب الأطرش للنفوذ.

توجهت مشاعر الناس نحو إسماعيل الأطرش الذي أصبح لقبه «صاحب الحمية والغيرة»[٥٨]. وتشير تقارير الملاحظين إلى أن إسماعيل كان يحاول أيضاً أن يشرك السلطات العثمانية في اللعبة سعياً لتأييدها. فقد ذهب على رأس وفد من المستائين من تصرّف الحمدان إلى الشيخ سعد حيث المتصرّف، أو - حسب رواية أخرى - إلى الوالي في دمشق.

٥٥. Gross, **Ottoman Rule**, p. 143, footnote 56.

٥٦. العيسمي، **محافظة السويداء**، ص٥٦.

٥٧. مزهر، **الثورة**، ص٦-٧.

٥٨. العيسمي، **محافظة السويداء**، ص٥٧.

وقد توفي إسماعيل الأطرش في تشرين الثاني ١٨٦٩[٥٩]. واندلع الخلاف مباشرة بين ولديه شبلي وإبراهيم. وكان القرار في النتيجة للولد الأكبر إبراهيم. ولا يعلم بالتأكيد في أي سنة رحل إبراهيم إلى السويداء وطرد الحمدان، سوى أن بعض المصادر ترجّح حدوث ذلك سنة ١٨٦٩، أي بعد وفاة إسماعيل مباشرة[٦٠]. بيد أن سجلات الدولة تشير تحت عنوان «متصرفية حوران، قضاء جبل الدروز» إلى الموظفين الآتية أسماؤهم[٦١]:

- قائمقام: محمد طاهر أفندي ومعه عثمانيان، مدير مالي وأمين صندوق.
- «مجلس الإدارة والدعاء»: الأفندية حسن إبراهيم، يحيى الحمدان، حمد عزّام، محمد أبو عساف، حمدان هزيمة، أبو علي الحناوي، فندي أبو فخر، سليمان القلعاني، دعيبس عرى.
- مدراء النواحي: واكد الحمدان آغا - السويداء، إبراهيم الأطرش آغا - عرس، محمد عامر آغا - شهبا، هزيمة هنيدي آغا - المجدل، محمد سليم آغا - اللجاه.

أما تقارير القنصل البريطاني «جاغو» Jago فتشير إلى ثلاثة مديرين فقط، في الفترة ما بين ١٨٧١ إلى ١٨٧٩. مما يعطي دلالة على طرد الحمدان في هذا الوقت[٦٢]. ويعتبر المؤرخون المحليون أن سبب إبعاد الحمدان عن المشيخة هو «العاميّة» الأولى في المنطقة، ويعزون ذلك إلى وجود إبراهيم الأطرش على رأس غير الراضين عن الحمدان وهم الذين أزاحوه. إلا أن البعض الآخر ومنهم عبدالله حنا يعتبرون حركة سقوط الحمدان، حركة انتقال زعامة من شيخ إلى آخر[٦٣].

بإزاحة الحمدان وصل إبراهيم الأطرش إلى مرتبة «الشيخ الأول» القديمة. أما بالنسبة للتنظيم العثماني فقد كان إبراهيم واحداً من ثلاثة مديرين حتى ترفع إلى مرتبة قائمقام سنة ١٨٨٢.

لقد دامت تنظيمات ١٨٦٩ عشر سنوات. وفي هذه الفترة الزمنية مرّت الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨). وكانت المقاطعة خلالها في أشد حالات الجوع والعوز، والتجنيد الإجباري والإفراط في فرض الضرائب وحالة من الشلل العام[٦٤]. وهكذا فقد ساد

---

٥٩. أبو راشد، ص ٥١؛ حنا، العامية، ص١٣؛ مزهر، الثورة، ص١٢.
٦٠. أبو راشد، جبل، ص ٨٩، ١٥؛ Bouron, **Druzes** p. 213.
٦١. **Salname-i Vilayet-i Suriye 1871 (1289)**.
٦٢. طليع، مشيخة العقل، ص١٣٥.
٦٣. حنا، العامية، ص١٤.
٦٤. Gross, **Ottoman Rule**, pp. 232-234.

في المدن شعور بالاستياء ضد العثمانيين وأصبح التبرم بالسياسة العثمانية علناً(٦٥).

أما في جبل الدروز، فقد اهتم الزعماء (صاروا «موظفين» عثمانيين) بتأمين شيء من الاستقرار النسبي والهدوء العام، إلى جانب مصالحهم الخاصة(٦٦). ولكن هذا لا يعني طبعاً أن المنازعات التقليدية في هذا الجزء من البلاد لم يعد لها وجود. فقد كانت تتفجر باستمرار. وللمثال، فقد التهم الجراد سنة ١٨٧٧ كل محصول المنحدر الشرقي من الجبل (حلاقة) وحاول المقيمون هناك من الدروز والبدو، إنقاذاً لقطعانهم، التوغل في مراعي سهل حوران حتى السلسلة الشرقية لجبال لبنان واستمروا بالرغم مما لحق بهم من غضب وإزعاج، ورغم ما فرض عليهم من الاقتتال أحياناً، كما حدث مع قرية خباب المسيحية مثلاً(٦٧). وبسبب تنامي سكان الجبل أيضاً فقد أدى التوسع عند أطراف السهل إلى اقتتال بين الدروز والحوارنة، ومع ذلك فقد كانت الصراعات مجرد حوادث محلية. وكانت تسوية مثل هذه الأنماط من الحوادث تتم بالطرق العشائرية (ثأر، ديّة، جلو، إلخ). وكان شيوخ الدروز الموظفون يقومون بمثل هذه المهمات ولكن ليس بصفتهم موظفين وإنما كزعماء. ولكن بعد التنظيمات خرجت الشروط عن إطارها نوعاً ما ولم يعد حل مثل هذه النزاعات على طريقة العرض ميسوراً، بل أصبح استراتيجية وقت فقط، تتحيّن فيه الدولة العثمانية المناسبة لتهاجم بالقوّة.

لم يكن مدحت باشا، وهو من أكبر المصلحين العثمانيين، الذي لم يكن مستعداً لقبول هذا الوضع عندما أصبح والياً لدمشق في الفترة ١٨٧٨–١٨٨٠(٦٨). وقد صرّح علناً أن حالة نصف الاستقلالية في جبل الدروز واللجاه يستحيل أن تصنع «حكومة تنظيماتية مستقرّة»، وطلب من الباب العالي السماح له بإخضاع هذه النواحي(٦٩). ووجِّهت القوات العائدة من الحرب الروسية – العثمانية سنة ١٨٧٩ مباشرة إلى حوران، ولم يبق للسلطة غير الذريعة للتدخل. لم يطل انتظارهم، فالقضية موجودة، وكل من طرفيها يعلّلها تعليلاً مختلفاً عن الآخر (لقد كتب القناصل في تقاريرهم عن هذه القضية ما فيه الكفاية). ولكنّ أبطال القصة لم يتبدّلوا. كان تعليل الجبل لأسباب القضية كما يلي:

كان لدى بدو الجبل فتاة عزباء، ذات جمال مشهور، عزم بدو الجوف على اختطافها.

٦٥. Steppat, "Eine Bewegung unter den Notabeln Syriens, 1877-78"، صليبا، ولاية، ص٨٢–٨٦.
٦٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guys à Mouy, 23 Mai 1877.
٦٧. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guys à Mouy, 23 Mai 1877.
٦٨. Shamir, "Modernization of Syria".
٦٩. **FO** 78/2985, Jago to Layard, 2 and 18 March 1879.

ففر خطيبها معها إلى بصرى عند الشيخ ياسين الحريري الذي بدوره أعجب بها وطرد عريسها. وتبعاً للعادات، ذهب العريس ودخل عند سليمان نصار في دويري. لم يرغب سليمان في حرب مع بصرى، فأرسل ليلاً رجلين دروزاً ومعهما بدويان إلى بصرى كي يسألا العروسة إذا كانت ترغب في الهرب، فقتل الدرزيان، وهكذا اندلعت حرب لثأرهما[٧٠].

خدم القتال بين بصرى والدويري نوايا مدحت باشا المبيَّتة واتخذ من هذا الخلاف ذريعة للتدخل. وأبلغ العثمانيون الشيخ الروحي الحناوي الذي كان يسعى في التوسط شروط السلطة وكانت:

- على الدروز أن يعيدوا القرى التي توسّعوا فيها مؤخراً في سهل حوران.
- يجب تسليم المطلوبين في قضية بصرى للعدالة.
- على الدروز أن يدفعوا كل ما تبقى من ضرائب للدولة.

رفض الدروز تسليم المطلوبين وأعلنوا للعثمانيين أن اتفاقاً قديماً بينهم وبين الحوارنة ما زال قائماً (عقد عرف يربط الجميع). وأن الدروز مستعدون أن يدفعوا ١٠,٠٠٠ قرش، دية لكل رجل قتل، بالنسبة للعدد الذي يتجاوز قتلى الدروز. كما أنهم مستعدون لمصالحة كل شيخ من شيوخ حوران إذا ما اجتمعوا وأجمعوا على الصلح.

كما كتب الدروز رسائل إلى جنبلاط في لبنان، وكانت له علاقات جيدة مع القنصل البريطاني في بيروت «ايلدرج» Eldridge، يطلبون منه التوسط بالأمر مع مدحت باشا[٧١].

بيد أن الوضع تأزم، وجرت معركة في قراصة بالقرب من نجران. ومع أن الدروز لم يهزموا، فقد سعوا بكل جهد للصلح. وقام كل من إبراهيم الأطرش وهزيمة هنيدي ومحمد أبو عساف وقاسم الحلبي وقبلان القلعاني، بكتابة رسائل طويلة إلى القنصلين الفرنسي والبريطاني يشكون فيها بأن شكاوى الحوارنيين فقط تستجاب عند السلطة العثمانية. وأوضحوا لهم الحادثة والتمسوا السعي لدى العثمانيين من أجل الصلح[٧٢]. وبناءً على ذلك أمر الباب العالي بحل صلحيّ للنزاع بنصيحة من بريطانيا[٧٣]. فأرسل سعيد بك تلحوق، وهو درزي لبناني، وسيطاً. وكانت أهم نتائج النزاع تجديداً إدارياً - أصبح بموجبه جبل

---

٧٠. مصادر شفوية، محمد كرد علي، خطط III، ص١٠٢؛ صليبا، ولاية، ص١٥٨؛ عبدالله النجار، بنو معروف، ص١٠٠؛ Gross, **Ottoman Rule**, p. 296.

٧١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Gilbert à Fournier, 27 Oct. 1879.

٧٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Gilbert à Fournier, 11 Nov. 1879, Annexe.

٧٣. **FO** 78/2985, Jago to Layard, 22 Oct. 1872; FO 78/2989, Eldridge to Layard 20 Oct. 1879; FO 424/91, Layard to Eldrige, 29 Oct. 1879.

الدروز على نمط جبل لبنان «قضاء تابعاً» أي يسحب قضاء الجبل من سلطة متصرف حوران ويربط بالوالي في دمشق مباشرة، وأن يشكل «ضابطية» (درك) من الدروز، وتشكل جميع المجالس المنظورة بالقانون. كما يبقى جبل الدروز مستثنى من الخدمة العسكرية. وقد تمت الموافقة على هذه الشروط، وسمّي سعيد بك تلحوق قائمقاماً للسويداء، وإلى جانبه أربعة مديرين. وعن جريدة «لسان الحال» البيروتية تاريخ ١١ كانون الأول ١٨٧٩، أن سعيد تلحوق قد قرأ على الدروز قرار جعل الجبل «قائمقامية» في اجتماع عقده للشيوخ، ونقل تلحوق شكر الدروز على ذلك للسلطة[٧٤]. وبهذا أصبح الجبل الصغير يقابل سنجق حوران الكبير. كما وقف مدحت باشا وراء سعيد تلحوق من أجل اندماج الجبل في النظام العثماني[٧٥].

كانت أصعب نقاط الحكم في المنطقة تنحصر في مسألة القضاء العدلي. ذلك أن نظام العرف، كما هو معتاد، يضفي على الشيوخ الاعتبار الشرعي والسمعة والشرف. أما تطبيق القانون المشرّع، محل العرف العشائري، فيطرح مشكلة تاريخية كبيرة لدى اندماج مجتمع عشائري بدولة. وإن هذه المشكلة هي في الجبل على الأخص أكثر تعقيداً. فالدروز جماعة ذات خصوصية مذهبية، لا يتبعون المذهب الحنفي العثماني بل يعودون بمناسباتهم وأحوالهم المدنيّة إلى أعرافهم القديمة، مع أن القواعد والأعراف المذهبية في الحقوق عندهم ليست مكتوبة[٧٦]. واعتقد مدحت باشا أن المسألة تحلّ بجلب قاض لبناني درزي للمحكمة من الدرجة الأولى[٧٧]. في شهر حزيران ١٨٨٠ أصدر مجلس الإدارة في دمشق القرار بعضوية الدروز في المجلس الإداري والقضائي للمتصرفية، وذلك على حساب المقاعد المسيحيّة المنظورة بقانون الولاية سنة ١٨٦٤ ويصبح إلى جانب المقعدين المسلمين، مقعد مسيحي ومقعد درزي - هذا القرار العثماني يعتبر الدروز ملّة مثل المسيحيين. كان من الطبيعي أن يثير القرار ردة فعل عند المطارنة الكاثوليك والأرثوذكس في حوران، إذ إنهم فقدوا مقعداً لهم في المجلس. فاتجهوا فوراً إلى القنصل الفرنسي يشكون له الغبن اللاحق بحقوقهم حيث من غير الممكن أن تكون هناك عدالة عندما يترك لسطاة ذوي أعمال شر أن يتكلموا بالعدالة بينما ذوو الشأن لا يكون لهم ذلك[٧٨]. لقد حاول القنصل

---

٧٤. صليبا، ولاية، ص١٦٥.

٧٥. Gross, **Ottoman Rule**, p. 301.

٧٦. راجع فصل «الدروز».

٧٧. **FO** 195/1264, Jago to Layard, 22 Nov. 1879.

٧٨. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Télégramme Schmid à Tissot, 3 Juin 1880.

الفرنسي أن يثني مدحت عن مخطّطه، لاسيما أنه ينقض وعده مع الآخرين حين يخص الوالي درزياً بالمقعد في المجلس، مع أن الدروز يعتبرون مسلمين. وفي حالة العكس فهم يصبحون ملّة معادية للمسيحيين[٧٩]. بيد أن مدحت باشا تصلّب في موقفه وخوّل سعيد تلحوق الحق في أن يطبّق كل اقتراحاته في الجبل. فأمن سعيد مواصلة الإتاوة إلى الباب العالي، كما أقام المجلسين الإداري والقضائي. وهكذا كان أن حلّت استراتيجية القانون ولم تعد الأمور تسوّى على قاعدة العرف. باختصار لقد حدّ صلاحيات الشيوخ المديرين الأربعة[٨٠].

تحسّب الشيوخ وتعمّدوا شيئاً للمستقبل. لم يطل انتظارهم، فقد تعبّأ الطرشان صيف ١٨٨٠ ضد القائمقام[٨١]. أما محمود عامر شيخ الهيت، فقد أبقى نفسه بعيداً، إذ إنه كان يأمل في أن يساعده القنصل الفرنسي على أن ينال منصب مدير. وعندما قتل أخوه من قبل مؤيدي الأطرش في صيف ١٨٨٠، وعده القائمقام بفرض العدالة وتفاوض معه أولاً «بعطوة» أي بهدنة لمدة ٧٠ يوماً ريثما تجمع المحاصيل، ثم طلب إلى الطرشان الموافقة على تسليم الجاني للعدالة[٨٢]. ولكن مدحت باشا استبدل بالوالي حمدي باشا في آب ١٨٨٠ والياً على ولاية سوريا. وبذلك فقد سعيد تلحوق دعم مدحت وأصبح مهدداً بخطر واضح. وبعد إقامة له في دمشق، رفض العودة إلى الجبل بدون مرافقة قوة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ رجل. ولكن ما إن تسلّم الوالي الجديد مهامه حتى توالت عليه المضبطة من الجبل تطلب إقالة تلحوق والاستعاضة عنه بقائمقام عثماني - ومما قاله محمود عامر للقنصل الفرنسي: «العثماني لا يحسب حسابه وزحزحته أسهل»[٨٣]. في ١٥ كانون الأول ١٨٨٠ أبدل الوالي الجديد قائمقام راشيّا معين بك بسعيد تلحوق[٨٤]. جمع القائمقام الجديد المدراء: إبراهيم الأطرش وشبلي الأطرش وهزيمة هنيدي ومحمود عامر في دمشق وأبلغهم أن الباب العالي أمر برفع رواتبهم من ٣٠٠ قرش في الشهر إلى ١٥٠٠ قرش مكافأة إذا برهنوا على الإخلاص بأعمالهم[٨٥]. ليس من

٧٩. (المقصود: منصب القاضي). MAEN, Constantinople, Correspondance, Schmid à Tissot, 6 Juin 1880.

٨٠. MAEN, Constantinople, Correspondance, Schmid à Tissot, 17. Juillet 1880; Gross, **Ottoman Rule**, p. 340.

٨١. **MAEN**, Corresp. Constant., Telgr. Schmid a Tissot, 3 Juillet 1880.

٨٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Schmid à Tissot, 17 Juillet 1880.

٨٣. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Schmid à Tissot, 8. Nov. 1880.

٨٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 17 Déc. 1880; Gross, **Ottoman Rule**, p. 340.

٨٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 17 Déc. 1880.

الواضح ما إذا كانت هذه الظروف الطيبة قد شجعتهم أم لا - ولكن في شهر كانون الثاني ١٨٨١ قرّر في اجتماع في السويداء أن الدية ما زالت ذمّة لحوارنة السهل يجب وفاؤها. كما وأن تجار الحبوب في الميدان (دمشق) يجب أن يعاقبوا، إذ إنهم يحتجزون جمال مدينيهم فور وصولهم إلى دمشق[٨٦]. وعلاوة على ذلك فقد تعرضوا بالمناسبة إلى طلب معاقبة سكان قرى السهل الذين رفضوا دفع الذمم («الخوة») التي فرضت عليهم من قبل الدروز[٨٧]. وقرّر علانية مهاجمة الكرك التي عرفت في ما بعد «بمذبحة الكرك» لدى الدمشقيين. وهوجمت القرية بقيادة «شبلي الأطرش» ونهبت وقتل قرابة ٦٠-١٠٠ شخص وكان بينهم بعض من سكان حي الميدان كانوا صدفة هناك، وقطع الدروز الطريق إلى دمشق.

تلقى الوالي الجديد أمراً من اسطنبول بأن يحل هذا المشكلة سلمياً، لاسيما أن خطراً كان يهدد الدولة في جزيرة «كريت» وقتئذ. إلا أن موضوعاً كهذا لا بد وأن يقابل بشيء من القوة. فاستدعيت قوة من ٨٠٠٠ رجل تقريباً، أي ١٠ كتائب مع احتياطيها، جلبت من قلاع حلب وحمص وحماه وبيروت ودمشق ونابلس وضمت إلى تلك الموجودة في حوران. ورافقتها كما يظهر حملات صحافية مهيّجة في دمشق باتهامات أن «الدروز المتوحشون يبشّعون بالنساء والأطفال» وإلخ، مما هيّج سكان الميدان. و تحسّب الدروز لهذه الاستعدادات العثمانية واهتموا لها وأخذوا يراسلون الوسطاء من المستويات العالية، وفي مقدمتهم قناصل الدول الأجنبية.

وهكذا فقد هيأت «قضية الكرك» الفرصة لتدخل دبلوماسي حثيث من جانب القنصل الفرنسي[٨٨] عبر تكليف من محمود عامر، لاسيما أن القنصل منع من اعتقاله في دمشق، رغم أنه لم يبد له مجاملة. وكتب القنصل في تقريره في هذا الموضوع:

«دروز جبل حوران منقسمون بين أربعة وجهاء دروز معينين مدراء من قبل السلطة العثمانية هم: إبراهيم الأطرش وشبلي الأطرش وهزيمة هنيدي ومحمود عامر. الثلاثة الأول أقرب إلى الإنكليز. الرابع وهو أقلهم ذكاء ونفوذاً هو عميلنا. يجب إذن أن نجدّ في أن نحرز كل الإيجابيات لصالح محمود عامر. وبذلك نفلح في سلخ الآخرين عن الهدف البريطاني، كما أنه في حال جعل محمود عامر أكثر قوة، نجلب ضعفاً لإبراهيم الأطرش... فاليوم الذي يصبح فيه الدروز موحّدين - إذا لم يبادروا إلى الانقسام على الأقل - يصبح لنا جانب مؤكد بينهم، وعندها سوف تفقد إنكلترا بعضاً من وسائط تأثيرها في سوريا»[٨٩].

٨٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Barthélemy Saint-Hilaire, 23 Jan. 1881.

٨٧. صليبا، ولاية، ص١٦٥؛ Gross, **Ottoman Rule**, p. 341.

٨٨. بدأت، مع رحلة «دي تورسي» الملحق الفرنسي، ديبلوماسية فرنسية مُبادرة.

٨٩. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 29 Jan. 1881.

لقد اقترح «فلاش» Flesch على الوالي أن يشكل لجنة تحقيق، بإمرة مفوض من قبله، تبحث في الأسباب التي أدت لذلك. وليكن المفوّض هولو باشا - لفلاش علاقة معه - ويهدف بتركيزه ضد مرتبط بريطاني منافس مثل سعيد باشا قائد قافلة الحج[٩٠]. بيد أنه في النهاية، لم يكن أحد من الاثنين المفوض الخاص. وإنما كان المشير (قائد الجيش الخامس) حسين فوزي باشا وكان أهم دور بالمفاوضات لـ«محمود عامر». ولكنها استهلكت وقتاً حتى توصلت إلى هذا الحد.

ظهر في هذه الأثناء شيخ مسيحي من سهل حوران هو موسى فلوح أحد المبعوثين المسيحيين إلى مجلس إدارة اللواء (سالنامه ١٨٧١) - ينبئ بكل حماس عن تحضيرات في الجبل يظن أن فلوح كان يسندها إلى مسيحيين مقيمين في الجبل. فأعلم أنه: في اجتماع للدروز في قرية سليم في ١٥ آذار ١٨٨١ قد تقرر إعلام السلطة العثمانية المحلية بأن رجالاً عديدين قد فقدوا أثناء الحملة الهجومية التي قادها جمال باشا في العام الأخير. لقد قتل الجيش والحوارنة فندي عزام، كما قتلوا أيضاً ثلاثة رجال ولم تتدخل السلطة بشيء. ومع هذا فإن الدروز مستعدون لدفع دية قتلى الكرك. وعلاوة على ذلك يطلب الدروز أن تعاملهم السلطة مثل التابعين الآخرين (الحوارنة) وأن الدروز لا يرغبون في تسليم أحد. كما أنه قد فهم أن الدروز قد هيأوا، في الوقت نفسه، مخططات حرب، سينسحبون بموجبها إلى اللجاه في حالة الحرب. وهنا يجب على المسيحيين أن يفهموا من ذلك أنه سيكون عليهم أن يتركوا قراهم (كانت هذه تحسبات إثارة من أجل أن يتدخل الأوربيون في ما إذا اقتلعت شعرة لمسيحي). كما أنبأ بأن الدروز سيقومون باتصالات مع البدو، وأن سطام الشعلان شيخ الروَلا قد وعد آل الأطرش بمساعدتهم - وتشيع الأخبار بأنه أرسل لهم ٣٠٠ خيمة، كان قد كسبها من أعدائهم السرحان. كان الشيوخ الدروز قد أرسلوا قبل ذلك رسالة إلى القنصلية الفرنسية يطالبونها التوسط. كما أن أتباع عامر يناصرون المجموعة ويؤيدون مقررات اجتماع سليم (ما عدا محمود الذي كان محتجزاً في دمشق)[٩١]. وفي الوقت نفسه، أرسل الشيوخ كافة رسائل مجاملات إلى متصرف حوران. كان كل شيء يحضر من أجل الحرب، وفي الوقت نفسه كانت كل الاتصالات الديبلوماسية تعمل من أجل تفاديها. وقد أرسل العثمانيون عن قصد، رسائل إلى أنحاء الجبل كافة يبينون فيها أنهم لا ينوون بحال من الأحوال ولا

---

٩٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tisssot, 31 Jan. 1881; Gross, **Ottoman Rule**, p. 349; Schatkowski Schilcher, **Families**, p. 155.

٩١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 2 Mars 1881, Annexe 1, 2, 3 (مع رسالة من موسى فلّوح).

يرغبون في معاقبة كل الدروز، ولكن الذين أذنبوا بعملية الكرك فقط. أما كل الآخرين فهم مع ممتلكاتهم بأمان تام. وبطبيعة الحال فقط امتحنت «الوحدة الدرزية» بذلك امتحاناً عسيراً، ولكن، حيث إن شبلي الأطرش كان، بعكس أخيه إبراهيم، يتبع «للخط الاستقلالي الدرزي» التقليدي، قد قاد هجوم الكرك وأن إبراهيم بحكمته لم يخلّ بقيادة الأطرش (رغم أنه لم يشترك في أحداث الكرك) - فسلمت الوحدة ولم يسلّم أحد من المعسكر الدرزي. أما المنشورات العثمانية فمن باب الحيطة ولم توزَّع على الشعب[٩٢]. وفي السهل عانى الحورانيون من آلاف العسكريين الذين عسكروا هناك. وطبقاً لموسى فلوح كان عبء الجبايات الرسمية المفروضة عليهم كبيراً:

- ١١٦,٠٠٠ قرش لـ٥٣ حصاناً مطلوباً لفرقة عسكرية جديدة، مقسمة كالتالي: قضاء حوران وقضاء جيدور ٤٠,٠٠٠ قرش، القنيطرة ٣٠,٠٠٠ قرش، عجلون ٣٦,٠٠٠ قرش.
- وفوق ذلك على سكان حوران والجيدور أن يحضروا ٢٠٠ جمل ستبقى في المعسكر وعدداً أخر من الجمال لحمل ذخيرة دمشق (مقابل أجرة صغيرة).
- ١٠,٠٠٠ مدّ من القمح و١٢,٠٠٠ مدّ من الشعير، و٣٠٠ معطف وغطاء لضحايا الكرك، إلخ.

وختم موسى فلّوح تقريره:

«ولكن الناس في حوران كانوا سيشعرون بالسعادة إذا هاجمت الحكومة الدروز»[٩٣].

ولكن لم يكن هذا هدف الحكومة. ونجحت بعد مفاوضات معقدة بالوصول إلى نتائج سلمية. ويوجد عند موسى فلّوح وصف جلي للمراسيم التي توضح المشاكل الصعبة الطارئة خلال عملية «تمدين» مجتمع عشائري.

لقد اتجهت اللجنة، ظناً أن الدروز لن يأتوا إلى السهل الذي يحتله العسكريون، إلى ثعلة على طرف الجبل وبدأت أولاً مفاوضات سرية كتب بنتيجتها متصرف حوران ١٨ رسالة بأمر المشير إلى أهم شيوخ الجبل، وضمنت الأمان ودعاهم فيها بأن يمتثلوا أمام اللجنة، وكفل لهم حرية الحركة. وتفاوض الدروز حول الاقتراح وقبلوه تحت تأثير محمد عامر، الذي عين أربعة نواب كان عليهم أن يتكلموا باسم الدروز أمام اللجنة وهم: محمد نصار وإبراهيم أضماني وعبده (؟) وأحمد قاضي[٩٤] (وكلهم من شيوخ الصف الثاني الذين كانوا من مؤيديه)، ثم اتجه

---

٩٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 26 Mars 1881 (مع رسالة من موسى فلّوح).

٩٣. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot 22 Mars 1881, Annexe 2.

٩٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 9 Avril 1881, Annexe.

إلى اللجنة . والشيخان اللذان لبّيا الأمر بالحضور لدى اللجنة كانا من الصف الثاني للطرشان وهما : سليمان وأبو عبدي الأطرش . ثم جلبت الرسالة إلى أطرش أكبر شأناً وهو محمد من صلخد . وفي تلك الأثناء كان من اللازم تهدئة الثائرين في السويداء الذين رغبوا بمهاجمة القوات المتقدمة من بصرى أسكي شام . ثم تسلم ممثلو الدروز ، الذين مثلوا للاستجواب أمام اللجنة ، أسئلة اللجنة ، والتمسوا مدة يومين لأخذ رأي الدروز في السويداء وقد سُمح لهم بذلك . ثم عادوا بمرافقة محمد الأطرش وقدموا الموقف الدرزي الرسمي وهو : قد قتل فندي عزّام ودرزيان آخران على يد الحورانيين . وشكا الدروز لمتصرف حوران الذي بيّن لهم أن حوادث كهذه ليست من صلاحيته وعليهم أن يحلّوها طبقاً لعاداتهم القديمة - وهذا ما فعلوا . وقد اقتبس فلّوح جزءاً من الاستجواب :

«سؤال : من هم الذين قدموا إلى الكرك؟ جواب : لا نعرف ذلك . ألم تسمعوا أحاديث عنهم؟ لا . كم شخصاً قتل؟ لا نعرف ذلك . قال هؤلاء الذين سُلبوا في الكرك إنكم سرقتم مواشيهم وأملاكهم . نعم ، وجدنا أسلاباً ومواشي مسروقة عند بعض الشباب . من هؤلاء؟ لا نعرف ذلك . أين المسروقات؟ في السويداء . من اللازم أن تجلب إلى هنا . حاضر . قد أمر شيوخنا أن نجلبها لأنها أشياء محرمة .

ثم طلبت اللجنة دفع الدية عملاً بالقانون[٩٥] . جواب : نحن عشائر ومن عادتنا أن لا ندفع أكثر من ١٠,٠٠٠ قرش للرجل . ونطرح من هذا المبلغ ديون الحورانيين عندنا»[٩٦] .

لم تقبل اللجنة الطلب الأخير وفرضت على الدروز دفع الدية بدون مطروح . ثم انسحب الحورانيون ، كما روى فلّوح ، وضايقوا من خيبة أملهم مسيحيي خرابة (وقرى أخرى) وطلبوا منهم الشعير لحصنهم . وفي الليل سرقوا مواشيهم بدعوى أنها ممتلكات الدروز . أما هؤلاء الآخرون فقد توقفوا عن إشعال نيران الحرب واستنتج من هذا في حوران أن الأمر قد انتهى[٩٧] .

وكان الأمر كذلك ، فقد استمرت الشكاوى التي تتهم اللجنة المكلفة بتقييم الثيران التي كان على الدروز أن يسلموها إلى الحورانيين ، المؤلفة من دروز مجدل شمس وتركمان ، تعمل لصالح الدروز وأن المشير قد قبل الرشوة من إبراهيم الأطرش[٩٨] . وكان محمود عامر متهماً بعلاقاته مع القنصلية الفرنسية وبعد قضية «ده تورسي» de Torcy حلّ عليه غضب

---

٩٥ . Dilger, "Tendenzen", p. 189 .

٩٦ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 20 Avril 1881 . (ملحق تقرير من موسى فلّوح) .

٩٧ . ibid .

٩٨ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot 27 Mai 1881 ؛ صليبا ، ولاية ، ص١٦٩ .

العثمانيين[٩٩] وفقد منصبه كمدير. ومقابل ذلك حصل محمد الأطرش، وهو العضو الثالث لعائلة الأطرش، على منصب مدير. وكان المنصب الرابع كمدير لدى هزيمة هنيدي وهو من أحسن حلفاء الأطرش. وفي الرأي العام الحوراني والدمشقي الذي توقع خضوع دروز الجبل فإن الحكومة قد فشلت تماماً. وشعر الحورانيون بغضاضة خاصة. فأبرق ممثلوهم في المؤسسات العثمانية إلى السلطان والصدر الأعظم ووزير شؤون الداخلية يشكون الظلم الذي حدث لهم:

- كان عليهم دفع مصروفات الجيش.
- حصلوا على دية ٤٦٠ ثوراً فقط.
- بُنيت ثكنة في قرية مزرعة.

وإذا كان السلطان يعتبرهم من رعاياه فعليه أن يعاملهم بالعدل أو يعطيهم بلداً آخر كمهجر[١٠٠]. ومن وجهة نظر الإدارة كانت أهم نتائج قضية الكرك بناء ثكنتين. ويسجل السالنامه العثماني لسنة ١٨٨١ تحت عنوان «الإجراءات البنائية»:

«في ظل سيادة السلطان ولخلق الأمن وإدخال الإصلاحات الإضافية بُنيت قلعة في جبل الدروزفي مكان اسمه مزرعة على منبع ماء اسمه العين. هذه القلعة مبنية من الحجر المقطوع. لجانبها الأول طابقان ولجانبها الثاني ثلاثة طوابق وأبراج ذات طابقين في كل ناحية. ولها، إضافة إلى ذلك، حمام وفرن ومطبخ وإسطبلات ومشفى وأبنية متشابهة أخرى. وبُنيت أيضاً ثكنة ثانية في نفس جبل الدروز بالقرب من قرية عرى على مقربة من جدول ماء. هذه القلعة الصغيرة أيضاً مبنية من الحجر المقطوع ولها أيضاً أبراج ذات طابقين وغرف نوم لفرقة واحدة. ولها كذلك فرن ومطبخ وساحة واسعة. وبُني طريق من قرية بصرى الحرير إلى مزرعة ومن هناك إلى السويداء، مركز جبل الدروز»[١٠١].

وفي العام التالي جعل حمدي باشا إبراهيم الأطرش قائمقاماً. وفقد الجبل في نفس الوقت مكانته «كقضاء مباشر»، كان قد حصل عليه تحت إدارة مدحت باشا، فوُضع من جديد تحت رعاية متصرف حوران[١٠٢]. وسجلت السياسة العثمانية من خلال ذلك نجاحاً بارزاً، إذ حصلت على تنازلات بالغة من جانب الدروز بدون أن تفقد أي جندي وذلك على حساب الحورانيين. وهكذا كان الجبل لأول مرة مندمجاً بالإدارة العثمانية

---

٩٩. (راجع فصل «المسألة الدرزية») Gross, **Ottman Rule**, pp. 345-352.

١٠٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Montholon, 23 Juin 1881.

١٠١. **Salname-i Vilayet-i Suriye**, 1881 (1298).

١٠٢. Gross, **Ottoman Rule**, p. 344.

بشكل يستحق الذكر. ولقد صار إبراهيم خلال السنوات اللاحقة عثمانياً شيئاً فشيئاً. وهو في صورته المطبوعة في كتاب «جبل الدروز» لحنا أبو راشد[١٠٣] «عثمنلي» بالطربوش والبذلة بينما كان أخوه شبلي يميل إلى الجانب الدرزي واشتهر كشاعر حتى بالنسبة إلى بدو النقب. وأزعجت الثكنة شبلي، ومقره في عرى، إزعاجاً كبيراً. وربما قلّت في حماية الثكنة إيراداته من جدول الماء القريب من عرى الذي حصّل منه رسم «القلاط»[١٠٤]. وتفاقم التنافس بين الأخوين في السنوات اللاحقة التي كان فيها الوضع بين العثمانيين والجبل هادئاً نسبياً. وقد تمثلت في شبلي فضائل الدروز الذكورية مثل الجسارة والفروسية إلخ، أكثر من إبراهيم، وذهب مذهباً مضاداً للعثمانيين، وكان له بعد موت والدهما أتباع مثل أتباع أخيه على الأقل. وتوجه شبلي نحو الفرنسيين وأعلن رغبته مراراً بزيارة فرنسا، بقصد أن يعرض على رئيسها توجهاته المستقبليّة. ولكن الفرنسيين فهموا جيداً بأنه رجل لا يستغل وأجلت الزيارة حتى معرض باريس عام ١٨٨٩[١٠٥]. عندما كتب القنصل تقريره فيه سنة ١٨٨٤، وصفه «بالزعيم المميَّز» (chef suprême)، ذي النفوذ الواسع، شيخ الجبل واللجاه. ولا يُعتقد بأن العثمانيين قد صدقوه، ولكن الأهم أن تابعيه في الجبل قد انتخبوه «شيخ المشايخ»، رغبة في الخلاص من «إبراهيم»[١٠٦]. لم يكن «شبلي الأطرش» متذبذباً تجاه العثمانيين، ولقد قدم نفسه للفرنسيين رجلاً متنوراً، نشيطاً في طلب المدارس، يجهد من أجل ذلك. وكان في سياسة فرنسا الجديدة - والتي كانت مقبولة أكثر منذ احتلال الإنكليز لمصر - اهتماماً كبيراً بالمدارس البعثات. وافتتحت سنة ١٨٨٤ عدة مدارس في حوران والجبل. فالمطران الكاثوليكي اليوناني في حوران جهز ٨ مدارس في المنطقة هي: خباب، وبصير، وتبنة، وإزرع، وصما، وشقرا، ونمرة، والهيت. كما أن اليسوعيين افتتحوا مدارس سنة ١٨٨٠ في نجران. وكذلك افتتحت حكومة الولاية مدرستين أيضاً في الجبل[١٠٧].

استحدثت سنة ١٨٩٢ في اسطنبول آلية لربط وجهاء العشائر بالنظام العثماني بصورة أمتن، وذلك في تجهيز «مدارس العشائر السلطانية» (عشيرة مكتبي) التي يشير إليها «مارتن

---

١٠٣. أبو راشد، جبل، ص ١٠١ (صور).

١٠٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Portalis à Montholon, 2 Sept. 1881, Annexe 1.

١٠٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Gilbert à Noailles, 11 Juin 1884; 29 Juin 1884; 17 Mai 1885; Noailles à Gilbert, 28 Mai 1885; 19 Juin 1885.

١٠٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Gilbert à Noailles, 11 Juin 1884.

١٠٧. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890; Gross, **Ottoman Rule**, pp. 376-377.

هارتمن» Martin Hartmann على أنها من «أمهر مؤسسات عبد الحميد»(١٠٨). يؤخذ التلاميذ من أبناء العشائر الكبار، لمدة ٥ سنوات، في هذه المدارس الداخلية، يتتلمذون فيها تلمذة عثمانيّة. وسيدعى آباؤهم إلى اسطنبول وسيقابلهم السلطان. والمهمّون منهم يستضيفهم الباب العالي مدة طويلة(١٠٩). وكان أول نجاح لـ«سياسة الشرف» هذه تقدير سطام الشعلان شيخ «الروَلا» عام ١٨٩٢ حيث قدّم سطام، كهدية ضيف إلى السلطان ستة خيول عربية أصيلة. كما صرّح بأنه سيتنازل «عن عادات والده» وسيستقر، كما أودع ولده مدرسة «عشيرة مكتبي» برهاناً على صدق نيته(١١٠). وسرّ الباب العالي بذلك وأنعم عليه بلقب «ميرميران» (باشا) ومنحه «وسام المجيدية» من الدرجة الثانية. لقد تركت هذه الزيارة انطباعاً كبيراً لدى أوساط دمشق ولدى عشيرة الرولا، فقرر الوالي أن يقوم بخطوات مماثلة مع دروز حوران كي يقنعهم بأن يحتذوا بسطام(١١١). وبالفعل فقد امتثل له ثمانية من شيوخ جبل الدروز الكبار. وفي ٢٨ كانون الأول سنة ١٨٩٢ أرسل إلى اسطنبول ١٦ جواداً أصيلاً هدية، وسافر كل من: إبراهيم الأطرش القائمّقام وابنه فرحان وأخويه مصطفى ويحيى (رفض شبلي «معارض العثمانيين» مرافقتهم) كما رافقهم محمد الأطرش، مدير صلخد، وسليمان أبو عساف، مدير سليم، ومحمد نصار مدير سالة ومعهم يوسف هنيدي ابن مدير المجدل هزيمة الكبير في السن. وأودع آل الأطرش ابن فرحان، فتح، في المدرسة، وعمره ١١ سنة، وعاد هذا سنة ١٨٩٩ بعد خمس سنوات خريجاً بعلامة «جيد»(١١٢). كذلك أرسلت إحدى عشائر السهل، «المقداد»، أحد أبنائها إلى مدرسة العشائر(١١٣).

كانت الثكنات التي بنيت على مداخل المنطقة مهمة جداً بالنسبة للإدارة العثمانية، وقد واصلوا بناءها في السهل والجبل. ولتلك التي تم بناؤها قبل «العاميّة» أهمية كبيرة. ومن الثكنات التي نفذت حتى سنة ١٨٩٠: براق سنة ١٨٨٢، المسمية سنة ١٨٨٤، بصرى الحريري سنة ١٨٧٨. كما جدّدت قلعة «بصرى أسكي شام» سنة ١٨٧٥(١١٤). وعم الهدوء في الجبل تقريباً حتى انفجار أحداث «العامية» طبعاً عدا بعض الصدامات مع البدو في

١٠٨. Hartmann, **Reisebriefe**, p.14.

١٠٩. Akarli, "Abdülḥamid II's attempts", pp. 80-81.

١١٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 7 Jan. 1893.

١١١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 7 Jan. 1893.

١١٢. أبو راشد، جبل، ص ١٢٠؛ Cankaya, **Yeni Mülkiye**, p. 828؛ المصدر السابق.

١١٣. Cankaya, **Yeni Mülkiye**, p. 827.

١١٤. المصدر السابق.

اللجاه. فقد زحف آل الحلبي على قريتين في اللجاه، ثم استردتا سنة ١٨٨٦[١١٥]. لقد حاول العثمانيون في نفس السنة ١٨٨٦ إجراء إحصاء في حوران وباءت محاولتهم بالفشل. وقد اتحد بعض سكان الجبل مع بعض سكان السهل ولاذوا بالفرار إلى اللجاه على جاري عادتهم. عالج إبراهيم الأطرش آغا الأمر وسوّاه. لقد تضعضعت شرعية الأطرش لدى سكان الجبل مراراً. ولكن العثمانيين كانوا يعيدون تسويتها له.

٤ – تحولات اجتماعية واقتصادية نحو الإقطاعية

كانت التحولات الاجتماعيّة والاقتصاديّة على نفس الأهمية تقريباً. فقد كانت أهم العوامل التي حددت التحولات الاجتماعية والاقتصادية في جبل الدروز هي: الازدهار في تجارة القمح تبعه كساد اقتصادي عام، وموجات النزوح سنة ١٨٦٠ وما بعدها، وإخضاع جبل الدروز في النظام الضريبي العثماني وحماية الزعماء لها. وخلال ٣٠ سنة قبل «العاميّة» كان الجبل مغنماً يلعبه المغامرون. ولكون آل الأطرش وسيطاً سياسياً بين الدولة العثمانيّة وبين الدروز، فقد استفادوا من موقعهم هذا ونالوا منه الكثير. كما جلب لهم اتصالهم السياسي مع الدولة العثمانيّة الفوائد الجمة عبر إمتياز جبايتهم للضرائب. وقد كانت فائدة هذه الامتيازات أكثر تميزاً في المقرن القبلي (القسم الجنوبي للجبل)، حيث دعّمت سيادتهم وعززت مجال نفوذهم المعنوي والاقتصادي عبر الغرامات والزيادات في مدفوعات الفلاحين. فأدت هذه التحولات الاقتصادية والاجتماعية مباشرة إلى «العاميّة».

لقد كانت الأراضي الزراعية الواقعة جنوب دمشق بسبب قربها من الشاطىء، المنطقة الأولى من هذا النمط التي اندمجت في اقتصاد الشرق الأوسط والسوق العالمية. وجاء هذا التطور بسبب تزايد الإنتاج الزراعي للتصدير (cash crops) أقل استمراراً بالمقارنة مع صناعة الحرير في لبنان، واحتاج، إلى أكثر من ٣٠ سنة حتى استطاع أن يسير بشكل صحيح[١١٦]. وفي الدراسات المتعلقة باقتصاد القمح في حوران تؤخَذ المنطقة كوحدة متكاملة – دون تفريق بين مختلف المواقع. وقد كتبت «شلخر» Schilcher عن استثمار القمح في سوريا في العهد العثماني المتأخر ما مفاده أن الدراسات القليلة عن الأرياف السورية تمحورت حول المفاهيم السياسية والاجتماعية المرتبطة بالإثنية، دون أن تولي كبير عناية للفروقات

١١٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Gilbert à Montholon, 12 Avril 1886.

١١٦. Schatkowski-Schilcher, **Hauran**, p. 159.

الاجتماعية داخل الإثنية الواحدة[١١٧].

ولكن لم يكن في حوران مجتمع موحّد. فقد سيطرت على مختلف المواقع الجغرافية تأثيرات متفاوتة، بجماعات مختلفة اجتماعياً وإثنياً، ولديها قدرة مقاومة مختلفة ضد تسلّط الدمشقيين إلى جانب تسلّط الدولة التي رسبت في مجال الاقتصاد. وبعبارة أوضح، كان لمتصرفية حوران موقف خاص بين كل المتصرفيات في ولاية سوريا، حيث كان السكّان فعلاً معفيين من الخدمة العسكرية، وكانت تدفع نوعاً من الإتاوة بدلاً من الضرائب العامة. وكانت النواحي من جهتها مندمجة بالنظام العثماني بمقدار مختلف، لا سيّما أن ذلك قد تسنّى له في حوران بأكثر مما استطاعه في جبل الدروز واللجاه. لقد كانت الإجراءات الأخيرة في اللجاه مميّزة عنها في حوران. فبينما كان متعهدو الضمان من المدينة فعّالين في حوران، لم يكن في الجبل واللجاه شيء من هذا. ولا حتى في الجبل ملاك غائبون عن الأرض absentee landlords، دون حضور مباشر لهم في الموقع (لوردات الأرض الغائبون) كما هو الحال في حوران. وبالرغم من التزايد السكاني في الجبل والاندماج في النظام العثماني والسوق العالمية، كان الجبل والسهل يتطوران منفصلين عن بعضهما. والتقارير في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر تشير بوضوح إلى الفرق الاقتصادي الكبير بينهما. فبينما كان الفلاحون الحورانيون يرزحون تحت وطأة الديون، كان وضع الفلاحين في جبل الدروز أفضل. وعن تقرير قنصلي في ذلك:

«إن الفلاحين الذين يبدو أنهم يمتلكون ما يكفيهم من احتياجات الحياة البسيطة مما ينتجون من حقولهم ومواشيهم، يكتسبون مظهراً سعيداً وقنوعاً. حياتهم مستقلّة فيها الكثير من الاحترام الذي ينطبق على مظهرهم وعنايتهم بأنفسهم وبكسائهم الصوفي النظيف والمتين الذي نسجوه في منازلهم. كل هذا يعطي انطباعاً بالفارق الكبير بينهم وبين سكان السهول الذين تبدو عليهم آثار الفقر المدقع والمظهر غير اللائق»[١١٨].

هكذا كان الوضع في سنة ١٨٨٠. ولننظر إلى التطور بعد ستينيات القرن الـ١٩. في منتصف القرن ظهرت حبوب حوران في أربع أسواق مستوردة:

- في أسواق داخلية مثل دمشق والقدس مع أسواق ناشئة مثل دير القمر وزحلة.
- في مدن موانئ على شاطئ البحر المتوسط.
- في أسواق ما وراء البحار مثل فرنسا، إنكلترا، إيطاليا، وأيضاً اليونان ومصر.

---

١١٧. مثلاً: Schilcher, "Grain economy", p. 175. 134.

١١٨. **FO** 195/1264, "Report of a journey made by Vice Consul Jago of Damascus during May and June 1879"; **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890.

- في الإدارة العثمانية، للجيش ولقافلة الحج[١١٩].

لقد كان أول دافع لتصدير الحبوب هو حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) وبين ١٨٦٢-١٨٦٩ (باستثناء عامي ١٨٦٥-١٨٦٦) حيث بلغ المصدّر من الحبوب إلى إنكلترا ١٠,٠٠٠-٥,٠٠٠ طن عبر السواحل السورية، وكذلك جرى التصدير إلى مصر سنة ١٨٦٤ وإلى فرنسا سنة ١٨٦٩. بيد أن هذا الزّخم من التصدير قد استمر في الفترة الزمنية ١٨٧٠-١٨٨٠ رغم التحولات المتتالية والركود في السوق العالميّة. ولكن بعد هذا تدهور الحال:

«إن فترة الذروة في تصدير الحبوب السورية في العقدين الخامس والسادس من القرن الـ١٩ قد بدأت تتراجع تدريجياً في العقدين السابع والثامن من نفس القرن. وذلك نتيجة لفتح قناة السويس وفترة الكساد التي عمّت تلك الفترة. إذ إن الانخفاض الحاد في أسعار الحبوب الذي نتج عن ذلك والذي استمر على مدار العقد التاسع كان مانعاً رئيساً للتجارة المدنية وتجارة النقل البحري والمقاولين الأميريين. لقد كان هامش الربح بين الأسعار في موانئ التصدير والسعر في الأسواق العالميّة قد بدأ يتضاءل باطّراد مع بداية العقد الثامن ثم اختفى نهائياً سنة ١٨٨٧. وبحلول سنة ١٨٩٢ هبطت الأسعار تحت مستوى الكلفة التي تدفع للعاملين في الحقول»[١٢٠].

ولكن من الذي كان يتحكم بالإنتاج من وراء ظهر سوريا؟ تتحدث تقارير قنصلية بريطانية عن تجمّع (كارتيل) تورد عنه «شلخر»:

«. . . إنّ التجمع غير الرّسمي للتجار الدمشقيين والحكومة المحليّة قاطعوا السماسرة الماليِّين والسياسيين. . . الذين عطلوا نمط الحكم المطلق وتوسيع الزراعة والتدفق الحر لفائض الإنتاج للأسواق الخارجيّة اللاّزمة لموارد الخزينة العثمانيّة في الولاية»[١٢١].

لقد شجّع ازدهار الستينيات على قيام مثل هذه «الكارتيلات». والسؤال كيف كانت تعمل؟ تقول «شلخر» إن الإجابة على ذلك ترد في تقرير القنصل البريطاني «وود» Wood الذي يتحدث عن مبيعات الأراضي في سهل حوران، حيث كان الوالي يقف ضد مقاومة الفلاحين لها ويتضح من ذلك أنه كان في سياسة الأرض غاية بيعها أيضاً، أي بيع الأرض إلى متعهدي الزراعة من المدن كغاية أولى لديهم. والغاية الثانية الالتزام بالرغم من أن هذا كان

---

١١٩. MAEN, Constantinople, Correspondance, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890; Schatkowski-Schilcher, "Impact".

١٢٠. Schatkowski-Schilcher, "Violence", p. 53.

١٢١. Schatkowski-Schilcher, "Violence", p. 51.

ممنوعاً في «تنظيمات الأراضي». وهذا ما يقصده «شاو» Shaw عن هدف التنظيمات في مجالي الضرائب والزراعة:

«لقد كانت الأهداف المالية الرئيسة لمصلحي التنظيمات تشمل تحويل عبء الضرائب المفروضة على الأرض إلى ضرائب تفرض على أغنياء المدن. مع استبدال محصلي الضرائب غير المباشرين بآخرين يقومون بتحصيلها مباشرة، وهم عبارة عن وكلاء تدفع الدولة رواتبهم. وتحل هذه الضرائب محل ضرائب الرسوم التي كانت مفروضة على المساكن والأملاك الزراعية، دون اعتبار للقدرة على دفعها. كما تم إلغاء العديد من الإعفاءات القديمة التي كانت قد منحت عبر القرون»[١٢٢].

لقد تبيّنت هذه الأهداف في «فرمان ١٩ ذو القعدة ١٢٥٥» الموافق ١٩ شباط ١٨٣٨ بقانون مخصص: كافة الضرائب التقليدية المطروحة على أساس القواعد الشرعية هي لاغية باستثناء ضريبة الأغنام وحيوانات أخرى، وضريبة الجزية على الرجال من غير المسلمين. أما العشر فكان الضريبة الوحيدة على المحاصيل الزراعية. ومن الإصلاحات أن تتمّ جباية هذه الضرائب من قبل موظفين («محصلين»). وهذا يتطلب إحصاء وتسجيل الأراضي رسمياً[١٢٣].

بيد أن محاولات تشجيع الإنتاج الزراعي عبر تثبيت ملكية الأرض لم تصب النجاح المرجو لها. والسبب في ذلك أن عدد الموظفين المتوفر لم يكن كافياً للتسجيل وإصدار سندات التمليك. كما كان هناك سبب آخر هو أن الأهداف بحد ذاتها كانت متناقضة: فإن الفلاحين يحتاجون إلى ضمان ملكياتهم في إفراغ يؤمن قيمتها من جهة. ومن الجهة الثانية فإن العثمانيين أرادوا التحكم في أجزاء كبيرة من الأرض، تمكّنهم من معاودة المطالبة بها متى أرادوا. فهي رسمياً «ميري» («ملكية سلطانيّة»)، مع أنها منذ أمد بعيد في أيد خاصة عملياً. ويلخَّص ما قصد به في أنه استهداف أولي للملكية الخاصة للأرض، والآخر هو استهداف لإعادة تنظيم نظام الميري. وقد رافق هذا التناقض سياسة الأرض العثمانية طوال القرن التاسع عشر[١٢٤] وأدى إلى سياسية متأرجحة. وقد جرت محاولات عدة لتحديد نفوذ الملتزمين أو إلغائه[١٢٥]، إلاّ أنها بقيت المرجع واستمرت في النهاية[١٢٦]. وهكذا تدعّم

---

١٢٢. Shaw, "Ottoman tax reforms", p. 421.

١٢٣. Shaw, "Ottoman tax reforms", p. 422.

١٢٤. Baer, "The development of private ownership in land", pp. 67-68.

١٢٥. Shaw, "Ottoman tax reforms", p. 426.

١٢٦. Shaw, "Ottoman tax reforms", p. 429.

«الكارتيل» وتشجّع العاملون في الأرض تبعاً لذلك. أما فلاحو جبل الدروز، مع عدم توفر البرهان عن تشجيع مباشر، فإن هذه السياسة المتأرجحة أدّت إلى عواقب مشرِّفة لهم.

لقد جهز الباب العالي في نهاية ١٨٥٨ «مكتب السجل العقاري» (طابو سجلي) وجعل إدخال السجل الأفضلية الأولى في كل الولايات العثمانية. وكوثيقة لتسجيل الملكيات وُزّعت على كل فرد تذكرة هوية (وركو نفوس تذكرسي)، ومن عام ١٨٦١ طرحت على أساسها ضريبة الأملاك (الوركو)[١٢٧]. (وحسب عبد الكريم رافق لها علاقة بـ«الفَردة» المصرية)[١٢٨].

وفي سنة ١٨٦٧ اجتمع المجلس العمومي الجديد في بيروت (للمرة الأولى والأخيرة) تحت زخم قيادة رشيد باشا وأصدر قرارات عدة، رفعت إلى الباب العالي للتصديق عليها. وكان بينها اقتراح مشروع قانون تشكيل «مجلس زراعي» في كل متصرفية وقضاء، ليهتم بتوزيع البذور من أجل ضم أرض جديدة، بخاصة على البدو الذين سيشجعون على الاستقرار (خاصة في حوران). وبينها اقتراح آخر بالنسبة لفلاحي حوران في أن ينشئوا بساتين مثمرة حول وداخل قراهم. وكذلك تسجل أراضي حوران بموجب قانون الأرض لسنة ١٨٥٨ أيضاً[١٢٩]. وكان التشجيع في أول الأمر جيداً (وأصبحت «الجذر»، أي شريط الأشجار، تحيط بالقرى في ثمانينيات القرن الـ١٩)، بينما اعترضت أعمال تسجيل الأراضي مقاومات مريرة.

لقد حاول مدحت باشا أثناء فترة مهمته، أن يطمس سوء الاستخدام للالتزام، فشجَّع الفلاحين على أن يتعهد فرد منهم الضرائب ويحررهم من الكفالات المقيتة. وفي سنة ١٨٧٩ جاء في تقرير للقنصل البريطاني ما يلي:

«. . . لقد ازدادت نسبة العروض للالتزامات بنسبة ٥٠٪ عن العام السابق. ويعود ذلك إلى الحيوية والسيطرة الشخصية من قبل مدحت باشا وعمله لإلغاء الممارسات التي كانت تحترمها وتنفذها السلطات السابقة، والقاضية ببيع سندات الملكية لأقضية بكاملها للمضاربين المقرّبين من دوائر السلطة، إلى الحد الذي منع عمليات المنافسة من قبل الرأسماليين الصغار، وهذا لخسارة خزانة الدولة وللربح المقابل لدى موظفين ومضاربين»[١٣٠].

---

١٢٧. Shaw, p. 427, footnote 2; Gross, **Ottoman Rule**, p. 111.

١٢٨. Rafeq, "Impact of Europe", p. 430.

١٢٩. Gross, **Ottoman Rule**, p. 135.

١٣٠. **FO** 195/1263, Jago to Layard, 16 June 1879; Shamir, "Modernization", p. 430.

بقي جبل الدروز بعيداً عن كل هذه الإجراءات، وبقي القائمقام فيه هو المسؤول عن إرسال الإتاوة. حيث كان إبراهيم الأطرش هو عملياً الملتزم. فقد ذكر القنصل الفرنسي أن الشيوخ دافعوا بامتياز عن دفع الإتاوة بدلاً من الضرائب المقدّرة، وكان الفلاحون معهم يدعمونهم في ذلك، دون أن يعلموا بأنهم سوف لا يستفيدون من ذلك بشيء. وبدلاً من تقديرات العشر، أصبحوا يُنهبون من قبل الشيوخ. مع احتمال أن تبتزهم الجهتان مستقبلاً[١٣١]. لقد حلّت بالمتصرفية أزمة مالية حادّة وطويلة بعد الحرب العثمانية الروسيّة. وبقي الموظفون نيفاً وعاماً لم تدفع لهم رواتبهم[١٣٢]. فاقتصرت مداخيلهم على الرشاوى، وهكذا ظهرت أزمة ديون الفلاحين في السهل[١٣٣]. وعلى هذه الخلفية كان التطور في الجبل واضح المعالم.

أصبح نمط «المشيخة» لدى آل الأطرش نمطاً جديداً. كان الطرشان أسياداً وصعودهم إلى مركز النفوذ لا يزال جديداً. وكان إسماعيل الأطرش وإخوته من الجيل الثاني بعد هجرتهم ومن أول جيل مولود في الجبل وهم يعرفون واقعه. وكان رأسمال إسماعيل أبناءه وهم ثمانية، ورأسمال هؤلاء أصبح ضخماً حتى قيل إن البغل ينهار تحت حمل الذهب الموجود بحوزتهم[١٣٤].

وكما كان متوقعاً فإن المفتاح لفهم هذا الصعود في مكانتهم يعود إلى طبيعة جبل الدروز كمنطقة حدودية تمتد على كامل جنوب الجبل، الأرض التي قال فيها «فتسشتاين» إنها «جنّة» لجودة تربتها الزراعيّة. لكنها تنتظر من يخدمها عندما يرحل البدو عنها. وعندها لا بد من جولة تفهُّم واعٍ، تدفع في تطور النمو السكاني والاستيطان.

وقد عاد قسم من اللاجئين، وكانوا قرابة ٣٠٠٠ رجل، عام ١٨٦٠ بعد العفو عنهم إلى وطنهم، وبقي قسم آخر منهم في الجبل. ثم عاد القسم الثالث الذي غادر، حيث وجد نفسه غريباً هناك[١٣٥]. ومع هذا فقد ظل الجبل على طبيعته ملاذاً للذين تلاحقهم الدولة[١٣٦].

تحت الضغط الذي أحدثه اللاجئون، تزحزحت حدود جبل الدروز داخل اللجاه. وقد سبقت الإشارات إلى النزاعات على الأرض في فصل سابق، بين الدروز وبدو الصلوط، حيث توغّل الدروز بحدودهم إلى داخل اللجاه. كما استوطن آل الحلبي قرى وادي اللواء.

---

١٣١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 26 Avril 1897.

١٣٢. Shamir, "Modernization", p. 357.

١٣٣. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890.

١٣٤. حنا، **العاميّة**، ص٣٥٥.

١٣٥. Lewis, **Nomads**, p. 80.

١٣٦. **MAEN**, Turquie, Correspondance, Guys à Bourgoing, 29 Mai 1876.

وكانت المشكلة الأكبر هي التوسع نحو الغرب. وغالباً ما استغاثت قرى السهل الحدودية، وطلبت من جيرانها الدروز حمايتها من البدو، ورفع الشيخ المقتدر، «الخوة» عنهم أو ضم القرية في حمى نفوذه. وفي نهاية سنة ١٨٧٨ لبّى الشيخ سليم محمد أبو عساف نداء قرية إزرع على الحدود الغربية للجاه وذهب مع تابعيه إلى القرية واتخذها مقراً له واعترف به كمتصرف لحوران بمرتبة «شيخ إزرع»[١٣٧] القريبة من شيخ سعد مقر المتصرفية آنذاك. وأمر مدحت باشا أبو عساف بالعودة إلى الجبل. وقد كان من خلفية حرب بصرى الحريري في الحقيقة، أن الدروز حتى نهاية سبعينيات القرن الـ١٩ قد استولوا على ١٧ قرية من السهل، وغالباً باستخدام العنف، وهي: تعارة، الطيرة، صمّا، الدارة، ولغا، براعة، سماع، صلعا، الأصلحة، السجن، الدور، المجيمر، غوثا (؟)، بكّا، خباب، خربة، الدويري (أنظر الخريطة). لقد كانت هذه القرى موضع مفاوضات دائمة بين الدروز والسلطات العثمانية وبقيت في النهاية بيد الدروز حسب القول المعروف: «أخذناها بالسيف، فليستردوها منا بالسيف»[١٣٨].

تكاثف الاستيطان في المنطقة الجنوبية من الجبل حيث نفوذ الطرشان، إذ إن إسماعيل الأطرش أنزل أولاده في القرى الثماني بمحيطه (وكما ذكر آنفاً سكن الأطرش في القرية وهي القرية الأكثر جنوبية في الجبل ومن هناك ذاعت سمعته). كان توزعهم كما يلي: هلال ذهب إلى رسّاس بينما بقي يحيى وشبلي في عرى، وسعيد ذهب إلى ديبين، ومنصور إلى أم الرمّان، وبقي مصطفى في القرية، ونال إبراهيم مرتبة «شيخ المشايخ» في السويداء، وذهب محمد إلى صلخد[١٣٩]. ومن صلخد تم استيطان القرى التي تحيطها ولكن لم يسكنها طرشان، وإنما ممثلوهم الذين عرفوا بـ«بناة صلخد». وكان السكان الذين أحيوها من الدروز، إما أن يكونوا قد جاؤوا أرضاً غنية الإمكانات، أو أن الشيخ قد منحهم إياها. وهناك ظاهرة جديدة، هي أن العائلات الطموحة، وأولها الطرشان، دعوا السكان في وطنهم القديم إلى السكن. أما عن السؤال كيف ومتى جاؤوا فالجواب في الجنوب بلا تردد هو: «الشيخ جاب الناس»[١٤٠].

أمّ الجبل سنة ١٨٦٦ من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ عائلة من وادي التيم وفلسطين، وقد كتب القنصل البريطاني «روجرز» Rogers في أسباب هذه الهجرة العبارة التالية: «عملياً هي مسألة

---

١٣٧. FO 195/1264, Jago to Salisbury, 12, 16 Aug. 1879; Jago to Layard 1, 1 Jan. 1879.

١٣٨. أبو راشد، جبل، ص٩٩.

١٣٩. عن مقابلات شفوية.

١٤٠. عن مقابلات عديدة في القرى الجنوبية.

البقاء». إن الضرائب الثقيلة والسياسة الإدارية المتسلّطة، بالإضافة الى حملات الجراد، القارضة الأصغر منذ فجر التاريخ، كلها عوامل أدت إلى تشريد الناس[١٤١]. ومـمّا كتب القنصل البريطاني في شهر تموز ١٨٦٧ في ذلك ما يلي:

«... لقد أنهى الدروز محصول الحرير في جبل لبنان وباعوه ثم استأنفوا الهجرة إلى حوران. لقد هاجر العديد من الأسر ويستعد غيرهم للهجرة... إنّها مسألة بالغة الأهمية بالنسبة لهذا البلد وللحكومة. ذلك أن يتخلّى عن جزء هام من جبل لبنان، قسم من سكانه الأصليين، لا سيّما أن في ذلك تقوية لمناطق حوران التي تشكل مستوطنة شبه مستقلّة، قوامها من المحاربين في منطقة منيعة يصعب الوصول إليها من قبل السلطات العسكرية»[١٤٢].

لقد كان العثمانيون يتضايقون فعلاً من هذا النزوح في سبعينيات القرن الـ١٩، إذ كان هؤلاء يبيعون ما يملكون ليسدّدوا ديونهم ثم ينزحون كي لا تزيد الضغوط عليهم[١٤٣]. ومع أن النزوح إلى الجبل قد توقف في الثمانينيات تقريباً، فقد تواصل باتجاهات أخرى، إلى ما وراء البحار غالباً.

يشير المخطط رقم ٨ إلى إذعان الجنوب لزعامة الأطرش حتى الثمانينيات. ونتبيّن كم كانت الشروط في الجبل ملائمة للهجرة، بالمقارنة مع المقاطعات الأخرى، يكفي أن تقابل الميزات الضريبية فيتبين للمرء مقدار الفرق. إن دراسة للقنصل الفرنسي سنة ١٨٩٠ تعرض بكفاية ووضوح كيف كان الوضع في ذلك الحين، وكيف أن الطرح الضريبي في حوران يختلف من قضاء إلى آخر حسب التكامل المالي في النظام العثماني ودرجاته:

«قديماً كانت حوران بالمجموع تدفع الضريبة مرّة واحدة باسم شخص واحد للدولة في العام باستثناء سكان السهل الذين كانوا ملزمين بتأمين كمية من القمح والشعير والحطب والفحم لقوافل الحج وعليهم أن يوصّلوا هذه المؤن الى المزيرب، طريق القوافل... وحالياً يختلف نظام الضرائب في كل قضاء عن باقي الأقضية، يعني أنه يختلف حسب قوة الدولة هناك»[١٤٤].

احتفظ الجبل لنفسه بامتياز إتاوة واحدة ثابتة القيمة تدفع مرة واحدة في العام. كان مجموعها ٣٠٧,٠٠٠ قرش لعام ١٨٩٠ مفصلة كما يلي:

---

١٤١. Lewis, **Nomads**, p. 81.

١٤٢. Lewis, **Nomads**, p. 81.

١٤٣. Lewis, **Nomads**, p. 81.

١٤٤. **MAEN**, CCP, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890.

١- ويركو (ضريبة أملاك) وعشر: جملة ٢٣٠,٠٠٠ قرش.
٢- بدل العسكري للدروز: جملة ٥٠,٠٠٠ قرش.
٣- بدل العسكري للمسيحيين: جملة ١٢,٠٠٠ قرش.
٤- ضريبة مواش: جملة ١٥,٠٠٠ قرش.

بذلك اختصر الدّروز ما كان يجب أن يساق إلى القائمقام والمدير وخيالتهما. وكان هذا يعادل النصف تقريباً. وعلى هذا كانت مدفوعات الجبل من الضرائب أقل بكثير مما لو كان اتبع أسلوب التقديرات السنوية (التسعيرات والكم والنوع). لقد كان على كل قرية في الجبل دفع مبلغ ثابت في العام، ولهذا لا يستغرب أن يدافع الشيوخ عن هذا الامتياز الضريبي بحماس.

كذلك لم يكن لدى شيوخ اللجاه ما يشكون منه. فهم يدفعون جملة في العام ١٣,٠٠٠ قرش، يضاف إليها ٣٠٠ رأس غنم، ثم يأتيهم، حسب «غيو» Guillois، بالمقابل من خزينة الدولة منحة شهرية قيمتها ١٧,٠٠٠ قرش أي ما يعادل ٢٠٤,٠٠٠ قرش في العام مقابل أن يوقفوا الكسارة عن القطار في السهل مع أجر لمرافقة قوافل الحج حيث كان عليهم أن يرافقوها من المزيرب حتى العودة، ويدافعوا عنها ضد هجمات بدو الصحراء. كما تستوفى منهم ضريبة مواش كما يلي:

- ١٠ قروش علّى الجمل.
- ٣,٥٠ قروش على الخروف.
- ٣,٥٠ على رأس الغنم.

ويدفعون علاوة على ذلك ضريبتي الويركو والعشر وبدل العسكري. (كانت كل حوران تدفع بدل الجندية ما عدا اللجاه التي كانت معفاةً منها). لم تكن الضريبة في السهل ثابتة. لقد كان العشر يدفع حسب القانون (في درعا وشيخ سعد وبصرى) مقدراً بعدد أمداد القمح حسب العام. أما في عجلون فقد كانت تقدر حسب المساحة وبلغت مقدار ١٨٠,٠٠٠ قرش في العام. والقنيطرة كانت تدفع ٣٠٠,٠٠٠ قرش في العام والسلط ١٠٠,٠٠٠ ليرة تركية وتصل ضرائب حوران بمجموعها إلى مبلغ (٧٠,٠٠٠-٧٥,٠٠٠) ليرة تركية. وقد اعتقد القنصل الفرنسي أن:

«... المبلغ لم يكن يتعدى ٥٠٪ منه لو راعينا الرشاوى والاختلاسات وتكاليف الموظفين»[١٤٥].

١٤٥. المصدر السابق.

أما عن تسجيل الأراضي، فقد قاومه الحورانيون خوفاً من مضاعفة الويركو والعشر. ومع هذا فقد تيسر للعثمانيين حتى سنة ١٨٩٠ أن يسجلوا قسماً كبيراً من الأراضي في القنيطرة وعجلون والسلط وسهل حوران. وكان القنصل يتوقع أن ينتهي التسجيل في هذه المناطق بعد وقت قصير - ما عدا منطقتي اللجاه وجبل الدروز.

وكما سبقت الإشارة، فإن الوضع الاقتصادي في الجبل كان أحسن منه في سهل حوران، حتى عندما احتدت النزاعات في الثمانينيات، كان فلاحو الجبل في وضع أفضل بالمقارنة مع السهل. والسؤال الآن: لماذا حصلت في الجبل انتفاضة فلاحية ولم يحدث مثلها في السهل؟ إن المفتاح لفهم ذلك يكمن مرة أخرى في العلاقات الداخلية في الجبل نفسه.

إن نمط الاستيطان الجديد الذي طبقه الطرشان في الجنوب، بالإضافة إلى نموّ ثرواتهم والدَّعم العثماني الذي نالوه، كان لكل هذا عواقب في العلاقات الاجتماعيّة الداخلية في الجبل، وكانت صورتها المباشرة في علاقات الشيخ مع تابعيه في القرية، خاصة أنه أصبح للشيوخ قوات مسلحة لأول مرّة بحكم مناصبهم كمدراء. هذا في الجنوب، أما في الشمال فقد كان العكس، حيث إن الاستيطان قد تتابع عشائرياً، ليس لضيق الأرض فقط، ولكن لقلة عدد العائلات في القرية أيضاً. بينما في الجنوب، حيث نفوذ الأطرش والحقول الواسعة، نجد قرى كثيفة السكان، مع عدد كبير من العائلات الصغيرة في القرية الواحدة، يدفعون للشيخ الضرائب والعطاءات ويستخدمهم وسائل ضغط وسخرة. لقد لعب عنصر القرابة دوراً في تخفيف هذا النمط في العلاقات بين عائلات الشمال. كما لم تسمح قلة المساحات بقيام ملكيات كبيرة مثل الجنوب. وفي الشمال لم تكن درجات الغنى متفاوتة بين الشيخ والفلاح[١٤٦]. بينما تشير القصور البازلتية السوداء إلى ثروات الطرشان آنذاك. لقد كان الشيخ وخيالته في المراحل الأولى من الاستيطان، ضمانة وحماية للسكان ويدافعون عن القرية. ولكن الوضع تغير مع نتائج الاستقرار. وفي روايات أهالي ذبين شهادة بذلك:

«في البداية حمى الشيخ سعيد الأطرش القرية مع رجاله كما اهتم بترميم جبّ الماء وأتى بسكان جدد للقرية»[١٤٧].

بعد سنين قليلة استقرّ وضع العائلات المقيمة اقتصادياً، بسبب ارتفاع أسعار الغلال وجودة المواسم وقلة التكاليف وانخفاض الضرائب، وبالرغم من أن القادمين الجدد كانوا يقدِّمون للشيخ عن الأرض المستصلحة الجديدة ما يصل تقريباً إلى ربع المحصول[١٤٨].

١٤٦. رضوان، الحركة العاميّة؛ حنا، العاميّة، ص ٣٧٣-٣٧٤، ٣٨٣.

١٤٧. حديث مع محمد قرقوط.

١٤٨. مقابلات في متان وذبّين.

ثم سرعان ما حصل التأزم، فحسب رواية آل قرقوط كان لقاسم قرقوط ستة أولاد، وكان رجلاً مقتدراً في ذبين. ولم يرغب لنفسه بألاّ تكون له مضافة. فبناها بيده، وكان بها. وقد أثار ذلك حفيظة سعيد الأطرش. فاستعمل سعيد حقه في الترحيل وأخرج قاسم وعائلته من القرية. ومما ذكر أن:

«دخل قاسم ليلاً إلى بيت شبلي الأطرش وطلب إليه أن يأمر سعيداً بأن يتراجع عن ترحيله. وهكذا استطاع قاسم العودة، وأصبح بعد ذلك الانتصار زعيم العائلات الصغيرة في ذبين. وهكذا بدأت تتهيأ «العاميّة» في البلد»[١٤٩].

كانت حقوق الشيوخ في المقرن القبلي هي نفسها في المقرن الشمالي، الذي كان يسمى «المقرن العائلي» حيث تقيم عائلات قليلة ولكنها عريقة. أما في الجنوب حيث نفوذ الطرشان، فتقيم عائلات كثيرة متناسقة. وفي العقدين اللذين ارتفع بهما سعر القمح واستفاد الجبل إلى حدّ ما من امتيازات الضرائب أيضاً، انطلق التطور بحيث يمكن تسميته «تطوراً إقطاعياً». ولذا في نهاية ثمانينيات القرن الـ١٩ سنحت الفرصة المتاحة للنهوض الاقتصادي، ليساهم في قيام النِّزاع.

كان الطرشان، في الحقيقة، الملتزمين الفعليين وبالأحرى فئة كبار ملاك الأراضي. ولكن ما كان مقدار أراضي الشيوخ فيها؟ قبل «العاميّة» كانت أملاك المشايخ في قرى الجنوب تقدر بحوالى ١٠٠٠ حتى ٣٥٠٠ هكتار تقريباً. هي مساحات واسعة في الواقع. فقد كان آل عامر في الشمال، مع قلة المساحات، يمتلكون في شهبا نيفاً و٢٥٠٠ هكتار مع مميزات في القرية. وكذلك الحلبي في الصوارة الكبيرة، فقد كان يملك ١٦٦٧ هكتاراً. إن المخطط المرفق بعنوان «أملاك الشيوخ» يبين الوضع بعد «العاميّة» في عشرينيات القرن الـ٢٠، وهو نفسه في ثمانينيات القرن الـ١٩ أيضاً، وقت بلغ الاستيطان حدوده النهائيّة[١٥٠]. وتبعاً للنموّ السكاني والتوزيع بالإرث، فقد تجزأت الملكيات وصغرت[١٥١]. يتضح الآن كيف كان الجيل الأول من الوجهاء المؤسّسين في حوران يملك ثروات طائلة[١٥٢]. وكيف كانوا يسعون في البداية وراء ساكنين جدد كي يستخدموهم في الأرض كعمال موسميِّين (يسمّون «المرابعين» نسبة لأجورهم التي كانت تساوي ربع غلال الحقل الذي عملوا به طوال العام). والعائلات التي كانت تشاكس الشيخ كانت

---

١٤٩. حديث مع حمد قرقوط.

١٥٠. العاميّة انتزعت من الطرشان نصف الأراضي.

١٥١. انظر المخطط الملحق.

١٥٢. شملت أراضي بعض آل البرازي ثماني قرى.

ترحّل أو يستبدل بها غيرها أو تسخّر فقط.

كان الإقطاع حينئذ يتمثل بالحالات التالية: كان الشيوخ المدراء، بمساعدة العثمانيين، معززين بتابعين مسلحين يستطيعون أن يستخدموهم في وجه قراهم، في الوقت نفسه. وبهذه العلاقات الجديدة بين الشيخ وتابعيه الفلاحين حصلت نكسة في نمط المميّزات الإقطاعية هي التي أتت «بالعاميّة». وبعض مما قيل فيها ما يتعلق بمظاهر اللباس مثلاً (إن للشيوخ الحق فقط في أن يحتذوا بالحذاء الأحمر - «الصرماية الحلبية»)[١٥٣]، أضف إلى ذلك تهجّم الشيوخ على الفلاحين[١٥٤]. ومن الملامح الأخرى للتحول نحو الإقطاعية كان اتخاذ زيجات متعددة من النساء المسيحيات من قبل الشيوخ الكبار[١٥٥]. ومما كان معلوماً أيضاً، أنه في فترة الطفرة الاقتصادية في الثمانينيات، حاول بعض الشيوخ الابتزاز، وطالبوا بمتخلّف لهم، ادّعوا به، لدى الفلاحين بما قدروه بـ ١/٣ محصول الفلاّح أو باستبداله بأعمال سخرة.

وهكذا عمّ التململ وكبر بحيث أضحى ثورة ضد الإقطاع، استدعت سعي رجال الدين للتهدئة باسم حماية الأخلاق العامّة. ويورد «صلاح مزهر» وثيقة عن اجتماع عقد في السويداء، ينص على أن أي شيخ دنيوي وخيّالته، يحملون السلاح ضد «أبناء الجنس» عليهم الحرم. كما يمنع بيع الماء و بيع المراعي إلى السكان أو البدو منعاً باتاً، حيث إن الرعي والماء هما من نعمة الله وعطائه. كما أن طلب الشيوخ إلى الفلاحين بضريبة صغار الماعز والأغنام ممنوعة، خاصة القطعان التي تسام على المراعي المشاع[١٥٦]. إن ذلك يعني أن قسماً من شيوخ الدين، كانوا بهذا الدور أشبه بدور «توماس مينتسر» Thomas Müntzer في «حرب الفلاحين» في ألمانيا مطلع القرن الـ١٦ وقت أعطي المظلوم شرعية من الحقوق الإلهيّة. وبالمقابل فقد بقي شيوخ دين آخرون ملتزمين مع الأطرش وفي صفّه، مثل حسين طربيه.

٥- العاميّة (١٨٨٩-١٨٩٠):

كان ضياع الاستقلالية الذاتية القديمة والقفزات الاقتصادية، مع تنامي الإقطاعية في

---

١٥٣. حنا، **العاميّة**، ص١٩١.

١٥٤. حنا، **العاميّة**، ص١٩٠.

١٥٥. كذلك في مقابلات شفوية؛ **MAEN**, CCP, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890.

١٥٦. مزهر، **الثورة**، ص١٧؛ حنا، **العاميّة**، ص١٨٦.

الجنوب و«العثمنة»، العناصر التي شكلت «العاميّة»، الحركة المعروفة في بلاد الشام والأولى والوحيدة من نوعها، خارج جبل لبنان[١٥٧]. تلك كانت ثورة الفلاحين لسنة ١٨٨٩-١٨٩٠ التي هزّت جبل الدروز والتي خطط لها رفاق الجيل[١٥٨]. وتعبير «العاميّة» يعني حركة عامة الشعب. تأتي «عاميّة» جبل الدروز اقتفاءً لتراثية «عاميّة» جبل لبنان في أحداث كسروان سنة ١٨٥٨، التي يمكن اعتبارها صورة مسبقة لها خاصة أن الأغلبية الساحقة من السكان الذين استوطنوا جنوب الجبل، مركز «العاميّة»، هم من الوافدين الذين جاؤوا من جبل لبنان بعد أحداث سنة ١٨٦٠. إن بيان «عهد مجدل الشور» هو الوثيقة الوحيدة لذلك. كما أن القناصل الأوربيين قد أنبؤوا عن «العاميّة» في تقاريرهم. وفي الجبل نفسه ما زالت أحداثها حيّة يتناقلها الناس. كما أن نتائجها في تقسيم الأراضي ما زالت محفوظة في الوثائق الإحصائية لسلطة الانتداب الفرنسي. وسنمرّ بهذه الأحداث بالتسلسل حسب مجرياتها.

تهيأت لها الأجواء سنة ١٨٨٠ عندما اصطدم الدروز وبدو اللجاه في مطلع العام وكانت الغلبة للدروز الذين لاحقوا البدو حتى جدار قلعة عثمانية، ففتح الجنود الأتراك النار على الدروز وقتلوا قرابة ٧٠ رجلاً كما جرحوا عدداً كبيراً؛ وعندما سطا بدو اللجاه على قافلة قمح للدروز من ٦٠ حملاً سنة ١٨٨٨ وقتلوا مرافقين لها (درزي ومسيحي) طفح الكيل، كما يقال. ويأتي في تقرير عن القنصل الفرنسي أن الأصوات انطلقت عبر الجبل إلى إبراهيم الأطرش تطالبه أن يعلن عن نفسه، إن كان باقياً على درزيته أم أصبح عثمانياً[١٥٩]. وعليه أن يتخلى عن دوره كقائمقام وأن يعود إلى هيبة «شيخ المشايخ» القديمة. كما عليه أن يخلع الزي العثماني ويرتدي الزيّ الدرزي[١٦٠]. لقد فاوض إبراهيم الأطرش قائد القوات العثمانية في حوران ممدوح باشا وطلب منه معاقبة البدو. لم يأخذ ممدوح بشكواه. عند ذلك طلب إلى شبلي الأطرش كأحد القادة، ملاحقة البدو ومحاولة الأخذ بالثأر باليد. استدعى الوالي والمشير مشايخ الجبل المتنفّذين، الإخوة الثلاثة إلى دمشق: إبراهيم وشبلي ومحمد الأطرش ومعهم قاسم الحلبي، صاحب المعركة الدامية مع البدو. وكما كانت العادة في الثلاثين سنة الأخيرة، فقد توافق الشيوخ مع الوالي والمشير، بعد مناقشات طويلة، بأن

١٥٧. الصغيّر، بنو معروف، ص١٤٠.

١٥٨. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 7 Mai 1890; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 170.

١٥٩. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 6 Juillet 1888.

١٦٠. Oppenheimer, **Vom Mittelmeer**, p. 170.

تشكل لجنة مؤلفة من متصرف حوران ممدوح باشا وسعيد كيلاني (وجيه دمشقي وأحد أعضاء المجلس) للبحث في الخلاف، غير أن العثمانيين استبقوا الأمر وجهزوا مشروع اتفاق مع الدروز حدَّدوا فيه الشروط التالية:

- إغلاق المدارس الأجنبية كافة.
- إفتتاح ٥ مدارس على نفقة الدروز شرط أن توافق السلطات العثمانية على معلميهم.
- يمنع على شيوخ القرى التدخل في حالات خلاف السكان التي سيعالجها القضاء العدلي المختص مستقبلاً حسب القانون.
- دفع الديون الضرائبية.
- تسليم الفارّين من الجيش والمجرمين للسلطة.
- منع غزوات البدو عن سكان سهل حوران.
- تشكيل فرقة درك تحت قيادة ابن إبراهيم الأطرش.
- وكما يزعم أن على شبلي الأطرش أن يترك لباسه الدرزي ويرتدي الزي العثماني الرّسمي(١٦١).

لم تكن هذه المطالب جديدة بالنسبة للشيوخ. فهي الشروط نفسها التي طرحها العثمانيون منذ ٢٠ عاماً في عهد إبراهيم، وقد قبلها إبراهيم مجاملة، بيد أنه في هذه المرّة كان الضغط الدرزي أشد(١٦٢). عندما عاد الشيوخ الأربعة إلى الجبل، عقد اجتماع إعلام في السويداء. لم يُقبل بمضمون العقد وهاجم شبلي الأطرش أخاه القائمقام إبراهيم بالمناسبة، واعتبره مسؤولاً عن زيارة دمشق كما أعلن القسم الأكبر من الشيوخ المجتمعين أن هذا الاتفاق ليس ملزماً لهم. وأعلم الأب اليسوعي «كرسانتيه» Kersanté الذي كان يدير إحدى المدارس اليسوعية في الجبل، القنصل الفرنسي بنتائج الاجتماع وكان رأيه أن الدروز لم يأخذوا بشرط إغلاق المدارس الأجنبية الوارد في بنود الاتفاق مأخذ الجد، فلربما لأنه يأتيهم بأقل كلفة. ثم يضيف:

«الاحتفاظ بمدارس لا تكلفهم شيئاً خير لهم من أن يتدخل الآخرون في تجهيز مدارس مسلمة»(١٦٣).

وصل عدم الرضى من سياسة إبراهيم نقطة الغليان لناحيتين هامتين:

- الأولى: منافسة العائلات التقليدية المهمة وعلى رأسها آل عامر.

---

١٦١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 23 Aout 1888.

١٦٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 23 Aout 1888.

١٦٣. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 18 Sep 1888.

– الثانية: أن فلاحي المقرن القبلي ضاقوا ذرعاً بالامتيازات الإقطاعية لآل الأطرش.
وأهل المنطقة الجنوبية هؤلاء هم الذين بدأوا النزاع الرئيسي والكفاح الذي دام فترة ١٨٨٩–١٨٩٠. ولنأت أولاً على فئة الغاضبين.

لقد تمت محالفات سَياسية في مجتمع الجبل المسيطر من قبل العائلات بأفكار ومفاهيم القرابة، حسب ما هو سائد في كل أنحاء الشرق الأوسط، وجاء معها مفهوم «أبناء عم» بشكل خاص، وأصبح مفهوم جمع الكلمة في الجبل تحت عبارة «أبناء عمومة»[١٦٤]. يتحدث «شتيبات» Steppat عن هذه العلاقة في عقد «رابطة أبناء العم» بين سكان الناصرة، الذي ضم أعضاء من مختلف الأديان[١٦٥]. كما وردت هذه العبارة تحت كلمة «المعامَّة» ويربطها «شتيبات» من جهته بكلمة «بنعَمية» التي تدل على عهد العشيرة لدى بدو بلاد الشام. وهؤلاء يسمون علاقة أبناء العم «العموميّة»[١٦٦]. دروز الجبل المتأثرون بعشائر بدو محيطهم بشكل بارز، سموا عهدهم هذا «البنعميّة»[١٦٧]. وقد ورد هذا التعبير بأكمله في «العهدين» السياسيين اللذين عقدهما إبراهيم الأطرش (ولربما توجد عهود أخرى مع البدو)، وفي عهد ثالث أقامه جماعة الغاضبين من عائلات الدرجة الثانية أو الثالثة ضد الطرشان قبل «العامية» كما يورد «حنا أبو راشد».

لقد كان العهد الأوّل عقد حماية بين جماعة الطرشان وبين جماعة أبو عسلي رضوان سنة ١٨٧٤. ويتعهد فيه الأطرش المقتدر بحماية الأضعف أبو عسلي، وهذا ما يسمّى «وصاية». وتأتي الوصاية عموماً في حماية الأرامل والأيتام والأسر الضعيفة، وتكون في حماية شيخ ذي جماعة قوية، يمكن أن يقبل الوصاية أو يرفضها. وقبول الوصاية عند العرب شرف واعتزاز[١٦٨]. وفي ما يلي نص «عقد الوصاية»:

«الحمدلله وحده لوحده

إنه بتاريخه حضر أمامنا أخونا الشيخ علي أبو عسلي وأقاربه وبالاتفاق والاتحاد معهم قد صرنا نحن وهم يدان واحدي (يداً واحدة) ورأي واحد والدم والهم مشترك كونهم أولن (أولاً) وصايتنا (تحت وصايتنا) والوصي كالأب وبهذه الانشا (الاتفاقية) صرنا عموميّة (أولاد عم) المدا (الديّه) والمجلد (المجلى) واحد. وعلى هذا التعهد والوثق الله وشعيب

---

١٦٤. Gräf, **Rechtswesen**, p.125, footnote 11.

١٦٥. Steppat, "Ein ‚contrat social' in einer palästinensischen Stadt 1854".

١٦٦. Gräf, **Rechtswesen**, p. 14, 125, footnote 11; Steppat.

١٦٧. مزهر، الثورة، ص١٣؛ Steppat, "Contrat", p. 245.

١٦٨. Gräf, **Rechtswesen**, pp. 38-40.

نبي الله. والمغير والمبدل منا الولد. وحيث هذه الوثيقة سك (صك) شرعي وابقاها الصداقة والمحبة والأهلية ديناً علينا اقتضى أمضيناها بأختامنا وأسماينا لتبقا (لتبقى) محفوظة لغب الطلب والسؤال. حرر للبيان ومحل الاحتياج.

تحريراً في ١٦ ربيع الثاني ١٢٩١هـ (يوافق التاريخ ٢ حزيران ١٨٧٤م)

مصطفى الأطرش، شبلي الأطرش، محمد الأطرش، علي أبو عسلي، ابراهيم الأطرش، فندي الأطرش»[١٦٩].

لقد ختم عهد الحماية هذا بنداء «الله وأوليائه» والنبي شعيب. كان شعيب يعتبر ولياً عند البدو والدروز. والبدو كرّموا شعيباً كنبي ويعتقدون أنه «يثرو» Jethro والد زوجة موسى[١٧٠]. وشعيب بالنسبة للدروز «كاشف الستر وناشره»[١٧١]. ويَتم القسم بـ«بركة شعيب» إذا وصل نزاع ما إلى نقطة غامضة واستوجب القسم برهاناً وحيداً. وربما كانت هذه البركة منسوبة «لمغاير شعيب» حيث خلوة شعيب التي كانت فوق التل الأبيض عند «وادي الأبيض» في خليج العقبة[١٧٢]. لدى الدروز مقامات كثيرة للنبي شعيب. ولهم زيارة سنوية للمزار الكبير في حطيّن، على مسافة ٨ كم من طبريا الذي جدّد من قبل «مهنّا طريف» وكتب عنه لأول مرة «لورانس أوليفانت» Lawrence Oliphant سنة ١٨٨٤[١٧٣]. كما اعتبر «مقام النبي شعيب» في قرية نمرة، في عشرينيات القرن العشرين مزاراً[١٧٤].

ويعود العهد الثاني إلى سنة ١٨٩٠ وقت اقتتال «العاميّة» وكان مضمونه معقداً قليلاً، تمثل عهد «قرابة» بين جماعة الأطرش وجماعة الشعراني عن «بنعمية» مؤسسة في «الموطن القديم» (يعتقد انه الجبل الأعلى). ويظن أن القصد من هذا التجديد، إعطاء العهد ثقلاً تاريخياً لأنه كان من منسيّات الزمن. ونظراً للأحداث المأهولة فقد اعتمد آل الأطرش وآل الشعراني تجديده:

«الحمدلله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده

بعد الاتكال على لطفه تعالى نحن الواضعين أسماءنا وأختامنا فيه أدناه حيث العلاقة الأهلية السابقة فيما بيننا وبين أقاربنا مشايخ الشعارني من قبل تحاول أهلنا من أوطاننا السابقة

---

١٦٩. مزهر، الثورة، ص ١٤؛ حنا، العاميّة، ص٣٢١.

١٧٠. **EI**, N.E., vol. V, sv ,Madyan Shu'ayb, p. 1156.

١٧١. Gräf, **Rechtswesen**, p. 65.

١٧٢. **EI**, N.E, vol. V, ibid.

١٧٣. Muhanna Tarif (1850-1889) in: Goldstein / Beer / Shavit, **Personalities**; Khalidi, **All That Remains**, pp. 520-522.

١٧٤. **MAEN**, Fonds Beyrouth, 2381.

لهذه البلاد وتوارث لأهلنا وأسلافنا جيل بعد جيل وعام بعد عام حتى اتصل هذا إلينا وحيث الآن وبهذا الوقت الحاضر كل من الأهلين عمال يسأل (أخذ يسأل) عن أهله ومن لاذ به وجب ذمتنا تحديد علايق هذه الأهلية والاتحاد الطبيعي ونحن جميعاً أولاد عم وطريقنا واحد على الدم والهم والمده (الديّه) والمجلا (المجلى) وكلما يلزم لنا إجراه (إجراؤه) باشتراك الإحساسات في جميع المواد في الداخل والخارج ولأجل إحياء ما طمس من الأفكار بعض أهلنا من هذه العلايق المحررة والأهلية التي لا يغيرها الزمان وكرور الأيام قد جددنا هذه الوثيقة للبيان ووقع حوادث الزمان وللبيان: تحريراً ٢٦ شعبان ١٣٠٧هـ وسبعة وثلاثماية وألف» (يوافق التاريخ ١٧ نيسان ١٨٩٠م)[١٧٥].

علاوة على العهود السابقة، عقد آل الأطرش اتفاق «بنعمية» مع آل أبو عساف أيضاً[١٧٦]. وبالمقابل، فقد عقد سعيد نصر اتحاداً مع عائلات صغيرة يشد لحمتها لبعضها ضد آل الأطرش. لم تصدر لهذا الاتفاق وثيقة. وقد أورد حنا أبو راشد (وهو منحاز لآل الأطرش) وثيقة لسعيد نصر يقول فيها «حيلة شيطانية»: لقد ألف سعيد نصر وثيقة عن الماضي تقول بأن عائلات من النازحين إلى الجبل المنتشرين فيه، هم أقرباء جميعاً ويشكلون عشيرة واحدة وهي عشيرة بني بُشر، كان لها إمارة في الجبل الأعلى. وهذه الوثيقة موجودة منذ سنة ٨٠٠ (في العهد المسيحي) وظهرت سنة ١٨٨٥ لأول مرة. وفي سنة ١٨٨٦ اجتمع في نجران وجهاء هذه العائلات ووقعوا الوثيقة[١٧٧]. وقد أيد زعيم آل عامر هذا الترابط ضد آل الأطرش[١٧٨].

يقف وراء خلفيات أسباب هذه العهود، الترابط الثاني، ولنسمه المبرمج، لجمهرة الغاضبين «العاميّة»، لا سيّما أنه يعبّر بوضوح ضد من اتخذ ولماذا، ولا ينم أبداً عن أي توجه لسياسة عائلية أو لعلاقات عشائرية. ولأول مرة تقوم في تاريخ الجبل عهود سياسية وحركات اجتماعية على مبادئ اجتماعية وليس على مفاهيم القرابة.

وفي شهر نيسان سنة ١٨٨٩، عقد الفلاحون من أربع قرى ثائرة، عرمان ومَلَح ومتان والهويّا، اجتماعاً سرياً مساء في مجدل الشور[١٧٩]، صدر عنه الوثيقة التالية[١٨٠]:

---

١٧٥. مزهر، الثورة، ص ١٥؛ حنا، العاميّة، ص٣٢٢.

١٧٦. مزهر، الثورة، ص١٣.

١٧٧. فضل وقنطار وحجلي وكيوان وعزام وعريج وزهر الدين ونصر وحمزة والزاقوت.

١٧٨. أبو راشد، جبل، ص١٠٠.

١٧٩. Wetzstein, **Hauran**, p. 58.

١٨٠. مزهر، الثورة، ص١٨؛ العودات، انتفاضة العاميّة، ص ٥٥؛ حنا، العاميّة، ص١٩٤.

«الحمد الله وحده

سبب تسطيره الإفتراءات والطمع والتعديات الجارية علينا من جهة مشايخنا، وبما أنهم تعمدوا تنكيلنا ونفينا من محلاتنا ومن كامل المقرن بدون تعديات منا ومرادهم محاربتنا بعضنا لبعض، وبما أننا عمرنا القرايا وسكنا بها وخسرنا خساير جسيمة عليها ولنا منذ ثلاثين سنة وبأعظم المشقات وخاضعين لأوامر مشايخنا والتلبية لكل شيء في مرضاتهم وندفع لصندوق الخزينة العامرة الأموال الأميرية. نحافظ على تحسين المظام (النظام) وعلى الشرف والناموس وفي ساير الأحوال. ثم نقدم أنفسنا ونرخص أرواحنا ونسفك دمانا ونرخصها في سبيل الحمية والشرف أمام شيوخنا. ومع سلوك هذا السبيل وجدنا بضايعنا كاسدة وما ازددنا إلاّ قلّة الإنصاف منهم. فلذلك قرّ قرارنا واجتمعت آراؤنا نحن الواضعين أسماءنا وأختامنا في أدناه على أننا نكون متعاهدين متناصرين على كفّ التعديات عنّا، محافظين على صوالحنا وعلى تمشي الحقوق وتعديل النظام في غاية النهى.

وأننا أذا صار علينا تعدّي مثل رحيل أو تغيير أحوال تحل بعمارنا وتمس صوالحنا الخيريّة أو في ناموسنا نقوم يداً واحدة بزمام واحد وعصبة واحدة بدون لا يتأخر أحد منا. وعلى هذا القول الله وشعيب نبي الله، والذي يهمل معاضدة ربعه من الأربع قرايا المقرين بكتب هذه المضبطة يكون بريء من الله ومن أنبياءه ولا يجد شفاعة يوم قيام الساعة بل عليه لعنة نما من الأرض إلى السما ثم يكون رأسه خال من الناموس والشرف والحمية ولا له بين الغانمين مقعد ولا في السما مصعد بل تكون حرمته أجل منه في ساير الأحوال والذي يغير أو ينحرف عن طريق ربعه يكون مستوجب بعدل واستحقاق من الله ومن العبيد بجميع هذه الشروط المذلة المشحونة بالانسغال، وبما أننا قرينا (أقررنا) على أنفسنا جميعاً وقبلنا كقبول القابلين الحجج على أنفسهم طوعاً غير كره ولا إجبار. وتعهدنا وتكفلنا بالقيام بمضمون هذه الوثيقة برضا وقبول ألزمنا القيم بموجبها لزوماً شرعياً.

للبيان حرر في ١٥ شعبان سنة ١٣٠٦ هـ (الموافق ١٦ نيسان ١٨٨٩ م).

أختام وتواقيع:

حسين صيموعه، قاسم غزالة، خليل كيوان، إسماعيل العطواني، نجم العطواني، زين الدين رشيد، قاسم الحلبي، علي رزق، يوسف الجفامي، حسين الشمندي، حسين نجد، علي رافع، أمين العيسمي، علي سعيد، حسين الشاعر، أبو يوسف الخطيب، حسن طربي، محمد النجم، يوسف الحلبي، رستم مسعود، أبو حمد القاضي، عثمان أبو راس، جبر الجمال، علي رشيد، سلمان العيسى، فهد أبو عاصي، يوسف أبو مغضب، قاسم عزيز، يوسف الصفدي، إسماعيل الدبس، منصور الدعبل، سلمان القنطار، محمود منذر، محمد

ملاعب، قاسم أبو سعيد، محمد الشعار، محمود جابر، يوسف جوديه، حسن دعيبس، عامر الصفوي، أسعد عزمي، ابراهيم الجرمقاني، صياح أبو حامد، محمد جابر، هزيمه نعيم، حمود كيوان، خطار الأحمد، فارس الدبيسي، فهد الحلبي، إسماعيل الكردي، محمود أبو مغضب، حمد قطرب، أبو حسين كيوان، حمد كيوان، اسماعيل الشريطي، محمد أبو دهن، حسين بدوي، أحمد منذر، مراد عماد، بشير كيوان، يوسف العيسمي، سليمان أبو هرموش، حمد زين الدين، عجاج أبو مغضب، حمد الزغير، قاسم عزيز، الحمود نعيم، محمد العطواني، حسين عزمي، حمد صيموعة، محمد سليم، محمد نعمان، فارس أبو قنصوه، فارس الشاعر، محمد أبو غازي، علي أبو مغضب. ويعد صلاح مزهر أسماء بعض قادة العامية، إبراهيم حمزة، حامد عريج، أسعد جران، حسين الأباظه، إسماعيل العطواني، حسين أبو يحيى، حامد الحجيلي، صالح الحلبي، صالح غزالة، عماد فرج، علي الديك، قاسم الدبيسي، منصور الحسن، يوسف صوان، سليمان الخطيب، حمد النجم جربوع».

تفيد معلومات من الجبل بأن الذي كتب نص الوثيقة رجلان. الأول هو محمد جودية الذي قدم سنة ١٨٦٠ إلى قيصما وعمل «مرابعاً» عند طرودي الأطرش (من الصف الثاني في آل الأطرش)؛ الثاني هو نعمان أبو غانم المسيحي، أصله من كفرنبرخ في جبل لبنان. يتقن القراءة والكتابة وعاش في عرمان[١٨١].

الموقعون يمثلون دعامة «العاميّة» ولقد كان من بين ٨١ توقيعاً ٢٤ ختماً. كما كان بين الموقعين أعضاء من اتحاد «بنعمية» سعيد نصر وفيها تواقيع من المقرن الشمالي والمقرن القبلي (مثل العيسمي والجرمقاني وغيرهم من الأسماء المنفردة من غير المشهورين أو ينتمون لفئة المرابعين). على كل حال فقد تناقل الوثيقة الوجهاء الداعون لها من القرى مؤسِّسة «البيان» إلى القرى الأخرى حيث جرى توقيعها من قبل الآخرين.

كان هدف «بيان مجدل الشور» بالتأكيد هو مقاومة ما سمي «الإقطاعية»، واندفاع الموقعين ضد الامتيازات الإقطاعية لشيوخهم، التي كان أهمها الترحيل عن الأرض، لا سيّما أن الطرشان قد طبقوا الترحيل بحدّة وبدون تراجع. ويرد في الوثيقة عن الترحيل عبارة: «... تعمدوا تنكيلنا ونفينا... ومرادهم محاربتنا بعضنا لبعض...».

يورد القنصل الفرنسي أنه بذل جهداً خاصاً للإلمام بمجمل نصوص البيان. وقد وصف أسباب «العاميّة» بقوله: من جوانب سوء تصرفات الأطرش التي أدت إلى هذا الإقدام،

١٨١. حنا، العاميّة، ص١٩٤.

توزيع قطع الأرض حسب خصائصها، واحتفاظه لنفسه بالأرض الخصبة والجيّدة دوماً[١٨٢]. في الحقيقة، كان توزيع الأرض يجري حسب عادات قديمة. ولم يكن يعترض عليها أحد إلاّ الذين لم ينصفهم الشيخ. ولقد كانت التوزيعات تعاد كثيراً، ويجرَّد منها السكّان ذوو الطالع السيئ. (وكثيراً ما كان يستثار الفلاحون البعض ضد البعض الآخر). وعلاوة على ذلك، كان يرافق كل توزيع ضريبة تشبع نهم الشيخ[١٨٣]. ويؤكد ذلك وصف عن معاصرين للأحداث، ينقله حمد قرقوط من ذبين عن أسلافه بقوله إن إعادة التوزيع كانت في البداية تجرى بكثرة «من أجل العدالة» في الوقت الذي كان السكان الجدد يفدون باستمرار، ولكن بعد ذلك أصبح الشيخ ومن يحابيهم يعيدون التوزيع ليخصصوا أنفسهم بالقطع الجيدة وليتخلصوا في الوقت نفسه من غير المرغوب فيهم[١٨٤].

لقد كان القادمون الجدد يعرفون بالتأكيد أن العلاقات تختلف في المناطق الأخرى عنها في الجبل تماماً. وحيث يطبق قانون الأرض العثماني لسنة ١٨٥٨ مثلاً، وأن كلّ من سجّل نفسه ودفع «ضريبة الطابو» يعترف له بحق استملاك قطعة مؤكدة من الأرض، ويستطيع بيع هذا الحق أو توريثه أو تأجيره[١٨٥]. هذا الضمان النسبي كان على النقيض إيجابياً ضد العلاقات غير المطمئنة في جنوب الجبل على الأخص، حيث كان حق استثمار الأرض مربوطاً بمشيئة الشيخ.

وبالعودة إلى الوثيقة ثانية، إلى جانب الإشادة بأهمية تأثير التوزيعات الاعتباطيّة للأرض، في النص، هناك لفتٌ إلى أن الموقعين لم يشعروا أن الشيوخ لم يتعاملوا معهم طبقاً للتقاليد العشيرية حينما يؤكدون ذلك بالعبارة التالية: «... نقدم أنفسنا ونرخص أرواحنا ونسفك دمانا لحماية شيوخنا...». ثم ينوّهون بعدها عن دهشتهم: «... وما ازددنا إلاّ قلة الإنصاف...». ربما كان في ذلك إشارة إلى الحروب ضد البدو والمعارك ضد العثمانيين في جنوب الجبل ولم يكرّم المقاتلون كما كانت الحال في شمال المنطقة. لقد كانت القيادة في الجنوب منوطة بآل الأطرش. كان منهم ومن أتباعهم مدراء عثمانيون خُلّص. يتبعهم خيالة مسلحون وقد تشكل بذلك، حقيقة، نوع من طبقة اجتماعية خاصة، وغالباً ما وجِّه هؤلاء ضد السكان الآخرين، الذين بدورهم لم يعودوا يستطيعون تحمله. ويأتي في القائمة عن هذه الصور، ما يرد في ديوان شعر شبلي الأطرش من خلال مقاطع عديدة:

---

١٨٢. «غروس» Gross ارتكب خطأً إذ اعتقد أن العاميّة انتقال للنفوذ فقط مثل بعضهم.

١٨٣. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 14 Mars 1889.

١٨٤. معضاد قرقوط، أضواء، ص١٠.

١٨٥. (قانون الأرض ٢١/ ٤/ ١٨٥٨) Klat, **Origins**, pp.58-59; Tute, **Ottoman Land Laws**.

«وقـــر الـقـــرار إن نـدشـــر بـلادنـا
ورحـلـنـا وخـلـيـنـا جـمـيـع الـلـوازم
وأول طـلـب قـالـوا ربـاع الـمـشـايـخ
والـشـيـخ كـلـو الـيـوم مـا عـاد لازم
وثـانـي طـلـب قـالـوا الـقـصـر هـاي حـقـنـا
وشـيـوخـنـا صـاروا بـحـال الـعـدايـم
وثـالـث طـلـب قـالـوا الـمـطـامـيـع كـلـهـا
والـشـيـخ هـذا كـان جـبـار ظـالـم»[١٨٦]

إن «القُصرة» التي طلب الثوار إزالتها هي «الحماية» التي كان الشيخ يجبيها من السكان. والسكان ليسوا بحاجة لحماية، لأنهم هم الذين كانوا يقومون بالحماية مع الشيخ. أما في المرحلة التي يصفها شبلي في شعره فقد طلبوا عزل الشيخ. والأبيات الأخرى الشعرية تشهد على ذلك التطور نحو التطرف أيضاً.

إذا ما تابعنا هذه الأحداث التاريخية بشكل متسلسل فإن شهر نيسان ١٨٨٩ قوى العزائم في الجبل ضد الطرشان وعلى الأخص ضد القائمقام إبراهيم الأطرش، وأذكى حدّة «العاميّة» في كل القرى. عقدت عهود «البنعمية» والتحالفات والاتحادات مما أدى بالنتيجة إلى تعاهد الفلاحين في الجنوب مع وجهاء الصف الثاني والمرابعين على عهد بأهداف اجتماعية. وكانت المبادرة في قرى: عرمان وملح ومتان والهويّا، حيث حدث أول صدام مسلح في صيف ١٨٨٩ بين الشيوخ ومن معهم من جهة، وبين الثوار المتعاهدين بجماعات فلاحية من جهة ثانية، وذلك إثر رفض الشيخ إبراهيم نجم الأطرش طلبات للفلاحين، فأهانه الفلاحون وضربوه[١٨٧]. إثر الصدام، أرسل كل من الفريقين وفداً إلى السلطة الإقليميّة في دمشق لكي يشرح لها عدالة قضيته. وقد كتب القنصل الفرنسي انطباعه في حزيران ١٨٨٩ متأثراً بذلك:

«ربما كان ذلك يحصل للمرة الأولى. إن الدروز حتى الآن إذا حصلت خلافات بينهم - وقد حصلت خلافات كثيرة - راعوا أن لا يدخلوا العثمانيين إلى نزاعاتهم الداخلية، لا سيّما أن مبدأهم كان على الدوام منع الولاة من التدخل في شؤونهم»[١٨٨].

وقد أورد التقرير نفسه أن وفد الفلاحين أبلغ السلطات أنهم سئموا معاملة شيوخهم وأنهم

---

١٨٦. مزهر، **الثورة**، ص٢٩.

١٨٧. حنا، **العاميّة**، ص٢٠٧.

١٨٨. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Imbert, 29 Juin 1889.

يرغبون في أن يستبدل بهم موظفون عثمانيون. هذه كانت مطالب ثورية، يكون بها الفلاحون، لأول مرّة، مستعدين للتخلي عن مساندة شيوخهم ويرغبون في اندماجهم مع سلطة المنطقة[١٨٩].

وكان جواب السلطة بأنها ترغب في أن ترى الفلاحين يسجّلون أراضيهم كبرهان لذلك. ولكن ما لم يصرّح لهم به، ولربّما أدركوه بأنفسهم، ما يورده القنصل في تقريره أيضاً: وجوب دفع ضريبة العشر التي ستأتي من بعد، ثم الخدمة العسكرية التي ستلحق بها. أما بالنسبة لوفد الشيوخ، فقد صرّح لهم الحاكم بألاّ يعتمدوا على مساعدة ماديّة من قبل السلطة[١٩٠]. ثم طلب إليهم ممدوح باشا وجوب إنهاء الحرب وقام الشيوخ بقيادة القائمقام بالاستجابة لذلك حيث لا مفر أمامهم وصرحوا بدورهم بأن يبدأ تسجيل الأراضي من الآن فصاعداً، وأن الضرائب ستدفع حسب القوانين في المستقبل، وأن امتيازات الشيوخ ستلغى، كما أن الإدارة الداخلية ستجدّد وأن الشعب سيحمى من أية هجمات[١٩١].

تلاحقت الأحداث وجرت اشتباكات جديدة في شهر تموز ١٨٨٩ بين شيوخ الأطرش من جهة، وبين الفلاحين من جهة ثانية. وانتشر الحديث في كل بلاد الشام، بالتوازي، عن خلاف في جبل الدروز وأن المقاتلين قد قدموا من كل الجهات للمشاركة. كما أن رجال الدين «العقال» من الجهتين حضروا من فلسطين ومن لبنان من أجل التوسط والمصالحة. وفي الوقت نفسه بدأ العثمانيون بسحب الجنود إلى حوران[١٩٢].

إن مساعي الصلح التي قادها رجال الدين لاقت نجاحاً. وحدَّت من امتيازات إبراهيم الأطرش ومعاونيه وقبل آل الأطرش بمطالب الفلاحين في الجنوب. كما أُجبر إبراهيم نجم الأطرش في عرمان على دفع الديّة، حسب العادات لكل من هو ليس من ذويه، وقد بلغت ١٥٠,٠٠٠ قرش[١٩٣]. كما حتّم عليه التراجع عن كل امتيازاته في إعادة توزيع الأرض. واشترط عليه أيضاً بعد جني محصوله، أن يضع الأرض التي سيعاد توزيعها تحت تصرّف الفلاحين[١٩٤]. هكذا كانت القرارات مهمة. إذ كان أيضاً على شيوخ ملح والهويّا أن يتخلوا حتى منتصف الصيف عن نصف ربع أرض القرية التي يمتلكونها لصالح الثوار. كما أن

١٨٩. **Basbakanlik Arsivi**, Irade Meclis-i Mahsus, 4607.

١٩٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Imbert, 29 Juin 1889.

١٩١. رسالة المدير إبراهيم الأطرش ٣٠/ ٩/ ١٨٨٩؛ **Basbakanlik Arsivi**, Irade Meclis-i Mahsus 4607.

١٩٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 21 Juillet 1889.

١٩٣. تقرير المدير إبراهيم الأطرش ١٠/ ١٠/ ١٨٨٩؛ **Basbakanlik Arsivi**, Irade Meclis-i Mahsus 4607.

١٩٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 8 Aug. 1889.

مصطفى الأطرش في القريّة أعاد نصف ما اختص به سابقاً، ومثله شيخ متان[١٩٥]. وانتشرت الثورة أيضاً في المقرن الشمالي، وطُلب في اجتماع هناك إلى الشيوخ، أن يكفّوا عن معاملة الفلاحين كعمال بأجور رخيصة وأن يُعطوا مقابل عملهم جزءاً من المحاصيل الزراعية. كما طلب الثوار اعتبارهم ملاكين للأرض التي يدفعون للشيوخ ضريبتها والتي يؤدّيها الشيوخ بدورهم إلى السلطة. هذا ما أورده القنصل الفرنسي عن محمود عامر[١٩٦]. كما أن القنصل النمساوي أورد المعلومات نفسها ولكن بالشكل التالي:

«إن الرغبة في الإضراب التي ظهرت في أوروبا في وقتنا، شقت طريقها إلى جبال حوران الواقعة على بعد نحو ١٠ ساعات من دمشق جنوباً، حيث عقد قسم كبير من فلاحي الدروز قبل وقت قصير اجتماعاً، قرروا فيه إلغاء الامتيازات الممنوحة لشيوخهم وطالبوا بألا يعتبروا عمال تراحيل لدى الشيوخ، بل شركاء في ملك الأراضي التي يشتغلون فيها وأن يعاملوا كذلك»[١٩٧].

وشبيه بهذا ما حدث في لبنان قبل ٥٠ عاماً، حيث تم تحوّل في مفهوم تملّك الأرض[١٩٨]. وظهر هنا الطلب بالاستقرار وإن لم تعد الأراضي الزراعية خاضعة للتقسيمات الكيفية، بل عادت ملكاً للذين استصلحوها[١٩٩]، هذا من جهة ومن جهة ثانية يظن أن بعض المطالب كانت في أن يؤخذ قسم من أراضي الشيخ ويوزع على الذين لا ملك لهم. وهذا الطلب بتمليك الفقراء يرد أيضاً في الرواية في الجبل كدافع للتمرد[٢٠٠]. ولكن يظهر أن مطالب الثوار لم تكن واضحة في البداية. كما أن «بيان مجدل الشور» لم يبيّن مطالب محدّدة في الأرض. إلاّ أنه في اجتماع ثان، أضيف إلى طلب عدم الترحيل، طلب جديد مهم، تضمن ألا يجرّد الشيخ فلاحاً من أرضه. كما لا يحق للشيخ أن يطلب إتاوة سيادة في ربع غلال الفلاح عن الأرض التي في حوزته. والضرائب للدولة لم تكن مشتملة في هذا الحساب[٢٠١]. وذكر «أوبنهايم» Oppenheim سنة ١٨٩٣ أن من أسباب «العاميّة» «رفض الفلاحين أن يدفعوا للشيوخ قرابة ثلث محصولهم كما كانت العادة»[٢٠٢]. وربما كان أبناء

١٩٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 18 Sept. 1889.

١٩٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 26 Nov. 1889.

١٩٧. Brandt, **Syrien**, p. 112.

١٩٨. Akarli, **The Long Peace**, p. 26.

١٩٩. راجع فصل «مسألة الأرض».

٢٠٠. حنا، العاميّة، ص ٢٠٣.

٢٠١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 7 Mai 1890.

٢٠٢. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 170.

عائلات ملاك الأسهم قد رغبوا في استقرار ملكهم من خلال وضع حدّ لإعادة توزيع الأرض. أما المرابعون فكان هدفهم الحصول على أراض ودفع ضرائب نظامية. وربما كان في الحسبان أن يُستبدل بالطرشان الذين قل نفوذهم شيوخ آخرون يجمع عليهم الرأي العام[٢٠٣]. وقد وجد شيوخ الشمال، مثل آل عامر وآل نصر، ضالّتهم في «العاميّة» كي يكسروا من نفوذ الأطرش.

أما شيوخ الجنوب فقد وافقوا على مطالب الثوار بألاّ يعودوا للمطالبة بالنفوذ والسلطة وأن يستبدل برؤسائهم موظفون عثمانيون[٢٠٤]. كان انطباع القنصل الفرنسي كبيراً عن حكمة هذه القرارات ولكنه كان متشائماً في ديمومتها. وفعلاً لم يطل الانتظار، ووصل قطار الثورة وجهز الفلاحون أنفسهم لثورة «عاميّة» بكل ما لهذه الكلمة من معنى. وقد وصفها القنصل الفرنسي بالمقارنة مع الأوضاع في فرنسا بكونها «مؤتمراً وطنياً» assemblée nationale:

«إن هذا المؤتمر حل محل مجالس الشيوخ السابقة وأمسك بالمبادرة في كل مهمات الوطن واتخذ لنفسه أيضاً الحق في أن يختار الشيوخ من العائلات الخاصة أو من عامة الشعب»[٢٠٥].

معنى هذا أن القرى المشاركة في «العاميّة» قد انتزعت من الشيوخ الطرشان سيادتهم التقليدية، وأن جميع قضايا القرية تحلّ من قبل لجان الفلاحين مثل «هيئة الاختيارية» وغير ذلك. وانتزع ثُمن الأرض الزراعية في القرية، أي نصف ربع الأرض الزراعية التي كان يمتلكها الشيخ، ووزّع على «الفَلتيّة». وتشير بعض الأبيات من شعر شبلي الأطرش في ديوانه إلى هذه الأحداث الثورية:

«شاخ الأباظه وابن صوان والديك
وشيخ القرية ولد غناج مختار
شاخوا وفاتوا وسلموها المداريك
وأهل المعاني في مالهم ملك وجذار
شاخوا وفاشوا في جيلنا وتلشوا
وتبعوا بشيختهم دروب الضلال»

الشيخ حسين الأباظة من نمرة، ويوسف صوان من الخالدية، وعلي الديك من مفعلة، وناصف غناج من القريّة من نشطاء العاميّة (ويعني شبلي بذلك أنه تم تنظيم كل شيء)[٢٠٦].

٢٠٣. حنا، العاميّة، ص٢١٢.

٢٠٤. المصدر السابق.

٢٠٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 7 Mai 1890.

٢٠٦. مزهر، الثورة، ص٢٣؛ حنا، العاميّة، ص٢١٢.

لقد ورد الحديث عن اجتماع عقد في «سهوة بلاطة» صيف سنة ١٨٩٠ حضره بين ٧٠٠ إلى ٨٠٠ مشارك. وأرسل عنه وفد إلى السويداء من ٣٠٠ رجل تقريباً، يحمل مطالب «العاميّة» إلى القائمقام. بيد أن آل الأطرش وحلفاءهم هنيدي وأبو عساف وغيرهم، قابلوا ذلك الوفد بالرَّصاص. وهُزم الأطرش وجماعته في المعركة التالية ونزحوا إلى المزرعة بالغرب من السويداء والتجأوا إلى القلعة العثمانية. لكن أبوابها بقيت مقفلة في وجههم فتابعوا إلى «شيخ سعد»، مقر المتصرف، ثم واصل إبراهيم وشبلي ومحمد الأطرش طريقهم إلى دمشق يطلبون المساعدة من السلطة العثمانية. نظّم الثوار في هذه الأثناء اجتماعاً ورفعوا عنه مذكرة، يطلبون فيها من الوالي والمشير إقالة إبراهيم الأطرش من منصب قائمقام السويداء[٢٠٧]. ويعدون في المذكرة باستعدادهم لدفع الضرائب حسبما ترتبها الإدارة. وهنا يقيّم القنصل الفرنسي الوضع، بأن «الثورة الاجتماعية» la révolution sociale لم تكن قد انتصرت بعد. كما أن «الإقطاع» la féodalité لم يكن قد انهزم تماماً. لكن مطالب الفلاحين اتسعت وخطت خطوات واسعة إلى الأمام وأصبح من الصعب وقف الحركة أو ردّها. وما على السلطات العثمانية إلا الانتظار كي تجني ثمار النزاع:

«الثورة الاجتماعية في الجبل لم تنته بعد والإقطاع لم يهزم تماماً بعد. غير أن مطالب الفلاحين تقدمت كثيراً بحيث لم يعد يخشى على الحركة من التقهقر. وليس على الأتراك الآن إلاّ أن يطووا الذراعين ويطلقوا للأمور مجراها حتى اليوم الذي ينتهي فيه نفوذ الشيوخ تماماً وينفرد الشعب بالإدارة ويرتبط من بعد بالأرض التي ستصبح ملكه. ومن بعدها سيكون من المستحيل أن تلاقي إدارة الوالي أية مقاومة»[٢٠٨].

أخذت القوات العثمانية في هذه الأثناء تستغل المناسبة بشكل لم يسبق له مثيل. وبدأت تتجمع وتتقدم إلى الجبل. وتفاوض المشير ممدوح باشا، متصرف حوران، مع إبراهيم الأطرش في شتاء ١٨٨٩ على شروط شفوية من بينها:

- على القوات العثمانية إعادة النظام.
- يكف الشيوخ عن الضغط على الفلاحين وأن يتوقفوا عن أعمالهم الجائرة.
- تجهّز محكمة عثمانية في السويداء وتبنى ثكنة في «عاهرة».
- تنفذ أعمال مسح الأراضي ويتم تسجيلها.
- تطبق الخدمة العسكرية[٢٠٩].

---

٢٠٧. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 7 Mai 1890.

٢٠٨. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 7 Mai 1890.

٢٠٩. برقية من إبراهيم الأطرش ١٠/ ١٠/ ١٨٨٩؛ **Basbakanlik Arsivi**, Irade Meclis-i Mahsus, 4607.

تتابع إرسال الوحدات العسكرية إلى حوران إلى أن جاء الصدام في تموز ١٨٨٩ فأخذ ممدوح المهمة على عاتقه، كي يفرض شروط الباب العالي وتطبيق «الطابو» (تسجيل الأراضي)، وجبي العشر حسب الحسابات الجارية (وليست إتاوة)، وبناء ثكنة في السويداء وعاهرة، وتجريد عام من السلاح. وهكذا فقد استدعى الشيوخ إلى المزرعة كي يبلغهم ما تقدم، ولكي يوضح لهم نية السلطة في إرسال قوة عسكرية إلى السويداء، للتهدئة وكي يعلمهم أيضاً بمطالب الشعب. وقد أعلن الشيوخ موافقتهم على كل شيء ما عدا التجريد من السلاح. وأشاروا على ممدوح باشا أن يتراجع عن هذا الطلب بحجة أن الشباب ما زالوا في حالة غليان. وأن مثل هذه العملية قد تؤدي إلى حوادث مؤسفة إلاّ إذا ترافقت بقوة من ١٠٠ إلى ١٥٠ رجلاً فقد تنجح. وقد أصرّ ممدوح باشا على حملته وكانت المعركة المحزنة في «الشقراوية» قرب السويداء التي اشتهرت بخسائرها البشرية الفادحة في الجبل. واحتُلت السويداء بعد أن هُدم قرابة ثلاثة أرباعها. ولجأ الدروز المهزومون إلى قنوات وبعد ثلاثة أيام تجدّد القتال. وكان توقيت هذه الحرب سيئاً جداً بالنسبة للدروز. إذ كان الموسم لم يُجن بعد والكثير منهم تخلّى عن قنوات وشغل بجني الموسم[٢١٠].

بالرغم من أن قوات دعم عثمانية استقدمت من بيروت وحلب وسالونيك، فإن المعركة لم تحسم نهائياً و«مسألة الدورز» لم تحل، كما يراها القنصل الفرنسي وكما كان يراها الرأي العام الدمشقي برحابة[٢١١]. فالوالي مصطفى عاصم باشا مال إلى الرفض ووقف رسمياً إلى جانب إبراهيم الأطرش لإعادته قائمقاماً على السويداء[٢١٢]. وكان في هذه الأثناء قد سيق إلى «رودس» ١٥ ثائراً معتقلاً[٢١٣]. أقامت السلطة «لمنتصر السويداء»، ممدوح باشا، لدى عودته استقبال الفاتحين. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقام فيها لمتصرف عادي مثل هذا التكريم كما ذكر القنصل الفرنسي[٢١٤]. لقد كان ذلك مظاهرة، هدفت بها السلطة العثمانية تقديم شيء للرأي العام الدمشقي، الذي كانت الصحافة تهيّجه منذ مدة طويلة، بحيث أصبح وكأنه لم يعد لديه صبر الانتظار على عدم ضرب معكّري صفو النظام العام، على حدّ رأيه.

أما «العاميّة» فلم تبلغ أهدافها في طرد الطرشان وأخذ زمام الأمور بيدها. وقد اتهم الثوار

---

٢١٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Geofroy à Montebello, 7 Juin 1890; 7 Juillet 1890.

٢١١. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 22 Mai 1890.

٢١٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 15 Mai 1890.

٢١٣. **FO** 195/1687, Dickson to White, 17 Nov. 1890; Oppenheim, **Vom Mittelmeer** p. 171.

٢١٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Geofroy à Montebello, 15 Juillet 1890; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 170.

بأنهم كانوا سبب دخول العثمانيين للبلاد وهدم السويداء. يقول شبلي الأطرش شعراً في هذا:

«إلى أن ظهر نور الشريعة الجديدة
يلعن مؤسس غرزها الدعايم
العاميّة اللي عموا تابيعها
صارت خراب بلادنا والردايم
يا هول عيني يوم تنظر جموعهم
خيل وكدش والأكثرية بهايم»[٢١٥].

لقد بلغت «العاميّة» واحداً من أهدافها على الأقل. فقد زرعت الخوف في قلوب الشيوخ، فكفوا عن التوزيع الكيفي للأراضي[٢١٦]. وقد جاء في تقرير سنة ١٨٨٩، أن شيوخاً من ذوي النفوذ الكبير كانوا قد تعهدوا بجمع الضرائب «... قد عانى عملهم من عدم الانتظام وبدون المزيد من الضغط على عموم الفلاحين»[٢١٧]. كما قد انتزع منهم نصف أرضهم. وعن إحصاء فرنسي في عشرينيات القرن العشرين تبين أن الشيوخ لم يعودوا يملكون سوى ثُمن أراضي القرية الزراعية بدلاً من الربع مثل شيوخ المقرن الشمالي، حيث لم تنجح «العاميّة»[٢١٨]. عدا «دار عرى»، أي فرع العائلة «شبلي» فقد استثني، وذلك اعترافاً به قائداً معادياً للعثمانيين، كما أنّه ساند «العاميّة» في بداية تحرّكها[٢١٩]، على عكس أخيه إبراهيم الذي شارك العثمانيين في معركة السويداء ضد «العاميّة»[٢٢٠] بينما بقي «شبلي» على الحياد[٢٢١]. لقد احتفظت «دار السويداء»، مقر إبراهيم، بما كان في يدها من الأرض، أي الربع بدلاً من الثُمن (أنظر المخطط المرفق). أما في ذبين فقد جرِّد الشيخ من الثُمن بالحيلة السياسيّة.

لقد أصبحت الانتفاضة عند سكان جنوب الجبل، في القرى المشهورة الأربع: عرمان وملح ومتان والهويّا تقليداً، بحيث أصبح آل الأطرش يحسبون لها حساباً. وقد ذكر «أوبنهايم» عن جمهرة تطوعية عام ١٨٩٣، في الجنوب، من النوع الذي يسميه «هوبسبام»

---

٢١٥. مزهر، الثورة، ص١٨.
٢١٦. راجع فصل «مسألة الأرض».
٢١٧. Rindfleisch, **Landschaft**, p. 43.
٢١٨. وصف البلدان **MAEN**, Fonds Beyrouth, Carton 2381.
٢١٩. مزهر، الثورة، ص٢١؛ حنا، العاميّة، ص١٨٩؛ مقارنة مع Oppenheim / Bouron.
٢٢٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Geofroy à Montebello, 15 Juillet 1890.
٢٢١. حنا، العاميّة، ص٢١٤.

Hobsbawm «العصاة الاجتماعيين»[٢٢٢]، كانت تحت اسم «الزغّابا»، مركزها الرئيسي صلخد، قد أعلنت مهمتها وأهدافها: «وقف الاعتداءات ومساعدة المغلوبين» وقت أزمات التهديد في تسعينيات القرن التاسع عشر، وقد وقفوا في وجه الكسّارة وجماعات السلب وغزوات تجمعات الحوارنة والبدو[٢٢٣]. لقد تطور في صميم أخلاق الفلاحين العشائريين peasant-tribesman نوع من عناصر اجتماعيّة ثائرة.

ويحضرنا الآن سؤال: لماذا ترك العثمانيون فرصة الحظ تفوتهم، ولم يجردوا الشيوخ من صلاحياتهم ويدمجوا الجبل بالحكم العثماني عبر حركة «العاميّة»؟ لقد كان الهدف المقرر لدى مطبقي الأنظمة العثمانية الجديدة: عزل الوسطاء والتعامل مباشرة مع منتجي الأرض - الفلاحين. ومن أهم الأسباب التي منعت ذلك كان وضع الجبل الخاص، إذ لم يكن في الجبل وسطاء مثل المناطق الأخرى، «الملتزمون» الذين يجب الحدّ من ابتزازهم. بل كان التعامل مع القيادات المحلية التي اندمج زعماؤها في الثقافة العثمانية، ظاهرياً على الأقل، وفي طليعة هؤلاء كان إبراهيم الأطرش، وقدّموا لسلطة الولاية خدمات جلية. كما أن هؤلاء الناس كانوا العناوين المركزيّة بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني «لسياسته تجاه الوجهاء» والعرب بشكل عام[٢٢٤]. لقد كان في خط التوجه السياسي للسلطان عبد الحميد بعد تجربة الروملي والأناضول أن في إبعاد أي زعيم مسلم خدمة للأوربيين، وكما يشير «أكارلي» Akarli:

«... إن الحكومة كانت بحاجة إلى خدمات الوجهاء لتقوية ارتباط العامة بالدولة، ولتعزيز الشرعية وإبعادهم عن أية تصرفات غير مواتية»[٢٢٥].

ولا يسهو عن البال أيضاً، أن «العاميّة» كانت ضد التسلط بشكل عام. وقد سبق للوالي رشيد باشا أن أبلغ اسطنبول عن تجاوزات الطرشان سنة ١٨٨٧ وطلب الإذن بتسيير حملة عسكرية ضدهم في الجبل:

«... من أجل أن يخضع الزعماء الشيوخ الذين... (أبقوا) التسلّط على العامّة واستخدموهم في الأرض وفي خدمة أغراضهم»[٢٢٦].

ومع هذا فقد بقي السلطان إلى جانب الزعماء. وطُلب إلى رشيد باشا العودة إلى

---

٢٢٢. Hobsbawm, **Sozialrebellen**.

٢٢٣. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 173.

٢٢٤. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", pp. 77-85.

٢٢٥. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 81.

٢٢٦. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 84.

اسطنبول. وقد لخّص خلفه نافذ باشا الصراع في عروض عديدة لجلسات المجلس في اسطنبول. وسارع إلى الطرح التالي: إن العامة لا يتحملون المناوشات طويلاً ولا يصبرون على مقاومة الشيوخ إلى ما لا نهاية. وإنهم راغبون أن يتم لهم في المستقبل حتماً - مثل كل التابعيات السلطانية- أن يستخلصوا لأنفسهم المنافع لما بين أيديهم من الأرض. وكذلك، تسلط الشيوخ على أملاكهم وأرواحهم سوف يجد حداً. إن سلطة الشيوخ قد دفنت تماماً، وإن وحدة الدروز في هذا الانقسام الحالي إلى «خواص» و«عوام» غير واردة اللحظة أبداً. ولذا فقد أخذ نافذ يلح ويلح لتجريد حملة عسكرية سريعة[٢٢٧]. إن إعادة تعيين الشيوخ القدماء وتعيين إبراهيم الأطرش في منصب قائمقام يدل على عدم ثقة نظام تسلطي، يقف في وجه أية حركة تأتي من «تحت»، حتى ولو كانت تبدي رغبة في الاندماج وأمكن تنظيمها[٢٢٨]. ولكن الحكومة تبقي بكل صراحة على الحلفاء القدماء، أي الوجهاء، حتى ولو تنكرت بذلك لفئة كبيرة من الشعب وخرجت عن مبادئ التنظيمات[٢٢٩]. واستطراداً، كانت الحملة التي قادها مصطفى عاصم باشا (الوالي منذ بداية سنة ١٨٩٠) بعد سنة في حوران، ضد الملاكين الكبار قد شردت الملتزمين وكانت في مصلحة الفلاحين ولم يكن لها خلفيات[٢٣٠].

الوسيلة التي اجتهدتها إرادة الباب العالي بقصد اجتذاب زعماء العشائر في تجهيز «مدرسة العشائر» (عشايرة مكتبي) سنة ١٨٩٢ - مدرسة داخلية لأبناء العشائر المرموقين وذوي النفوذ، حيث يمضي الطلبة ٥ سنوات داخلية مدرسية يصبح بها التلميذ «عثمنلياً»، مع دعوة للآباء إلى اسطنبول، حيث يستقبلهم السلطان شخصياً. ويستضاف المهمون منهم في القصر لمدة طويلة[٢٣١].

كذلك وفد الجناح الموالي للعثمانيين من زعماء الجبل بقيادة الأطرش وقد نال ما انتظره، غير أن القنصل الفرنسي قد قيّم ذلك بما يلي:

«... هذه العائلة بعيدة عن ذلك، لاسيّما أن الناس سيتهمونهم بأنهم يقدمون المصلحة الشخصية على مصلحة الوطن»[٢٣٢].

---

٢٢٧. **Basbakanlik Arsivi**, Irade Meclis-i Mahsus, 20 Safar 1307 / 16/10/1889.

٢٢٨. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 84.

٢٢٩. Akarli, **The Long Peace**, p. 156.

٢٣٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 7 Jan. 1891.

٢٣١. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 80.

٢٣٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 7 Jan. 1893.

كان استقبال الطرشان غير محمود وغير محتفى به، لدى عودتهم بعد معارك «العاميّة»، لأنهم لم يوفقوا في التأثير لعودة المنفيين في رودس زمن «العاميّة». كما أن قتالاً اندلع بين الأخوين شبلي وإبراهيم جرح به إبراهيم الذي توفي بعد مدة قصيرة وترك لخلفه شبلي مزيداً من المشاكل في الجبل.

ب- من «أشقياء الدروز» إلى أبطال القومية العربية

١ - «المسألة الدرزية»

كانت التطورات السياسية الكبرى في صميم الإمبراطورية العثمانية تنعكس في صورة دروز الجبل والتعامل معهم، فمع الميل المتزايد في جبل لبنان لرؤية الطوائف «كإثنيات» وفي مقدمتهم الموارنة والدروز، المطروح منذ أربعينيات القرن التاسع عشر (وبلغت آفتها الذروة سنة ١٨٦٠) قد رسّخت في السياسة العثمانية حساسية قوية تجاه المسألة (وهذا أيضاً كردّ فعل تجاه حساسية السلطات الأوروبية). ووقفت الإمبراطورية العثمانية بكونها «دولة متعددة الشعوب» (Vielvölkerstaat) في عصر القومية النامية - مثل الإمبراطورية الهابسبورغية - أمام مشكلة تطوير مبدأ سياسي تجاه «أقلياتها» الكثيرة. لأن الدولة العثمانية كانت تعتمد على مبادئ دينية كقاعدة لسياستها، وإن السلطات الأوروبية قد اعتبرت نفسها حامية المسيحيين الشرقيين، وهي مهمة اتخذتها لنفسها كوسيلة تدخل في سياسة الباب العالي - وكل ذلك أدى إلى تركيز اهتمام المصلحين العثمانيين أولاً بالمسيحيين. ولقد اعترف لهم بالمساواة في الحقوق من خلال التشريعات التنظيمية الثلاثة أي مراسيم سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٥٦ ودستور سنة ١٨٧٦ الذي نص على ما يلي: «إن العثمانيين مهما يكن دينهم أو معتقدهم... هم جميعاً متساوون أمام القانون... دون أي تمييز في ما يتعلق بالدين»[٢٣٣].

وبذلك اعتبرت العثمانية رابطة أيديولوجية حكومية حيادية، بعيدة عن التمييز، واعتبرت الجماعات الدينية المسيحية واليهودية مشمولة في «النظام الملّي»، ولهم استقلاليتهم في أن يمارسوا طقوسهم الدينية مع كل ما ينتج عنها من حقوق تتعلق بشؤونهم في هذا المجال. ويعتبر القانون المسلمين أيضاً ملّة من الملل الأمر الذي أضعف هويتهم باعتبارهم العنصر الأساسي للدولة.

٢٣٣. Davison, "Turkish attitudes", p. 115.

لكن هذه الرؤية الحيادية أغفلت عنصراً هاماً من حسابها وهو الوعي السياسي لدى فئات مختلفة من الشعب، لم تقنع بالعثمانية. كان مدحت باشا أحد الأربعة الذين أبرزوا عهد التنظيمات. ولقد عمل سنة ١٨٧٢ على تخطيط سياسي لتحويل الدولة العثمانية إلى «اتحادات» على نمط الإمبراطورية الألمانية الذي حققه «بسمارك»، تخطيط تلعب فيه رومانيا وصربيا دوراً مقابل دور ولايتي «بافاريا» و«فرتمبيرغ» في «بروسيا». بيد أن رومانيا وصربيا لم يرق لهما هذا الاتحاد وكانتا تنزعان إلى الاستقلال[٢٣٤]. وكان مدحت باشا واعياً تماماً لما تنطوي عليه النزعات في دولة متعددة الشعوب زمن تنامي القوميات، وأدرك وجوب التصدي لها سياسياً.

ولكن في سبعينيات القرن الـ١٩ بدأ التراجع، وتعمّق الإحساس بالاستعلاء لدى الأتراك المسلمين، لأن التأزم اشتد مع التحركات المسيحية، الواعية المقاصد حصراً، والمحمية من الأوربيين عموماً. وعن عبارات «أكارلي»:

«وبكل هدوء عميق، في سبعينيات القرن التاسع عشر، قام العديد من رجال الدولة العثمانية ومفكريها بتحدّي بعض مبادئ التنظيمات والاختلاف حولها. وبالتحديد حول دمج المجموعات الإثنية والدينية كافة على الأراضي العثمانية، في شعب واحد من خلال تعامل منصف معها. وبدلاً من هذا الدمج الذي ثبت عدم جدواه عملياً، بل ثبت ضرره، فقد تمت الدعوة إلى تصحيح في المؤسسات الإسلامية للدولة العثمانية كأساس عملي وسليم للتضامن الاجتماعي»[٢٣٥].

وقد تكلم السلطان عبد الحميد الثاني في ذلك بكل وضوح:

«الأفضلية للأتباع الذين يشكلون الأكثرية، وهذه ضرورة ملحة في كل دولة. فللكاثوليك مثلاً القرار عن البروتستانت إذا كانوا هم الأكثرية في بلاد ما... وإن دين الدولة العليّة هو الإسلام والمسلمون يشكلون الأكثرية بين أتباعها»[٢٣٦].

وهكذا فإن الجماعات المتفرِّعة مثل الدروز والعلويين لم يكن لهم أي اعتبار مميز حسب النظام، لأنهم رسمياً مسلمون، حتى لو أنهم يكتفون بتماسك غير مرضي عنه. فالدروز اللبنانيون كانوا، بسبب حركات ١٨٤٠–١٨٦٠، جماعة مستثناة بالضرورة، وعن قصد في السياسة العثمانية. فكان لجماعتهم، حسب التنظيم الإداري لعام ١٨٤٣، قائمقامية درزية وقد شملهم في ما بعد «نظام الحماية» Règlement Organique.

---

٢٣٤. Davison, "Turkish attitudes", p. 119.

٢٣٥. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 75.

٢٣٦. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 76.

والآن، كيف عومل دروز حوران في تيار السياسة العثمانية للاندماج وكيف نُظر إليهم؟ لم يكن مستغرباً أن تشملهم خطة مدحت باشا، تمشياً مع أفكاره الاتحادية وفي خضم الهيجان الديني، فجعل لهم، على قاعدة النمط اللبناني، شبه استقلالية مذهبيّة سنة ١٨٦٠. ثم بهدف حشرهم في الدولة، خصّهم بأحد مقعدي المجلس الإداري والقضائي، المخصّصين للمسيحيين في مجلس السنجق، كما سبق.

غير أن «ظهير التصدّي» في اسطنبول قلب التعامل مع الدروز واعتبرهم فئة غير موثوق بها لسببين هامّين:

– أولاً: من الوجهة الدينية، عملاً بـ«أسلمة» أيديولوجية الدولة.

– ثانياً: من الوجهة السياسية، فقد اعتبروا قطب ضعضعة في الإمبراطورية يستهدفه الأوربيون. كما اعتبروا، كالمسيحيين، «الطابور الخامس» للسلطات الأوربية.

لقد أورد السلطان ذلك عن المسيحيين بقوله:

«... إذا اعتدى مسلم على مسيحي، فإن القناصل الأجانب يتدخلون ويضغطون من أجل الحكم على المسلم بالإعدام. أما إذا اعتدى مسيحي على مسلم، فإن القناصل يبذلون جلّ جهدهم لتبرئته من فعلته»[٢٣٧].

وقد تلاشى سوء الظن العثماني بالدروز والعلويين في فترة الثمانينيات من القرن الـ١٩ وخاصة بالنسبة للنشاطات الفرنسية. وقرّرت فرنسا والحالة هذه، تنشيط وجودها الذي أصبح شبه منسي في سوريا، فوجهت لهذا السبب «الكابتن لويس دي تورسي» Louis de Torcy الملحق الفرنسي في اسطنبول نحو سوريا. فقام برحلة عبر البلاد، من حلب حتى يافا خلال شهري أيار ونيسان سنة ١٨٨٠[٢٣٨]. وركّز في تقريره على فكرة كيف يمكن صد التغلغل البريطاني وتوجيه السعي الفرنسي من أجل احتلال البلاد؟ لقد أخذ «دي تورسي» بكل جدية تململ الشعب المحلي واستياءه من الحكم العثماني فاقترح إقامة علاقات إيجابية مع قادة الفئات المستاءة. أعطى أهمية خاصة للأقليات في سوريا، ومنهم الدروز في جبل الدروز، والعلويون في جبال العلويين وقدّر أنه سيكون لمساندتهم دور له قيمته في حال الاحتلال الفرنسي[٢٣٩]. اعتمدت فرنسا هذه الاستراتيجية وعيّنت القنصل «فلاش» Flesch لهذه المهمة التي بدأها في دمشق في كانون الأول ١٨٨٠. وقد كتب هذا بدوره في السياسة الفرنسية الخاصة وفي السعي لإطلاق النفوذ الفرنسي ما يلي: إن بيروت «مدينة مسيحية»

---

٢٣٧. Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 80.

٢٣٨. Gross, **Ottoman Rule**, p. 347.

٢٣٩. **MAEN**, Turquie, Mémoires et Documents, 38, "Rapport sur une mission en Syrie", 1 Août 1880.

بسبب أكثريتها، ويكفي فيها التذكير بالحماية الفرنسية التقليدية للمسيحيين الشرقيين وإعادته للأذهان.

أما دمشق فهي مركز إسلامي مميّز وتحتاج إلى تعامل خاص، ولذلك:

١- يجب أن يصبح للقنصلية الفرنسية مكانة مرموقة لدى سلطات الولاية.

٢- يجب التوسّع في التبشير الديني في الوسط المسلم.

٣- يجب أن تُعتمد التزامات مالية وصناعية فرنسية في البلاد في القريب العاجل.

٤- يجب المباشرة بإقامة صداقات وعلاقات شخصية مع زعماء العشائر المهمّة في سوريا وفي مقدّمتهم فئتا الدروز والعلويّين.

لقد سعى الفرنسيون إلى تحقيق مغزاهم الكبير في تطويق الحكم العثماني وإنهائه[٢٤٠]. وكانت خلفية هذه التصوّرات الاستراتيجية ارتباط «فلاش» الأساسي بقضية «الكرك» في حوران، وحمايته محمود عامر. غير أن القنصل تعثّر بعد هذه المهمّة الحماسية واستدعي في صيف العام نفسه[٢٤١].

تزامنت رحلة «دي تورسي» الثانية إلى سوريا مع احتلال فرنسا لتونس في الفترة من ٩ نيسان حتى ١٢ أيار ١٨٨١. وبعد توقفات عدة له في حمص وحماه وحلب وجبال العلويّين، وصل إلى السويداء في شهر أيار. وتظاهراً بحمايته هناك، وضع تحت حماية عسكرية وكان تحركه محدوداً. واستقبله محمود عامر، الذي كانت علاقته بالقنصل الفرنسي جيّدة، في بيته، الأمر الذي جعل العثمانيين يشكّون به وكلفه ذلك منصبه كمدير الهيت من بعد[٢٤٢]. يعتقد أن تقرير «دي تورسي» قد وقع في أيدي الوالي حمدي باشا، إذ إنه جرى تحقيق رسمي مع من اتّصل بهم «دي تورسي» في تلك الرحلة بكاملها[٢٤٣]. وكان الاهتمام الأكثر جديّة (أكثرمن الدروز) منصرفاً إلى العلويين حيث تفجّرت ثورة في مناطقهم بعد زيارة «دي تورسي»[٢٤٤].

وقد تنامى شكّ العثمانيين في الأقليات، على أثر سياسة السلطات الأوربية الكبرى في المنطقة. في سنة ١٨٨٨، إذ اتهمت السلطات العثمانية الدروز بأنهم يميلون لطلب المساعدة الأجنبية[٢٤٥]، فطلبت إليهم بالتحديد إغلاق المدارس الأجنبية في الجبل، كما

---

٢٤٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Saint-Hilaire, 12 Dec. 1880; 23 Jan. 1881.

٢٤١. Gross, **Ottoman Rule**, p. 352.

٢٤٢. Gross, **Ottoman Rule**, pp. 345-352.

٢٤٣. Gross, **Ottoman Rule**, p. 351.

٢٤٤. Gross, **Ottoman Rule**, p. 347.

٢٤٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 23 Août 1888.

أجرت اتصالات بالقنصليات الأوروبية للحدّ من نشاطها. وقد لاقى ذلك على ما يبدو نجاحاً إذ إن «غيلوا» Guillois القنصل الفرنسي قد شكا من «حجر حقيقي»:

«إن انعدام الامتياز الأجنبي، وبخاصة الفرنسي، يعني مقدمة السيطرة العثمانية على سوريا. إذ كل الذين لهم اتصال بالسلطة المحلّية، من قريب أو من بعيد، يتجنّبون، وبحذر شديد، أيّة صلة مع القنصل الفرنسي حتى لا يتعرّضوا للشبهة ويعاقبوا فوراً»[٢٤٦].

أما في الجهة الثانية فكان على العثمانيين أن يضعوا في اعتبارهم دروز لبنان كعامل سياسي. حتى ولو لم تحدث مساعدات بشكل كبير بجهود عسكرية خفية بين الفئتين منذ سنة ١٨٦٠، ما عدا مصاهرات ونشاطات بين لبنان وحوران. ويظهر أن زعماء دروز لبنان حاولوا تعزيز وضعهم وسلطتهم وتهديد العثمانيين، فخرجوا مع تابعيهم كافة مهاجرين إلى حوران. وقد اشترط مصطفى أرسلان زمن «العامية» مثلاً، أن تقاتل جماعته إلى جانب إبراهيم الأطرش على رغم المنع المتشدّد من الحكام العثمانيين[٢٤٧].

هناك بعض الدلائل التي تذكر أنه كان لدى العثمانيين مخطّطات لاستغلال القوة القتالية غير الاعتيادية لدى دروز جبل حوران في مصلحتها. وقد أصدر السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٨٩٣ تعليمات لتجهيز فيلق درزي غير نظامي مثل فيلق الأكراد[٢٤٨]. وعندما طرح سؤال خلال مداولة سياسية في دمشق: لماذا يحابي السلطان الدروز بكرم المعاملة؟ وكان هذا السؤال موجّهاً من القناصل الأوربيين إلى الوالي. وأجاب الوالي رؤوف باشا على سؤال القنصل الروسي معلّلاً أن المسؤولين في اسطنبول يدركون أن حملة ضد الدروز لا بد أن تؤدي إلى القضاء عليهم. وهم لا يريدون ذلك لأن الدروز من الممكن أن يكونوا مفيدين في مناسبات محددة[٢٤٩]. كانت المداولات تتضارب في صالونات مسلمي دمشق حول موضوع الدروز. لكن السلطان لا يطمئن لمهاجمتهم لأن ذلك سيضطرهم لطلب المعونة الأجنبية والاستعانة بالإنكليز. وفي بعض الأحيان يبدو كأن هيبة الباب العالي في دمشق كانت تتعلق بقدرته في التغلب على الدروز. أما في الصالونات المسيحية فقد كانت القناعة بأن هدف الباب العالي هو فقط لتحريضهم يوماً ما ضد المسيحيين[٢٥٠].

أخذت الأحداث تتسارع أواسط التسعينيات من القرن الـ١٩ وتعزّزت الأزمات بأحداث

---

٢٤٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Montebello, 23 Août 1888.

٢٤٧. Akarli, **The Long Peace**, p. 221; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 171.

٢٤٨. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 7 Jan. 1893.

٢٤٩. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Camon, 30 Jan. 1897.

٢٥٠. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Bouliniere, 29 Nov. 1893.

جديدة، وعمّت التوتّرات بين الطوائف كافة في الدولة العثمانية (وكانت أهم هذه النزاعات «مسألة الأرمن»)[٢٥١]. وبسبب الدعاية المعادية للدروز في دمشق، والعائدة ربّما إلى سنة ١٨٦٠ أو لموضوع الكرك سنة ١٨٨١، بدأت النغمات الدينية توجّه حقد الدمشقيين ضد الدروز. وفي هذه السنة لم تترك الصحافة الدمشقية مناسبة إلا وراحت تصور الدروز بأنهم أشقياء يهتكون الأعراض ويبشعون بالأطفال. وهي أمور لا محل لها في طقوس القتال لدى عشائر سوريا. إن خلفية هذا الوضع في دمشق كانت التوترات الاجتماعية بين أهالي الجبل وسهل حوران.

بقي سهل حوران وجبل الدروز، المتجاوران في الموقع والحدود، ضدّين للعثمانيين متعاضدين غالباً، حتى منتصف القرن التاسع عشر[٢٥٢]. ولكن في العقدين التاليين، انتهى الحال. لقد تنامى الإسكان في الجبل وتوسّع باتجاه السهل، وسياسة الإدماج العثمانية أثارت الفتن بين الجماعتين وخلقت بينهما عداوة مريرة. كما أن تحسّن الوضع الاقتصادي في الجبل رافقه فقر في السهل. واضطهد المسلمون فيه من قبل دائنيهم تجار المدن، وجباة الضرائب الفاسدين، وأحسوا بأنهم غير منصفين، وحسدوا الدروز على ميزاتهم المالية والإدارية وعلى هذا الرفاه الذي نتج عنها، وعن المنحى الاستقلالي الذاتي[٢٥٣]. لم يخل الأمر من معارك صغيرة وخلافات محلية، كانت تحدث بين فئات من الجبل وفئات من السهل في النصف الأوّل من القرن الـ١٩. ولكن هذه الخلافات الضيقة بدأت تتوسّع مع ضيق الأرض، وأخذت النزاعات تتوالى حتى شملت كل جماعات حوران والدروز. ولم تبق سوى مناسبة يتيحها الوقت حتى تأخذ الشكاوى النغمة الدينية. ويمكن أن تدرج في ذلك الرسالة التي بعث بها شيوخ الجبل الكبار إلى القنصل الفرنسي والتي يبيّنون فيها «حادثة البنت البدوية» سنة ١٨٧٩. . وهي الحادثة التي هيّجت أحاديث «بصرى الحريري»، وحركت السهل بأكمله ضد الدروز، الذين كان «أكبر رغبتهم سفك دماء المسلمين» حسب أقوالهم، وشكوا أيضاً بأن الحكومة تصدق هذه الاتهامات[٢٥٤]. وربما تدرج في ذلك أيضاً رسالة ثانية وجّهت بعد «حادثة الكرك» (١٨٨١). هذه الرسالة لا تتحدّث عن أهل الكرك إطلاقاً، وإنّما تكلّمت باسم «أهل حوران» وحتى باسم «مسلمي حوران»[٢٥٥]. وهناك رسالة

---

٢٥١. محمد كرد علي، خطط، III، ص١٠٧؛ Gross, **Ottoman Rule**, p. 439.

٢٥٢. **FO** 195/727, Sandwith to Bulwer 31 March 1862; MacDowell, "Druze revolt", p. 43.

٢٥٣. **FO** 195/1264, Raport. Jago, May and June 1879.

٢٥٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Gilbert à Fournier, 11 Nov. 1879 (مرفق برسالة هنيدي وأبو عساف وقلعاني ٣١/ ١٠/ ١٨٧٩).

٢٥٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot; 5 Avril 1881 (مرفق برسالة إبراهيم الأطرش مع أبو علي الحناوي).

عن سنة ١٨٩٦ تتحدث فقط عن «دروز ومسلمين»، وعن الكراهية والعداء بين الفئتين[٢٥٦].

ومعارك الكرك كانت في أحاديث دمشق تُسمى «مذبحة الكرك». كما ظهرت في صحافة دمشق مقالات تحريض حقيقية تنعت الدروز بهاتكي أعراض النساء[٢٥٧] فدافع الدروز بالمقابل عن أنفسهم برسائل إلى القناصل. وقد كتب القنصل الفرنسي عن «هيجان عارم» في دمشق وبخاصة في الميدان حيث يدعي فقد رجلين[٢٥٨]. وقد أوقف الدروز الذين كانوا صدفة في دمشق وأودعوا الزنزانة في القلعة[٢٥٩]. ولم يكن الحوارنة على قوة كافية كي ينهوا أمرهم بأنفسهم مع جيرانهم، فطلبوا المساعدة من السلطة، وأخذوا على عاتقهم تأدية التكاليف الباهظة التي فرضتها عليهم السلطة من أجل إعالة القوات التي استجرّت إلى السهل ضد الدروز[٢٦٠]. وقد قامت هذه الخصومة بين فئتي الشعب، السهل والجبل، بتدبير من السلطة العثمانية التي وضعتهم في عداء بعضهم ضد البعض الآخر، وقد بلغ هذا العداء أوجه سنة ١٩١٠ بالنزاع الذي حدث بين آل مقداد والأطرش والذي جرّ إلى «الحملة الحورانية» المشهورة بقيادة سامي باشا الفاروقي.

كانت مساندة مسلمي دمشق للحوارنة فعالة. ولكن الوهم كان يتزايد لدى العثمانيين في ساحات المعركة، حيث إنهم لم يستطيعوا الردّ على المفاجآت تماماً. وبقيت النظرة إلى الدروز حتى نهاية العقد الأول من القرن العشرين بأنهم سعاة شرّ وتنسب لهم الجرائم التي تحدث في البلاد[٢٦١]. وفي جريدة محمد كرد علي «المقتبس» التي أسست سنة ١٩٠٨ أصبح تعبير «أشقياء الدروز» قولاً سائراً[٢٦٢].

أدخل الدمشقيون أنفسهم في هستيريا حقيقية. ففي سنة ١٨٩٣، وعند بوابة الميدان، أقاموا فطوراً تقليدياً، حيث شكل ذلك حدثاً هاماً وخطيراً. وكان وجودهم محض صدفة كما يقال، كما كان الدروز، على جاري العادات التراثية، يشاركون السنيين في هذه المأدبة. يتلاقى السنيّون مع الدروز على مائدة من الأرز والعدس والزبدة في كل عام. وعبر المسيحيون في حيّ الدروز، حيث تقطن قرابة عشرين عائلة مسيحية هناك أيضاً (عدد

---

٢٥٦. MAEP, CPC, Guillois à Hanotaux, 23 Juillet 1896.

٢٥٧. FO 195/1369, Jago to St John, 30 Jan. 1881; FO 195/1368 Dickson to St John, 12 Feb. 1881; Schumacher, "Das südliche Basan", pp. 102-103.

٢٥٨. MAEN, Constantinople, Correspondance, Télégramme Flesch à Tissot; 31 Jan. 1881.

٢٥٩. MAEN, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot; 22 Mars 1881.

٢٦٠. MAEN, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot; 22 Mars 1881, Annexe 2.

٢٦١. أطلقت النار على القنصل الفرنسي وجرح برأسه وفرّ الجاني إلى الجبل.

٢٦٢. راجع فصل «الحملة الحورانية ونتائجها».

المسيحيين في الميدان قرابة ٤٠٠٠). وأثناء المسيرة هتف المسيحيون هتافات تهديد وسباب ضد الدروز. حاول الدروز إخراجهم من حيّهم، فسارع المسيحيون إلى منازلهم وتسلّحوا، غير أن رجال الشرطة والجيش حالوا دون الاشتباك وإراقة الدماء. فنشط القنصل الفرنسي، الذي يدّعي حماية المسيحيين والذي دأب على إحياء ذكرى ١٨٦٠ في نفوسهم في كل مناسبة، لكنه اعتبرهم مسؤولين عن الحدث هذه المرّة[٢٦٣]. بيد أن الكراهية من جانب الحوارنة والدمشقيين والشركس استمرّت تجاه الدروز وأدّت إلى الحملات العسكريّة العثمانية ضدهم سنة ١٨٩٦ وسنة ١٩١٠.

٢- حملة الدولة التأديبية سنة ١٨٩٦

كانت التوقعات في دمشق واضحة في مجرى الأحاديث عن «مسألة الدروز»، نتيجة خشية العثمانيين من أن تتطور الأمور في مواطن الدروز وتتعقّد مثل «مسألة الأرمن». ولكن تحسّن البنية التحتيّة وتعمّق الأزمة خلال تسعينيات القرن الـ١٩ في المنطقة أدّيا إلى سعي الدولة إلى تأديب الدروز. فأخرجت إليهم سنة ١٨٩٦ حملة عسكرية اعتبرها الدروز حملة إبادة لكثرة خسائرهم فيها.

فقد فُتحت طريق دمشق-حوران سنة ١٨٨٨[٢٦٤] وبعد سنتين من ذلك افتتحت في أقضية عجلون والقنيطرة والسلط، محاكم جزائية ومدنية وبوشرت بأعمال مسح الأراضي، في حين لم يباشر المسح في أقضية بصرى الحريري والسويداء وعاهرة[٢٦٥]. لقد اعتبر العثمانيون أن سكة حديد دمشق-المزيرب، التي بدأ العمل فيها سنة ١٨٩٢ وانتهى سنة ١٨٩٤، سوف تقرب من الهدف. كما أن محطات تلغرافية افتتحت في بصرى الحريري ودرعا[٢٦٦].

ولكن شيئاً هاماً ظل ناقصاً، وهو بناء ثكنات عسكرية في مناطق حوران، حيث كان بناء الثكنات يتم ببطء. والجديد الآن أن زعماء الريف، الذين كانوا يقاومون ذلك في السابق، استجابوا للدولة واندمجوا وبنوا الثكنات في المواقع التالية:

- ثكنة بصرى الحريري سنة ١٨٧٨.

---

٢٦٣. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon; 24 Feb. 1893.

٢٦٤. عوّاد، الإدارة، ص٢٧٤؛ Akarli, "Abdülhamid II's attempts", p. 89, footnote 50.

٢٦٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Ribot, 25 Avril 1890.

٢٦٦. Hartmann, **Bemerkungen**, p. 64.

- ثكنة براق سنة ١٨٨٢ .
- ثكنة المسمية سنة ١٨٨٤ .
- ثكنة المزرعة سنة ١٨٨١ .
- ثكنة عرى سنة ١٨٨١ .

كما بُنيت إلى جانبها مواقع صغيرة[٢٦٧] . أما قلعة السويداء فقد بنيت بعد «العامية» سنتي ١٨٨٩-١٨٩٠ في قلب الجبل وتتالى حضور الجنود العثمانيين إلى الثكنات . غير أن وجود العسكر حتى في الثكنات ، كان أشبه بوجود المحاصرين منه بالمحتلين إذ لا يمكن للجنود أن يظهروا بأسلحتهم . وكان عليهم أن يقوموا بتمارينهم ، داخل ثكناتهم فقط[٢٦٨] ، الشيء الذي كان يزعج الضباط المسؤولين الذين راحوا يطالبون الباب العالي بتجهيز حملة عسكرية فورية ضد الدروز .

كان الوضع الاقتصادي في المنطقة يمر في أزمة خانقة بداية تسعينيات القرن الـ١٩ إذ تدنت أسعار الحبوب في الأسواق لأقل من الكلفة[٢٦٩] . زد على ذلك تفشّي داء الكوليرا سنتي ١٨٩١-١٨٩٢ ، وبلغت أسعار الحبوب في السوق الأوروبية سنة ١٨٩٥ درجة متدنّية بحيث لم يعد بالإمكان تصدير حبوب حوران . ففي سوق مارسيليا مثلاً وصل سعر ١٠٠ كغ قمحاً من ٩ إلى ١٠ فرنكات . وفي سوريا نفسها كان بحدود ٦ إلى ٧ فرنكات[٢٧٠] .

ومع أن كمية الصادرات قد تضاعفت فلم يتجاوز الميزان ٢٥,٠٠٠ فرنك . ففي سنة ١٨٩٣ كانت قيمة ١٠٠,٠٠٠ أقة فقط ١٧٥,٠٠٠ فرنك ، وفي سنة ١٨٩٤ كانت ٢٠٠,٠٠٠ أقة تعادل ٢٠٠,٠٠٠ فرنك فقط[٢٧١] . وبسبب أزمة القطن في مصر كانت ٥٠٪ من مغازل دمشق في حالة بطالة[٢٧٢] . وبسبب شحّ السيولة وضعت السلطات العثمانية يدها على مبلغ (١٥٠٠ ليرة) من حسنات الأيتام . وفي العام نفسه قرّر الوالي تحصيل ضريبة الأغنام قبل موعدها القانوني . وهذا يعني أنه لم يعد بالإمكان مراقبة المقدّرين ، مع أنهم كانوا يجبون الضرائب بمساعدة أربعة أفواج من العسكر[٢٧٣] .

---

٢٦٧ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Ribot; 5 Avril 1890 .

٢٦٨ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Boulinière; 29 Nov. 1893; **FO** 226/220, Eyres to Currie, 13 May 1895 .

٢٦٩ . Schatkowski Schilcher, **Violence**, p. 53 .

٢٧٠ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 15 Mai 1895 .

٢٧١ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 10 Juin 1895 .

٢٧٢ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 10 Juin 1895 .

٢٧٣ . **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 12 Mars 1896 .

وهكذا ساد الخمول حوران والجبل. كما أن البدو الذين منعتهم الدولة قبل مدّة من تحصيل «الخوة» قد عاودوها[٢٧٤]. وقد تمكّن العثمانيون من تنفيذ أعمال مسح وتسجيل أراض في عجلون والقنيطرة ودرعا، حتى سنة ١٨٩٣. ولكن في بصرى الحريري أهين قائمقام حوران مع موظفيه وجرحوا جميعهم. أما في الجبل واللجاه فلم يتوغّلوا أبداً[٢٧٥]. وتوارى الفلاحون صيف ١٨٩٢ في عجلون عن محصّلي الضرائب. أما في درعا وبصرى الحريري حتى الشيخ سعد، مركز المتصرفية، فقد دفن الفلاحون زرعهم، وتوجهوا إلى قطع الطريق. والطرق من حوران إلى دمشق لم تعد آمنة. وكان سبب ذلك بالتأكيد هو الأزمة الاقتصادية، التي لم يطق الفلاحون تحملها. لذلك توقف دفع رواتب محصّلي الضرائب من صندوق الدولة ودرجت العادة أن يحصّلوا رواتبهم بأنفسهم مباشرة من الفلاحين[٢٧٦].

وهكذا انتقل عدم الاستقرار من الأرياف إلى المدينة، وقتل دركيان في حي الشاغور في دمشق[٢٧٧]. كما أن القنصل الفرنسي خشي أن تتكرّر حوادث ١٨٦٠ من جديد[٢٧٨].

أما في الجبل فكانت المشكلة في خلافة إبراهيم الأطرش المتوفى، وكان المرشح لذلك ابنه شبلي. بيد أنه لم يكن مرغوباً به من السلطة لمنصب قائمقام. فسُمّي مكانه محمود أفندي الغزّي. وكان بذلك إحباط لشبلي، وبردّة فعل أراد بها شبلي أن يشاكس الوالي ويحمله على الرجوع إلى تسميته قائمقاماً، تحالف مع بني صخر ضد الروَلا. أما سطّام الشعلان، الذي أصبح باشا، فقد أعلم الوالي بفعلة شبلي فقرّر اعتقاله. وفي مناسبة وفاة في قرية شقا، اعتقل شبلي وأهين في الشارع ثم سيق إلى زنزانة. فعمّ الإحباط أنحاء الجبل كافة لمدة سنة. ولم يحتج شقيقه يحيى لجهد كبير كي يحرّك الجبل حتى في المقرن الشمالي أيضاً مثل عامر ونصر وأبو فخر وعزام. فحاصر الدروز ثكنة المزرعة وقتلوا ١٠ عثمانيين، كما جرح ١٥ وأطلق سراح شبلي[٢٧٩] وشكلت السلطة لجنةً تفاوضت مع الدروز وعم الهدوء والنظام.

وسُمّي يوسف ضياء الدين الخالدي قائمقاماً وكان فلسطينياً من مشجعي التنظيمات وبقي سنتين في منصبه حتى خلفه شبلي[٢٨٠]. وفي الصيف ١٨٩٤، اندلع قتال بين قرى الشركس،

---

٢٧٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 12 Mars 1896.

٢٧٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 11 Juin 1892.

٢٧٦. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 16 Juillet 1892.

٢٧٧. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon, 24 Juin 1895; 17 Sept. 1895.

٢٧٨. كان القناصل يعتبرون في كل أزمة رائحة ١٨٦٠ ثانية.

٢٧٩. هاني أبو فخر (١٨٨٣) ما زال يذكر أحاديث عن هجوم القلعة.

٢٨٠. Schölch, **Palästina**, pp. 226-236.

الذين زرعتهم السلطات العثمانية كمعاقل عسكرية في الجولان[٢٨١]، وبين دروز مجدل شمس دام شهرين[٢٨٢]. تلاقى كسّارة من الدروز والبدو والحوارنة وبينهم مسيحيون أيضاً وشكّلوا غزواً مشتركاً. بالمقابل كانت تشكيلة «الزغّابة» ما تزال تعمل كـ«شرطة» في حماية الضعفاء من اعتداءات الشيوخ الأقوياء[٢٨٣]. لقد كان الجبل في الواقع، بعد «العاميّة»، منقسماً وبلا زعامة موحّدة حقيقية، باستثناء شيوخ الدين: حسين الهجري وحسين طربيه، اللذين كان لهما بعض التأثير. لقد حاول شبلي الأطرش أن يوفق بين «الخاصة» و«العامة»، وسعى لبناء قيادة، ولكنه لم يوفّق[٢٨٤].

لم يتغير شيء في الوضع حين سُمّي شبلي، في تشرين الأول ١٨٩٤، قائمقاماً (كان في حينها الوالي عثمان نوري باشا والياً منذ تموز ١٨٩٤). وقد ساعد شبلي في محاولاته لدى الباب العالي، من أجل الحصول على عفو عن المنفيين الخمسة عشر من «العاميّة». وقد أثارت هذه المحاولات سخطاً في دمشق، واعتبر الرأي العام الدمشقي أن في ذلك إشارة إلى ضعف السلطان[٢٨٥]. واندلعت خلافات جديدة بين الجبل والسهل سنة ١٨٩٥ وكان الوقت مناسباً لتسيير حملة عسكرية[٢٨٦]. لم تكن هناك صعوبة، في أخذ وحدات احتياطية من دمشق، لاسيّما أن العلماء قد أفتوا: أن القتال ضد الدروز مشروع[٢٨٧]، واستُقدمت قوات من سالونيك أيضاً. فوضع ثلاثون ألف رجل تحت قيادة أدهم باشا الذي كان جنرالاً في الجيش الخامس. تمركزت هذه القوات بعد أن تم نقل الوحدات بواسطة سكة الحديد. فزحفت القوّات العثمانية هذه نحو السويداء واتخذت مواقعها بعد مناوشات عدّة. كان الحورانيون يتبعون الوحدات العثمانية، وينهبون ويحرقون القرى الخالية، في الطريق إلى السويداء. ونهب سطام باشا الشعلان قطعان الماشية الخاصة بالدروز، والتي كان يعتبرها عربان الجبل، أمانة لديهم. وعندما وصلت أخبار احتلال السويداء إلى دمشق، علقت المشاعل ابتهاجاً بالحدث[٢٨٨].

---

٢٨١. Wirth, **Die Rolle**.

٢٨٢. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Guillois à Cambon; 11 Juin 1894; 25 Août 1894; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 172.

٢٨٣. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, pp. 173, 174, 175.

٢٨٤. Oppenheim **Vom Mittelmeer**, p. 173.

٢٨٥. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, 18 Mars 1895.

٢٨٦. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 175؛ النجار، بنو معروف، ص١٠١.

٢٨٧. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 6 Nov. 1859, 15 Nov. 1895, 9 Déc. 1895.

٢٨٨. **MAEP**, CPC, Guillois à Berthelot, 28 Déc. 1895.

ذهب شبلي الأطرش وجماعة من الوجهاء، إلى أدهم باشا، وأعلنوا الطاعة للباب العالي ووقعوا على مبلغ ٢٠,٠٠٠ ليرة إتاوة. غير أن أدهم رغب في أن تتابع الحملة جولتها في عموم الجبل ثم يعلن من بعد وقفها. ولكن هذا القرار اصطدم بمعارضة ممدوح باشا، قائد حملة ١٨٩٠، الذي كان ما زال قائد قوات حوران، وكان ملتهباً اتهاماً للجبل. وساند متصرف حوران رأي ممدوح، فأعفي أدهم من مهمته وتسلّم مكانه المشير عمر رشدي باشا. كانت خزينة المقاطعة قد خلت. وحوران على أبواب رمضان، والتكاليف الباهظة أرهقتهم. سارعت قوات مؤلفة من ٤٣ كتيبة مدفعية، و٣ ألوية خيالة، و٢٤ مدفعاً، واحتلّت قرية عاهرة في اللجاه في الشمال وقرية صلخد في الجنوب، وبدأت تجرّد السكان من السلاح[٢٨٩]. واعتقل ٣٠٠ رجل، من بينهم ٢٠ شيخاً كانوا قد سلّموا أنفسهم مع شبلي الأطرش. كما اعتقل في دوائر دمشق ووادي التيم ٤٥٠ رجلاً[٢٩٠]. وعندما سُيِّر المعتقلون في شوارع دمشق، بصق المارّة في وجوههم ولم يتمكن الحراس من حمايتهم من الضرب. كان شبلي والشيوخ العشرة قد تعرضت حياتهم للخطر من قبل الجمهور رغم وجود الحراس وقتل نتيجة ذلك أحد الأسرى. وبعدئذ وضع شبلي في ساحة القلعة في العراء وعرض للمشاهدة. وعن تقرير للقنصل الفرنسي:

«أعطيت للعامة كل حرية ... وبكل جبن وفظاظة، بصقوا في وجهه ورموه بالنفايات»[٢٩١].

بعد يومين من ذلك، أعيد المشهد نفسه، حيث جيء بنحو ٣٠٠ معتقل، من بينهم ٣٠ شيخاً مع عائلاتهم وأولادهم. لم يعدم أحد ولكنهم سيقوا جميعاً إلى المنفى. كما أدخل الذين في سنّ الخدمة عنوة إلى الجيش. وشبلي الأطرش والملتزمون معه، سيقوا في شهر تموز، أي بعد أربعة أشهر، إلى رودس وكريت وكستامونا في الأناضول. شبلي نفسه كان في «سينوب» على البحر الأسود[٢٩٢].

كان الدمشقيون معجبين بهذه التظاهرة من الجيش. وأعلن نصر السلطان على الدروز، الذين لم يستطع إبراهيم باشا المصري قهرهم سنة ١٨٣٨، ولا حتى الجيش الفرنسي خاطر بمجابهتهم سنة ١٨٦٠. وهكذا أحيط السلطان بهالة كبرى. وبدأ اللغط في أسواق

---

٢٨٩. **MAEP**, CPC, Guillois à Berthelot, 82 Déc. 1895.

٢٩٠. **MAEP**, CPC, Guillois à Berthelot, 28 Déc. 1895, 5 Jan. 1896, 12 Jan. 1896, 6 Fév. 1896.

٢٩١. **MAEP**, Guillois à Berthelot, 12 Fév. 1895.

٢٩٢. **MAEP**, Guillois à Berthelot, 12 Fév. 1896; Hanotaux, 2 Juin 1896; FO 195/2075, Richards to O'Connor, 23 June 1900.

وصالونات دمشق بأنه سيخرج الإنكليز من مصر والفرنسيين من الجزائر[٢٩٣].

وفي جبل الدروز سُمّي قائد الدرك السابق في دمشق الشركسي «خُسرف باشا» قائمقاماً في السويداء. كما شغلت مناصب مدراء النواحي بشركس أيضاً، باستثناء شهبا، التي كان فيها إبراهيم القضماني مديراً، وفي سالة محمد نصار[٢٩٤]. كما سيّر فوج كامل من محصّلي الضرائب والمسّاحين إلى السويداء وبصرى الحريري لإدماج قضاء السويداء نهائياً في الإدارة العثمانية ووضع حدّ للقوانين الخاصة، وسُحبت القوات العسكرية عدا بعض الألوية التي بقيت في السويداء وبصرى الحريري. وقد وصف «أوبنهايم» الوضع بقوله:

«لقد أرسل عدد كبير من «الضابطية» الأكراد إلى حوران، وأدى تصرفهم المتكبر إلى اعادة إشعال الغضب الشعبي الذي قد توهج تحت الرماد. كما أصبحت شعائر الدروز الدينية محط سخرية من الأخصام، ومجالس العبادة محط إزعاج كبير»[٢٩٥].

وقد تطرّق القناصل الآخرون أيضاً، إلى عداء الأكراد للدروز بلا هوادة، على خلفية المعارك القديمة في جبل الشيخ والجولان، يضربون المارّة، ويتحرّشون بالنساء. كما أن الموظفين المدنيين أثقلوا الكواهل بإضافات على الضرائب القانونية[٢٩٦]. إن ما حدث في عرمان في شهر تموز ١٨٩٦ كان حادثاً عرضاً. حيث إن تشكيلات «الزغّابة» كانت قائمة منذ «العامية»، وأكثر الظن أنهم كانوا وراء حركة المقاومة التي حدثت بعد إهانة لحقت بالكرامة. فقد لاحقوا قرابة ٤٠ من عسكر السلطة في عرمان وقتلوهم. باعتبار أن للدروز الحق في هذا التصرّف، إذ إنهم دافعوا عن شرف زوجة محمد الأطرش الجميلة، التي رغب ممدوح باشا في سبيها، بينما أثيرت احتمالات أخرى لأسباب الحادث، تقول بأنهم قاوموا تسجيل الأراضي، ولربما كان رجال الأمن أرادوا اعتقال بعض شيوخ القرية، فكانت ردّة الفعل هذه[٢٩٧]. على كل حال، اعتبرت الحادثة في البداية فردية، محصورة بعرمان فقط وليست طفرة أو ثورة شعب، كما أشيع عنها. لاسيما أن توقيتها قد تزامن مع بدء جني الغلال، الفترة الزمنية التي كان الدروز يفضلون الهدوء خلالها، ليتمكّنوا من جني محاصيل العام. ولهذا انسحب الثائرون من أجل الفتاة بعددهم القليل إلى السويداء وحاصروا القلعة التي كان سكان

---

٢٩٣. **MAEN**, Guillois à Berthelot, 12 Fév. 1896; 5 Mars 1896, Guillois à Bourgeois 9 Avril 1896; **FO** 195/ 1940, Eyres to Currie, 8 Fév. 1896, 3 Mars 1896.

٢٩٤. **FO** 195/1940, Eyres to Currie, 27 Jan. 1896, 24 Feb. 1896; Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 172.

٢٩٥. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 176.

٢٩٦. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 19 Juin 1896.

٢٩٧. **FO** 195/1940, Eyres to Herbert, 19 June 1896, 4 July 1896; **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 18 Juin 1896؛ الصغيّر، بنو معروف، ص٤٦٢.

السويداء يمدونها بالماء والطعام ويتظاهر الناس بأنهم لا يريدون الحرب أبداً[٢٩٨]. ذهل الناس في دمشق من الحركة وتخوّفوا بكل جدية، من قدرة الدروز على مهاجمة المدينة[٢٩٩]. كما أن الدمشقيين لم يتمكّنوا من جمع احتياطيين بسبب جني المواسم. ولذلك بقيت دمشق معفاة من الاحتياط. أما العثمانيون، فقد قرّروا اعتبار الواقعة ثورة مقاومة يجب قمعها، بالرغم من أن عدداً من شيوخ الجبل قد كتبوا أثناءها للوالي، يرجونه بألاّ يشمل كل الناس بحادث صدر عن بضعة أشخاص[٣٠٠]. إلا أنه لم يكن للجماعة زعيم موحّد يستطيع أن يفاوض باسمهم ويلتزم عموم الجبل بالتزامه. واستقدم العثمانيون قوات جديدة من سالونيك وإزمير وطرابلس الغرب، ونقلت مباشرة من بيروت إلى حوران بطريق سكة الحديد[٣٠١]. كما أن طاهر باشا رقّع إلى رتبة مشير وسُمّي رافق باشا والياً في دمشق مكانه. وضعت القوات تحت قيادة ممدوح باشا من جديد، ووجهت ضد مقاومة عرمان. بيد أن ممدوح كان محاصراً في قلعة السويداء، واستوجب تحريره أولاً، من قبل المشير نفسه الذي كان على رأس ٢٥,٠٠٠ رجل قابلهم قرابة ١٠,٠٠٠ مسلّح درزي - لم يؤسر أحد ولكن عدداً من المقاومين تقدّموا طوعاً إلى القيادة العثمانية. وأرسل الأطفال والنساء إلى اللجاه والصفا مع احتياطي تموين لهم وأفرغت القرى وأتلفت المؤن. و قد أكد القنصل الفرنسي مقدراً دور الدروز الذين أمنوا المسيحيين الذين فروا أمام القوات العثمانية، وأوصلوهم بمرافقة آمنة حتى حدود مواقعهم. بينما كان البدو والحوارنة يلاحقونهم بالجمال وينهبون قراهم، تحت غطاء من القادة العثمانيين: «... غنائم سمح بها لبدائل تخجل جيشاً أمبراطورياً!»[٣٠٢].

إن المعارك الدامية التي حصلت في شتاء ١٨٩٥، بقيادة عبدالله باشا دفعت القنصل البريطاني لتوجيه نداء يدعو فيه الدول لتدخّل إنساني. وكان في اعتقاده أنه كان يكفي الدروز أن يرفعوا مذكّرة بسيطة بذلك للعالم:

«أقول ذلك بثقة أكبر، حيث إني استنكرت التدخّل في فصل الشتاء ليلقنوا درساً على أيدي السلطة. أما الآن وهم يقاتلون من أجل البقاء، فقد أرغموا على سلوك سبيل انتهاك القوانين، المتواصل...»[٣٠٣].

---

٢٩٨. أبو راشد، جبل، ص ١٠٨؛ النجار، بنو معروف، ص١٠٢.

٢٩٩. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 24 Juin 1896; 8 Juillet 1896.

٣٠٠. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 24 Juin 1896.

٣٠١. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 24 Juin 1896; FO 195/1940, Eyres to Herbert 25 Juin 1896.

٣٠٢. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 15 Juillet 1896.

٣٠٣. **FO** 195/1940, Eyres to Currie, 28 Juillet 1896 (رسالة شخصية).

وقد دعم القنصل النداء الذي قدمه الدروز إلى حسين فوزي باشا، المشير السابق، الذي سبق التفاوض معه في لجنة ١٨٨١ - وقد كان العثماني الوحيد الذي كان الدروز يطمئنون له. وكان في هذه الأثناء في سالونيك قائداً للجيش الثالث[٣٠٤]. وفي نفس الوقت عمت شائعات أن الدروز على أبواب دمشق. فعمّ الهلع وقام الوالي بتوزيع السلاح على فئات من الشعب ليحرسوا مدخل المدينة[٣٠٥]. كانت السلطة العثمانية، في هذه الأثناء، تبطش بكل ضراوة في شمال الجبل بالدروز. وكان قتال الدروز قتال المحافظة على البقاء. وليس حرباً عاديّة. وقد قيل فيه الكثير، حتى عن اشتراك النساء في المعارك. وعندما هدمت القرى بين السويداء وقنوات وتقدم الجيش نحو شهباء وأمّ الزيتون وعاهرة وقرّاصة، وكان النساء يسعفن الجرحى فقتل ٣٠ سيّدة على طريق الحملة من السويداء وقنوات نحو شهبا، كنّ ينقلن الطعام والماء للثوار[٣٠٦]. لقد كانت الخسائر في صفوف الجهتين عالية، بالإضافة إلى تفشي وباء في صفوف الجيش. بعد توسط من مصطفى أرسلان، وافق الباب العالي على تشكيل لجنة تحقيق في شكاوى الدروز من قوة الحملة والبطش الاعتباطي للباشاوات ممدوح وخسرف، وتحريكهم للحملة[٣٠٧]. وذكر «أوبنهايم» تشكيل لجنة من ثلاثة قضاة سامين: حقي بك وهو مستشار قانوني، وشوقي بك رئيس قسم الجنايات في محاكم النزاعات، ومالك أفندي وهو موظف في مكتب «السرعسكر»[٣٠٨]. لم تكن هذه اللجنة مستاءة من الاعتراف بأخطاء العثمانيين مثلاً أو معالجة خلاف. لكن كان لها مهمة معالجة امتيازات الدروز وربطهم الكامل بالولاية. لم يقبل التقاء هذه اللجنة سوى قرابة عشرة شيوخ من الدروز من بني «الأطرش» أما الآخرون والشباب، فقد تواروا بعيداً، واحتفظوا بأسلحتهم مختفين بها في الصفا واللجاه. أعلن ثوار صلخد شروطهم عن رؤية واضحة بالسلطات العثمانية، وطلبوا أن يحكمهم رجال الجيش وليس الموظفون المدنيون، وأن يستبدل «بالجندرما» جنود (تذكرة بالتجربة الناجحة مع حسين فوزي باشا، والتجربة المعاكسة مع الأمنيِّين والموظفين). وطلبوا أيضاً تجهيز المدارس وبناء سكة حديد بين شيخ مسكين والسويداء. ومع هذا فهم لا يأمنون جانب العثمانيين. لكن العثمانيين من جهتهم

---

٣٠٤. **FO** 195/1940, Eyres to Herbert, 3 Sept. 1896.

٣٠٥. **MAEN**, Guillois à Hanotaux, 19 Juillet 1896.

٣٠٦. **MAEN**, Guillois à Hanotaux, 29 Juillet 1896.

٣٠٧. **FO** 195/1940, Eyres to Herbert, 4 Juillet 1896; FO 195/1937, Drummond-Hay to Herbert, 7 Juillet 1896.

٣٠٨. Oppenheim, **Vom Mittelmeer**, p. 181.

أعلموا اسطنبول أن جبل الدروز قد تم تطويعه، وأن الأمن والنظام قد أعيدا، وأن رجال الأمن والمساحة ورجال الضرائب العثمانيين الذين فرّوا إلى دمشق، قد صدرت لهم الأوامر أن يعودوا إلى أعمالهم[٣٠٩]. لقد رفضت بعض الجهات في جبل الدروز الانصياع[٣١٠] وعمّت الفوضى بسبب نقص المؤن والأعلاف والمواشي. كان يجب أن تؤمّن هذه الضروريات من الجوار، لأن ثروات الدروز قد نهبت وفقدت محاصيلهم التي سطا عليها الحوارنة مع الحملات (خاصة القرى التي سبق لها أن نُهبت)[٣١١].

أصبح عبدالله باشا المشير الجديد، وكان رجلاً ذا سمعة وحشية (لا ينظر إلى قفاه). وأشيع عنه أنه في العام نفسه، قد أخمد تمرد يونانية في كريت بعد مقاومات دامية. وأمر بمثول ثلاثين شخصاً أمامه على الأقل. فشكك الدروز بنواياه، ولم يمثل سوى قلة من الرجال، حذراً من أمر مبّيت. وهكذا تعثّرت تلك المفاوضات الجديدة وصارت غير ممكنة[٣١٢]. بعد ذلك عادت القوات العثمانية العسكرية لتجول في أنحاء الجبل كافة، فاعتقلت أو أعدمت كل قادر على حمل السلاح، ممن سلّموا أنفسهم، حتى في القرى التي أعلنت استسلامها. وفي تشرين الثاني ١٨٩٦ نفي من الجبل ٦٢٤ معتقلاً من الرجال مع ٧١ امرأة و٩٦ طفلاً أعمارهم بين عامين وعشرة. ولحقت بهم في كانون الأول من العام نفسه دفعة ثانية من ١٧ رجلاً و٨٦ امرأة مع ١٢٥ طفلاً[٣١٣]. وكان عدد القتلى أكثر من ١٠٠٠ رجل وأكثر من هذا العدد من المشرّدين أو المساقين إلى الجندية. وكانت قرى بكاملها قد شرّدت، كما سلبت المواشي وشحّت المؤن في جميع جهات الجبل بشكل واضح. وحتى ربيع سنة ١٨٩٧ كان عدد وافر من الثوار صامداً بقيادة خليل عامر مع عدد كامن في الصفا إلى أن أعلن السلطان الأمان العام[٣١٤]. لكن العفو العام عن المعتقلين في الزنزانات والمشرّدين جاء في ربيع سنة ١٩٠٠[٣١٥]. وعلى أثره استقبل شبلي الأطرش وشبلي عزام وحسين جربوع ومحمد نصار، وهم في طريق العودة من المعتقل، في القصر السلطاني. ومنح كل شخص - رجلاً، امرأة، أو طفلاً - وسام تكريم وثياباً مع مبلغ ١٥ ليرة لكل رب عائلة. شبلي الأطرش استقبله السلطان أكثر من ساعة بمبادرة تكريم. وبقي طوال ثلاث سنوات قبل وفاته

٣٠٩. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 16 Sept. 1896; **FO**/95/1940, Eyres to Currie, 25 Sept. 1896.

٣١٠. أجبر الكتبة أن يزوّروا في البيانات. وحسب الإحصاءات لم يبق أطفال في البلدات.

٣١١. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 29 Oct. 1896.

٣١٢. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 29 Oct. 1896.

٣١٣. **MAEP**, Guillois à Hanotaux, 28 Déc. 1896.

٣١٤. **FO** 195/1984, Richards to Currie, 17 Mars 1897.

٣١٥. أبو راشد، جبل، ص١١١.

ينال من الباب العالي راتباً شهرياً قدره ٣٠ ليرة. كما سمح له، مثل كبار شيوخ البدو، أن يتصل بالسلطان عبر التلغراف مباشرة، إذا ما لمس سوء معاملة أو تصرّف من مسؤولين عثمانيين[٣١٦].

لا ضرورة للإشارة بأن سنة ١٨٩٦ بحملاتها وتصرفاتها تجاه القسم الأكبر من الشعب في الجبل، قد تركت في النفوس مرارة. بانت آثارها بعد ١٤ سنة في «الحملة الحورانية» سنة ١٩١٠، حيث أثيرت الأحقاد المكبوتة. أما بالنسبة للشروط التي تقدم بها ثوار صلخد، بالمقارنة مع تلك التي تقدم بها بعض الشيوخ زمن الحملة، فقد كان بينها تباين وحدَّة كبيران، بحيث أوشكت الأزمة أن تشطر الجبل إلى شطرين.

لكن الجبل عاد إلى شيء من الاستقرار النسبي. فالدروز مخذولون ومعنوياتهم منهارة. ولم يبق للعثمانيين حاجة بأن يجنّدوا لهم قوات ضخمة كما تعوَّدوا. وأصبحت الحال تلائم العثمانيين أيضاً لوضع سياسة منظَّمة، وكان الحاكم ناظم باشا، الرجل المناسب في المكان المناسب.

وكبداية لحكمه، فقد أعفى السكان من ضرائب عام كامل بسبب تلف المواسم، وأعاد شيوخ الدروز إلى مناصب المدراء في النواحي وائتمنهم عليها. كما اتخذ أسلوباً جديداً في هذا المجال، حيث وضع خليل عامر، وأخاه محمود في صلخد وملح (مواقع الأطرش)، ووضع حمود الأطرش في شهبا (موقع عامر)[٣١٧]. وفي سنة ١٨٩٨ عيّن سليم نوفل (درزي من حاصبيّا) ممثلاً عن الدروز في مجلس الإدارة في دمشق. كما جدّدت التنظيمات في قضاء السويداء ودوائره سنة ١٨٩٦. لقد كان عدد النواحي ٨ وأصبحت: عرى، سالة، شهباء، لاهثة، صلخد، المجدل، عرمان وسليم وكان مدراؤها كلهم من الأطرش باستثناء شهباء التي كان مديرها من آل عامر. وجعلت صلخد وعاهرة ناحيتين رسمياً. وكانت حجة السلطات المحليّة في هذا التنظيم أنه يأتي الدولة بأقل كلفة من حملة عسكرية. وكان إلى جانب كل مدير مفرزة عسكرية لمواجهة أي طارئ. وبعد أن حقق الوالي العثماني هذا التوفيق السياسي المتعدد، الذي كان بمساعدة من نجل الأمير عبد القادر الجزائري، الذي لعب دوراً مميّزاً أيضاً، فقد دعم بثقله العفو عن المبعدين بوعود إيجابية، ولم يعد الدروز يطالبون بإعفاءات طوال عشرين عاماً، افتتحت محكمة في السويداء سنة ١٨٩٧ ولكنها عادت وأقفلت سنة ١٩٠١. وكانت طلبات الشيوخ تجاب باستمرار. وعندما زارت

---

٣١٦. FO 195/2190, Richards to O'Connor, 6 Feb. 1905, Salih, "British-Druze Connection", p. 256.

٣١٧. FO 195/2024 Richards to Busen, 27 Sept. 1889; FO. 195/1984, Richards to Currie, 17 Déc. 1897, MacDowell, footnote 58, p. 81.

«غارترود بل» Gertrude Bell المنطقة سنة ١٩٠٥ كان في كل ثلاثة دوائر مركز برق وموظف عثماني (تذكر أنها تحدثت مع قائمقام عثماني). وكانت تشغل مركز البرق الواحد، ثلاث اتصالات يومياً من الجبل إلى دمشق. وقد لاحظت أن السيطرة كانت محكمة في الجبل بشكل لم يسبق له مثيل[٣١٨].

كان مبلغ نصف مليون قرش قد خصّص لبناء مدارس في ثلاثة مراكز دوائر. ولأوّل مرّة، كان هذا التنفيذ، في منحى السياسة المرسومة منذ زمن طويل «سياسة تكامل» بكل ما للكلمة من معنى. كما أنه لم يعد الدروز يحشرون بضغط التسيير إلى الجندية، الذي يكرهونه ويحقدون عليه، بل تركوا التطوّع حرّاً، للاستفادة من قدراتهم القتالية في الوقوف ضد البدو من قبائل العنزة وبني صخر[٣١٩]. وزار الوالي الجبل سنة ١٩٠٠ ووزّع المنح والهدايا. واعترف بالشيخ أحمد الهجري «شيخاً للعقل» مكان والده حسين الذي توفي في المنفى. هذا الاعتراف الرسمي، كان اعترافاً من السلطة بمركزية السلطة الدينية في منصب «الشيخ الأول». وقد قرر أيضاً بناء ٢٥ جامعاً، ودعي الشيوخ العقال إلى دمشق للبحث في أمل الرجوع واللقاء مع السنة علانية[٣٢٠]، كما هو الأمر مع الأمير شكيب أرسلان. لا سيما أن الأمير كان في بداية القرن قد بقي في دمشق وكلّف من قبل الوالي بمهمات سياسية كثيرة إلى الجبل. لقد كان شقيقه أمين في الوقت نفسه موظفاً عثمانياً. وكلف بمنصب قائمقام السلط والكرك فترة سنة ١٩٠٦-١٩٠٧[٣٢١].

كان شبلي الأطرش، كالشيوخ الآخرين، قد عايش في المنفى قوة أجهزة النظام ومدى تأثيرها، واقتنع بعدم جدوى مقاومة ممثلي الدولة، وبقي حتى وفاته سنة ١٩٠٥ متفقاً في نظريته هذه مع عدد كبير من الشيوخ الوجهاء. وهكذا لم يعد يسمح للوقائع الصغيرة مثل منازعات حق الرعي وما شابه أن تؤدي إلى اقتتال يستدعي تدخل الجيش.

٣- الحملة الحورانيّة سنة ١٩١٠ وتوابعها

اعترت صميم الإمبراطورية العثمانية هزات عنيفة، كثورة سنة ١٩٠٨ والثورة المضادة لسنة ١٩٠٩، ولكن هذه الهزّات وصلت أطراف الدولة بشكل محدّد الإطار فقط - ما عدا

٣١٨. Bell, **Desert**, p. 85.

٣١٩. Cuinet, **Syrie**, pp. 479-484.

٣٢٠. عوّاد، **الإدارة**، ص٢٩٣.

٣٢١. Gross, **Ottoman Rule**, p. 509.

حملات تأديب عسكرية مثل «الحملة الحورانية» المشهورة تحت قيادة سامي باشا الفاروقي سنة ١٩١٠، ضد جبل حوران والكرك، التي زُعم أن القصد منها تنفيذ المطالب العثمانية المعتادة القديمة بالجندية، وبالتجريد من السلاح وبمسح الأراضي. لم يكن المغزى التاريخي لهذه الحملة عسكرياً فحسب، وإنما كان في مداها الإعلاني. فالصحف الدمشقية وفي مقدمتها جريدة «المقتبس» لمحمد كرد علي[٣٢٢]، أوردت تفاصيل موسّعة عن مقاصد الحملة وأبعاد ادعاءاتها. فقد هزّت «الحملة الحورانيّة» المدن كافة، حتى الأطراف الحدودية بنفس التأثير. وكان ذلك من أهم مقاصدها.

كانت العودة إلى دعوة المجلس النيابي العثماني (مجلس المبعوثان) والانتخابات، شعار ثورة «تركيا الفتاة» ضد السلطان عبد الحميد الثاني، ولكن هذا الشعار لم يخاطب وجداً ولم يحرك قلباً لدى فلاحي حوران في البداية. فهؤلاء تمسّكوا بشعار الثوار «وطن وحريّة» في المناطق الحدودية كافة، وترجموه بشكل بسيط إلى تحرّر من دفع الضرائب[٣٢٣]. ولإزالة سوء التفاهيم هذا، أرسلت السلطة الوجهاء الدمشقيين، الشيخ عبد الرزاق البيطار وعبد الرحمن اليوسف (أمير الحج) ومعهم مسيحي، عضو مجلس الإدارة الجديد ميخائيل سعده، بمهمة توضيح التنظيم الجديد لشيوخ حوران[٣٢٤]. كما أصدرت الأوامر، في الوقت نفسه، بتنظيم إحصاء جديد في إطار مهمتهم تمهيداً للانتخابات. لكن الحورانيين كانوا يفسرون مصطلحات مثل «تسجيل الأراضي والإحصاء» بمفهوم واحد، يعني بالنسبة لهم الخدمة العسكرية في الجيش العثماني، وبهذه الخلفية شكل شيوخ حوران وشيوخ الجبل مجتمعين وفد مبعوثين عنهم إلى دمشق، يطلبون استثناءهم من موضوع «الدستور والحريّة» وأن يترك لهم نظام عيشهم القديم[٣٢٥]. وعندما أجريت الانتخابات لمجلس المبعوثان في اسطنبول وولاية سوريا وباقي المقاطعات، أحجمت عنها متصرفية حوران. وبعد جهد في إقناعهم من أجل إرسال مندوب يمثلهم، اختاروا سعد الدين الخليل المقداد من إحدى العائلات الحورانية الكبرى، بني مقداد. أما جبل الدروز فقد كان السلطان كرَّم شيوخهم، في طريق عودتهم من المنفى إلى وطنهم، وفي قرارة نفوسهم الإقلال من غلواء الحروب والغزوات، فاحتفظوا بحيادهم عن نشاطات «تركيا الفتاة» كلّها، رغم أن ما استمع إليه

---

٣٢٢. Seikaly, "Damascene intellectual life in the opening years of the 20th century: Muhammad Kurd Ali and al-Muqtabas"; Hermann, **Muhammad Kurd Ali**, pp. 103-105.

٣٢٣. **FO** 195/2277, Devey to Lowther, 17 Sept. 1908.

٣٢٤. **FO** 195/2277, Devey to Lowther, 17 Sept. 1908.

٣٢٥. **FO** 195/2277, Devey to Lowther, 22 Aug. 1908; MacDowell, "The Druze revolt". p. 90.

الشيوخ في دمشق من شروحات، قد ترك لديهم انطباعاً خاصاً - إلاّ أنّ هذا لم يبدل موقف حوران بشيء، بل تتابعت الخلافات البغيضة بين القرى، انطلاقاً من الأسباب التقليدية: حقوق الرعي، وسداد ديون سابقة عامة، أو الديات التي شرّعت تدخل الدولة في كل حين. وشاءت الظروف أن تأتي الواقعة التي مهّدت لاسطنبول المناسبة لإرسال سامي باشا الفاروقي على رأس «الحملة الحورانية» التي تضاربت الادعاءات في أسبابها المباشرة. وبينها:

- خلاف على حقوق الرّعي وقع بين سكّان قرية القرية و«بصرى إسكي شام»، سنة ١٩٠٩[٣٢٦]،
- اعتداء رجال من بصرى على مسافرين من الدروز[٣٢٧]،
- خلاف وقع بين يحيى الأطرش ومنصور الخليل المقداد على دخل مطحنة يشتركان فيها[٣٢٨].

على كل حال انفجر قتال بين القريتين بصرى والقرية قتل على أثره ولد لمنصور الخليل كما قتل هلال الأطرش أيضاً[٣٢٩]. وحيث إن سعد الدين الخليل المقداد من ذوي القتيل كان ما زال مبعوثاً في اسطنبول، قد قاد بدوره حملة شكوى مثيرة إلى السلطات العثمانية ضد الدروز في دمشق واسطنبول طلب فيها «من أجل حماية أعراض النساء وحماية الدّين وحماية المستضعفين من الخوف المتعمّد، يجب إرسال حملة تأديب ضد الدروز»[٣٣٠].

أما الغاية العثمانية الحقيقية من توجيه هذه الحملة فكانت أن رجال «تركيا الفتاة» كانوا مهتمين بوجود قوة كبيرة في ولاية سوريا المضطربة، تفرض فيها النظام وتطبق القانون العثماني في ظلّهم[٣٣١] وعدم التخلف عن حملات السلطان عبد الحميد. وهكذا توافقت أهداف اسطنبول مع ادعاءات سعد الدين الخليل المقداد، وكان ذلك، في الوقت نفسه، مهماً بالنسبة للأجواء في دمشق، ولكنه أتى بمرارة إضافية من السلطة العثمانية في نظر الدروز. لقد كرّست صحيفة محمد كرد علي «المقتبس»، للخلاف بين آل الأطرش وآل المقداد مقالاً مثيراً، وحتى عنوانه بيّن تعاطف الصحيفة حيث كانت عبارة «بنو المقداد» مطبوعة بحروف أكبر من حروف عبارة «بنو الأطرش» بكثير. فقد تمت الإشادة ببني المقداد

٣٢٦. أبو راشد، جبل، ص١١٨.

٣٢٧. MAEP, Turquie, NS, vol. 113, Piat à Pichon, 11 Juillet 1910.

٣٢٨. المقتبس، رقم ٤٩٢، ٥/ ١٠/ ١٩١٠.

٣٢٩. MAEP, C.P, ? à Constans, 12 Avril 1909 (وفاة هلال الأطرش).

٣٣٠. MAEP, Turquie, NS, vol. 113, Piat à Pichon, 11 Juillet ؛ عوّاد الإدارة، ص ٢٩٢.

٣٣١. Akarli, "Ottoman Criteria"; MAEP, CP, Piat à Pichon, 9 Sept. 1910.

كوجهاء عريقين منذ القدم، بينما بنو الأطرش، كانوا قبل وقت قصير، يرعون الماعز ويحرثون الأرض. وتسنّى لهم أن وجدوا طنجرة مليئة ذهباً قديماً كانت أساس ثروتهم وغناهم[٣٣٢]. ومسّ هذا الكلام كرامة الطرشان بالنقطة المؤلمة، خاصة جيل الأطرش الجديد، وقد تسلّم القيادة مع يحيى الأطرش «شيخ المشايخ» أحد الأولاد الثمانية لمؤسّس السلالة «إسماعيل الأطرش». كما امتلأ المقال أيضاً بالاتهامات الدينيّة التقليدية الإسلامية ضد الدورز المتفشية خاصة في المدن، بأن دأبهم السلب والنهب والقتل وليس من قانون لديهم سوى السَّيف، وكل من هو غير درزي لا يتمتع بحق . . . إلخ[٣٣٣].

في تموز/ آب ١٩١٠ حدثت سلسلة وقائع مؤلمة غير قانونية في حوران. فقد قامت بعض القرى بغزو ضد الروَلا، لاسترداد مواش منهوبة تخصُّهم، كما أن قافلة قمح للدروز قد نهبت من قبل العنزة، ووجد أيضاً ثلاثة قتلى دروز بالقرب من بصرى. فعمّت الجو وقفة درزية للثأر. أغلقت طريق دمشق عبر وادي اللواء وقطعت خطوط التلغراف وأُطلقت النار على الجنود الذين حاولوا وصلها. كما رفض ناقلو حبوب من الدروز تسليم سلاحهم على أبواب دمشق وقتلوا رجل أمن[٣٣٤]. وقام الدروز بهجوم على بصرى إسكي شام.

وفي ٢١ آب ١٩١٠ وصل دمشق سامي باشا الفاروقي، عربي صهر وزير الدفاع التركي، وتابع فوراً إلى درعا[٣٣٥]. وكان على رأس ٣٠ فوجاً سحبت من أضنة وإزمير وعينتاب مع كل من كان في دمشق، وقد وضعت تحت تصرفه بضباطها ومدفعيتها مع أجهزة استطلاع واتصالات سلكية ولا سلكية وطاقم طبي قوي. وباختصار، كان هذا الجيش هو الأكثر تأثيراً وحداثةً مما رآه جبل الدروز منذ القدم وهو قادر أن يحشد ١٠,٠٠٠ رجل[٣٣٦]. وسارع وفد لبناني إلى الجبل لتجنّب القتال، قوامه ستة أعيان. وكان أكثرية الدروز ما زالوا متأثرين بصدمة ١٨٩٦، فهم لا يريدون حرباً - وخاصة ضد هذا الجيش. وعن القنصل الفرنسي أن الدروز جمعوا مبلغ مليوني فرنك بقصد إيقاف الجنرال[٣٣٧]. و أرسل الأميران سعيد أرسلان وتوفيق أرسلان كوسطاء لديه من أجل الدروز[٣٣٨]. ولكن شروط الجندية والتجريد من

---

٣٣٢. المقتبس، رقم ٤٩٢، ٥/ ١٠/ ١٩١٠.

٣٣٣. رد الدروز على محمد كرد علي في الصفاء، ١/ ٣/ ١٩١١.

٣٣٤. **FO** 195/2342, Devey to Lowther, 2 Aug. 1910.

٣٣٥. Kayali, "Arabs and Young Turks", p. 146.

٣٣٦. **FO** 618/3, Devey to Lowther, 1 Sept. 1910; **MAEP**, Turquie, NS, vol. 114, Piat à Pichon, 20 Juillet 1910.

٣٣٧. **MAEP**, Turquie, NS, Piat à Pichon, 22 Août 1910.

٣٣٨. **MAEP**, CD, Piat à Pichon, 27 Août 1910.

السلاح، كانت غير مقبولة لديهم، كذلك بالنسبة للشيخ سعد الدين أبو سليمان، شيخ اللجاه، الذي كان ملتزماً مع الدروز ومجهزاً بـ ٣٠٠٠ مقاتل[٣٣٩]. وهكذا فرضت الحرب وكان لا بدّ من الاستعداد لها بالأساليب التقليدية والحديثة. فنسجت الخيام، وبعد تجربة ١٨٩٦، لم يرسل النساء والأطفال إلى اللجاه، هذه المرّة، بل أرسلوا بطريق سكة الحديد إلى لبنان ليكونوا في حماية أقربائهم هناك[٣٤٠]. وفي محاولة نهائية لتجنّب الحرب سلّم يحيى الأطرش «شيخ المشايخ» نفسه إلى سامي باشا في درعا مباشرة بواسطة المطران اليوناني الكاثوليكي نيكولاوس قاضي، مع خمسة شيوخ آخرين. وقد ورد عن المقابلة في تقرير للقنصل البريطاني ما يلي:

«لقد استقبله سامي باشا ببرود وعدم اهتمام، ولم يلق بالاً لملاحظاته. وعندما هم ليغادر، أبلغه أنه معتقل وعليه البقاء في درعا، حتى تتم محاكمته من قبل محكمة عسكرية... لقد كانت السلطات المحلية راضية عن ذلك. ويؤكد المطران قاضي - واضح من أوامرهم - أنه حضر إليه طواعيّة ودون ترتيب مسبق. وقد اعتبر الرأي العام أن هذا الاعتقال أمر وضيع وغير لائق، واستنتج أن أسلوب الخديعة والغدر القديم ما زال يمارس في ظل «الدستور» كما كان في عهد عبد الحميد الثاني»[٣٤١].

أما القنصل الفرنسي، من جهته، فقد لام المطران على تدخله، خاصة أنه تحت الحماية الفرنسية[٣٤٢].

لكن، بعد اعتقال «الشيخ الأول»، تأزّمت المواجهات ولم يبق سوى انطلاق شرارة القتال. واستغرق ذلك ستة أسابيع ولكنه لم يبلغ حجم سنة ١٨٩٦. وكالمعتاد كانت أصعب المعارك قرب قنوات حيث الأرض ملتوية و مناسبة أكثر لحرب العصابات التي خبرها الدروز[٣٤٣]، خاصة أن الجيش قد هدّم أهم خلوة عند الدروز[٣٤٤]. ورغب الجيش بالإرضاء أكثر من الدمار، «وبدون أي عنف أو مضايقات مقاومة»، جمع بضعة آلاف قطعة سلاح. ولأول مرة تبلغ كميات المصادرات هذا العدد الكبير، فقد حمّلت على نحو ٨٠ جملاً

---

٣٣٩. MAEP, CD, Piat à Pichon, 14 Sept. 1910.

٣٤٠. FO 618/3, Devey to Lowther, 12 Sept. 1910; MAEP, Turquie, NS, Riestelhueber à Pichon, 26 Sept. 1910.

٣٤١. FO 618/3 Devey to Lowther, 30 Sept. 1910; MAEP, Turquie, MS, Piat à Pichon, 26 Sept. 1910 (Télégramme).

٣٤٢. المصدر السابق.

٣٤٣. FO 6/8/3, Devey to Lowther, 11 Oct. 1910.

٣٤٤. MAEP, Turquie, NS. Piat à Pichon, 14 Nov. 1910.

وسيّرت في قافلة نصر عبر شوارع دمشق[٣٤٥]. كما جمع أكثر من ١٠٠٠ رأس من الأبقار التي كان لا بدّ منها لخدمة الأرض[٣٤٦]. ثم بدأت عملية التجنيد. وغادر الولاية حوالى ١٠٠٠ مساق حتى تشرين الثاني ١٩١٠، كان من بينهم سلطان الأطرش - قائد الدروز مستقبلاً - بينما كان والده، ذوقان، بين المعتقلين.

بتاريخ ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٠ أعلن سامي باشا الشروط التالية:

«لأن الدولة العثمانية طيبة وحنونة تجاه التابعين لها، خاصة الطائفة الدرزية، فهي تمد لهم اليد اليمنى، فإني أؤكد أن:

١- كل زعيم يسلّم نفسه مع سلاحه سيكون له الأمان.

٢- كل من يرفض أن يستسلم، سيحكم بالإعدام وتصادر الدولة جميع ما يملك.

٣- حددت مدة ثلاثة أيام لذلك، تبدأ من تاريخ هذا النداء»[٣٤٧].

وتعتبر الرواية الدرزية أن ذلك كان بمثابة الخدعة الكبرى من سامي باشا، لقد كان الذين يسلمون أنفسهم، عملاً بندائه، يكبّلون بالحديد فوراً. وتتحدث تقارير القناصل بإسهاب عن خيانة سامي باشا ليحيى الأطرش ورفاقه. وتوجد رسالة استعطاف من رجال الدين الدروز في الجبل يلتمسون فيها العفو عن المحكومين من الجبل ومن الكرك، مرفقة بلائحة اسمية - لقد استهدفت الكرك بحملة ثانية - وتظهرهذه الوثيقة أنه قد حكم على ٧٩ درزياً وعلى ٧٦ رجلاً من الكرك بأحكام سجن مختلفة[٣٤٨]. نشرت جريدة «المقتبس» في عددها بتاريخ ١٩ شباط ١٩١١ تفاصيل الأحكام، مع لائحة بأسماء المحكومين بالإعدام تحت عنوان:

«قرارات الديوان الحربي في حوران: إن ملفات محكمة الحرب في حوران... تقول بناء على المادة ٦٢ من قانون أحكام الإعدام السلطاني، يحكم بالإعدام على مزيد عامر، شيخ المثونة، الذي أثبتت محاكمته أنه قاد أناساً من قريته لاستعمال السلاح ضد الجنود الأتراك، وبناءً على المادة ٥٧... يحكم بالإعدام على ذوقان الأطرش، شيخ القرية لأنه في ٢٢ آذار سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧) هاجم مع أهل قريته... قرية بصرى إسكي شام وقتل ضابطاً وجندياً...، وبناءً على المادة ٥٧، يحكم بالإعدام على يحيى عامر بن وهبة، شيخ شهبا الذي أثبتت محاكمته... أنه كان مع القتلة الأشقياء الدروز المسلّحين في مفعلة وقنوات»[٣٤٩].

---

٣٤٥. **FO** 618/3, Devey to Lowther, 8 Nov. 1910.

٣٤٦. **MAEP**, Turquie, NS, vol. 14, Piat à Pichon, 14 Nov. 1910.

٣٤٧. أنظر أبو راشد، جبل، ص١٢٣.

٣٤٨. **Basbakanlik Arsivi**, Istanbul, DH-Sys. 60/3 (طلبات استرحام).

٣٤٩. أنظر المقتبس، رقم ٦١٦، ١٩/ ٢/ ١٩١١.

وتورد الصحيفة بعض وصف من تنفيذ الأحكام: في الساعة الثامنة من الليلة الأخيرة، دخل مدير البوليس ونوري بك، من ضباط الحملة، وبصحبتهم أحمد الهجري، شيخ العقل، ثكنة الميدان حيث كان المحكومون، فانتزعت دراهمهم وأغراضهم. وفي الساعة التاسعة، تقدّم جنود وبعض الشرطة إلى ساحة الوحدة العسكرية، وعند العاشرة جيء بالموقوفين بواسطة القطار. أدخل أولاً، يحيى عامر، وقرئ عليه الحكم بإعدامه. وعندها طلب قائمقام حليم بك. . . شيخ العقل أن يسأله عن آخر أمنياته فقال: «أطلب أن تنظر الدولة إلى عائلتي بعين المسامحة والرحمة». ثم عصبت عيناه واقتيد إلى المشنقة، وأسلم روحه ولم ينبس ببنت شفة[٣٥٠].

وتتابعت التقارير على هذا المنوال يومي ١ و٧ آذار ١٩١١ وأعلنت أحكام الإعدام وتنفيذها بكل من:

أحمد بن طرودي المغوش، شيخ خلخلة؛ هزاع عزالدين الحلبي، شيخ لاهثة؛ محمد القلعاني، شيخ نمرة، وجميعهم بتهمة تحريضهم وعصيانهم المسلّح ضد سلطة الدولة، مع نص مقتضب جداً من الأحكام ووصف تنفيذها. وباختصار، جعلهم عبرة. وقد سيق يحيى الأطرش إلى منفى رودس. أما «أشقياء الدروز» الآخرون فقد صدرت بحقهم أحكام أخف، تتراوح بين عام وخمسة عشر عاماً. مع الأشغال الشاقة وتقييد الأرجل بالسلاسل الحديدية[٣٥١].

«الحملة الحوارنية» إلى جبل الدروز والكرك (حيث حصلت أحكام بالإعدام أيضاً) وما صدر عنها من أحكام ومحاكمات هزت ضمائر الريف بكامله، والبعض في دمشق. وبينما أخذ المثقفون العرب المؤيدون لحركة «تركيا الفتاة» يبتعدون عن مسيرتها، حيا آخرون «عدالة» الأحكام و«صلابتها»، غير أن الآخرين – وبطبيعة الحال ممن تقوم ثرواتهم على تجارة قمح حوران – بدأوا يتحسّسون ويتساءلون من سيكون «الحصن المنيع» في وجه عشائر البدو الكبرى في الجنوب، إذا ما غُلبت حوران على أمرها وجرّدت من السلاح[٣٥٢]. ولقد كانت هذه حجة الدروز أيضاً في وجه تجريدهم من سلاحهم في مواقعهم فقد كانوا من قبل قد قدموا الحجة نفسها سنة ١٨٩٦، كما أعفاهم العثمانيون أنفسهم من الجندية سنة ١٨٤٠ لكي يبقوا نوعاً من حماية الحدود، يحرسونها ضد عشائر البدو[٣٥٣]. ولأول مرة،

---

٣٥٠. أنظر المقتبس، رقم ٦١٦، ١٩/٢/١٩١١.

٣٥١. المقتبس، رقم ٦١٧، ٢٠/٢/١٩١١.

٣٥٢. **MAEP**, Turquie, NS, vol. 114, Piat à Pichon, 14 Nov. 1910.

٣٥٣. **FO** 226/222, Eyres to Herbert, 3 Sept. 1896; MAEP, Turquie, NS, vol. 114, Piat à Pichon 22 Août 1910.

منذ أمد بعيد بدا بعض الدمشقيين ينظرون إلى الدروز ليس على أنهم «الدروز الأشقياء» كما جرت العادة، وإنما بدأوا يدركونهم على حقيقتهم، بأنهم مواطنون مميّزون في أرضهم ولهم مهمة مميزة، يجب الاعتراف بها حقيقة. كما أخذ البعض الآخر ينظرون إليهم كثوار ضد «التكبر التركي» أو الحكم العثماني ككل[٣٥٤]. (وصدق هذا أيضاً متمردو الكرك الذين أخضعهم سامي باشا بعد ذلك، ودخل هؤلاء لأول مرة وعي أهل المدن كصانعي سياسة).
كان في الحقيقة بين المعدومين، أناس قدموا إلى سامي باشا الفاروقي طوعاً تصديقاً لندائه، فأوقفوا فوراً وحوكموا، فاستمال ذلك العواطف الهامة تجاه الدروز. لقد تردد في رواية الجبل أن الدروز قد افتدوا يحيى الأطرش بمبلغ ٣٠٠٠ ليرة ذهبية مقابل إعفائه من الإعدام، ولكن السلطة العثمانية واصلت تنفيذ الإعدامات، وكان من بين المعدومين قفطان عزام[٣٥٥]. وحتى صحيفة «المقتبس» تراجعت وأوردت سنة ١٩١١ مقالاً تعترف فيه بالعدالة للدروز وتشيد بموقف السكان ومسؤولياتهم بعضهم تجاه بعضهم البعض الآخر، بينما تشير في الوقت نفسه إلى سكان السهل المسلمين، حيث لا يهتم الفرد إلا بمصالحه الخاصة[٣٥٦].
إن مسؤولية الجماعة العربية التي بدؤوا يدركونها كقوم سوف تكون من أهم النقاط الجوهرية للتحرك الوطني. فإن الوطنيين العرب القدامى، ومن بينهم المبعوث شكري العسلي وكل المنتظمين في الحركة الوطنية من ذوي الأسماء المعروفة، مثل عبد الوهاب الإنكليزي وعبد الرحمن الشهبندر وتوفيق الحلبي وفخري البارودي، اعتبروا أنفسهم معنيين بالمسألة ووجهوا طلب عفو بلهجة قاسية إلى اسطنبول[٣٥٧].

في شهر أيلول سنة ١٩١٤ ذهب كل من الوالي قاسم باشا والمشير زكي باشا، قائد الجيش الثامن، ومعهم ثلاثة من كبار ملاّكي الأراضي في حوران، إلى درعا، حيث التقوا بدعوة منهم، الزعماء وشيوخ الدين من دروز حوران وكذلك بأمثالهم من جبل الشيخ وصفد. ونادوهم هناك بـ«أبناء السلطان» وطلبوا منهم الإخلاص للإمبراطورية. علاوة على ذلك فقد أبلغوا بإعفائهم من الجندية مع التحفظ بأن يبقوا احتياطيين لحين الطلب. كما أنه قد خُلعت على يحيى الأطرش وشيوخ كبار، ألبسة شرف تكريماً، ووزعت عليهم سيوف وساعات ذهبية[٣٥٨]. وبعد ذلك بوقت قصير دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى

٣٥٤. **MAEP**, Turquie, NS, vol. 114, Piat à Pichon, 14 Sept. 1910.
٣٥٥. Bouron, Les **Druzes**, p. 218؛ النجار، بنو معروف، ص١٠٣؛ أبو راشد، جبل، ص١١٢.
٣٥٦. المقتبس، ٢٣/١١/١٩١٢.
٣٥٧. **Basbakanlik Arsivi**, Istanbul, Dahiliye, DH-Sys, Télégramme, 13 Déc. 1912.
٣٥٨. **FO** 195/2460, Devey to Mallet, 10 Sept. 1914.

فتشكل جناح في الجبل، اعتبر العثمانيين مخادعين، وأقسم الشباب ومنهم أبناء المعدومين سلطان الأطرش وآخرون، بالانتقام وأصبحوا بالنسبة للعرش العثماني أضداداً غير مهادنين. يحيى الأطرش الذي بالكاد أفلت من المشنقة، أطلق سراحه من قبل الإيطاليين بعد أن احتلوا جزيرة رودس سنة ١٩١٢، وبواسطة قبطان باخرة بريطاني، سافر بعدها إلى مصر كمعتقل سياسي سابق بدلاً من أن يسلَّم للعثمانيين[٣٥٩]، ثم عاد في شتاء ١٩١٢ إلى سوريا بعد أن صدر العفو عنه[٣٦٠]. وقد ادعى محمد كردعلي في مذكراته أن يحيى الأطرش صديقه، والظاهر أنهما تقابلا في مصر[٣٦١] كما نسّق موعداً ليحيى هناك مع اللورد «كيتشنر» Kitchener البريطاني لاستمالته مفتاحاً عربياً للإنكليز[٣٦٢]. وفي أكبر الظن أن يحيى كان ماسونياً، وقد اعترف في هذا الإطار في حلقات الدمشقيين المتنورين[٣٦٣].

بالرغم من التشريد والاعتقالات وهزيمة المقاومة في جبل الدروز، فقد سارع عدد من مقاتلي الجبل إلى الكرك لمساعدة أهله بثورتهم سنة ١٩١١. لقد سبق للقنصل الفرنسي «فلاش» أن توقع لقاءات وجدانية، عندما تعرّض لقضية «الكرك» سنة ١٨٨١ بتقرير له جاء فيه ما يلي:

«لكن هذه الحركة المتسترّ عليها اليوم، ربما تنبعث غداً. وتخرج عن الضوابط وتتفجر، سواء عند النصيريين حيث نمي إلي وجود نغمات تحرك، أو بين العرب المنهكين أكثر فأكثر من السيطرة التركية. إن الخطر بالنسبة للإمبراطورية العثمانية لا يكمن في حمل الدروز للسلاح الآن، أو في هذه الثورة المحليّة أو تلك، ولكن وبكل تأكيد في الغليان المتحكم بالبلاد وأن هناك يداً أجنبية تعرف كيف تعنى بإذكائه. هذه الحال من الغليان العام تستطيع في لحظة معيّنة أن تجعل الدروز والنصيريين والمتاولة والعرب يتناسون أهم أحقادهم، وينقلبون على العدو المشترك - التركي»[٣٦٤].

وهكذا، وعلى هذا النحو كان تاريخ الاندماج السياسي أو بالأحرى حملات التأديب في نهاية الحكم العثماني، هو البداية المباشرة لتاريخ الثورة العربية الكبرى. فإن «الحملة الحورانية» مع بعدها الإعلامي قد شكلت النذير الأوّل في عصر التعبئة الجماهيرية العامّة الذي سوف تترسخ فيه فكرة القوميّة العربيّة سريعاً وقوياً. وبالمناسبة، تعتبر النظريات

---

٣٥٩. **AA**, Türkei, R 14029, Jaffa, Hardegg an Bethmann Hollweg, 8. Juni 1912.

٣٦٠. سلطان الأطرش، مذكرات، الجزء ٢، ص٢٤.

٣٦١. محمد كرد علي، مذكرات، ص٨٣.

٣٦٢. Djemal Pascha, **Erinnerungen**, p. 216; Tauber, **Emergence**, p. 279.

٣٦٣. MacDowell, **Druze Revolt**, p. 177, footnote 29.

٣٦٤. **MAEN**, Constantinople, Correspondance, Flesch à Tissot, 8 Feb. 1881.

الحديثة في شرح القومية (Benedict Anderson)، أن «الرأسمالية الصحافة» print capitalism معنى قياسياً في خلق «جو وطني عام». وهكذا، بنتيجة «الحملة الحورانية»، اعتبر الدروز، عنصراً سياسياً في «الإطار القومي» القائم.

٤ - الجبل والثورة العربيّة الكبرى ١٩١٤ - ١٩١٨

إن الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى تشكلان الدوافع العميقة لتغيرات سياسية في منطقة الشرق الأوسط ما زالت تتفاعل حتى الآن. وقد كتب في تاريخها الكثير المتعدّد[٣٦٥]. ولكن القليل تناول السكان المحليين والتاريخ الاجتماعي[٣٦٦]. أما بالنسبة لمجتمع جبل الدروز فقد ساده الغموض والمغالطات. فالأحكام المسبقة المتشابكة تفرض نفسها. فمن أين يمكن للمرء إذن أن يتوجّه بسياسة أفضل للجبل؟ هل كان عليه أن يبقى خاضعاً للإمبراطورية العثمانية، أم أن يعمل مع شريف مكة ويضع نفسه تحت حماية سلطة أوروبية كبرى؟ كل هذه التيارات قد استعرضت ونوقشت بحصافة في الجبل وجرِّبت جزئياً بالأفعال[٣٦٧]، بينما كان جناح دار القرية من آل الأطرش بقيادة سلطان الأطرش، الذي لم يصفح «للأتراك» عار شنق والده، قد جهر بنفسه، وقرّر المشاركة في الثورة العربية. وشارك فيها فعلاً حتى نهايتها كما وعد. وبالمقابل بقي فريق السويداء من آل الأطرش، بقيادة سليم الأطرش، خليفة يحيى، وفياً للعهد العثماني، مقرباً منه. وكثيراً ما يكون التعاهد الاستراتيجي في مثل هذه الأوضاع، تراثاً موروثاً وتكون آراء المجموعة مكشوفة. ولذلك لم يرَ بعضهم مصلحة لجبل الدروز في أن يتحوّل ساحة معركة مرّة ثانية بعد خسائر الحربين سنة ١٨٩٦ وسنة ١٩١٠. لذلك فإن السؤال عما إذا كان تصرف «الدروز» «وطنياً» أم «خصوصياً» بحاجة إلى جواب أم لا. ومن الواضح أن اعتقاد أصحاب القرار من زعماء الجبل أن السياسة تتطلب منهم أن يتركوا الباب مفتوحاً لكل الاختيارات وأن يستغلوا الوضع ما وسعهم الاستغلال - وهذا التصرف قد اتبعه الهاشميون أيضاً. وهكذا فقد كان اختيار انتماء سياسي موحّد لأمد بعيد في الجبل غير ممكن، إلا لعدد قليل ولكن الوقت لم يكن

---

٣٦٥. David Fromkin, A Peace to End All Peace; Helmut Mejcher, "Der arabische Osten im zwanzigsten Jahrhundert 1914-1985".

٣٦٦. Linda Schatkowski, "The famine of 1915-1918 in Greater Syria", in: Spagnolo, **Problems of the Modern Middle East**.

٣٦٧. أبو راشد، جبل، ص١٣١.

مواتياً لذلك بعد.

لقد تغيرت آراء الدمشقيين بعد «الحملة الحورانية» المشهورة، فرفعت الدروز من رتبة «دروز أشقياء» إلى ثوار ضد السلطة العثمانية. وقد أصبح هذا التغيير ملموساً إذ اتحد الدروز - مثل العشائر البدوية المهمة - مع الحلقات السياسية الوطنية «العهد» و«العربية الفتاة»[٣٦٨] التي سلّمت الشريف حسين قيادة الثورة العربية الكبرى[٣٦٩].

وفي كانون الأوّل ١٩١٤ أصبح جمال باشا، أحد أقوى ثلاثة رجال في «جمعية الاتحاد والترقي»، قائداً للجيش الرابع وحاكماً عسكرياً لولاية سوريا. وبعد فشله في معركة السويس في مصر في شهر نيسان ١٩١٥، تغافل عن الهجوم المنتظر على السواحل السورية من قبل الحلفاء، وبحجة أن هناك تنظيماً وحركات وطنية وجّه جمال باشا التهم ضد قرابة ٦٠ شخصية عربية قيادية في [محاكمة جرت] قرية «عاليه» [اللبنانية]، وخلال محاكمتهم وصلت أوراق مصادرة من القنصلية الفرنسية في بيروت ودمشق، ولم يكن القنصل قد أتلفها قبل مغادرته (كما فعل البريطاني) بل بقيت قيد الحفظ[٣٧٠]. وبتاريخ ٢١ آب ١٩١٥ أعدم ١١ رجلاً شنقاً وأعدم أيضاً ٢١ رجلاً بتاريخ ٦ أيار ١٩١٦ ومنهم: شفيق المؤيد، عبد الحميد الزهراوي، عبد الوهاب الإنكليزي، شكري العسلي، رشدي الشمعة وعبد الغني العريسي. حتى الذين أعفي عنهم في إعدامات عامي ١٩١١ و١٩١٢ كانوا قد أدرجوا في المحاكمات أيضاً، وقد كان منهم يحيى الأطرش الذي أطلق الإيطاليون سراحه من معتقل رودس سنة ١٩١٢[٣٧١]، مثقلاً بوثائق القنصلية. غير أنها «كانت فرصة حظ» له، كما ورد في مذكرات جمال باشا:

«... يحيى الأطرش أكثر زعماء الدروز حماساً وتأثيراً، توفي في هذا الوقت (سنة ١٩١٤ - ملاحظة المؤلفة) وخلفه ولده سليم. كان يحيى آلة للدسائس العدائية. ولقد رفع من شأنه... وحسب الوثائق التي صودرت في القنصلية الفرنسية في دمشق كان يحيى قد باع نفسه لفرنسا بالدراهم. ويلاحظ من الوثيقتين اللتين أرفقهما أن الحكومة الفرنسية أرسلت له أسلحة بطريقة رسمية. وأنه وعد الفرنسيين بأنه سيساعدهم مع الدروز إذا ما حاولت فرنسا

---

٣٦٨. في بحث القومية العربية أنظر: Khalidi / Anderson / Muslih / Simon, **Origins of Arab Nationalism**; Dawn, **From Ottomanism to Arabism**; Tauber, **Emergence of the Arab Movements**; Antonius, **Arab Awakening**; Tauber, **Arab Movements in World War I**; Westrate, **Arab Bureau.** (بحوث عربية في الحواشي التالية).

٣٦٩. Tauber, **Arab Movements**, p. 57 (رسالة أحمد فوزي البكري من سنة ١٩١٦).

٣٧٠. Tauber, **Arab Movements**, pp. 39-45; Hermann, **Muhammad Kurd Ali**, p. 124-133.

٣٧١. **AA**, Türkei, R 14029, Jaffa, Hardegg an Bethmann Hollweg, 8. Juni 1912.

احتلال سوريا»[٣٧٢].

وطبقاً للقاعدة كان لا بد له من التفكير في المستقبل، مع تمسكه بالصداقة مع تركيا وأن يحيي وعد ذلك فعلاً[٣٧٣]. أما قصة الأسلحة فكانت عبارة عن «بارودة خيالة مطلية بالفضة مع صندوقها وصندوق ذخيرة»[٣٧٤]، أرسلت له كهدية من الحكومة الفرنسية تقديراً وتقييماً له.

لقد خشي جمال باشا من ثورة درزية، فاستدعى إلى دمشق وفداً من أعيان الجبل ذوي النفوذ. ولمس منهم كل الابتعاد، والحياد في مثل هذه الثورة. ويعتبر جمال «أن هذه الإجراءات كانت ناجحة للغاية»، كما تورد مذكراته: «. . . لقد استطعت حتى آخر لحظة أن أؤكد ثقة الدروز بالحكومة العثمانية»[٣٧٥]. ويعتقد أن هذه الإجراءات كانت عبارة عن منح مالية وأوسمة تكريم[٣٧٦]، علاوة على إطلاق الرهائن من أبناء الشيوخ في دمشق[٣٧٧]. أما البيت الذي أهداه جمال باشا «لشيخ المشايخ» الجديد سليم الأطرش فأصبح له معنىً خاص من أجل اتصالات زعامة الجبل مع دمشق.

إن الموقع الإستراتيجي للجبل بين دمشق والحجاز يجعله وقت الحرب ذا دور هام للإمداد بالقمح. وقد وضح ذلك على العموم في المجاعة خلال فترة ١٩١٥ - ١٩١٨ التي طالت مئات الألوف من السكان في شواطئ لبنان حيث فارق الحياة عدد كبير منهم[٣٧٨]. لقد خزّن شيوخ الجبل الكبار الحبوب - حتى إن بعضهم قد تطاول على مخازن حكومية - وقدّموا في نفس الوقت مكان لجوء آمن لآلاف من النازحين الجائعين أو الفارّين عن أعين الجيش العثماني. وفي سنة ١٩١٤ قام اثنان من ملاّكي دمشق، وهما نسيب وفوزي البكري، بالاتصال مع بعض المعارضين للعثمانيين في الجبل: سلطان الأطرش وحسين الأطرش من عنز. وكذلك مع ذوي التأثير في دار السويداء[٣٧٩]. وبالمناسبة فوزي ونسيب البكري كانا عضوين في الحركة السرّية «العربية الفتاة». ولما زار الأمير فيصل آل الحسين دمشق سنة

---

٣٧٢. Ahmed Djemal Pascha, **Erinnerungen**, p. 217.

٣٧٣. Ahmed Djemal Pascha, **Erinnerungen**, p. 217.

٣٧٤. المصدر السابق، ص٢١٨.

٣٧٥. المصدر السابق، ص٢١٤.

٣٧٦. **Arab Bulletin**, vol 3. p. 246.

٣٧٧. **Arab Bulletin**, vol. 1, p. 493.

٣٧٨. Fritz Grobba, **Die Getreidewirtschaft Syriens und Palastinaes seit Beginn des Weltkrieges**, Hannover 1923; Schilcher, "Famine".

٣٧٩. Tauber, **Arab Movements**, p. 57, pp. 64-65؛ الصغيّر، بنو معروف، ص٤٧٧؛ أبو راشد، جبل، ص١٢٦-١٢٧.

١٩١٥ نزل ضيفاً عليهم. وبعد اعتقالات جمال باشا وضعت خطة بالنسبة للملاحقين العرب والفارّين من الجيش العثماني. كان الجبل ملجأ ومعبراً لهم، بمساعدة «العربية الفتاة». وهكذا تسنّت الفرصة لعدد كبير من الوجهاء العرب والضباط وأبناء العائلات، من دمشق وحمص وحماه، للهروب إلى الجبل عن طريق جرمانا الدرزية الواقعة على أبواب دمشق. كان الهاربون يجهّزون بزيّ ريفي ويرافقون حتى قرية «خلخلة» ويؤمنهم هناك شيخها فرحان المغوّش القريب من أحد المعدومين شنقاً سنة ١٩١١ وكان مسانداً للقضية العربية(٣٨٠). وبقيت هذه الطريق مستخدمة حتى سنة ١٩١٨ وتؤكد ذلك «البيانات العربية» الإنكليزية(٣٨١):

«. . . لقد تم عمل محاولة منظمة في جبل الدروز، تشجع على الفرار من صفوف القوات المعادية، حيث تم افتتاح نوع من الاستراحة لهؤلاء الفارين والعناية بهم قبل أن يؤمن إلحاقهم بالجيش العربي. وهكذا تمّ تمرير أكثر من ١٠٠ رجل عن هذه الطريق»(٣٨٢).

كان هزيمة العامر – ووالده أيضاً من الذين أعدموا شنقاً سنة ١٩١١ – من الأعيان الذين قاموا بحماية الفارين(٣٨٣). ففي سنة ١٩١٦ كان عدد النازحين في إقليم سوريا قرابة ٧٥,٠٠٠ رجل، منهم حوالى ١٠,٠٠٠ رجل في الجبل(٣٨٤)، «. . . من أين قدموا وما هو معتقدهم لا فرق»(٣٨٥). كما كان بينهم عدد وافر من المسيحيين على العموم ودخل بعضهم في خدمة الشيوخ واستمروا بالبقاء في الجبل(٣٨٦).

لقد استجابت فئة الذين كانوا ينادون بالاستقلال العربي في الجبل، لدعوة الثورة العربية الكبرى في نيسان ١٩١٦، والنداء إلى الحرب ضد العثمانيين، كما استجابت لها أيضاً عشيرة الروَلا بقيادة نوري الشعلان في مراحلها الأخيرة. جاء نسيب البكري صيف سنة ١٩١٨ إلى الجبل، يحمل نداء من الأمير فيصل بن الحسين إلى عموم الجبل(٣٨٧) وزار كلاً من سلطان الأطرش في القرية وحسين الأطرش في عنز وحمد البربور في أم الرمان، وهم الجناح الذي كان يتحاور مع الهاشميين من جنوب الجبل، وتقررت مشاركة الدروز في الثورة العربية

---

٣٨٠. Tauber, **Arab Movements**, p. 67؛ سعيد، **الثوره العربية الكبرى**، ص ١٠٩–١١٠، قدري، **مذكرات**، ص٣١؛ سلطان الاطرش، **مذكرات**، الجزء٣، ص٣٦.

٣٨١. سعيد، **الثورة**، ص٢٣٦.

٣٨٢. **Arab Bulletin**, vol 3, p. 331.

٣٨٣. **FO** 317/3051, "Personalities of South Syria: II. Transjordan", p. 21.

٣٨٤. **Arab Bulletin**, vol. 1, p. 507.

٣٨٥. **Arab Bulletin**, vol. 2, p. 253؛ الصغيّر، **بنو معروف**، ص٤٨٧؛ النجار، **بنو معروف**، ص١٩٧؛ أبو راشد، **جبل**، ص١٢٥.

٣٨٦. حديث مع الدكتور سرحان حداد (مولود ١٩٣١)، عرى.

٣٨٧. Tauber, **Arab Movements**, p. 133؛ أبو راشد، **جبل**، ص ٢٣٧؛ سعيد، **الثورة**، ص ٢٣٥.

الكبرى. في هذه الأثناء كانت فئة من شيوخ شمال الجبل، قد قامت باتصالات مع «ليمان فون زاندرس» Liman von Sanders المقيم في درعا وفاوضته على انسحاب سلمي للقوات العثمانية، مقابل فدية نقدية ذهباً. تعجل سلطان الأطرش وحمد البربور بمهاجمة القلعة العثمانية في بصرى إسكي شام مع نحو ٣٠٠ فارس وما لبث عددهم أن تجاوز ١٥٠٠ فارس في فترة وجيزة. فأجبروا الحامية العثمانية على الاستسلام والتحقوا بالجيش العربي في شيخ مسكين[٣٨٨]. وفي ١ تشرين الأول ١٩١٨ دخلت القوات المنتصرة دمشق حيث يُقال إن سلطان الأطرش قد رفع العلم الشريفي المخيّط في بيته في القريّة على سراي الحكومة[٣٨٩]. وأعقب احتلال دمشق أعمال سلب في المدينة، جرت على أثره مشادّة بين سلطان الأطرش وعودة أبو تايه، شيخ بدو الحويطات، كادت أن تؤدي إلى اقتتال. ولما أقام المحاربون الدروز المقيمون في المدينة حلفاً مع أصدقائهم القدامى، مثل عبد القادر وسعيد الجزائري، وكانوا مرشحين لملء الفراغ السياسي الذي أحدثه انسحاب القوات العثمانية فإن البريطانيين دخلوا المدينة وأخرجوهم منها[٣٩٠]. وبطبيعة الحال كان حكم البريطانيين على الدروز غير مشرف. كما ورد في كلام «ت. إ. لورانس» البريطاني «... إن الجزء الذي لعبه الدروز كان خسيساً»[٣٩١].

على الصعيد العربي اشتد الارتباط السياسي بين الوطنيين وجناح من الدروز، بخاصة في العرائض التي رفعت لمصلحة المحكومين من الجبل سنة ١٩١٠. كما وجدت فئات من وجهاء الأحزاب الجديدة ملاذاً في الجبل. أما ما يقال عن أسرار اتصالات واجتماعات سريّة، فقد كتمها المحكومون وذهبت معهم بعد إعدامهم[٣٩٢]. وبعد فترة قدم إلى الجبل كل من[٣٩٣]: عبد الرحمن الشهبندر، سعد الباني، عز الدين التنوخي، خليل السكاكيني، أحمد قدري، عبد اللطيف العسلي، نزيه المؤيد العظم، رستم حيدر، رفيق التميمي، زكي الدروبي، تحسين قدري، خليل صيدح. وقدموا في معترك السياسة الوطنية، تمجيداً لدور شهداء ١٩١٠ واعترافاً بهم شهداء سياسيّين واكتسبوا أرضية وطنية. وقد بلغت هذه

---

٣٨٨. سعيد، **الثورة**، ص٢٣٧؛ طلاس، **الثورة**، ص٤١٥؛ أبو راشد، **جبل**، ص١٣٦؛ الصغيّر، ص٤٨١.

٣٨٩. Tauber, **Arab Movements**, p. 239؛ مقابلات مع منصور الأطرش صيف ١٩٩٢؛ الصغيّر، **بنو معروف**، ص٤٨٠-٤٨١.

٣٩٠. MacDowell, **Druze Revolt**, pp. 191-192; Tauber, **Arab Movements**, p. 239؛ سلطان الأطرش، **مذكرات**، جزء ٤، ص ٣٥؛ عبيد، **الثورة**، ص٨٤.

٣٩١. **Arab Bulletin**, "The destruction of the fourth army", vol. 3. p. 350.

٣٩٢. سلطان الاطرش، **مذكرات**، جزء ٣، ص٣٦.

٣٩٣. سلطان الأطرش، **مذكرات**، جزء ٣، ص٣٦.

الاتصالات قمتها وقت الثورة السورية الكبرى، ضد الانتداب الفرنسي، حيث تلازم سلطان الأطرش والشهبندر في قيادة الثورة. و سنرى في الفقرة القادمة الاندماج السياسي الاجتماعي في أواخر العهد العثماني.

٥- الإثنية والاندماج في نهاية العهد العثماني

بعد نحو نصف قرن من الحضور على حافة الصحراء، والدروز يؤخذون كعنصر تهديد سواء من قبل الدمشقيين أو من قبل البدو. كما كانت اسطنبول أيضاً ترى فيهم عنصر إزعاج وإعاقة لمساعي التغيير والتحديث العثماني (التنظيمات). ولكن دروز الجبل أصبحوا في العقد الأخير من الحكم العثماني، يعتبرون صناع سياسة، لاسيما أنه قد تشكل بهم معترك الصراع الوطني، وكانت الأرض غير مؤمّنة بعد. ولكن ماذا يعني هذا بالنسبة لـ«الإثنية والاندماج»؟ ومن أجل الإجابة على هذا السؤال لا بد من توضيح بعض نقاط رئيسة، سبق بحثها. وسترافق بحث تاريخ الجبل في الفقرات القادمة، والسؤال المهم في هذا المنحى يأتي بالتأكيد حول السيادة السياسية، ومن يملك المناصب الإدارية في الجبل:

- هل هم موظفون للدولة وعثمانيون، أم هم شيوخ محلّيون؟
- هل هم نخبة وظيفية من خارج المنطقة، أم هم من سلالة محلية؟
- أم هم بالأحرى نخبة وظيفية محلية؟

بعد الحملتين التأديبيتين العسكريتين، لم يبق في الواقع من شبه الاستقلالية المختزلة في المنطقة الحدودية هذه أية بقايا. فقد أصبح الجبل مندمجاً ضريبياً وإدارياً في ولاية سوريا. وأصبح الخراج بيد ثلاث مديريات يديرها مدراء عثمانيون. أما مساعي التحديث العثماني، فقد كانت أقرب الى «التكنوقراطية» ولقيت نجاحاً على مستوى تنظيم دولة. لكن على مستوى التنظيم الوطني العثماني فقد كانت في الحقيقة مخيبة بالمعنى الصحيح. إذ أخذت الزعامة في الجبل صبغة عثمانية نوعاً، ومثالها في شخص يحيى الأطرش، من حيث الانتقال إلى المعسكر الوطني العربي. وحتى إذا ما نظرت إلى رسمه المرفق، تجد في مظهره (جنتلماناً) عثمانياً. ومع ذلك فقد كان على اللائحة السوداء لدى جمال باشا. وكان من السكان محمد عز الدين الحلبي وهو موظف عثماني استقال من وظيفته بعد إعدامات ١٩١١ وانضم إلى الصف الوطني.

لم ينجح العثمانيون في زرع سياسة الدمج في أذهان سكان الجبل. هذا بالإضافة إلى أنها كانت متناقضة، وقد اتضح أنه في فترة «العاميّة» زاد الدور العثماني تاريخ الجبل تعقيداً

وأحدث تشدّداً في اندماج الجماعة العمودي، عندما أرادت طبقات الدرجة الثانية أن تحسّن وضعها تجاه أسياد الأرض من الشيوخ، مع أنه في زمن عبد الحميد الثاني كانت ارتباطات الشخصيات اعتياديّة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية يمكن اعتبارها اندماجاً أفقياً، كما كان في تجربة «عشيرة مكتبي» مدرسة تكون الزعامات الوظيفية الجديدة، ولكنّها خلقت تنافساً بين زعامات العشائر الكبرى، كما كان عدد الخريجين قليلاً وأقل من أن يغيّر في الأمر شيئاً. لأن المنطلق الجوهري في سياسة الإدماج هو في الاندماج الحقيقي للفرد، وليس فقط في اندماج الشيوخ أو في مركزية جباية الضرائب المفروضة. ولذلك كان يجب أن يركّز الأمر على العوامل التي تخلخل عصبية الجماعات وليس على العصبية نفسها. وهذا ما نلاحظه في سياسة «العاميّة». فقد فضل ثوار العامية وجاهة خارجية على الوجاهة المحلية أي شيوخهم. لقد كان من المؤكد أن «العاميّة» حتى لو انتصرت، سوف لا يتحقق لها التخلص من الاندماج ولكنها كانت قادرة على إحداث تحول اجتماعي على الأقل.

وهذا ما لوحظ أيضاً في نقد المعاصرين. فعندما حاولت ثورة «تركيا الفتاة» خلخلة الرقابة قليلاً، أخذ محمد كرد علي في صحيفة «المقتبس»يوجه انتقاداته إلى ما يسود الوضع في الريف حيث سادت «الإدارة المسلحة» بدلاً من «إدارة المجالس». وكذلك كان الأمر في سياسة عبد الحميد الثاني، سياسة مجاملات، وخلَع شرف ومنحاً مالياً وتكريماً بالأوسمة، بغية المحافظة على الوضع القائم. كما حاول بعضَ الموظفين المتنورين أيضاً، مثل ناظم باشا، وسامي باشا الفاروقي بعد الحملة العسكرية، إعطاء الوعود في تنفيذ مطالب اجتماعية، مثل بناء المدارس وغيرها، ولكنها جاءت متأخرة. تلك كانت سياسة الاندماج المعلنة التي اعتمدها العثمانيون مؤخراً. وجّه الدروز نقداً لاذعاً إلى الصحافة في عرائضهم من أجل إنقاذ المحكومين سنة ١٩١٠، واعتبروها متجاهلة غبيّة. وقد ورد في عرائض الشيوخ أن الصحافة تشبه بدو الصحراء، عندما يشير لهم حكوميّ بمسلك ما، يصبح كل ما ينسب إلى «الحملة العسكرية» كأنه لم يكن[٣٩٤]. وقد تنبّه إلى ذلك كل سكان الريف في جنوب سوريا، وخاصة الحورانيين الذين كانوا يئنّون تحت وطأة «ملاكي الأرض الغائبين» والدمشقيين الدائنين. كما تنبهوا أيضاً إلى أن وعود الدولة المشروطة بالتنفيذ المتبادل، هي فقط المتطلبات من طرف واحد وتبقى بدون أي تنفيذ مقابل من جهة الدولة.

ولقد تنبه دروز الجبل لذلك مسبقاً في جباية الضرائب وفي الجندية عندما أطلق عليهم لقب بـ«أبناء السلطان» ولم يُخدعوا. كانت جباية الضرائب من وجهة نظر سكان الجبل غير

٣٩٤. **Basbakanlik Arsivi,** D-H Sys 60/3 (العفو عن شيوخ الجبل).

مقبولة، مع أنها لم يؤخذ بها كاملة. أما بالنسبة للخدمة العسكرية فقد رفضت الدولة بشدة الفدية المالية وتسبب ذلك بثلاث حروب سابقة. كما رفض الناس إحصاء النفوس واعتبروه تحضيراً للتجنيد. لماذا كان كل هذا الرفض؟ وما الذي غذّى هذه المقاومات المريرة ضدها؟ إن اشتراطات الدولة كانت تهز نمط العيش عند الأهالي ونظامهم الاجتماعي، دون أن يعود عليهم ذلك بفائدة مقابلة من جهة الدولة. وبدون شباب الجماعة، وهم محور هذه المجتمعات الأبوية. لا يمكن لهذه الجماعات أن تتحرك من موقعها، ما دام أبناؤها غير واثقين من أن حدودهم ستكون آمنة من حوادث طارئة، كغزوات البدو حيث تستوجب المدافعة، كما أن الشباب بدون رأسمال رمزي للشرف لا يمكن أن يدافعوا عن الجماعة، حيث لا يتوافر قانون يحميهم. زد على ذلك أن القوات العثمانية لم تكن يوماً في وضع يمكنها من حفظ الأمن وحماية حدود مواقع المواطنين، وبقيت هكذا حتى نهاية الدولة. فإن كل مواطني المنطقة الذين عصوا التجنيد، هم في الواقع مجندون في موقعهم أما تسليط الضوء على منحدر جبل الدروز، فذلك لأن مقاومتهم كانت الأقوى والأعنف والأطول أمداً والأكثر تنظيماً أيضاً.

وبعد انسحاب العثمانيين عادت الوجاهة القبلية فوراً إلى سابق عهدها. لقد تمركز النظام القبلي لعدم وجود بديل محليّ يختار غير السلالات. أما بالنسبة للتحديث فقد اعترف به رجال فترة ١٩١١-١٩١٤ البارزون على أنه ضرورة لا بد منها. غير أنها بقيت معطّلة بناءً على عشائرية الزعماء، وخلال التفاوض مع الهاشميين قبل اقتحام دمشق كتبت وثيقة تترك انطباعاً واضحاً، كانت أول وأهم نقطة فيها: «إنّ استقلالية الجبل السياسية والإداريّة تبقى ضمن القانون العشائري». وهكذا يتضح أن الأمير فيصل كان معترفاً به حاكماً لسوريا ولكن بالنسبة للجبل كان هذا رمز شرف فقط[٣٩٥].

كان دروز الجبل في نهاية القرن الـ١٩ سواء في نظر الآخرين أو في نظر أنفسهم قد أصبحوا فئة إثنية مميزة. وإضافة إلى عوامل أخرى كانت السياسة العثمانية هي التي «خلقت» للدروز إثنيتهم من خلال إصرارها على التعامل مع الشيوخ الروحيين الذين كانوا في أول الأمر منفصلين عن المجال السياسي العلماني (ما عدا الأزمات الحيوية). وعندما قام خلاف حاد بين الدروز واللجنة العثمانية سنة ١٨٨١ أصر الدروز على «عشائريتهم». وبعد عشرين عاماً سمّوا أنفسهم في عرائضهم «دروزاً عثمانيين» أو «عموم دروزية حوران». وهذا يوضح الخلاف الداخلي في النظرية السياسية العثمانية، إذ كان المقصود منها أن تؤسس نظاماً يجعل

٣٩٥. سلطان الأطرش، مذكرات، جزء ٣، ص٣٧؛ أبو راشد، جبل، ص١٣٥.

التبعيات ضمن «بناء الأمة»، بصرف النظر عن أديانهم، وأن يصيروا سواسية «أبناء السلطان». ولكن سامي باشا الفاروقي، ممثل «تركيا الفتاة»، هدم «مجلس» السويداء، خلال الحملة الحورانية سنة ١٩١٠ وأمر ببناء مسجد فوقه، وجرت مراسلات طويلة بين الشيخ الديني حسين طربيه والدولة العثمانية بهذا الخصوص وسأل الشيخ طربيه في رسالة من رسائله كيف يمكن للمرء أن يهدم مكاناً للعبادة «في عصر نور الدستور؟» وزاد على ذلك قائلاً إنه من المعروف أن الدروز يحترمون «الله والنبي (صلعم) والقرآن الكريم». كما أنه من المعلوم، «أن الأمة الإسلامية منقسمة إلى فرق شتى» وأن «لكل فرقة أموراً مذهبية خاصة بها». على خلفية هذه المراسلة ربما جاءت محاولة العثمانيين لإدماج المذهب الدرزي بالإسلام[٣٩٦]، كما أصبح «شيخ العقل» ينصب رسمياً عن طريق السلطة. ومن هنا انطلقت فكرة منصب «قاضي المذهب». بيد أن هذا المنصب لم يشغل في جبل حوران إلا في سنة ١٩٢٧ وللمرة الأولى في عهد الانتداب الفرنسي[٣٩٧]. وأصبح هناك تداخل بين المجال الديني، الذي كان منفصلاً عن السياسة اليومية، وبين الحياة السياسية الجديدة من خلال ازدياد تدخل الدولة في الشؤون الداخلية. وهذا يعتبر خطوة نحو تطور الدين إلى إيديولوجيا، وكان من نتيجته تلاشي الفصل بين المجالين، كما سنعرض في فصول قادمة.

إن الاندماج في الإمبراطورية العثمانية على المستوى السيكولوجي قد فشل، أما الاندماج في الوسط الوطني العربي في دمشق، فقد بدأ. وتحوّل الدروز، في نظر الدمشقيين، مع الزمن، من مصدر خوف وغلاة حرب و«أشقياء»، إلى أبطال سياسة وطنية، رغم تحفظ بعض القدامى من الجهتين بأحكامهم إلى فترة لاحقة. لقد كان للتخالط والاتصالات التي كانت تحصل بين مورّدي الحبوب من الجبل وتجار الحبوب في دمشق، وعلى الأخص في حي الميدان، منذ منتصف القرن الـ١٩، دور يضاف تأثيره في الاندماج الوطني، كما أن التقارب الوثيق مع مسيحيي حوران قد قارب العلاقات مع مثيلاتها في دمشق أيضاً. وكانت قوافل الحبوب ترد من الجبل منظمة حسب القرى. وكان لكل قرية من الجبل بصورة عامّة عميل لها وحيد في دمشق. حيث كان فلاحو ذبين مثلاً، يوردون حبوبهم إلى عميلهم في دمشق، «تلّو وسكّار وهباب»[٣٩٨]. كانت هناك علاقة تجارية وصداقة مميّزة في دمشق بين آل الأطرش في القريّة وبين آل الشويري في الميدان. فقد كان سلطان الأطرش ويوسف

---

٣٩٦. عن محفوظات عائلة طربيه.

٣٩٧. عن محفوظات عائلة طربيه (رسائل مع شكيب أرسلان ورشيد طليع).

٣٩٨. حديث في ذبين.

الشويري صديقين حميمين. وتحولت هذه العلاقة في ما بعد إلى رابطة سياسية، وبعد دخول القوات العربية بقيادة فيصل إلى دمشق، أقام سلطان وقسم ممن معه في دار آل الشويري. وعندما حصل أول صدام مع سلطات الانتداب رجع إليه. وكان لشويري محلّ تجاري في القريّة[٣٩٩]، وكان أيضاً لكثير من الدمشقيين الميدانيين وغيرهم تجارات في أنحاء الجبل كافة. ولقد كان بين هؤلاء التجار، يوسف عفلق (وهو قريب لميشل عفلق مؤسس حزب البعث)[٤٠٠]. وكان لجناح «عرى» الطرشان، مسكن دائم في دمشق.

ومما تقدم يتضح أن العلاقات كانت عديدة بين الجبل ودمشق. أما كيف أصبحت هذه العلاقات زمن الانتداب الفرنسي على سوريا، إذ انفصل الجبل عن دمشق مرة أخرى، وكيف تطور الجبل بين إثنية واندماج، فهذا موضوع الفصل الرابع.

---

٣٩٩. حديث مع حمد قرقوط ومنصور الأطرش؛ سلطان الأطرش، مذكرات، جزء ٤، ص٤١.
٤٠٠. سلطان الأطرش، مذكرات، جزء ٥، ص٣٥.


Universitäts- und Landesbibliothek
Sachsen-Anhalt



١ . فلاح مسلح ومحراثه

(Porter: *Five Years in Damascus*, 1855, S.35 : المصدر)



٢ . الشيخ حسين الأطرش من عنز
والى جانبه عبد أسود في العام ١٩٢٥ .

(Seabrook: *Adventures*, S.160 : المصدر)



٣. شبلي، المعادي للعثمانيين، المتوفى عام ١٩٠٥.

(المصدر: Oppenheim, *Vom Mittelmeer*, S.170)



٤ . القائمقام ابراهيم باشا، المتوفى عام ١٨٩٣ .
(المصدر: حنا ابو راشد: جبل الدروز، ص١٠١)



٥ . يحيى الأطرش، آخر زعيم من جيله، المتوفى عام ١٩١٤ .

(المصدر: حنا ابو راشد: جبل الدروز، ص ١١٨)



٦ . محمد عز الدين الحلبي، المولود عام ١٨٨٩ ، والمتدرج في صفوف الجيش العثماني الخامس في دمشق .

(المصدر: حنا ابو راشد: جبل الدروز، ص١٧)



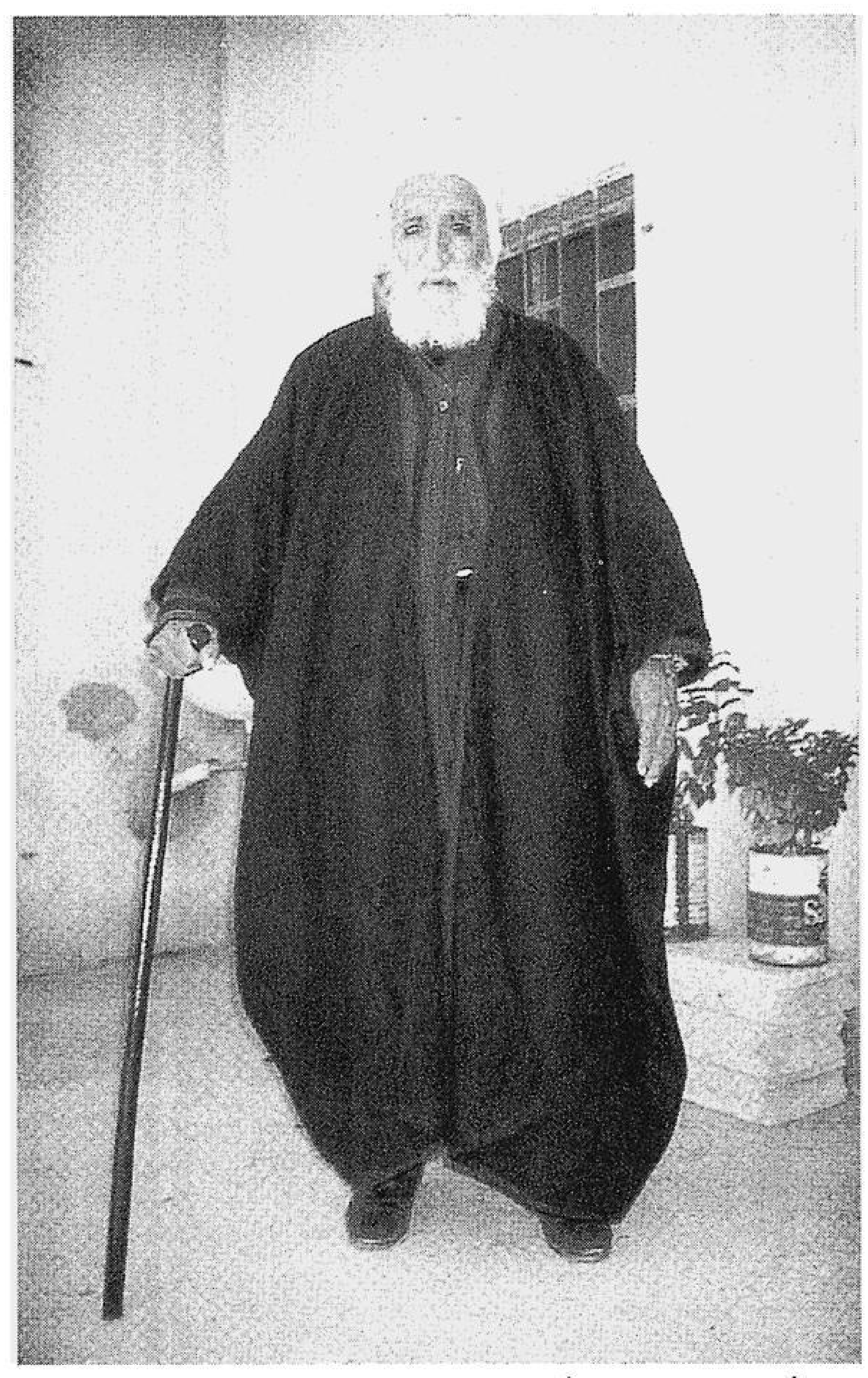
٧ . الشيخ حسين نجم الأطرش، عرمان في ٨ حزيران ١٨٩٥ .

(المصدر: H. Burchardt, *Museum für Völkerkunde Berlin*, K1062)



٨ . بطل العروبة الدرزي مع زعيم القومية العربية : سلطان باشا الأطرش برفقة جمال عبد الناصر خلال فترة الجمهورية العربية المتحدة .

(المصدر : ستوديو عراوي في السويدا)



٨. الأخير من جيله، هاني أبو فخر، المولود عام ١٨٨٣ .

(تصوير المؤلفة)

الفصل الثالث

الثورة السوريّة الكبرى

١ـ الجبل في عهد فيصل

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، لم ينته عصر كامل في أوروبا فقط، بل أيضاً في الشرق الأوسط. لقد أيقظت الحرب هنا آمالاً وتوقعات كبيرة مختلفة ما لبثت أن تبلورت شيئاً فشيئاً:

- عرب الهلال الخصيب والحجاز يرغبون في الاستقلال ورحيل الدولة العثمانية.
- المصريون يرجون نهاية للاحتلال البريطاني وجلاءه عن أراضيهم.
- المسيحيون في لبنان يركّزون على إقامة دولة لبنانية بحماية فرنسا.
- الصهاينة يسعون لإقامة ارتباطات مع المنتصرين المحتملين، ليتمكنوا من تحقيق هدفهم في فلسطين.

إلاّ أن القوات المتحالفة كانت قد استبقت الأمور، فتقاسمت القوى العظمى الممتلكات العثمانية في ما بينها مسبقاً أثناء الحرب وقسمت بريطانيا مناطق الدولة العثمانية عدّة مرات[1]:

- جرت مراسلات «ماك ماهون – حسين» في شهر تموز سنة ١٩١٥ حتى كانون الثاني ١٩١٦، الغامضة النصوص، وتضمنت توجهات نحو استقلال عربي على كامل أراضي شبه الجزيرة العربية مع سوريا والعراق الحالي باستثناء الموانئ والإسكندرون والمنطقة غرب الخط: دمشق – حمص – حماه – حلب، التي اعترف بها لفرنسا.
- كان ذلك في وقت كانت بريطانيا العظمى وفرنسا قد اقتسمتا مسبقاً المنطقة بينهما خفية بمعاهدة «سايكس – بيكو» السريّة في ١٦ أيار ١٩١٦. لقد توافقت الدولتان على تقسيم المنطقة إلى قسمين ويكون لكل منهما حق السيطرة المباشرة على قسمها. لقد كان التقسيم كما يلي: لفرنسا: كيليكيا والساحل اللبناني، ولبريطانيا منطقة شرق الأردن وباقي العراق.

١. Kedourie, **Anglo-Arab Labyrinth**; Raymond, **La Syrie**, pp. 57-58; Mejcher, "Der arabische Osten im zwanzigsten Jahrhundert", pp. 432-444.

– وعلاوة على ذلك وعدت الحكومة البريطانية في «وعد بلفور» الذي صرحت به بتاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، الحركة الصهيونية بدعمها في إقامة «وطن قومي يهودي» في فلسطين.

إن التقسيمات العسكرية التي وضعها الجنرال «أللنبي» Allenby بعد مسيرة الجيش البريطاني العربي إلى دمشق، لوّحت باتفاقية «سايكس – بيكو» و«وعد بلفور»:

– المنطقة الجنوبية: (فلسطين) يديرها ضابط بريطاني.

– المنطقة الشمالية: (ساحل لبنان) يديرها ضابط فرنسي.

– المنطقة الشرقية: وضعت تحت إدارة ضابط عربي، علي رضا الركابي، جنرال الجيش العثماني كان بمساندة الشريف حسين. ويكون معه ضابط ارتباط، الفرنسي «كوس» Cousse.

وفي المنطقة التي كانت تديرها «إدارة الأراضي المحتلة من العدو – الشرق» Occupied Enemy Territory Administration - East جهد الهاشميون لإقامة دولة مستقلّة تحت إدارة الأمير فيصل، ابن الشريف حسين ونائبه. وبينما كان فيصل يكافح على الصعيد الدبلوماسي من أجل الاعتراف باستقلال هذه الدولة، راجت في سوريا، طوال المدة القصيرة التي قضاها فيصل في الحكم (٢٢ شهراً) الشعارات السياسية التي استعملت لاحقاً أثناء ثورة سوريا الكبرى سنة ١٩٢٥ مرة ثانية. وتطرف الرأي العام بشكل ملحوظ. وقد وافق المؤتمر السوري العام الذي اجتمع في الفترة من ٣ حزيران ١٩١٩ حتى ١٩ تموز ١٩٢٠ في دمشق، على قرارات عدة:

– رفض معاهدة «سايكس – بيكو» رفضاً قاطعاً.

– المطالبة بإقامة دولة عربيّة مستقلة على أرض سوريا وفلسطين تحت حكم مؤسّسها الأمير فيصل.

– في حال لم يتم لسوريا ذلك، تكون تحت الانتداب الأميركي، وإن لم يتم ذلك فتحت الانتداب البريطاني.

– يرفض الانتداب الفرنسي رفضاً باتاً في جميع الأحوال.

لقد كان ذلك هو الموقف السياسي الذي وجدته «لجنة كينغ – كرين» King-Crane Commission أثناء زيارتها إلى دمشق. فهذه اللجنة سبق أن قد خطط لها الحلفاء كلجنة تحقيق وسبر لرغبات الأهالي في المنطقة العربية التي كانت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى خاضعة للحكم العثماني. ولكن هذه اللجنة اصطدمت بمقاطعة فرنسا وبريطانيا لها، كما كانت إيطاليا زاهدة بالأمر أيضاً حتى صارت المبادرة في النهاية مبادرة أميركية فقط. فقامت

اللجنة بزيارة ٣٦ مكاناً في سوريا وقابلت ممثلين عن ١٥٠٠ قرية واستقبلت ١٨٦٣ مضبطة[٢].

في ٧ آذار ١٩٢٠ أعلن المؤتمر السوري العام استقلال سوريا، بكاملها ضمن حدودها الطبيعية: سوريا وفلسطين ولبنان وقسم من العراق تحت حكم الملك فيصل. وقد كان ذلك قبل أن يهزم الجيش العربي في «ميسلون» على أيدي الفرنسيين، بمدة أربعة أشهر وبذلك فرض انتداب فرنسا على سوريا.

لقد وُصف عهد فيصل بأنه فجر عهد «التعبئة والسياسة الجماهيرية»[٣]. وتلاحقت الأحداث على مراحل من بعد، وفي طليعتها نقاط مثيرة عديدة مثل زيارة «لجنة كينغ – كرين»، إلى الإنذار البريطاني بوقف معوناتهم وسحب جنودهم. فتطرّفت سياسة الشارع، وتشكلت لجان تنظيم المقاومة والمظاهرات ورفع مذكرات الاحتجاج والمضبطات[٤]. وهكذا كان عهد فيصل، إجمالاً، عهد تسارع في الأحداث، بسبب الغموض الذي اكتنف الإعصار الكبير (معاهدة سايكس – بيكو، وبخاصة بعد أن كشفها البلاشفة في نهاية سنة ١٩١٧ وأصبحت علنيّة)، وازداد عندها الهيجان وعمت الحيرة والتساؤلات: ماذا سيكون نوع هذا الاستقلال إذا ما تم، وهل سيكون مع الهاشميين أم ضدهم، ومن أية قوة عظمى يأتي ما يأمله المرء، وكيف ستكون العلاقة مع المقاطعات الأخرى التابعة للإمبراطورية العثمانية سابقاً؟ كل هذه الأسئلة كانت تناقش بحماس سواء في دمشق أو في الريف.

في عهد فيصل تشكل الشعار الذي تردد ثانية في ثورة ١٩٢٥ في جبل الدروز ولدى الوطنيين في المدن: «الدين لله والوطن للجميع». لقد كان هذا الشعار قاعدة سياسية للدولة العربية في الجانب الداخلي، في وحدة الطوائف والجماعات الإثنية من جهة، ومن جهة أخرى كان أيضاً برهاناً على النضج السياسي للمجتمع السوري أمام الغرب و«لجنة كينغ – كرين» والرأي العالمي، حيث كان عهد فيصل يهاجم خارجياً بأنّ بنية المجتمع السوري عبارة عن تعدد المجموعات الإثنيات والدينية. فمحبّ الدين الخطيب مثلاً كان ينشر الحجج، بأن سوريا لا يمكن أن يحكمها الهاشميون، بحجة أنّهم ينزعون إلى خلافة إسلامية[٥]، كما أن صحيفة «الكوكب» أوردت في ٨ تشرين الأول ١٩١٨ مقالاً (في أعقاب مسيرة الجيش العربي

---

٢. Howard, "An American experiment in peace-making: The King-Crane Commission", p. 133; Raymond, **La Syrie**, p.61.

٣. Gelvin, **Popular Mobilization**; Khoury, **Urban Notables**; Russel, **First Modern Arab State**؛ قاسمية، الحكومة العربيّة.

٤. Gelvin, **Popular Mobilization**, p. 200.

٥. Gelvin, **Popular Mobilization**, p. 245, pp. 234-235.

مباشرة) جاء فيه : أن يشكل الدين في بعض المناطق الحزمة الأقوى التي تستطيع أن توحِّد الشعب. وقد كان الحجاز من هذه المناطق. ولكن لسوريا خصوصيتها في عصر الحرية الدينية وإن ما تحتاج إليه هو «القومية» و«الوطنية» لتبلغ أهدافها[٦].

والآن ماذا كانت المواقف السياسية في جبل الدروز في هذا الزمن المتقلب؟ لقد تم الكشف عن مفاوضات جرت خلال مسيرة الجيش العربي إلى دمشق ١٩١٨، في استقلالية الجبل عن الحجاز ودمشق. فقد كان هناك شيء من عدم الثقة بالهاشميين يشوب الأفكار في المدن السورية، منها أنهم ميَّالون إلى الاستبدادية[٧]، كما كان مثل هذا الشعور يخالج سكان جنوب دمشق من «بدو الصحراء»[٨]. وقبل أن تصل «لجنة كينغ - كرين» إلى سوريا، دعت الحكومة العربية شيوخ حوران (واعتقد ضابط الارتباط الفرنسي «كوس» أنهم «بدو») إلى دمشق واستضيفوا على نفقتها. وتقدم هؤلاء الشيوخ بمطالب استقلالية. وذكر «كوس»:

«... يرغب هؤلاء في أن يكون كل ما في موقعهم حورانياً، من الحاكم حتى آخر شرطي. يمنع لأي أحد أن يحشر أنفه في هذه الإدارة المميزة الشأن. وفي الوقت نفسه تمنّع عدد كبير من القرى عن دفع الضرائب»[٩].

ويعبر هذا الموقف لـ«شيخ مشايخ» الجبل، حسبما يذكر «كوس»، عن السياسة التقليدية لدار الأطرش. ومع هذا فإن سليم الأطرش كان قد تمتع بنوع من الاستقلالية في العهد العثماني ويعوِّل عليه في أن يكون له هذا الامتياز، وعندما تأتي اللحظة المناسبة، سيلحق بحكومة قوية ومستقرة تستطيع أن تؤكد حقوق الجبل. والجبل يرغب في أن ينال مساعدة خارجية لمصلحة تطوره (أميركيّة أو بريطانيّة أو فرنسيّة). وإذا ما حصل قرار ثابت فسيعلن الجبل التزامه ويقدّم شروطه[١٠]. إن فترة الـ٢٢ شهراً لعهد فيصل في سوريا الحافلة بالأحداث، بما استقدمته من خيارات سياسية، خلقت نشاطاً غنياً للسياسيين الطامحين يستثمرونه. ومن البديهي والطبيعي أن يرد هذا بالنسبة لوجهاء الدروز على اختلافهم. وهكذا أخذوا يستشفون إمكانية تطبيق سيادتهم في موقعهم. ونظمت في سوريا منذ ١٩١٩، المراكز الرسميّة التالية، التي يستطيع المرء التفاوض معها ونقل الاستفسارات عنها: السلطة العربية في دمشق، والمفوض السامي الفرنسي في بيروت، والبريطانيون،

---

٦. Gelvin, **Popular Mobilization**, p. 246.

٧. Gelvin, **Popular Mobilization**, p. 208, footnote 27, p. 209.

٨. NA, 165, 2075-88, "Political Situation in Syria", nr. 112, US Military Attache, 2 Nov. 1918; MacDowell, "Druze revolt", p. 189.

٩. **MAEN**, Beyrouth, 2430, Cousse à Dame, Avril 1919.

١٠. **MAEN**, Beyrouth, 2343, Picot à MAEP, 4 Juillet 1919.

و«لجنة كينغ -كرين» التي انعقدت منذ ٢٦ حزيران حتى آخر شهر تموز ١٩١٩ في دمشق لاستقبال الوفود، وقامت اللجنة أيضاً بالاتصالات المباشرة في عصبة الأمم. لقد كانت الفنادق مليئة – على نفقة الحكومة العربية – وكان من الطبيعي أن يتواجد هناك عدد من وجهاء الدروز أيضاً[١١].

في شهر أيار ١٩١٩ طلب وفد من الجبل مقابلة المفوض السامي في بيروت «بيكو»، وهم عبد الغفار ومتعب وفارس الأطرش. إلاّ أنّ مدير الأمن العام في حكومة فيصل، منع عبد الغفار ومتعب من الزيارة وذهب فارس لوحده[١٢]. وكان فارس (من ذبين) في الواقع أول من وافق على الانتداب الفرنسي. ففي كانون الأول ١٩١٨، أرسل ١٠ فتيان من أولاده وعائلته إلى المفوّض في بيروت. فاتصل هذا الأخير بباريس، عارضاً رغبة «العائلة الأهم» في حوران بإرسال فتيانها إلى المدارس في فرنسا[١٣]. ومثلما فعل، قبل ٢٠ سنة، حينما أرسل أبناءه إلى قلب الإمبراطورية العثمانية، اسطنبول، ها هو الآن يرسلهم إلى قلب الدولة المنتدبة. وقد ورد بالحرف بالرسائل المتبادلة، وعن رسالة «بيشون» Pichon: «أعتقد أن طلبات الرجعيين من زعماء الدروز يجب أن تجاب». كما كتب بيشون طالباً السماح له بإرسالهم إلى ثانويات محيط «ليون»[١٤]. كان فارس الأطرش يلقب استخفافاً بـ«أبي الفرنسيين» وقد منح في نهاية ثورة ١٩٢٦ وسام «صليب فرقة الشرف»[١٥]. وكان قد قام في ١٩١٩ بحركة مشبوهة. فقد وظّف لنفسه كاتباً يدعى عارف أفندي الغريِّب، مسيحي يعرف الفرنسية. وكان يكتب له الرسائل إلى المفوض السامي. وقد شكك به ضابط الارتباط الفرنسي، «كوس»، في أنه يسعى ليزيد في نفوذه، لا سيما أنه وحيد في الجبل وغير مرغوب فيه لدى الحكومة العربية. لقد أورد «كوس» أن فيصل ينفعل عندما يقابل موظفاً فرنسياً وقد شكا من الدروز بقوله:

«إن هؤلاء الناس... يحاولون اللعب على السيد «بيكو» كما يحاولون اللعب عليّ...»[١٦].

في أيار ١٩١٩ ألقى الأمير فيصل خطاباً صرّح فيه بالبرهان أن حكومته ستراعي

---

١١. Shuqair to Waters Taylor, 3 Sept. 1919, Durham University, Sudan Archives.

١٢. **MAEN**, Beyrouth, 2343, Cousse à Picot, 29 Mai 1919.

١٣. **MAEN**, Beyrouth, 2343, Picot à MAEP, 9 Déc. 1918.

١٤. **MAEN**, Beyrouth, 2343, Pichon à Picot, 16 Déc. 1918; **MAEN**, Beyrouth, 2343, MAEP à Cousse, 30 Juillet 1919.

١٥. General Andréa, **Révolte druze**, p. 57; Carbillet, **Au Djebel**, p. 40.

١٦. **MAEN**, Beyrouth,, 2343, Cousse à Picot, 26 Mai 1919.

خصوصيات المناطق بالتأكيد، وهكذا كان تقديره واضحاً جليّاً لنظام اتحادي بهدف القضاء على «الشقاق الديني والكراهية التي زرعها الأتراك» بين الشعب. وستكون بوجوده دولة تزرع بذور «المحبَّة والإخاء بين مختلف الجماعات الدينية». كما أن في نيته أيضاً أن يراعي في التقسيم الإداري للبلاد، المواقع الجغرافية وإمكاناتها الحالية وعاداتها وتقاليدها. وقد جاء في النص ما يلي:

«... بحيث لا تحكم المناطق الجنوبية من سوريا بنفس الطريقة التي يتم بها حكم المناطق الشمالية. على أن تكون لحوران وجبل الدروز قوانين خاصة تنسجم مع رغبات الأهالي»[١٧].

في ٢ حزيران ١٩١٩، جمع فيصل أهم زعماء الجبل ونصّب سليم الأطرش «متصرفاً» وجعل في الجبل ١٢ ناحية ولكل منها مدير وضابط أمن. وسمّي نسيب الأطرش عضواً في «مجلس الشورى» الذي أنشأه فيصل في دمشق. كما سمّي سلطان الأطرش فريقاً، اعترافاً بخدماته وكفاءاته العسكرية في الثورة العربية[١٨]. وهكذا أعاد آل الأطرش الاعتبار إلى مكانتهم من جديد.

كانت زيارة «لجنة كينغ - كرين» أهم حدث أيضاً بالنسبة للجبل. ففي اليوم الثالث لبرنامج استقبال اللجنة (يوم ٢٨ حزيران ١٩١٩) - ومباشرة بعد عبدالله وطاهر الجزائري - حضر كل من سليم ونسيب وسلطان الأطرش من الساعة ١١ حتى الساعة ١٢ وصوتوا لاستقلال سوريا[١٩]. وقد حضر هذا البرنامج الدكتور الشهبندر[٢٠]. ولم أستطع العثور على نسخة عريضتهم المقدَّمة، ولكن وثائق أخرى ميسَّرة بيَّنت النمط الذي اختتمت فيه اللجنة زيارتها. وتتحدث صحيفة معاصرة في حينه، عن أنّ جميع العرائض كانت متشابهة النصوص في جميع المناطق، وقد تم إعدادها من قبل اللجنة العربية[٢١]. ولقد تحدث شيخ آل عز الدين الحلبي وكأنه يتكلّم «باسم الأمة»، وطلب الاستقلال لحكومة عربية، وإلاّ فانتداب أميركي وفي حال رفض الحكومة الأميركية فانتداب فرنسي. لقد كان الجبل يرقب

---

١٧. **MAEN**, Beyrouth, 2343, Cousse à Picot, 26 Mai 1919; Documents on British Foreign Policy, 1st Series, vol.4, p. 271.

١٨. **MAEN**, Beyrouth, 2343, Cousse à Picot 26 Mai 1919; Documents on British Foreign Policy, 1st Series, vol. 4, p. 271؛ أبو راشد، جبل، ص١٤٠؛ الصغيّر، بنو معروف، ص٤٨٣.

١٩. **MAEN**, Beyrouth, 2343, "Programme de la commission américaine"; **MAEN**, 2343, Picot à **MAE**, 4 Juillet 1919.

٢٠. Khoury, «Factionalism», p. 446؛ الشهبندر، مذكرات، ص ١٥-٧٣.

٢١. Gelvin, **Popular Mobilization**, p. 318, footnote 15.

التمتع باستقلالية ذاتية، وهذا نص وثيقتهم:

«عملاً بمبادئ الدكتور «ولسون»، التي تتضمن الحريّة لجميع الشعوب، نتقدّم بطلبنا باستقلال الدولة العربية، بدون أية حماية أو وصاية. وإن الجبل الدرزي بتبعياته المقيمة فوقه هو من هذه الأمة وهو يضيف رغبته باستقلال داخلي، ولكن إذا كان الاستقلال العام مستحيلاً، فإننا نطالب بوصاية الدولة الأميركية. وإذا رفضت السلطة الأميركية الوصاية على العرب نطالب أن نكون تحت الحماية الفرنسية... وقد علمنا أن الصهيونيين يرغبون في الهجرة إلى وطننا، كي يقيموا فيه، فإننا نرفض ذلك رفضاً باتاً، ونحتجّ ضد هذا المشروع بكل شدّة. نرجو إيصال طلبنا هذا إلى مؤتمر الصلح في باريس، لينال ردّه الإيجابي، هذا وتفضلوا بقبول احترامنا»[٢٢].

لقد بقي سلطان الأطرش ورفاقه: حمد البربور، عبدالله العبدالله، أسعد الأطرش، محمد عز الدين الحلبي مع الثورة العربية الكبرى، مخلصين لفيصل حتى آخر أيّامه المرّة، أوفياء له حتى بعد نزوحه من سوريا[٢٣]. كان هناك جناح صديق لفرنسا، لم يخصص له برنامج اللجنة موعداً. واستطاع فارس الأطرش هذا أن يؤمّن له مقابلة نهار الأحد مع «كينغ»، وأعلن بواسطة كاتبه أنه الناطق الشرعي باسم شعب الجبل وأن الوفد الدرزي الذي قابلته اللجنة عماده موظفون لدى الحكومة العربية ليس أكثر وقد اشترتهم بالنقود البريطانية. وهو يطالب بعدم تجزئة بلاد الشام القديمة ويصرّ قبل كل شيء على عدم فصل فلسطين، وأن تقوم في البلاد «جمهورية ديموقراطية مستقلة بحكومة اتحاديّة على نمط الولايات المتحدة، تحت الحماية الفرنسية»[٢٤]. وقد سعى فارس أيضاً أن يصان للدروز دور قيادي يمارسونه. وفي شهر حزيران ١٩١٩ وقّع معه كل من متعب وسليمان الأطرش، خفية، وثيقة عائلية على نمط معاهدات «البنعمية» القديمة، وتعاهدوا على التعاون مع فرنسا[٢٥]. وفارس الأطرش الذي كان له أولاد في مدارس فرنسا جعل نفسه الرائد الأوّل للثقافة الفرنسية. وكان كل شيء في بيته يتبع نمطاً فرنسياً تقريباً. وعندما كانت الثورة السورية الكبرى مشتعلة ضد الانتداب الفرنسي ١٩٢٥-١٩٢٧، لاذ فارس إلى درعا وأقام تحت الحماية الفرنسية هناك[٢٦].

وبعد الثورة كان بقدر ما تتمكن يد فرنسا من مستقبل سوريا، بقدر ما يضطرّ جناح في

---

٢٢. **MAEN**, Beyrouth, 2343, copie, 4. Juillet 1919.

٢٣. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٤، ص٣٧.

٢٤. **MAEN**, Beyrouth, 2343.

٢٥. **MAEN**, Beyrouth, 2343.

٢٦. Carbillet, **Au Djebel**, p. 40; Andréa, **Révolte Druze**, p. 57.

الجبل إلى قبولها، بذريعة الواقع المفروض والادعاء بمصلحة أنفع للجبل. وفي استغلال سريع لقرار قبول المساعدة الأجنبية تحت شروط حكومة قوية، قام أناس - بسرّية تامّة - في بعض قرى الجنوب، بعقد اجتماعات، صدرت عنها عريضة إلى «جورج بيكو»[٢٧]. وما زالت هذه العريضة محفوظة بنسختها الأصليّة العربية في أرشيف «نانت» Nantes[٢٨]. يعرض فيها قسم من وجهاء الجبل رغبتهم في بداية عهد جديد، ويشير ثقل المطالب فيها بوضوح إلى استبداد العثمانيين في سنواتهم الأخيرة، وسياستهم المتشدِّدة التي يرغبون بعدم تكرارها بأية حال من الأحوال:

«وفي ما يلي نص الشروط المناسبة الموجهة إلى «جورج بيكو» المفوض السامي العام للجمهورية الفرنسية:

١- الجبل مستقل بإدارته وتحت حماية الجمهورية الفرنسية العظيمة.

٢- إن الحكومة لا تتدخل في الشؤون الدينية وتؤمن الحرية لممارسة الطقوس الدينية.

٣- الدروز مُعفون من الجندية، سواء في داخل الجبل أو في خارجه ومستثنون من ذلك قطعاً.

٤- أن يكون توازن في طرح الضرائب والعشر، بأسلوب يصون مصلحة البلاد ويراعي حالة فقرها.

٥- أن تتحمل الدولة الفرنسية وسائل النمو الاقتصادي الزراعي، وتحسين الصناعة وتنمية التجارة، وأن تقيم الشركات وأن تعمل على كل ما من شأنه خدمة رفاهية الشعب.

٦- أن يعمَّم التعليم في البلاد بواسطة المدارس الحكومية وإحيائها من جديد.

٧- يمنع استخدام غرباء في اللجان الحكومية وإدارة الأعمال، إلاّ في ما لا يستطيعه الدروز.

٨- الدروز ملتزمون بعدم استقدام أي دولة أجنبية غير فرنسا ويجدّون في رفض مثل ذلك.

٩- كل المحاكم النظامية ملتزمة بتنفيذ أحكامها كما هو معروف لدى القبائل وتبقى تحت إشراف الحكومة المحلية.

١٠- لا يجرّد المواطنون من السلاح. فالسلاح ضروري ضد بدو الصحراء، إلا أن تكف الحكومة سطو البدو وتحول دونه.

توقيع: حسن حاطوم، حامد قرقوط، فارس الأطرش (ذبين)، سعيد الحناوي، سلمان

---

٢٧. أبو راشد، جبل، ص١٤٣.

٢٨. MAEN- Beyrouth, 2343، (نسخة عربية مع ملاحظة «سري جداً»).

الأطرش (أم الرمان)، نجم رعد ومحمد هادي (وآخرون من شيوخ جنوب الجبل)».

تنم هذه الوثيقة عن الرغبة في تطوير الجبل، بمساعدة سلطة منتظمة عليا، مع الاحتفاظ باستقلالية ذاتية، أشبه بما تشير إليه العرائض المقدمة إلى «لجنة كينغ - كرين» والعرض الذي تكلّم عنه الملك فيصل، أي إقامة نوع من نظام اتحادي واندماج في دولة عربية مع الحفاظ على سيادة محلية محدودة. إن الحل الذي اقترحته سياسة الانتداب الفرنسية هو السعي لاستقلالية داخلية للجبل، تتحقق بتعاون متبادل ولكنه، بطبيعة الحال، ليس مقدمة لإقامة دولة عربية مستقلّة. وسيتحرّك تاريخ الجبل في عهد الانتداب ضمن هذا الميدان، ولهذا لا بد من إطلالة دراسية على فترة الانتداب الفرنسي.

٢- الانتداب الفرنسي على سوريا

لدى سقوط الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وما انتهت إليه ردات الفعل والتطرّف، وفي الوقت الذي كان يجري اقتسام المقاطعات العربية فوق طاولة الرسم الهندسي الاستراتيجي للحلفاء، ويومها نعتت هذه المقاطعات على المستوى العالمي: بـ«اللعبة الكبرى» The Great Game[٢٩]، أو «المسألة الشرقية»[٣٠]، التي شغلت سياسة الدول العظمى وقتاً طويلاً قبل إنهائها. وفي إطار «سلام ينهي كل سلام»[٣١] فرضت عصبة الأمم الانتدابات على المستعمرات والمناطق التي كانت تتبع لسيادة الإمبراطوريتين الألمانية والعثمانية «التي تسكنها شعوب، لا تتمكن حتى هذا التاريخ من الاعتماد على نفسها، في ظل هذه الظروف الصعبة في العالم المعاصر»[٣٢]. ولذلك كان لا بد من تطبيق قاعدة «أن رفاهية مثل هذه الشعوب تشكل واجباً مقدساً للحضارة». وأن الفقرة رقم ٤ من الفصل الثاني والعشرين من الميثاق تشير بصراحة إلى «جماعات معينة كانت تحت تبعية الإمبراطورية العثمانية سابقاً» قد بلغت درجة من التطور، بحيث يعترف بهم، احتياطياً، أمماً مستقلة ويمنحون مساعدة فنيين إداريين مؤقتاً، من سلطة منتدبة «ريثما يحين الوقت الذي يمكنهم من الاعتماد على أنفسهم». وهذا يعني صراحة «أن رغبات هذه الجماعات

---

٢٩. Fromkin, **Peace**, pp. 26-32.

٣٠. Anderson, **The Eastern Question**.

٣١. Fromkin, **A Peace to End all Peace. Creating the Modern Middle East 1914-1922**.

٣٢. Covenant of the League of Nations, Article 22, Paragraph 1, in: Longrigg, **Syria and Lebanon under French Mandate**, p. 374 (Appendix C).

يجب أن تشكّل الاعتبار الأساسي في اختيار المنتدب»[٣٣].

بيد أن نظام الانتداب شكل حلاً وسطاً بين نية الحلفاء بالتبعية وبين رغبة الشعوب بمبدأ تقرير المصير الذي سبق أن أعلنته مقدماً الثورة الروسية («لا تبعية، بل للشعوب تقرير مصيرها»)، وكذلك تبعاً لما ورد في مبادئ الرئيس الأميركي «ولسن» في خطبه الكثيرة وفي نقطه «الأربع عشرة»[٣٤]. غير أن الوقت الطويل الذي مورس في تحضير مبدأ نظام الانتداب قد ترك صعوبات وأسئلة لم توضّح حول ما يبيّنه هذا النظام الذي تم تحضيره سنة ١٩٢٥ فقط[٣٥].

على أثر مؤتمر «سان ريمو» في نيسان ١٩٢٠ الذي أرسي فيه انتداب فرنسا على سوريا ولبنان، وضعت بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٢٢ شروط هذا الانتداب[٣٦]. وبهذا بلغت «فئة صغيرة ومتعصّبة سياسياً من الفرنسيين من أوساط الحكومة والسياسة والاقتصاد» غايتها، وكان داخلها مجموعة ضغط من مندوبين عن غرف التجارة والجامعات والكنيسة الكاثوليكية، من ليون ومرسيليا بصورة فاعلة – لأن العلاقات بعد نتائج الحرب كانت (وعود ذاتية ووعود حلفاء) قد سمحت بذلك[٣٧]. ومن أجل إيجاد مشروعية يستندون إليها في استمالة الرأي العام غير الراضي من جهة، ومن جهة ثانية لإرغام إدارة جورج كليمنصو Georges Clemenceau على تدخل عسكري في سوريا، تحول المدّعون إلى الادعاءات «بحقوق تاريخية موثقة» لفرنسا في الشرق الأدنى. بدءاً من عهد هارون الرشيد و«شارلمان»، الذي حصل في سنة ٨٠٠ والذي يعترف للفرنسيين بالسيادة على الأراضي المقدسة وعلى مفتاح القبر المقدس، مروراً بالحملات الصليبية واتفاق ١٥٣٥–١٥٣٦ مع «فرانسو الأول»، ثم التدخل مع ٦٠٠٠ فرنسي لمساعدة الموارنة سنة ١٨٦٠ ضد الدروز في لبنان، ومؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ الذي نصّب فرنسا حامياً للمسيحيين في الشرق، وكذلك العدد الوافر للبعثات التبشيرية والمدارس (قرابة ٥٠٠ مدرسة في سنة ١٩١٢) التي افتتحت فيه، كلّها نشاطات

---

٣٣. المصدر السابق.

٣٤. Wright, **Mandates under the League of Nations**, p. 24.

٣٥. Crozier, "The establishment of the Mandates system 1919-25. Some problems created by the Paris Peace Conference"; Wright, **Mandates under the League of Nations**.

٣٦. Wright, **Mandates**, p. 607 (Appendixes); Hourani, **Syria and Lebanon**, p. 308; Longrigg, **Syria**, p. 377.

٣٧. Dominique Chevallier, "Lyon et la Syrie en 1919", in: **Revue historique**, 224, 1964; Seurat, «Le rôle de Lyon dans l'installation du mandat français en Syrie. Intérêts économiques et culturels, luttes d'opinion (1915-1925)».

قامت على قاعدة حمايتها الدينية protectorat religieux للمسيحيين في الشرق الأدنى(٣٨). وكانت هناك ادعاءات محسوسة أكثر (مع تأييد من بريطانيا أحياناً): أولها تحكم بعض المؤسسات في الإمبراطورية العثمانية الذي حدد سيادتها بشكل، حيث تأسس «البنك الإمبراطوري العثماني» سنة ١٨٥٦ برأسمال فرنسي لمهمة رئيسية هي القيام بقروض خارجية، وكذلك جدولة الديون العامة العثمانية لسنة ١٨٧٥ التي نظمت حسب «اتفاقية محرَّم» في ٢٠/ ١٢/ ١٨٨١ مع بنك الدولة المركزي، والتي بموجبها قد تخلّى الباب العالي عن الضرائب المالية المستقبلية مثل:

الطوابع، وضرائب الكحول، والحرير، والأسماك واحتكار الملح والدخان. وفي سنة ١٩١٨ كانت فرنسا تملك ٦٥ ٪ من الديون العثمانية المتوجب دفعها. كما موّلت إدارة حصر التبغ والتنباك Régie de Tabac المؤسسة سنة ١٨٨٣ مع تشجيع زراعته وتصنيعه وتسويقه الداخلي والمراقبة التامة عليها. وآخر هذه المؤسسات كانت «البنك الإمبراطوري العثماني» Banque Impériale Ottomane للقروض الخارجية(٣٩). كان الشرق الأدنى من الناحية الاستراتيجية مهماً جداً لفرنسا. إذ إن السيطرة على شرق البحر المتوسط، هي الحصن المنيع لفرنسا في التحكم بشمال إفريقيا. وهكذا فقد نجحت سياسة مجموعة الضغط في فرنسا بإقناع الحكومة بأهمية السيطرة على سوريا.

وفي «يوم ميسلون» بتاريخ ٢٤ تموز ١٩٢٠، هزم الفرنسيون الجيش العربي بقيادة يوسف العظمة وقضوا عليه(٤٠). بذلك تصدّع ملك فيصل بن الحسين العربي. ورغم أن الأغلبية الساحقة من الشعب السوري كانت ضد أي تسلط أجنبي، وبخاصة ضد الفرنسيين، وأن الشعب السوري قد أعلن ذلك وأعلم به «لجنة كينغ - كرين»، عندما زارت سوريا في تموز ١٩١٩، فقد بقيت توصيات اللجنة طيّ الأدراج حتى عادت للظهور بتاريخ كانون الأول ١٩٢٢ عندما أخرجها للرأي العام كل من صحيفتي «نيويورك تايمز» والـ«ايديتور أند بوبلشر» Editor and Publisher(٤١) ونوّهتا صراحة بأن الرغبات والنصائح التي تلقتها اللجنة خلال ٤٠ يوماً في سوريا، كانت جديرة بالملاحظة والاحترام:

٣٨. Seurat, p. 177; Hourani, **Syria and Lebanon**, pp. 146-148; Khoury, **French Mandate**, chapter 1.

٣٩. **AE,** Syrie/Liban E 3131، نسخة في مكتبة الأسد، سوريا ولبنان، المجموع H، ص٢٦-٣٧.

٤٠. ساطع الحصري، يوم ميسلون.

٤١. Howard, "An American experiment", p. 138, footnote 41: «There are evidences to indicate, that French, British and Zionist pressure was exerted to prevent publication, though it may be true that it was simply the illness of President Wilson, which, in the last analysis, prevented publication".

« . . . تقترح «اللجنة» إنشاء دولة موحدة تحت حكم دستوري يكون على رأسها الأمير فيصل. وتكون هذه الدولة خاضعة لانتداب الولايات المتحدة الأميركية أو بريطانيا العظمى. وتنوه اللجنة بأن أية محاولة لفرض الانتداب الفرنسي على العرب غير الراغبين بذلك سيؤدي إلى مصاعب: صراع إنكليزي - فرنسي أو قتال بين العرب والفرنسيين مما يفرض على بريطانيا العظمى بدائل خطيرة. لقد كانت اللجنة على دراية بالعلاقات الفرنسية مع سوريا، ولكن اللجنة تخشى نتائج الانتداب الفرنسي»[٤٢].

تتفق كل البحوث الحديثة على أن الانتداب الفرنسي لم يحقق أي نجاح يذكر، وتحدث «أندريه ريمون» André Raymond في هذا السياق عن «غرق السفينة»:

«شكل غرق الانتداب الفرنسي فشلاً ذريعاً لفرنسا وعلاقاتها مع سوريا المستقلّة. والأكثر خطورة، أنه بعد ٢٥ عاماً من الانتداب، نظرت اليه كـ«رسالة»، تترك فرنسا وراءها بلداً غير متكامل وطنياً واجتماعياً، وغير مهيأ لحياة سياسية مستقرة ومتوازنة»[٤٣].

«غرق السفينة» هذا واحد من الأسباب التي دفعت المؤرخين الفرنسيين إلى إهمال الانتداب كموضوع بحث لوقت طويل[٤٤].

قبل الدخول في بحث موضوع جبل الدروز في ظل الانتداب الفرنسي، لا بد من نظرة عامة إلى نظام الانتداب نظرياً[٤٥]. كان على رأس إدارة الانتداب المفوض السامي ومقرّه بيروت، وكان على اتصال دائم ومباشر بوزارة الخارجية في باريس. كان يصدر القوانين arrêtés وله حق الاعتراض على كل مشروع سياسي. وتحت إدارته المباشرة كانت السكرتارية العامة و«الأجهزة الخاصة» services spéciaux ذات المجال المهمّ: الصحافة والإعلام والأمن العام، وأهم الأجهزة الاستخباراتية. وأهم الأقسام فيها كان «أجهزة الاستخبارات» service de renseignements وهو نوع من جهاز سرّي غطى كل الإقليم، وكان يقوم على عدد قليل من الضباط المؤهّلين جيداً (١٠٠ تقريباً)، يتقنون العربية ولهم دراية واسعة بالعادات والأديان وممارساتها. وكان فقهاؤهم يعينون في بيروت ويرتبطون مباشرة بالمفوض السامي، ومهمتهم الإلمام بتوجهات الشعب ومراقبة تجمعاته، والانتشار في مصالح مؤسسات البرق والبريد والهاتف والجمارك. وكان مثلهم يعين في دمشق أيضاً

٤٢. Howard, "An American experiment", p. 139.

٤٣. Raymond, **La Syrie**, p. 85.

٤٤. Schäbler, "Prinzip der Vermeidung".

٤٥. Catroux, "Le Mandat", pp. 13-14; Commandant Maestracci, **La Syrie contemporaine**, p. 110-124; Khoury, **French Mandate**, pp. 77-78.

ويرتبطون بالمفوض السامي ويسمون جميعاً: «جهاز المصالح المشتركة» intérêts communs.

أما في دمشق فقد اتبع الانتداب الترتيب التالي: على رأس «دولة دمشق» حاكم مدني مواطن، يعاونه مدراء عامون يديرون أعمال الوزارات العامة. إلى جانب رئيس الدولة، ويعيِّن المفوض السامي مبعوثاً فرنسياً délégué du haut commissariat à Damas له حق الاعتراض. وإلى جانب كل مدير مستشار فرنسي، يمارس حق الاعتراض في مجاله. وقد كانوا في: الحكومة، الشؤون الداخلية، المعارف والتعليم، المالية، القضاء، الأشغال العامة، الصحّة والنظافة، الشرطة والدرك.

لقد قسم الانتداب الإقليم إلى «دويلات»، كما كانت زمن العثمانيين مقاطعات، لكل منها حاكم مدني ومستشار فرنسي، وإلى جانبه مجلس إدارة، وللمستشارين نفس حقوق الاعتراض[٤٦].

كان «جيش الشرق» armée du Levant يتكوّن من الفرقة الأجنبية، مع طيارين وجهاز هندسة فرنسيين. ولكن معظم القوات كانوا من المستعمرات: شمال إفريقيا، السنغال، مدغشقر، قياداتهم بيد ضباط فرنسيين. لقد كان السنغاليون طليعة قوات التدخل لتهدئة النظام. ويقال إن السوريّين عانوا الأمرين من السنغاليين، ويرى البعض أن سبب ذلك، مردّه عوامل نفسية لدى السنغاليين وإلى لونهم الأسود. إلى جانب «جيش الشرق» النظامي هذا، جند الانتداب «الفرق الخاصة» troupes spéciales من أبناء البلاد. لقد كانت هذه الفرق (الخلية الأولى للجيش السوري الذي أنشئ مطلع الاستقلال) قد بلغ تعدادها في سنة ١٩٢٤ قرابة ٦,٥٠٠ رجل يقودهم ١٣٧ ضابطاً فرنسياً، مع ٤٨ ضابطاً من أبناء البلاد. وحتى سنة ١٩٣٠، أي بعد الثورة السورية الكبرى، بلغ عددهم أكثر من ١٤,٠٠٠ رجل مع ٣٧٨ ضابطاً بينهم حوالى ٢٠٠ سوريين ولبنانيين[٤٧]. وشكلت أيضاً قوات أخرى هي «قوات العشائر» contrôle bédouin لحفظ الأمن والنظام بينها[٤٨].

لا يمكن للمرء أن يتغاضى في الحكم على سياسة الانتداب، عن أغلاط صانعي السياسة في مركز القرار، من حيث التردّي وعدم الاستقرار. فالكثيرون يذكرون ما سبق ذكره عن السياسة العثمانية، فإن المفوضين السامين الفرنسيين، كانوا أيضاً يبدلون باستمرار،

٤٦. Catroux, **Le Mandat**, p. 13.

٤٧. Khoury, **French Mandate**, p. 80; Bou-Nacklie, "The Avenantaires".

٤٨. Khoury, "The tribal shaykh, French tribal policy and the nationalist movement in Syria between two World Wars".

وكانت سياستهم متقلّبة وغير مستقرّة. وللمثال على ذلك عندما جاء الجنرال «ساراي» Sarrail إلى الشرق، ليحل محل الجنرال «ويغان» Weygand بعد أن آلت السلطة في فرنسا إلى جناح اليسار بزعامة «إدوارد هيريو» Edouard Herriot، فإن «ويغان» كان معروفاً «بميوله الملكية الواضحة وتطرفه الكاثوليكي» لدى دوائر الجمهوريين ومشهوراً بتعجرفه[٤٩]. وكان «ساراي» الذي خلفه جمهورياً، وكاثوليكياً متزوجاً من بروتستانتية – الأمر الذي كان مكروهاً خصوصاً في دوائر الجيش. وكما جاء عن كاتبه فإن «ويغان» و«ساراي» لم يوظّفا جهازاً مستقيماً، وإنّما تركا من ورائهما (دسّاسين)، وهؤلاء هم الذين أحبطوا الأمور التنظيمية – هذه الأمور صحيحة بلا شك[٥٠]. وقد وقعت حوادث متشابهة في مناسبة تبادل بين مفوض سام وآخر[٥١]. لقد كانت العلاقات بين المفوضين السامين مع وزارة الخارجية، بسبب عاصفة الجمهورية الثالثة، غير مرضية[٥٢].

تمسكت فرنسا بالانتداب على قاعدة تاريخية مزعومة، وحمّلت الانتداب شروط مصالحها بينما كان يشترط بالانتداب ألاّ يُستغل ضد مصالح سوريا، وكان الوعد أن يكون الانتداب في خدمة رغباتها ويساعد في تطورها حسب شروط الفقرات ١ و٤ و١١ من عقد الانتداب. غير أن نقض العهد والوعد امتد إلى كل سياسة الانتداب الفرنسي. ولكن كيف تصورت السلطةُ المنتدبةُ نفسها رسالتَها الانتدابية؟

كان الكولونيل «كاترو» Catroux مثّل المفوّض السامي «غورو» Gouraud في دمشق. وقد أصبح لاحقاً «ممثلاً مطلق الصلاحيات العامة» délégué général et plénipotentiaire لفرنسا الحرّة في الشرق للفترة ١٩٤١–١٩٤٣. لقد كان واحداً من المسؤولين الفرنسيين القليلين الذين اهتموا بتفهم البلاد والناس. وقد أجاب سنة ١٩٢٢ على السؤال «كيف صُمم الانتداب وكيف طبِّق؟»[٥٣] والانتداب كما يراه كاترو:

«... هو نظام تعاون فرنسي – سوري. مهام وامتيازات السلطة محدّدة فيه بدقّة. أما الأهالي فمن حقهم الحكم والإدارة وعلى المندوبين مهمة التوجيه، والاقتراح والمراقبة والتقويم عند اللّزوم»[٥٤].

بكل حسن نية، أضاف «كاترو»، يتضح أنه قامت في وجه سلطة الانتداب مصاعب جمّة

---

٤٩. Shirer, **Der Zusammenbruch Frankreichs**, p. 177.

٥٠. Paul Coblentz, **Le silence**.

٥١. Khoury, **French Mandate**, p. 74.

٥٢. Shirer, **Der Zusammenbruch Frankreichs**, p. 165; Khoury, **French Mandate**, p. 46.

٥٣. Raymond, **La Syrie**, p. 83; Khoury, **French Mandate**, p. 43; Catroux, **Le Mandat**, p. 3.

٥٤. المصدر السابق، ص ٤.

تتمثل في «مجموعة متغايرة من المعتقدات الدينية والطقوس والأعراف والمصالح» منبعثة عن وحدات مترابطة وأنماط متماسكة[٥٥]. لذلك تحمّل أوّل مفوض سام، «الجنرال غورو»، قائمة حساب هذه الحالة الراهنة عندما ابتدع لكل من هذه الفئات المختلفة «وسيلة سياسية خاصة»، إذ أعطى لكل واحدة منها دويلة باستقلالية محدودة، وقامت المفوضية السامية، بجميع خدماتها، كرباط اتصال بينها. وفي هذا كان التناقض الأعظم بين المعطيات: «إن الفكرة المحلية والتعصّب الديني عند مختلف الجماعات كانا أشد إلحاحاً من الفكر الوطني»، ولذلك ابتدع الانتداب «دويلات مستقلّة» ومنها «يتم التوجيه إلى الوحدة بصورة أفضل»[٥٦].

والآن تتضح حقيقة أن بلاد الشام القديمة كانت أشبه بلوحة «فسيفساء» في عموم هيكلياتها. ولربما كانت سياسة الدولة العثمانية المركزية صحيحة، هي أيضاً، في أواخر أيامها، حتى ولو أنه قد قامت في طريقها المفارقات العصبية وأثيرت عواصف الثورة العربية الكبرى وعهد فيصل، ونجمت عنها كتل سياسية، تلاقت شيئاً فشيئاً وشكلت صورة في إطار هذه «الفسيفساء». إن الإيديولوجية السياسية التي فعّلت كل ذلك كانت القومية العربية، التي كوّنت نفسها شيئاً فشيئاً، وانساب مجمل هذه الفعاليات في مجرى واحد. أما عن حجم إطار المدّ الجغرافي لهذه الحركات الوطنية والدور الذي لعبته وحدات هذه «الفسيفساء» وكيف توجب على مظهر علاقاتها بعضها ببعض أن يكون، فقد كان كما تدخلت بهذا التطوّر «السياسية الإثنية» التي اتبعتها سلطة الانتداب في معادلة تكوين دولة وأمة. فقد ضبط الانتداب المواطنين في مختلف أجزاء الفسيفساء وحشرهم في «علب» منفصلة. وبهذا أعاد تركيب تلك الفسيفساء القديمة بطريقة مصنّعة، ونادى بالحركة الوطنية التي قد كان من أهم أهدافها قهر هذا التركيب. لقد كانت الدراسات الأولية التي اختبرتها فرنسا في تنظيم الأراضي السورية ترى أنه «بعد طرح المناطق التركية والكردية والمجموع اللبناني، ستبقى مساحات واسعة. وبصرف النظر عن بدو الشرق، يمكن للمرء أن يدرك من النظرة الأولى، أنه يمكن تقسيم هذه المنطقة إلى ثماني أو تسع مناطق، لها حكمها الذّاتي، وهي من الشمال إلى الجنوب[٥٧]:

١- سنجق الإسكندرون. ٢- مدينة حلب. ٣- جبل النصيرية. ٤- مدينة حماه. ٥-

---

٥٥. المصدر السابق، ص ٦-٧.

٥٦. MAEN, Fonds Beyrouth, Rapport, s.d.

٥٧. MAEN, Beyrouth, 263, Robert de Caix, «Esquisse de l'organisation de la Syrie sous le mandat français», 17 Juillet 1920.

مدينة حمص. ٦- مدينة طرابلس. ٧- مدينة دمشق. ٨- حوران التي يمكن تقسيمها إلى جزأين: درزي وإسلامي.

هذه الوحدات التي ابتدعتها السلطة المنتدبة لتمزيق المنطقة، كان يطلق عليها: دولة État أو متصرفية Gouvernement أو منطقة إدارية Territoire. ولكن الوطنيين أطلقوا عليها تهكماً اسم «دويلات»[٥٨]. غير أن تاريخ هذه الدويلات كان مضطرباً جداً. وفي سنة ١٩٢٠ شكل «غورو» أربع وحدات:

١- دولة لبنان الكبير État de Grand Liban ٢- متصرفية دمشق Gouvernement de Damas متصرفية حلب Gouvernement d'Alep منطقة العلويين Territoire des Alaouites. وحتى ذلك الوقت كان جبل الدروز جزءاً من متصرفية دمشق[٥٩]. وفي سنة ١٩٢١ أبلغت باريس بتشكيل «دولة جبل الدروز المستقلة» État autonome du Djebel Druze التي كانت «ما تزال في طريق التنظيم»[٦٠]. وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩٢١ وبمرسوم ١٦٤١، تأسست «دولة جبل الدروز» باستقلال ذاتي. وقد سبق تعيين حدود حوران ودولة دمشق، في شهر آذار ١٩٢١ مع دولة جبل الدروز التي لم تكن بعد معلنة، ولم يجر الاتفاق عليها مع الجوار. وبذلك كان الجبل لأول مرّة - بعد فترة مدحت باشا القصيرة - يفصل على حوران وعلى مستوى واحد مع دمشق. وفي ٢٨ حزيران ١٩٢٢ تأسّست «سوريا الاتحادية» (ولكنها ما لبثت أن ألغيت سنة ١٩٢٤)، ولم تكن «دولة جبل الدروز» من ضمنها[٦١]. وفي سنة ١٩٣٠ كان للجبل دستور تنظيمي statut organique. وفي سنة ١٩٣٦ فقط، وبموجب المعاهدة التي أبرمت في باريس بين حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية والوفد السوري، اعتبر جبل الدروز منطقة إدارية territoire من الدولة السورية. وفي مرحلة قصيرة بعد سنة ١٩٣٩ كاد أن يكون للجبل استقلالية تامة، ولكنه اندمج سنة ١٩٤٢ في الدولة السورية اندماجاً كاملاً. هذه التقلبات كانت في الواقع انعكاساً حقيقياً لكفاح الحركات الوطنية العربية ضد «السياسة الإثنية» الفرنسية التي اندحرت أمام القوى السياسية المنفردة داخل «الدويلات».

٣- جبل الدروز «الدولة» و«الإمارة»

إن تاريخ دولة جبل الدروز، حسب الصياغة الفرنسية، أو إمارة جبل الدروز، حسب

٥٨. Décret, 1641, Décret 3114.

٥٩. Arrêté No 299, 3 Août 1920.

٦٠. MAEN, Beyrouth 363, "Rapport sommaire au Président de la République Française sur la gestion des territoires occupées en Syrie", 28 Août 1921.

٦١. Arrêté No 1459, "Organisation provisoire de la Féderation des Etats autonomes de Syrie".

صياغة الأطرش، تاريخ تواجه دولة أوروبية عظمى مع جماعة عشائرية مميزة. كانت فرنسا قد اكتسبت خبرة في شمال إفريقيا، وجاءت بها لتتعامل مع الجماعات العشائرية، فأخذت تطبق تجاربها في المغرب على سياسة الانتداب في سوريا، الأمر الذي أشير إليه مرات عدة في البحوث التاريخية[٦٢]. لقد كان في الواقع أول وأهم جهاز مهندسي الانتداب، من المعاونين السابقين للجنرال «لوي - هيبر ليوتيه» Louis-Hubert Lyautey، المقيم العام Résident Général للحماية الفرنسية للمغرب[٦٣]. إن المفوض السامي الأول، الجنرال «غورو» Gouraud كان أقرب العاملين للجنرال «ليوتيه»، وكان رئيس أركانه طوال حصار فاس سنة ١٩١٢[٦٤]. وفي خطبه كمفوض استند غورو على تجاربه في المغرب، وكذلك سياسته في إنشاء دويلات، كانت من خبراته التي اكتسبها مع «ليوتيه» أيضاً. لقد ورد في مذكرات «غورو» في هذا الصدد: «. . . طبقاً لرغبات الشعوب. . . تتبعت القاعدة التي قد اتبعتها منذ سنوات طويلة والمستمدة من مدرسة المارشال ليوتيه»[٦٥].

ولقد استحضر معه فريق عمل من المغرب، مثل الجنرال «ده لاموت» de Lamothe الذي عمل في حلب، والكولونيل «بيلوت» Bilotte لدى العلويين، والكولونيل «كاترو» Catroux في دمشق. وفي الجهاز المدني كان «ده كيه» de Caix الذي كان صاحب خبرة في المغرب وقد اتخذ لنفسه شهرة كصحفي مختص بشؤون المستعمرات وأصبح نائب «غورو»، كما كان أحد نوابه أيضاً «بيير ليوتيه» Pierre Lyautey ابن أخي الماريشال[٦٦]. إن «الأسلوب المغربي» في السياسية الفرنسية في مستعمراتها الذي اشتهر به «ليوتيه»، كان صيغة الشراكة association بَدَلَ الإدماج assimilation[٦٧]، وكان هذا الأسلوب عبارة عن «منهج أبوي» قائم على هالة «ليوتيه» ومعاونيه و احترامه الرومنطقي للتقاليد والعادات والعبادات المحلية، وافتراض «التفوق الأخلاقي» للريف على المدن[٦٨].

لقد كان «غورو» معروفاً لدى الدروز بحيث شكل منهم في لبنان سنة ١٩٢٠ سرية حرس

---

٦٢. Roberts, **History of French Colonial Policy** 1870-1925; Burke III, "A Comparative View"; MacDowell, "Druze revolt".

٦٣. Louis-Hubert Lyautey (1854-1934), Résident Général en Maroc 1912-1925.

٦٤. Catroux, **Deux missions**, p. 5, 135.

٦٥. Gouraud, "La France en Syrie", pp. 506-507.

٦٦. Burke III, "Comparative view", p. 179.

٦٧. Betts, **Assimilation and Association in French Colonial Theory 1890-1914**.

٦٨. Burke III, "Comparative view", p. 178; Singer, "Lyautey: An interpretation of the Man and French Imperialism".

خاص له (إسكادرون)، ولكن هذا الحرس لم يدم إلا أشهراً قلائل[٦٩]. وكان «بيكو» سابقاً، قد أدرك أولوية السياسة تجاه الدروز، لا سيما أن الفرنسيين كانوا يدركون جيداً أن سياسة حمايتهم للمسيحيين وتدخلهم العسكري سنة ١٨٦٠، قد جعلهم غير مرغوب فيهم لدى الدروز عامة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان واضحاً للفرنسيين مدى استراتيجية الجبل، كما كانوا يدركون جيداً أن الدروز من أمنع الجماعات في المناطق الحدودية السورية.

لذلك فقد أسند «غورو» إلى «كاترو» مهمة دراسة منهج سياسي خاص للدروز وللبدو[٧٠]. وكانت السياسة التي رسمها مع «غورو» تستنير «بالأسلوب المغربي» التقليدي الذي يتلخص في التجاذب السلمي وكسب الوجهاء - وفي مقدمتهم رجال الدين - مع استغلال الشقاق الداخلي بين الفئات. ومن أجل ذلك كان يجب التعرف على الجماعة أولاً وفهمها جيداً. وبقي «كاترو» طوال صيف ١٩٢٠ منشغلاً في تحديد هيكلية جماعة الجبل السياسية، وقد استطاع أن يتبيّن استمرار القيادة العشائرية «الأكيفالية» لديهم، أي النظام السياسي بلا رأس، التي حالت دون كل تدخل خارجي منذ الحرب العالمية الأولى، كما أدرك أن غياب «شخصية جامعة» قوية لديهم، كان سبب تشتتهم. بيد أن كلاً منهم يفهم السياسة الفرنسية نتيجة تجارب سابقة. ولاحظ «كاترو» أنه منذ جيل تقريباً، توصّل رجال الدين إلى السلطة والنفوذ بسبب ظروف صعبة. وقد كانت قوة منصب «شيخ العقل» في جواز تدخله في السياسة الدنيوية أقوى من أقرانه الروحانيين، الذين نصبهم العثمانيون في آخر قرن من حكمهم. وعلى هذا المنوال سار «غورو» في محاولة أولى مع ذوي المناصب الدينية. وليختبر هذا التأثير، فقد دعا كلاً من أحمد الهجري وحسن جربوع وعلي الحناوي ومحمود أبو فخر إلى قرية «عاليه»، مقر المفوضية السامية، ووعدهم بمبلغ من المال إذا تعاونوا معه. ولقد كان محمود أبو فخر، تحديداً، أصغرهم سناً وأقلّهم تأثيراً، (وأصبح في ما بعد «قاضي المذهب»)، والأكثر استجابة لهذه الزيارة[٧١]. وفي محاولة ثانية مشابهة، فهم «غورو» أن الشيوخ المسؤولين لا يستطيعون التدخل في السياسة علناً[٧٢]. واتجه هذه المرّة، بنفس طريقة التأثير إلى شيخ العقل اللبناني. غير أن الجرح فيها كان عسير الشفاء (إذ كلّفت المحاولة فقدان حياة ضابط) وتبين له أن هذا الطريق خطر. فاقترح عندها أن يحاول

---

٦٩. **MAEN**, 551, Catroux à Gouraud, 3 Sept. 1920، أبو راشد، حوران، ص٣٧٧-٣٣٠، أبو راشد، جبل، ص١٤٨.

٧٠. Catroux, **Deux missions**, pp. 42-43.

٧١. **MAEN**, Beyrouth 2377, Bureau Politique à Catroux, 30 Sept. 1920.

٧٢. راجع «المسألة الإثنية في التعايش وأقسام العمل» (الفصل الأول، ٤).

مجدداً مع سليم الأطرش «شيخ المشايخ» فلربّما تكون المحاولة أفضل[٧٣].

لقد لخّص «كاترو» المشكلة التي واجهتها السياسة الفرنسية كما يلي: إن ما يطلب من العناصر السياسية هو ما تتخصَّص به هذه العناصر في التأثير في الرأي العام في الجبل. ويتابع قوله بأن على الفرنسيين أن يثابروا على الطرق في الظلام، خاصة أن المرء يعلم أن الرأي هو ما استخلصه العارفون. وأن هذا الرأي يتأثر بطريقة غير واضحة باقتراحات القيادات الروحانية والدنيوية الذين يخالفون مرات كثيرة. ولكن ما لا يعلمه المرء هو أية سلطة أو أية شخصية من المتوقع أن تكون قادرة في أن تؤثر في الجمهور وتجذبه نحو فرنسا. واستنتج «كاترو» أن المرء إذا لم يستطع ترتيب مركز السلطة والقرار، فربما لا يوجد هذا المركز، وهناك عدّة تأثيرات فقط محدودة المدى[٧٤].

إن تحليل «كاترو» لمجتمع الجبل وصف إثنوغرافي مقبول. وكان الدافع الوحيد للرأي العام، حسب تحليله، مبدأ المصلحة. وإذن فإن الشعب يميل إلى أولئك الذين يمثلون المصالح العامة في تلك الحالة بأحسن طريقة. ثم يضيف:

«إن رصيد الزعماء الروحيين هو كالذي لسليم باشا (الأطرش)، وما يمكن القول فيه، إنه رصيد كل زعيم من هذه الأهمية، وهو علّة الترجيحات في ذاتهم. ولكن الخطر فيه أنه يصبح عديم الجدوى إذا كان التمرّس فيه لم يكن في المنحى المرسوم له وفيه شيء من إرادة الشعب»[٧٥].

ثم يكتب «كاترو» في مكان آخر أن الهدف من هذه الصيغة خلق «شبه إقطاعية على قاعدة ديمقراطيّة وليس تسلّط عائلات أو زعامات». إذ إن نفوذ كل زعيم أو كل عائلة، يتخطى الحدود قليلاً أو كثيراً حتى يضم قرى أقل أو أكثر. ولذلك ليست هناك سلطة عليا بين الزعماء. كما أن آلاف المنافسات قد قُيِّدت عند تعرّض مصلحة زعيم للخطر[٧٦]. وإنّ أحسن ما ينصح به كواسطة تأثير، أن يدعى الزعماء إلى الاجتماع الكبير التقليدي، ويوضّح لهم «أن الغرض منه الاستفسار من القوم عن الوضع السياسي الذي سيوضع بإشراف الانتداب مع ما يرغبون فيه، لا سيما أن فرنسا تفضل أن يكون للجبل وضع مستقل»[٧٧]. وبعدئذ تبذل المحاولات لإقناع المجتمعين بقبول النظام الذي تراه السياسة الفرنسية. ولهذا

---

٧٣. **MAEN**, Beyrouth 2377, Gouraud à Catroux, 4 Oct. 1920.

٧٤. **MAEN**, Beyrouth, 551, Catroux à Gouraud, 9 Oct. 1920.

٧٥. المصدر السابق.

٧٦. **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements No. 262, Annexe 50.

٧٧. **MAEN**, Beyrouth 551, Catroux à Gouraud, 9 Oct. 1920.

لا بد للجماعة التي ما تزال «أكيفالية» من أن ينصّب لها زعيم رئيسي.

إذن الزعيم المفضل هو سليم باشا الأطرش ومعه سيتم العقد. لقد كان نجاح هذا التنافس المسؤول مرهوناً به، وعليه أن يقوم بالمتابعة مع الزعماء الروحيّين والدنيويين. ثم ارتئي ضمن هذا البرنامج توفير عميل من قبل الانتداب، هو العميل رقم ١٥، يوجّه ويزوّد سليم الأطرش بالمعلومات، ويقنع بها أيضاً محمود أبو فخر(٧٨). هذه كانت أبعاد خطة «كاترو» الرئيسة. وأصدر «دستوراً» للجبل ينظم فيه الجهاز الحكومي:

– على رأس الدولة حاكم محلي، منتخب لأربع سنوات ومعه مجلس دولة، منتخب لثلاث سنوات، وإلى جانبه مجلس إداري.

– مجلس الدولة يجتمع مرّة في العام على الأقل ليقرر ميزانية الدولة. ما عدا ذلك، يجتمع عند الضرورة لمناقشة أيّ أمر طارئ. أما مجلس الإدارة فيبقى في اجتماع مستمر. وطبقاً لشروط الانتداب تنصب سلطة الانتداب مستشاراً فرنسياً إلى جانب الحاكم الذي يتبع لسلطة الانتداب في دمشق.

– تعفي سلطة الانتداب الدروز من الجندية، ويكون رجال الشرطة والدرك من المتطوعين برغبة منهم.

– للمواطنين حق حمل السلاح داخل دولتهم.

– الالتزامات الخارجية كافة من مهام سلطات الانتداب التي لا تلزم الجبل للانضمام إلى «اتحاد الدول السورية»، ما عدا بعض الأمور الاقتصادية العامة.

– واردات الدولة تقوم على الضرائب والعطاءات التي يقررها مجلس الدولة ومن المناجم التي تقع ضمن حدودها احتمالاً، وكذلك من القسم الذي يصيبها من واردات الممتلكات العثمانية السابقة التي تقع ضمن حدود الدولة.

– لا يحسم عشر ولا تجبى ضرائب جمركية بين دولتي جبل حوران ودمشق.

– مجلس الدولة يمكنه أن يقترح على سلطة الانتداب فصل الحاكم. ويمكن لسلطة الانتداب أن تستفتي في هذه الحالة المجلس الديني. ليس لسلطة الانتداب أو للجهاز الحكومي أن يتدخلا في الشؤون الدينية كما لا يُفصل الرجال الروحيون من مناصبهم(٧٩).

لقد صرّح بهذه البنود لكلّ الوفود العائلية الذين استقبلهم في دمشق وللشيوخ المهمين الذين كتب لهم الرسائل(٨٠).

٧٨. **MAEN**, Beyrouth 2377, Gouraud à Catroux, s.d.

٧٩. **MAEN**, 551, "Constitution Druze: Texte à imposer".

٨٠. **MAEN**, Catroux à Gouraud, 1 Nov. 1920، سلطان الأطرش، مذكرات، ج٤، ص٣٧.

عقدت في الجبل عدة «اجتماعات عامّة» بُحث خلالها المستقبل السياسي للجبل[٨١]. وتعكس النصوص الفرنسية التي صدرت عنها تداخل الاقتراحات الفرنسية ومختلف القوى المحلية العشائرية وعلاقاتها. لقد كانت أهم الاجتماعات التي عقدت: الأول في قنوات مقر «شيخ العقل» الأكبر للقسم الشمالي من الجبل. والثاني في السويداء للقسم الجنوبي من الجبل برئاسة آل الأطرش. وتذكر وثيقة اجتماع قنوات «مشيخة جبل حوران» بحاكم منتخب، بينما تتحدث وثيقة اجتماع السويداء عن «إمارة جبل الدروز» بحاكم من آل الأطرش حصراً[٨٢]. أما باقي البنود فهي متماثلة:

١ - حكومة جبل الدروز شرعية وتستفيد من استقلالية ذاتية مميزة تحت الانتداب الفرنسي.

٢ - اسم الدولة: «مشيخة» أو «إمارة جبل حوران»، وتتشكل مما تبقى من المنطقتين الوعرتين، وادي الصفا واللجاه حتى الحماد شرقاً، ومن الشمال حتى حدود دير علي على حدود اللجاه، ومن الغرب من المسمية حتى حدود خباب ومنها حتى حدود شقرا وإزرع وبصرى الحرير ولاهثة وسكاكة وأم ولد ومسيفرة وسهوة القمح وبصرى إسكي شام والسماقية وأم السَرب والفدين، ثم تتبع سكة الحديد حتى زَملة المُنيفة. ومنها تسير شمالاً حتى قصور الحلبات وحمام سرج وجنوب الصفرى والكراع (؟) حتى حدود الأزرق ومن هناك حتى الفلوق في الحماد، إلى أن تلتقي حدود الجبل من الشرق.

٣ - رئيس هذه الحكومة حاكم أهلي منتخب من السكان بموجب قانون خاص لمدة أربع سنوات (وحسب وثيقة السويداء: من آل الأطرش).

٤ - يكون لهذه الحكومة مجلس ينتخب لمدة ثلاث سنوات حسب قانون خاص.

٥ - اختصاص ومهام رئيس الحكومة والمجلس تحدَّد بقانون خاص، يصدر لهذا السبب ويقرر بجمعية عامّة لعموم أهل البلد تحت إشراف سلطة الانتداب.

٦ - حكومة جبل حوران ستكون مدعومة مالياً وتقنياً وزراعياً من سلطة الانتداب.

٧- المجلس يحل محل المجلس المالي، وعدد أعضائه لا يزيد ولا ينقص عن ٣٠ عضواً، ويتفرع عنه أقسام تعالج الأمور الإدارية.

٨- ليس لسلطة الانتداب أن تجند مستجدين من أهل الجبل كما ليس لها الحق أن تنزع

---

٨١. أبو راشد، جبل، ص١٦٥.

٨٢. عبيد، الثورة، ص٨٨؛ سعيد، الثورة، ص٢٢٧؛ أبو راشد، جبل، ص١٦٥-١٦٧، **MAEN**, Beyrouth 551; **FO** 141/552/367, High Commissioner of Egypt, "The Druzes", 12 April 1922; Bokova, **La confrontation**, pp. 95-105; Bokova, "Le traite".

سلاح الأهالي، سواء أكان ذلك في الجبل أو في المنطقة الفرنسية.

٩- المعتمدون السياسيون لسلطة الانتداب يمثلون السياسة الخارجية، وليس لهذه الحكومة ممثلون إلاّ في دمشق وفلسطين وجبل لبنان.

١٠- مشيخة/ إمارة الجبل ترفض الاتحاد مع سوريا، عدا القضايا الاقتصادية وليس لسلطة الانتداب حق جبرها على ذلك.

١١- واردات الدولة هي: حصتها من واردات الجمارك في سوريا وفلسطين، وحصتها من ملاّحات إترا وكاف، والدخل من ضرائب القرى الحدودية والضرائب التي يمكن للمجلس أن يطرحها في الحالات الضرورية. لا يمكن له أن يطرح ضريبة العشر على الجبل. أما الضرائب الأخرى الثابتة فيقرّرها عموم أهل البلد بجمعية عامة.

١٢- في حال أن أعمال رئيس الحكومة تخالف الصالح العام ولوازم المعيشة للسكان يقال بقرار المجلس وتصدر فتوى من مشايخ العقل وسكان الجبل وتستبدل به شخصية أخرى.

١٣- لا يقال مشايخ العقل طوال حياتهم كما لا يحق لسلطات الانتداب ولا حتى للسلطات المحلية التدخل في الشؤون الدينية.

بناءً على حضوركم هذا المؤتمر العام، نحن الموقعين أدناه، مفوضين عن جميع طبقات الشعب، نطلب إلى صاحب السعادة المفوض السامي توقيعها وترفق لتصديقها من قبل الحكومة الفرنسية.

مع أطيب تمنياتنا، في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٠ (مصدر - أبو راشد).

أما نص «الدستور» الذي أرسل إلى وزارة الخارجية في باريس سنة ١٩٢١، فتكلّم فقط عن «حاكم من الأهالي» دون أن يشير إلى عائلة الأطرش، كما أضيف إليه أن لسلطة الانتداب أن تعسكر بقوات في الجبل. كما ألحقت به المادة التالية: إن حكومة الانتداب وحكومة جبل الدروز تلتزمان بحفظ حقوق الأقليات المقيمة في جبل الدروز (وتعني بذلك المسيحيين لأنهم الأقلية في «دولة الأقلية» الدرزية)[٨٣]. وزعمت الرسالة المرافقة «للدستور» أن المعاهدة موقعه «نهائياً» من «كاترو» ووجهاء يمثلون الجماعات المهمة. بيد أن نسخة «الدستور» المترجمة للفرنسية دخلت كتابة التاريخ العربي باسم «معاهدة أبو فخر»، وكان تاريخها ٤ آذار ١٩٢١، وتحمل تواقيع «روبير ده كيه» Robert de Caix مع ١٥ وجيهاً محلياً يمثلون ٩ عائلات من ١٠ قرى فقط[٨٤]. ولم يظهر في الوثيقة أثر للعائلات الكبيرة مثل آل

---

٨٣. MAEN, Beyrouth 1534, Gouraud à MAEP, 18 Fév. 1921.

٨٤. عبيد، الثورة، ص٨٩، ٢٥٩؛ أبو راشد، جبل، ص١٧٠-١٧١ (أسماء الموقعين).

عامر وآل الحلبي، فاغتاظ زعيم آل عامر، طلال باشا، وأرسل رجاله إلى «عرى» لمهاجمة مقر سليم الأطرش[٨٥] خاصة أن آل عامر، كانوا الأقدم والأوثق ارتباطاً مع فرنسا، في الجبل. والسبب الرئيسي لعدم الرضى عن الوثيقة كان خلوّها من معظم أختام موقعيها وليس رفضاً مبدئياً[٨٦]. كان «كاترو» - طبقاً «الصيغة ليوتيه» - مستعداً ليحل المشكلة بالمال، وكتب إلى «غورو» أن يؤخذ بعض الزعماء في السنين القادمة على حساب الحكومة المنتدبة فذلك أقل كلفة بكثير من حملة عسكرية في المنطقة[٨٧]. بذلك أيضاً تتوضح حقيقة نفوذ سليم الأطرش المحدودة، في اللائحة الرسمية التي اقترحها، كما بينت حدود تأثيره وأبعاد أتباعه[٨٨].

وصلت البعثة الفرنسية بقيادة المستشار Conseiller المقبل إلى السويداء بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٢١، وفي ٢٢ آب ١٩٢١ وصلت حامية عسكرية «بجميع أنواع الأسلحة»، بقيادة الكولونيل «بوليه» Paulet وتمركزت في القلعة العثمانية القديمة ورفعت العلم الفرنسي فوقها[٨٩]. وحلت الفرقة الجبل بسلام - وكانت تلك ظاهرة نادرة في تاريخ الجبل. حضر «كاترو» إلى السويداء واستقبل وفوداً من مختلف الفئات، باستثناء سلطان ومصطفى الأطرش اللذين قاطعاه.

وفي ٦ كانون الأول ١٩٢١ صدر بلاغ يحدّد مهام المستشار الإدارية ومعاونيه في الدولة الدرزية، مع مفعول رجعي ابتداء من ٢٥ حزيران ١٩٢١[٩٠]. وبتاريخ الأول من تشرين الأول ١٩٢١ تشكل جهاز «دولة جبل الدروز»:

- رئيس الدولة: سليم الأطرش ورفّع إلى لقب أمير وسُمّي «الحاكم العام».
- رئيس مستشارين: عودة تلحوق، درزي لبناني.
- قائد للدرك: توفيق الأطرش، ويعاونه حسني صخر ومحمود كيوان.
- المجلس: تألف من ٤٠ عضواً سماهم سليم الأطرش على النحو التالي: للسويداء باعتبارها عاصمة، ثمانية ممثلين من رؤساء عائلاتها في المجلس إلى جانب اثنين من كلا النواحي الـ١٣، وهم أيضاً من عائلات الزعامة[٩١]. كما كان للمسيحيين ثلاثة مقاعد

٨٥. FO 141/552/367, Palmer to Curzon, 26 March 1921.

٨٦. أنظر: عبيد، أبو راشد و«بوكوفا» Bokova في هذا الموضوع.

٨٧. MAEN, Fonds Beyrouth 551, Catroux à Gouraud, 9 Oct. 1920.

٨٨. MAEN, Beyrouth 551, Catroux 28 Oct. 1920.

٨٩. MAEN, Beyrouth 2377, Rapport Mensuel, Août 1921; MAEN, Beyrouth 551, Catroux à Gouraud, 22 Août 1921.

٩٠. Arrêté No. 1142.

٩١. MAEN, Beyrouth 2377, Rapport Mensuel, Octobre 1921; Bokova, La confrontation, p. 102.

وللسنيين مقعد واحد.

– رئيس المجلس الإداري هو الحاكم، وكان فيه ثلاثة مقاعد للسويداء ومن كل ناحية عضو وللمسيحيين مقعدان فيه[٩٢].

وهكذا تشكلت آخر «الدول» التي شكلها الانتداب في سوريا[٩٣].

من الملاحظ أنه لم يعد على قمة المجموعة، مسؤول محلي موحّد، أي على رأس هذه الدولة التي شكلها الانتداب رسمياً، كما كان قديماً في عهد التنظيمات العثمانية أو في زمن فيصل، ولا حتى مدير منفرد أو موظف محلّي وحيد في جهاز الدولة كما كان في أواخر تسعينيات القرن الـ١٩، ولكنها أصبحت مجموعة مختلطة من الجهتين، وقام هذا الحل السياسي من قبل الجهتين تحت ضغط آت:

١ – من جهة النظام العشائري الذي لم يَقبل إلا رئيساً ذا شخصية قوية الشأن.

٢– من جهة الأسلوب الاستعماري الفرنسي ونيّته بالإدماج التدريجي في السلطة المباشرة – مخالفاً لفكرة الانتداب.

هكذا كان الجبل، كما ذكر في دراسة فرنسية معاصرة، مكان تجربة استعمارية «فريدة القيمة» لتطبيق النظرية[٩٤].

٤ – الاستعمار غير المباشر والقضية العربيّة

كان الانتداب حسب مبدأ «ليوتيه»: «. . . بلد له مؤسساته، ويدير نفسه بنفسه، بمراقبة سلطة أوروبية، تمثله خارجياً، وتقود جيشه، وتمسك بتطوره المالي والاقتصادي. . . فإن ما يتميز به هذا المبدأ، وما تقرره اختصاصاته، هو صيغة التحكم مقارنة مع صيغة الإدارة المباشرة»[٩٥].

ثم ينذر ويضيف: «. . . غير أن رغبة الإدارة المباشرة في دمنا. . . نحن لا نتكلّم العربية وليس لدينا الصبر»[٩٦]. إن الانتداب ليس سيطرة، بل حماية، ومن هنا كان لا بد أن يلاقي الموظفون الفرنسيون صعوبات مستمرّة مع مرور الزمن. وبالنسبة لجبل الدروز كان الفرنسيون مضطرين لإبعاد المؤسسات، لا سيما تلك التي تساند السلطة المنتدبة.

---

٩٢. **FO** 141/552/367, High Commissioner of Egypt, “The Druzes”, Palmer, 20 Jan. 1922.

٩٣. **MAEN**, Beyrouth 551, Catroux, “Instructions pour l’interpète principal Trenga conseiller administratif du Djebel Druze”, 1 Juillet 1921; Brunhes, **Le dernier-né**, p. 16.

٩٤. Brunhes, **Le dernier-né**, p. 765.

٩٥. Lüthy, **Frankreichs Uhren**, p. 212.

٩٦. المصدر السابق.

ولذلك استغل «كاترو» الموقف ووجّه، على سبع صفحات، تعليماته للمستشار الفرنسي المقرّب في الجبل، المترجم «ترنغا» Trenga، بأن يتشدد سريعاً في هدف مهمته، والتي تشمل ما يلي: «. . . إن قطعة الأرض هذه، المستقلة حتى الآن تقريباً، يجب أن تدخل تحت مظلة سلطة الانتداب»[٩٧]. وقد نبّه «ترنغا»، الذي رافق مناقشة مشاريع القوانين المختلفة مدة طويلة، إلى ما يلي: إن الجبل في «وضع غير منضبط» في بعض جهاته. وبينما بعض العشائر تعتمد على سلطتها، فإن عدداً آخر من القرى يقف ضدّها. وأضاف «كاترو» أن وضعاً كهذا «. . . يمكن أن يكون مناسباً جداً لنا، إذا نحن فاوضنا على إدارة مباشرة في جبل الدروز، نقودها نحن. حيث وعدنا بتطبيق عقد الانتداب، وباقتراح من مندوبنا. بأن تكون الحكومة المحلية من أبناء البلاد نفسها، تحت استشارة مندوبينا فإذا لم تتفق مع نفس الفرضية على أرض الواقع فلذلك، وبحكم هذه الضرورة الماسّة خُلقت - ولأسباب فنية إلى حد ما - قاعدة الحكومة التي ننشدها في المستقبل»[٩٨].

قاعدة الحكومة المقصودة، كما هو معلوم، هي سليم الأطرش وقد اعترف به بعد وفاة والده يحيى سنة ١٩١٤ «شيخ المشايخ». إذاً لا بدّ والحال هذه، من إعادة النظر في الوضع الداخلي في الجبل الذي تدخلت فيه سياسة الانتداب المعرّفة بهذه الطريقة.

انتقل شرف لقب «شيخ المشايخ» منذ زمن إبراهيم الأطرش من آل الحمدان إلى عائلة الأطرش، ورمزه لبس «العباءة»، ومن يلبسها يجب أن يكون وريثاً ذكراً من عائلة الأطرش ويتمتع بصفات قيادية مميزة. في أيام إبراهيم الأطرش، «قائمقام» السويداء زمن العثمانيين، والذي لقب بـ«مؤذي السكان»، كان أخوه شبلي مستقراً في داره في «عرى» ولقّب «شيخ الدروز المضاد للعثمانيين». وقد أصبح في ما بعد «شيخ المشايخ». وعلى أثر الحملة العسكرية سنة ١٨٩٦، احتل موظفون عثمانيون منصب «القائمقام» رغم المحاولات الدائمة للطرشان لاسترجاع هذا المنصب. وكان سليم ابن محمود حفيد شبلي ونال اللقب، إذ إن حمد بن شبلي كان ما زال صغيراً سنة ١٩١٤. من جهتهم أطلق الفرنسيون عليه لقب «الأمير»، وبذلك أصبحت عائلة الأطرش «سلالة أميرية» وأصبحت قرية عرى «بيت الإمارة» يأتي منه الأمراء ويتوارثون اللقب، حتى الخلف غير المباشرين. ولقد كان الخلاف قاسياً، سواء داخل العائلة الطرشانية أو خارجها. كما كان الخلاف يدور حول السؤال التالي: هل يجب أن يكون الأمير هو الحاكم؟ وبعبارة أخرى: هل يجب أن يكون لقب الشرف واللقب

---

٩٧. **MAEN**, Beyrouth 551, Catroux, "Instructions pour l'interpète principal Trenga conseiller administratif du Djebel Druze", 1 Juillet 1921.

٩٨. المصدر السابق.

السياسي في يد واحدة؟ منذ أكثر من ٢٠ عاماً كان مضموناً أن حامل لقب الشرف الدرزي في عرى هو الذي يشغل وظيفة سياسية في السويداء. وقد كانت منذ مدة طويلة، في يد موظف إداري عثماني مرتبط مباشرة بالوالي في دمشق. ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى فقط عاد الجبل إلى النمط العشائري.

لم يكن سليم في نظر عائلته القائد النموذجي، بل كان المسيِّس البارع فيهم نسيب الأطرش الذي كان طوال حكم فيصل ممثلاً للجبل في دمشق (يقيم في البيت الذي أهداه إياه جمال باشا زمن الحرب). كما كان عبد الغفار ذا نفوذ أيضاً وخلفاً لفرع السويداء وقد نشأ فيها وهي عاصمة الجبل. لقد أصيب الاثنان بالغيظ، عندما وقع اختيار الفرنسيين عليه رئيساً للدولة وسبّبا له العديد من المصاعب[٩٩]. كان إلى جانب هؤلاء فريق آخر من الصف الثاني تأكله الغيرة: متعب الأطرش من رساس الذي كان منذ القديم قد خدم مصالح فرنسا، وكذلك مصطفى الأطرش من متان، وغيرهما من آل الأطرش (أنظر سلسلة النسب المرفقة). لكن المجموعة المنظمة والمعارضة، كانت بقيادة سلطان، وكانت في نضال مستمر طوال الوقت، ضد الأمير الحاكم منذ أن تبعثرت الثورة العربيّة الكبرى ولكنه لم يقابله قط[١٠٠]. كان سليم يفتقر إلى السياسة العائلية. لقد كان كثيراً ما يرتحل إلى دمشق بسبب مرضه. وقد اضطر «ترنغا» سنة ١٩٢٢ أن يكون حاكماً بالوكالة عنه.

لم تقتصر المعارضة ضد سليم على عائلته فحسب، بل تعدتها إلى عائلات أخرى لم تعد تحتمل «أطرش» فوقها. فقد كان الدور القيادي لآل عامر، المنافس التقليدي منذ القدم في شهبا ومعهم عائلة عز الدين الحلبي في أقصى الشمال، ووجيههم محمد الحلبي الذي سبق له أن تدرّب في مدرسة عسكرية في اسطنبول ثم انتسب إلى النادي العربي فحزب «الاستقلال»، كما شارك سنة ١٩٢٠ في معركة ميسلون ضد الفرنسيين[١٠١]. لكن كانت هناك أيضاً معارضات ضد سليم والفرنسيين، معارضة ذات أفكار وأهداف تعارض الانتداب يوجهها سلطان الأطرش وحمد البربور (أم الرمان) ويدعمها عبدالله، أمير شرق الأردن. ومن الملفت أن الجناح الذي شارك في الثورة العربية الكبرى قد بقي مخلصاً ومتفهماً لموضوع القضية العربية. ولقد كان القائد والناطق باسم هذه المجموعة هو سلطان الأطرش، الذي قاطع فرنسا وحكومة سليم الأطرش ومستشاريه إلى أبعد الحدود[١٠٢]. وقد

٩٩. النجار، بنو معروف، ص ١٤٥؛ عبيد، الثورة، ص ٩٠-٩١.

١٠٠. **MAEN**, Beyrouth 2377, Rapport Mensuel, Août 1921, Octobre 1921, Novembre 1921.

١٠١. فارس، من هو، ٢٢٨-٢٢٩؛ مقابلات مع جادالله عز الدين الحلبي.

١٠٢. **MAEN**, Beyrouth 551, Catroux à Gouraud, 28 Août 1921.

كان من الذين يتبعون هذه المجموعة، حسين الأطرش من عنز، وعبد الكريم وأسعد الأطرش من السويداء، وفرحان الأطرش من ملح، وسلمان الأطرش من أم الرمان. كما كان من آل عامر، تركي، وهو ابن أحد المعدومين شنقاً في العهد العثماني سنة ١٩١١. وكان جناح عامر هذا ميالاً على الأخص للهاشميين. وبعد أن تشكّلت حكومة جبل الدروز، نزح تركي إلى عمان وانخرط في حرس الأمير عبدالله الخاص[١٠٣]. وكان من البارزين أيضاً آل المغوش، أقرباء لمعدوم شنقاً وقت العثمانيين. وهم الذين أمّنوا طريق الالتحاق بالثورة العربية من الغوطة ودمشق، وبقوا من أشد المعادين لفرنسا[١٠٤]. كما كان من المعارضين أيضاً محمود عز الدين الحلبي وعائلته وكذلك علي عبيد، الذي بقي محافظاً على موقعه مع الهاشميين رغم توليه منصباً قضائياً في ما بعد[١٠٥].

وقد نشط في المنطقة الجنوبية من الجبل، في قرى الحدود الأردنية، مبعوثون من قبل الأمير عبدالله وعلى رأسهم رشيد طليع، وهو درزي لبناني وأحد مبعوثي حوران إلى المجلس النيابي العثماني[١٠٦]. وجرى التوافق على مقاومة الفرنسيين. كما كان على الساحة نشطاء آخرون مثل شكيب وهاب وأدهم خنجر. وفي سنة ١٩٢١ دخل أسعد الأطرش السويداء بتظاهرة، تحت الراية الشريفية، ورفع العلم فوق السراي وأعلن التحاق الجبل بإمارة عبدالله في شرق الأردن. غير أن أهالي السويداء لم يأخذوا هذا الموقف على محمل الجد. وسلّم أسعد نفسه في اليوم التالي إلى «ترنغا». وبات شيوخ المقرن الجنوبي يخشون ضياع قراهم لدى ترسيم الحدود الأردنية بين الانتداب الفرنسي والبريطاني، فكان في يدهم سبب قوي، وأبدوا رغبتهم في الالتحاق بالمنطقة البريطانية شرط أن تكون إمارة مستقلة، وليس تحت سلطة الأمير عبدالله[١٠٧].

وقع أوّل حادث مواجهة مهم مع فرنسا مع «مسألة أدهم خنجر» أو «الثورة الأولى» لسلطان الأطرش. لقد كان أدهم محكوماً بالإعدام إثر اعتداء القنيطرة. وقد جاء القريّة مرفقاً برسالة من قبل عادل أرسلان والجنرال رضا الركابي – أول رئيس وزراء في عهد فيصل –

---

١٠٣. **FO** 371/6371, Palmer to Curzon, 14 March 1921.

١٠٤. سلطان الأطرش، مذكرات، ج ٥، ص ٣٩-٤٠؛ **FO** 141/552/367, "List of Jebel Druze Clans" provided by Druze informer"; **MAEN**, Beyrouth 2377, Catroux à Gouraud, 4 Août 1921.

١٠٥. **MAEN**, Beyrouth 551, Catroux a Gouraud, 28 Août 1921.

١٠٦. **MAEN**, Beyrouth 551, Catroux à Gouraud, 28 Août 1921; **MAEN** Beyrouth 982, "Directives politiques pour le Commandant de la colonne de Soueida", 22 Juillet 1922.

١٠٧. **FO** 141/552/367 Palmer to Curzon, 5 Sept. 1921; **FO** 371/6394 Oliphant, 13 Sept. 1921; FO 141/552/367 Palmer, 22 May 1922.

ليقيم في حماية سلطان. وكملاحق سابق، اعتقله الدرك المحلي، بقيادة صياح الأطرش. وهنا اصطدم القانون الحديث بالعرف العشائري إذ طلب سلطان إعادة المعتقل عملاً بالقانون العشائري في حماية الدخيل، حيث إن الملاحق قد طلب الحماية حسب العادات والتقاليد العشائرية. ولكن المعتقل كان قد سيق إلى السويداء فور اعتقاله (أجيب سلطان أن العادات محترمة ولكن الحماية تعتبر ضمن حدود البيت فقط)[١٠٨]. جدّد سلطان تأييده للعادات وتمسكه بها. ولكن المعتقل كان قد أصبح في القلعة ورفض الفرنسيون تسليمه. وحتى عندما تدخّل صديق فرنسا من العائلة، فارس الأطرش، وعرض رسائل سلطان على الفرنسيين لم يتحركوا، بل أضافوا:

«إننا نعيش الآن في ظل القانون وعلى القضاء أن يبين إذا كان (خنجر) مذنباً أم لا»[١٠٩].

ولكن سلطان أصرَّ وأجاب من جديد (لا سيما وأنه وجد الفرصة المناسبة): إنه يفقد سمعته، والفرنسيون يتدخلون في تقاليدنا ويتعامون عن اتفاق ٤ آذار ١٩٢٢، وهاجم ثلاث مدرعات كانت تنقل خنجر إلى درعا. وكانت نتيجة الهجوم سقوط أربعة قتلى فرنسيين منهم الضابط «بوكسان» Bouxin[١١٠]. رداً على ذلك حدث قصف جوي قامت به ١٥ طائرة، على كل من القريّة وأم الرمان وعنز[١١١]. فلجأ سلطان وحمد البربور ومن معهم إلى الأردن، في حماية الأمير عبدالله، وشكلوا عصابة هناك، بلغت نيفاً و١٥٠ رجلاً وبدأوا يقلقون قوات الانتداب ويشتبكون معها[١١٢]. حكم على سلطان الأطرش بالإعدام غيابياً. ولم يساند سلطان هذه المرّة سوى أقرباء كانوا معه من العصابات. وفوق ذلك أصدر رجال الدين الأربعة بياناً يطالبون الدروز فيه، بألاّ يساندوا مثيري الشغب وأن يبقوا مع القانون والانتداب. واستقبل «ترنغا» بعض الوفود التي أيدت الانتداب[١١٣]. وبعد اتصالات من وراء الستار، عاد سلطان ومن معه إلى الجبل بكسب معنوي وأصبح يتمتع بتأثير كبير، ولكن كان عليه أن يعتذر من الانتداب[١١٤]. ويوم عيد استقلال الجبل في ٥ نيسان ١٩٢٣، دخل سلطان ميدان الاحتفال في السويداء على رأس موكب نصر مع مفرزة من الخيالة وسط تهاليل الجمهور والزغاريد. وحيا سلطان ممثل المفوض السامي في دمشق، «شوفلر» Schoeffler الذي كان لا يدري ماذا

---

١٠٨. نجار، بنو معروف، ص١٣٥؛ أبو راشد، جبل، ص١٨١-١٨٢؛ **FO** 371/7847 Palmer, 25 July 1922.

١٠٩. سلطان الأطرش، مذكرات، ج ٥، ص٤٠-٤١.

١١٠. المصدر السابق.

١١١. **MAEN**, Beyrouth 982, Bulletin de Renseignements, 22 et 23 Juillet 1922, Directives.

١١٢. **MAEN**, Beyrouth 982, Bulletin de Renseignements, 23 Juillet 1922.

١١٣. **MAEN**, Beyrouth 982, Bulletin de Renseignements, 22 Juillet 1922.

١١٤. **FO** 371/9054 Palmer, 23 June 1923; FO 141/552/367 Palmer, 24 May 1923.

يصنع به. وأعلنت سلطة الانتداب «الكبيرة والكريمة» grande et généreuse العفو عن سلطان[١١٥]. ويظن أنّه منذ ذلك الموقف، ولد الانطباع أن سلطان الأطرش قائد ثورة، مقرّب من الجماهير. مَن هو سلطان الأطرش؟

كما ورد سابقاً، كان عمر سلطان ٢٠ عاماً عندما أعدمت «تركيا الفتاة» والده ذوقان شنقاً سنة ١٩١١، على أثر قيادته لإحدى الغزوات، أيام كانت السياسة المركزية العثمانية على أشدّها في أواخر القرن التاسع عشر. لقد ترك إعدامه أثراً كبيراً في نفوس أبناء البادية. وجاء في مذكرات سلطان أنه دخل برفقة والده معسكر ممدوح باشا، قائد الحملة الدموية سنة ١٨٩٦، وعمره ٥ سنوات. كانت والدته وعمته من جملة العائلات التي اعتقل بعضها ونفيت إلى الأناضول في حرب ١٨٩٦، وقد لجأتا إلى قرية العانات (في أقصى جنوب الجبل) احتماء في بيت عم لهم. والمرجّح أنهما قد نزحتا بعدها إلى الصفا، وهي واحدة من الملجأين التقليديين على أطراف مواقع العشيرة[١١٦]. في هذا المكان أمضى سلطان ١٨ شهراً حتى أعلن العفو العام. وقد قضى سلطان قسماً كبيراً من حياته مبعداً. كان مثله مثل أبناء العديد من العائلات الكبيرة الذين كان لهم نفس ظروف طفولة سلطان وهم الذين أعلنوا أنفسهم مع القضية العربية ضد الأتراك. كان سلطان إذن ابناً لمحارب كبير في عائلة الأطرش ومنشؤه بيت القريّة[١١٧]. إنّ السمعة التي اشتهر بها بيته جاءته عن دوره القيادي في الثورة العربية الكبرى، حيث كافأه فيصل برتبة «فريق» تكريماً لكفاءاته الحربية. لقد كرّس سلطان نفسه للقضية العربية وكان دوره الحربي نابعاً من شخصه. لم تكن «القضية العربية» محددة وواضحة المعالم. فقد كانت النقطة الرئيسة تتمثل في استنكار كل عنصر «غير عربي» يطمع بالسيطرة على العرب مثل الأتراك والإفرنج. وعلّل سلطان المشاركة بالثورة العربية بحجّة أن قرار المشاركة في الثورة العربية لم يكن فجائياً ولا مصادفة. ولكن هذا جاء من تاريخ مذهب الدروز الطويل وما تحملته الجماعة من سياسات وحروب، جعلتهم يقفون ضد كل عنصر غير عربي، أراد أن يتسلّط عليهم من الداخل (العثمانيون - المؤلفة)، أو في كراهية الاستعمار الذي جاءهم من الخارج، ينهب ثرواتهم ومواردهم (الفرنسيون - المؤلفة)[١١٨].

من هنا نشأت الدوافع من مقوّمات الدروز العشائرية. إن المرء في الجبل يعتبر البسالة

---

١١٥. "La France, grande et généreuse a accordé, par décision ministérielle du 10 Juillet 1923, le pardon à Sultan Pacha el-Atrache ainsi qu'aux individus ayant fait parti de sa bande".

١١٦. سلطان الأطرش، مذكرات، ج ١، ص٢.

١١٧. أبو راشد، جبل، ص٢٤٤.

١١٨. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٣، ص٣٦.

ذخيرة عربية مثلما الرجولة والإقدام والضيافة والمحافظة على الدم العربي ونقاوة اللهجة العربية وما إلى ذلك. وسلطان، بدوره، كان يعتبر الجبل قلعة حماية للهاربين من الجيش العثماني وملاذاً للوطنيين سابقاً، والجائعين من غير السياسيين، وقت العوز. وعلّل ذلك ليس كنتيجة حلف مع «الفتاة» بل «كنا نستلهم من تاريخ طائفتنا الطويل، مواقفها السياسية والحربية المماثلة ضد العناصر الأعجمية التي تحكّمت بنا في الداخل، والغزاة الطامعين»(١١٩). وهذه الرؤية أخذت بألباب الوطنيين من أبناء المدن. ولربّما يكون أوضح ماقيل في ذلك قول خير الدين الزركلي، عضو «اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري - الفلسطيني» في القاهرة، في مقدمته لعمل مصري ظهر حول الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ «اضطربت الأنساب وضاعت الأصول واختلطت الدماء في أكثر البقاع الشامية وبقيت طائفة في بلاد حوران وبعض لبنان محتفظة بعربيتها مستمسكة بعصبيتها عاشت فيها القيسية واليمانية إلى يوم الناس هذا، وتوارثت أخلاق من يرتفع إليهم نسب كل فريق منها، تلك طائفة الدروز العربية الإسلامية رافعة أول لواء خفق في ثورة سورية الحاضرة»(١٢٠).

إذن فالدرزية والقومية العربية تلتحمان في الرأي الآنف. والدروز عرب قوميّون ومنذ سنة ١٩١٠ لم يعد يطلق بحقهم أي اتهام. وإن نهجهم كان أبداً التحرر من الاستعمار. ولم تكن القومية العربية في مطلعها ناضجة المفهوم(١٢١). فقد كانت تستعمل شعاراً ورموزاً معروفة وتطرح لها في نفس الوقت معنى جديداً. أما ما يقال من أن «القومية العربية كانت مفهوماً قليل الوضوح بالنسبة للدروز» إذ كانوا «فقط» «مشاة» للقومية في المدن فذلك خطأ في رؤية القومية العربية في دمشق التي كانت في هذا الوقت باقة شعارات ومفاهيم مختلطة، وأما الجناح الوطني الدرزي فقد أعطى مفهومها تعبيراً بطريقته(١٢٢).

لقد أصبح سلطان باشا الأطرش، في مجرى حياته، عنواناً بارزاً لها، فكان التجسيد الرومانتيكي لأبطال الدروز المحاربين القدامى، مثل المؤسِّس إسماعيل الأطرش، المنحدر من فرع القريّة، كما يصوّره التمثال القائم في ميدان السويداء حتى يومنا هذا. لم يرغب سلطان أن يكون له منصب سياسي ورفض كل العروض لذلك(١٢٣). ولقد رهن نفسه، في الوقت ذاته، للقضية العربية وتحرير الوطن من ظلم الاستعمار وللشهامة

١١٩. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٣، ص٣٥.

١٢٠. الزركلي، مقدمة، في: ثابت، الدروز، ص١.

١٢١. راجع الفصل ١، ١.

١٢٢. MacDowell, "Druze revolt", p. 193; Firro, **History**, pp. 245-247; Khoury, **French Mandate**, pp. 164-167.

١٢٣. عبيد، الثورة، ص١٠٥.

الدرزية[١٢٤]، وعندما كانت هذه القومية التحررية لم تحدد تصوّراً معيناً عن الاندماج في دولة عربية محرّرة موحّدة. كيف كانت نظراته في هذا الاندماج - عمودياً أم أفقياً؟ وما سيكون بعد الاستقلالية وما الذي سيوعد به الجبل؟ كانت تلك تساؤلات معترضة بانت حدّتها في أزمات الانتداب وفي مراحله الأخيرة. أما عن استراتيجية سلطان وما ستأتي به هذه التساؤلات: فقد بقي سلطان صامتاً لا يتكلم إلا بالتحرر الوطني والوحدة، وترك السياسة إلى فرع السويداء من عائلته. والملاحظ أنه لم يكن ينظر إلى «نير الاستعمار» بصورة سلبية فقط. فقد أورد في مذكراته عن الثورة السورية الكبرى بما يخص ابن عمه سليم، حاكم الجبل ما مفاده:

. . . في الوقت الذي كنا نرفض حكم سليم رفضاً مطلقاً، نرى حقاً علينا، أن نقول: إن سليم بخبرته السياسية وبمرونته قد تحمَّل بكل صبر وجلد ثقل عبور الجماعة من نظام السلطة العشائرية وتقاليدها الموروثة، إلى نظام سلطة حضاري جديد ومدني ومتطور. . . لقد كان صورة مثالية عالية في معاونة الفقراء والمحتاجين، وأعطى الضعيف حقه من القوي حتى من أقرب أقربائه . . . وامتلأ في عهده صندوق الدولة، وشقّت بعض الطرق والشوارع وجُرّت أنابيب مياه السويداء، واستخدم لأول مرّة آلات زراعية حديثة. وفي حمايته استطاع عبدالله النجار فتح عشرين مدرسة. وجهد لدى الآباء لإرسال أطفالهم إلى المدارس. . . [١٢٥].

يلاحظ مما تقدم أن سلطان يرى الوجهين في التحديث الذي أحدثه الانتداب الفرنسي. إن هذا لا يأتي من الحاكم الوطني العميل، وإنما من المستشارين الذين من ورائه. إن الأوربيين قد جاؤوا ليعلّموا ويطوّروا. ولتحديث الجبل بمساعدتهم، مثلما جاء في نص وثيقة الانتداب الأولى بصراحة. ولمدة قصيرة تغلب البعد السياسي تحت شعار «المسألة العربية» خلال الثورة السورية الكبرى، غير أن الرغبة بالاستفادة العملية من النهج الفرنسي غلبت عليه في ما بعد.

في البداية عانى سلطان الأطرش وأتباعه من الثوار، صعوبات كبيرة في كسب غالبية إلى جانبهم، وقت كانت سلطة الانتداب غير مباشرة. ولكن المستشار «ترنغا» الفرنسي الذي كان يتقن اللغة العربية تتبع جهراً الكفاءات التي يحتاج إليها تطبيق «المبدأ المغربي»، فنفّذ بكل تؤدة وجلد، وبلمس اليد، كل توجيهات «كاترو» التي أمدّه بها بكل دقة فكان لذلك تأثيره.

ولكن، مع «كاربييه» Carbillet الذي انتزع كل السلطات لشخصه، بدأت المرحلة الثانية

---

١٢٤. Schäbler, "History in the Way of Politics", in: Schatkowski Schilcher, **Politics in the Way of History. Recent Historical Writing on Syria and Lebanon**.

١٢٥. أنظر: سلطان الأطرش، مذكرات، ج٥، ص٤٢-٤٣.

للسياسة الاستعمارية وملخصها: تسلّط بالقوة على الشعب وتمزيق سلطة الحكام المحليّين التقليديّين، باستثناء المؤيِّدين المغالين لفرنسا، والتدخل في الشؤون الدينية وتغيير جذري للعادات الاجتماعية والتقاليد، وتفريق صفوف أبناء الجبل بإثارة الفتن فيما بينهم وتحريك التنافس بين أفرد العائلات الكبيرة ورؤسائهم[١٢٦].

٥- التحديث الاستعماري ونصر القضية العربية

بدأت المرحلة الثانية من الانتداب في الجبل بتبديل «ترنغا» ووصول خلفه، الكابتن «كاربييه» Carbillet، إلى الجبل داخلاً من تاريخ تلك الفترة بسمعته «كاربييه المشهور». فقد اعتبر عموماً مفجّر الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥. فلم تكن تتمثل في شخصيته إلا عقيدة الاستعمار الفرنسي فقط، تحت التستر بواجبات «رسالة تمدينية» mission civilisatrice[١٢٧]، مع أنه كان - ونستشهد بآراء «ليوتيه» مرة ثانية - «الإدارة المباشرة في دمه، لا يتكلم العربية وليس لديه الصبر»[١٢٨]. وكان بنفس الوقت، في طليعة الضباط الاستعماريين، الذين أعجبوا بخصائص الصفات العشائرية في الجبل، في نبل مبادئهم وبسالة قتالهم وأساليب كفاحهم. وذكر في مذكراته التي ظهرت سنة ١٩٢٩، أنه قد أصيب «بمرض الدروز»[١٢٩]. لقد كانت مذكراته أشبه بمذكرة اعتذار. فقد وصف رقص الرجال وصفاً طويلاً ممتعاً بشعورهم المجدولة وعيونهم المكحولة، «عليهم زينة الإناث ولكن جبروت الرجولة يفور منهم». وترى الهيجان العاتي في بريق عيونهم، عندما يحيّون بيارقهم الزاهية الألوان في أعياد الاستقلال، ويأتي اعتراف «كاربييه» في مطلع كتابه حيث يقول:

«. . . أنت، أيها الجبل سأحبك أبداً، كحب والد وولد معاً. أحبك كولد، لأنك بالنسبة لي الوطن الثاني، وأحبك كوالد لأني رأيتك تنمو، وساعدت في تطورك. . . أيها الجبل لقد ملكتني وسأبقى ملكك»[١٣٠].

«كاربييه» الذي حل محل «ترنغا» مستشاراً في ١٧ تموز ١٩٢٣ كان ضابطاً ممتلئاً نباهة وقوة نافذة، وقد كان الوحيد الذي أعلن في وداع «ترنغا» أنه سيخدم الجبل متطوعاً، وأنه من

---

١٢٦. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٥، ص٤٣.
١٢٧. عبيد، الثورة، ص١١-١٢.
١٢٨. أنظر الفصل السابق.
١٢٩. **MAEN**, Beyrouth 982, lettre à Demange, s.d. (1924); Longrigg, **Syria**, p. 208, footnote 2.
١٣٠. Carbillet, **Au Djebel Druze**, pp. 12-13.

أجل ذلك ترك منصب الرفاه في بيروت[١٣١]. وفي أول رسالة له إلى البعثة الفرنسية في دمشق في ٢٣ تموز ١٩٢٣، شكا إليهم من عودة سليم الأطرش حاكماً للجبل مع موافقة مبعوث المفوض السامي في دمشق[١٣٢]. وكان سليم قد استحيا من الطرشان الآخرين، في مواجهة له مع قريبه عبد الغفار الأطرش واستقال وارتحل مريضاً إلى «عرى» وناب عنه «ترنغا» بتكليف من المجلس. وبعد ستة أشهر من إنبائه بأن «ترنغا» سيغادر الجبل، طلب عبد الغفار الأطرش من المجلس عودة سليم أو أن يُنصّب حاكم محلي غيره. بينما كان يراهن على شخصه. عاد سليم وفوجئ به عبد الغفار كما فوجئ به «كاربييه» الذي أحس بأن قرار المبعوث في دمشق قد تخطّاه، لاسيما أنه كان بدوره يوجه إلى أنه يستطيع أن يقوم بمجهود أفضل، في منصب الحاكم العام فقط. كان أول عمل قام به «كاربييه»، أنه وضع قوة الدرك في جبل الدروز في يد الاستخبارات. كما جعل زيارة أي موظف كبير، داخل الجبل أو خارجه، خاضعة لتأشيرة من قبله. كذلك لا يدعى أو يصرف موظف إلا بموافقته. وهكذا قد بدأ «كاربييه» بالتسلط المباشر.

بعد شهرين توفي سليم الأطرش، وانفجرت الخلافات مجدداً داخل العائلة. وكان المرشح للقب الأمير حمد من عرى، ابن شبلي الأسطوري. وكان ما زال حديث السن، تربى في بيروت، يتكلم الفرنسية ويملك أول سيارة في جبل الدروز. ووقف من ورائه مسيحي من قرية «عَرَس» قرب عرى باسم «خربة» وكان يعتبر أخاً لحمد[١٣٣]. إن المرشح المرجّح لمنصب الحاكم وهو عبد الغفار ينافسه متعب الأطرش والأمير الجديد[١٣٤]. جنّد عقلة القطامي صحفاً عدة شهيرة في دمشق، فأعلنت أن حمد الأطرش هو الأمير وهو الحاكم الجديد في الجبل، وأن عبد الغفار استبعد لعدم صلاحيته للمنصب[١٣٥]. أما «كاربييه» فحقد على عقلة القطامي وأطلق عليه اسم «يهوذا الجبل» و«روحه الشرير». وهدّد «كاربييه» بالاستقالة إذا وصل جماعة عقلة وحمد إلى الحكم. إذ إنه لا يستطيع العمل بهذه الطريقة. وقد ورد عنه: «لا أستطيع البقاء إذا كنت لا أستطيع أن أتعامل»[١٣٦]. جاء هذا في رسالة «كاربييه»، وهو يعني بالتعامل، الحكم، لأن تناسق «ترنغا» مع أفكار الانتداب وتعامله كمستشار، كان بالنسبة لـ«كاربييه» غير

١٣١. **MAEN**, Beyrouth 1560, Schoeffler à Weygand, 7 Juin 1923; **MAEN**, Beyrouth 982.

١٣٢. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Délégation Française à Damas, 23 Juillet 1923.

١٣٣. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Délégation à Damas, 21 Oct. 1923.

١٣٤. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٥، ص٤٢؛ **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Délégation à Damas, 21 Oct. 1921.

١٣٥. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Délégation, 1 Nov. 1921, 12 Nov. 1923.

١٣٦. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Brun, 29 Oct. 1923.

مقبول. وزعم في رسالته إلى المفوضية الفرنسية في دمشق أن معاهدة ٤ آذار ١٩٢١ بين فرنسا والدروز تتكلم فقط عن «حاكم» ولا تتكلم عن «حاكم أهلي».

ولكي يدعّم «كاربييه» ترشيح نفسه للمنصب، دفع عائلات أخرى للمزاحمة من الذين لا يوافقون على أن يتكلم الأطرش باسم الجبل كافة كما شكوا في تسلّمهم السلطة. وأعلن آل الحلبي مثلاً، جهراً، تأييدهم لـ«كاربييه» حاكماً بالوكالة، ثم أيده آل هنيدي. بيد أن مشايخ العقل لم يميلوا إلى هذا الحل[١٣٧]. ولكن حيث إن المتنافسين كانوا في وضع غامض، وما من أحد منهم كان مستعداً للاعتراف بالآخر، فقد صوّت المجلس لصالح «كاربييه» حاكماً بالوكالة في مطلع كانون الأول ١٩٢٣. إن مسألة حاكمية الجبل شغلت السلطة العليا للانتداب. ففي شهر آب ١٩٢٣ كتب المفوض السامي في بيروت إلى مندوبه في دمشق أنه «غير أخلاقي وخطر جداً» أن تترك المسألة في الجبل إلى ذاتها تتطور حتى هذا البعد، كي يتمكن المرء من أن ينصب الحاكم المباشر[١٣٨]. وبالرغم من ذلك بقي «كاربييه» حتى ٦ آذار ١٩٢٤، ليصبح رسمياً حاكماً بالوكالة[١٣٩]. ولكي يؤكد وضعه، هيأ لانتخابات مجلس جديد في الجبل في صيف ١٩٢٤[١٤٠]. في هذه الدورة أصبح عدد أعضاء المجلس ٢١ بدلاً من ٤٠ عضواً ينتخبون على درجتين، كل قرية تنتخب ممثلين ثانويين عنها (عن كل ٢٠٠ درزي ممثل قانوني وعن كل ٢٠٠ مسيحي ممثل)، وهكذا كان لكل ناحية مقعد في المجلس وعددهم ١٣ مع ٣ مقاعد للمسيحيين ومقعد للسنّيين ومقعد «للغرباء من الدروز المقيمين في الجبل» مع مقعدين إضافيين للسويداء العاصمة ومقعد إضافي لصلخد[١٤١]. وكانت نتيجة الانتخابات إيجابية للفرنسيين[١٤٢]، ففي أول جلسة للمجلس انتخب «كاربييه» حاكماً بالإجماع[١٤٣]. وفي ٦ كانون الأول ١٩٢٤، صدر مرسوم يثبت «كاربييه» حاكماً مباشراً وألغى الوكالة، وبذلك خرجت فرنسا على فكرة الانتداب، وأخذت بالسلطة المباشرة على الجبل[١٤٤]. لم يكن فرع السويداء لآل الأطرش راضياً عن هذا الحل، واستمر يطالب المفوضية في دمشق بإعادة تعيين حاكم أهلي – وفي طبيعة الحال أن يكون هذا من عائلة الأطرش، لأنها الأوسع

---

١٣٧. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Délégation à Damas.

١٣٨. **MAEP**, E Levant 235, Weygand à Schoeffler, 23 Août 1923.

١٣٩. Arrêté No. 2477, 6 Mars 1924.

١٤٠. **MAEP**, Beyrouth 551, Carbillet à Schoeffler, 25 Juillet 1925; Schoeffler à Service de Renseignements, 28 Juillet 1924.

١٤١. **MAEP**, Beyrouth 551, Loi electorale relative au medjlis en niabi du Djebel Druze.

١٤٢. انتخب المساندون للفرنسيين من صفوف العائلات الكبيرة مثل فارس الأطرش.

١٤٣. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Schoeffler, 2 Oct. 1924.

١٤٤. Arrêté No. 2973, 6 Déc. 1924; FO 371/10160, Vaughan-Russell, 14 Oct. 1924.

نفوذاً بين عائلات الجبل[١٤٥]. ولكن لم تكن في الجبل نوايا سياسية موحّدة، ولا حتى مرشح مناسب لمنصب الحاكم، كما أن سلطان الأطرش من القريّة، لم تكن لديه الرغبة في المنصب. وإنما كان لديه هدف أكبر وينتظر الساعة بكل تكتم وصبر[١٤٦].

كانت الأحداث تتزاحم، زمن «كاربييه» الذي حكم البلاد لمدة عامين حكماً مباشراً، وكان من أبرزها مظاهر ثلاثة:

١- سياسة «كاربييه» في تطوير الجبل على طريقته الخاصة والتي جنّد لها كل طاقاته.

٢- المواجهة والخلاف المتزايد حول مسألة الحاكم والذي كان يثير فزع آل الأطرش إطلاقاً.

٣- التحركات داخل قواعد الشعب ضد الانتداب الفرنسي والنشاط السياسي لمصلحة القضية العربية.

ولكن الأمور كانت تحت السيطرة، وكان «كاربييه» يمسك بالجبل بيد من حديد، غير أن الوضع تبدل وانحسرت الحدّة بعد أن أخذ «كاربييه» إجازته عقب عامين له في الجبل. وسنعرض للأحداث أعلاه حسب تسلسلها.

لقد تعهد «كاربييه» خطياً بأن يجعل من الجبل مستعمرة نموذجية. ولهذا دسّ يده بعمق بين هيكليات الجبل العشائرية، تحت ستار التحديث. وهكذا ما لبث أن تسارعت الشكاوى إلى الضابط «تومي- مارتان» Tommy-Martin المنتدب بالوكالة في مطلع تموز ١٩٢٥، أثناء إجازة «كاربييه»[١٤٧]. كما أن تقارير الاستخبارات الفرنسية حول نشاط الفرنسيين أنفسهم في الجبل كانت شهادة صريحة على أطماع المبعوثين في ما بينهم والعقلية الأبوية لدى الحاكم بالوكالة، فتفجّرت ضجة كبرى بين الثقافات المختلفة. بطبيعة الحال كان هذا التفجر قبل كل شيء بين المصالح السياسية.

كان «كاربييه» لا يعرف التعب، سارع في مخطط التغيير الهيكلي ووضعه قيد التطبيق:

- في الإدارة: حل نظام المشيخة الذي كان في عهد فيصل. وبدلاً من ١٤ ناحية، أصبحت السويداء مع قضاءي صلخد وشهبا ولكل منهما قائمقام. و٦ مديريات، لكل منها مدير[١٤٨].

---

١٤٥. MAEP, Beyrouth 982, Carbillet à Délégation à Damas, 10 Juillet 1924.

١٤٦. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٤، ص٣٧؛ عبيد، الثورة، ملحق، ص٢٨٩.

١٤٧. سعيد، الثورة، ص٣٠٠-٣٠٣؛ الشهبندر، مذكرات، ص٢٢١-٢٢٣؛ عبيد، الثورة، ص٢٨٤؛ MAEP, E 193, pp. 270-278; MAEP, E 240, pp. 232-239.

١٤٨. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٤، ص٣٧؛ Rapport à la Société des Nations 1925, p. 17.

– نظم القضاء من جديد وعيّن له: مدير عدلية – محمد عز الدين، ونائب عام – منصور عبد الصمد (لبناني)؛ وثلاثة قضاة: علي عبيد – السويدا، صياح الأطرش – صلخد، وحسين عز الدين – شهبا[١٤٩].

– أما في مجال التربية فافتتحت أول مدرسة في ظل الانتداب في الجبل سنة ١٩٢١ في السويداء وفيها ١٥٢ تلميذاً. وخطّط لبناء ٥ مدارس في كل عام. وفي سنة ١٩٢٣ شيدت ١٤ مدرسة وفي صيف ١٩٢٥ أصبحت المدارس ٥٠ حسب «كاربييه»[١٥٠]. وكانت تدرس اللغتين الفرنسية والعربية بحصص متساوية وتمّ في القرى الكبيرة تعيين معلم ثان معاون على حساب أولياء التلاميذ (مع إطعام المعلمين). وبلغ عدد تلاميذ السويداء ٣٨٠ تلميذاً وعدة معلمين. كان مدير التربية عبدالله النجار، وهو لبناني درزي، قد عيّن منذ عهد «ترنغا»[١٥١]. وكان من أتباع القضية العربية وكان «كاربييه» يشك به خصوصاً لأنه ماسوني ويوجه شيوخ الجبل إلى المحفل الدمشقي[١٥٢]. لقد اتهم بأنه يوزّع صحفاً وطنية ممنوعة[١٥٣]، وأصبحت الصحف العربية محرّمة إطلاقاً في الجبل[١٥٤]. لكل ذلك سرّح «كاربييه» المعلمين اللبنانيين الدروز وأحل محلّهم مسيحيين من حوران لأنهم أفضل بسبب التوتر بين المنطقتين، زد على ذلك أنهم كانوا أصحاب نكتة[١٥٥]. وقد اتسع التمادي في أساليب النكتة – وشمل دروزاً أيضاً – بأضرار متبادلة وأدت إلى عقوبات سجن عقب مزاح حدث بين معلم وضابط فرنسي في مقولة: «إذا ما الدرزي سعل أو عطس فهو يشتم الحاضرين من غير الدروز». وبناءً على هذه المقولة، فرض الفرنسيون عقوبة السجن على كل درزي يسعل أو يعطس بحضورهم. ونفّذ عقوبات بالسجن بهذه التهمة[١٥٦].

– وفي ما يتعلق بالصحّة فقد تم تجهيز مركز صحي في السويداء وكان موظفوه من الرجال فقط. حيث وردت شكاوى بأن الممرض العربي يتطاول على النساء، وأن الرجال الذين دافعوا عنهن قد افتُري عليهم كذباً وطبقت عقوبات سجن بحقهم[١٥٧].

١٤٩. أبو راشد، جبل، ص٢٠٠؛ Rapport, p. 17.

١٥٠. **MAEN**, Beyrouth 982, Bulletin de Renseignements, 5, 12, 15 Nov. 1923; Rapport, p. 16.

١٥١. MacDowell, **Druze revolt**, p. 266.

١٥٢. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Schoeffler, 12 Nov. 1923.

١٥٣. **MAEN**, Beyrouth 982, Carbillet à Schoeffler, 5 Nov. 1923.

١٥٤. عبيد، **الثورة**، ص١١٢؛ أبو راشد، جبل، ص٢٠٤.

١٥٥. Rapport, p. 16.

١٥٦. سلطان الأطرش، **مذكرات**، ج٥، ص٤٣، الشهبندر، **مذكرات**، ص١٥٣؛ عبيد، **الثورة**، ص١١١؛ الاحتجاج رقم٢٩.

١٥٧. الاحتجاج رقم ٥.

وفتحت في السويداء دار للسينما وشجع حضور السيدات[١٥٨]. وشقت طرق ترابية بين القرى الكبيرة – مما سهل سلوك الدبابات والمجنزرات أوقات المقاومة. سلكت أيضاً طريق دمشق – السويداء، وبعد أن كانت السويداء لا تعرف إلا سيارة واحدة خاصة سنة ١٩٢٣، أصبح فيها ٦ سيارات بعد عام واحد وفي شباط ١٩٢٥ بلغ عددها ١٤[١٥٩].

على صعيد المياه، فقد تم تمديد حوالى ٢٠٠ كم أنابيب لجر مياه الشرب ورمّمت بعض الآبار الرومانية، وتوسع السكان بالبناء في قراهم بأيديهم. وجمعت القطع الأثرية بأمر الحاكم في متحف تحت إشرافه الخاص[١٦٠]. وطرحت غرامات نقدية على كل من يبيع آثاراً أو يهدم بناءً أثرياً بقصد استعمال موادّه[١٦١]. وفرض في التعامل مع الضباط الفرنسيّين عدم العداء والجفاء. وعوقب الشيوخ والوجهاء غير الراضين بتكسير الحجارة للشوارع[١٦٢]. كما سمح للدرك من المتطوعين أن يضربوا الوجهاء بالسياط، ورفضت الشكاوى بحقهم – فكان ذلك علامة واضحة لتشتّت النظام القديم[١٦٣].

اعتبر «كاربييه» نفسه حامياً للشعب من «شيوخهم المستبدّين». فساند الفلاحين في الخلافات عند تقسيم الأرض مع الشيوخ[١٦٤] وشجعهم على زراعة العنب في الأراضي المنظفة من الحجارة[١٦٥]. وقد كتب يقول إنه قد عاون «٦٠,٠٠٠ درزي مقابل ٢٠ شيخاً»[١٦٦] – وقبل كل شيء ضد آل الأطرش وبخاصة ضد أقربائهم متعب ونسيب وعبد الغفار الذين تكتلوا ضده وطالبوا بحكم أهلي. وكان لا يتوانى في خطبه عن امتداح «العاميّة» ضد آل الأطرش من سنة ١٨٨٩–١٨٩٠ ويشيد بنشاط زعمائها[١٦٧]. كما اتخذ قراراً بإلغاء منصب نسيب كمندوب عن الجبل في دمشق الأمر الذي أجبره على العودة[١٦٨]. وأبعد متعب بعد حوادث شغب في قريته رساس إلى حمص[١٦٩]. وبصورة عامة، مارس كاربييه ضغوطاً

---

١٥٨. MAEN Beyrouth 1638, Bulletin No. 40, 11 Avril 1925.
١٥٩. MAEN, Beyrouth 1638, Bulletin No. 18, 16 Fév. 1925.
١٦٠. Rapport. p. 17.
١٦١. MAEN, Beyrouth 1638, Bulletin 982, 12 Nov. 1923.
١٦٢. الاحتجاجان رقم ١١ و١٢.
١٦٣. الاحتجاج رقم ٢.
١٦٤. MAEN, Beyrouth 982, Bulletin de Renseignements, 2 Mai 1924.
١٦٥. Rapport, p. 17.
١٦٦. Carbillet, Au Djebel, p. 22.
١٦٧. أبو راشد، جبل، ص ١٩٤.
١٦٨. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٥، ص٤٣.
١٦٩. MAEN. Beyrouth, Bulletin No. 18, 16 Fév. 1925.

شديدة على المتعاونين مع الأطرش وشجع المعارضة ضدهم حيثما كانت ممكنة، حتى إن «مضافات» الأطرش (حيث تلتقي الجماعات وتتناقش وتخطط لأمور السياسية أو النزاعات) كانت في نيسان سنة ١٩٢٥ فارغة «لدرجة أن القهوة لم تعد تحضّر هناك»[١٧٠]. بيد أنه ترك للمضافات المنافسة نشاطها، مثل «أبو عسلي» وغيرهم، من الصف الثاني، الذين لم يكونوا راضين بهذه الطبقية[١٧١] (انظر المخطط رقم ١٠). وكان «كاربييه» يسهّل ويشجع الخلاف والشقاق، بحجّة الحد من حقوق الشيوخ المميّزة. فانقسم الجبل على نفسه وساءت الحال واحتدّت. فتقدمت فئة من الجنوب بمذكرة تطلب فيها تقليد منصب قائمقام صلخد إلى الملازم «تيتيكا» Titecat بدلاً من المرشح الأهلي (نسيب الأطرش، المندوب السابق في دمشق بعد استدعائه). فتقدمت بالمقابل فئة ثانية، من الدرجة الثانية بمذكرة تطلب فيها أن يكون القائمقام أهلياً من صفوف العائلات القوية النفوذ[١٧٢]. غير أن «كاربييه» كان يدّعي أن سلطته مدعّمة من جماعات الصف الثاني وبعض الوجهاء الكبار، وأن هؤلاء يرفضون أن يكون الحاكم من عائلة الأطرش، وأن قرار الجناح الحرّ يرغب في أن يكون الحاكم غير ملتزم بالنظام العشائري وأن هؤلاء المؤيدين يعتبرون مطالبهم تقدمية. وقد ألقى عبد الغفار الأطرش، صيف ١٩٢٤ خطاباً علنياً استراتيجياً قال فيه:

«نحن نعلم أنه من الممكن أن نعرض لضيوفنا بعضاً من الإنجازات العامة، التي لم نستطع تحقيقها إلاّ مع حاكم فرنسي، لأن الحاكم الأهلي هو دائماً معرقل بالالتزامات العشائرية. فهو لا يستطيع أن يشق طريقاً مستقيمة، بل عليه أن ينحرف عن حقول فلان... ولا يستطيع أن يهدم جداراً مثلهم، من أجل شق شارع أو تمرير خط ماء مثلاً»[١٧٣].

كان ذلك حتماً أسلوباً يخفي وراءه درساً سياسياً، لوّح فيه جماعة الأطرش إلى حكم مركزي، وإلى هذا فهم لا يرغبون أن يخرج الحكم من يدهم إلى يد من هم أقل منهم شأناً. على هذا وحّدت جماعة الأطرش صفوفها، وطرحت خلافاتها جانباً، وتوجه وفد منهم إلى المفوّض السامي «ساراي» Sarrail في بيروت، يطلب إليه أن يكون الحاكم أهلياً حسب المعاهدة ودستور ٤ آذار ١٩٢١، أي «تطبيق الانتداب في جبل الدروز»[١٧٤]. ورفض

---

١٧٠. **MAEN**. Beyrouth 1638, Bulletin No. 29, 14 Mars 1925؛ سلطان الأطرش، مذكرات، ج٥، ص٤٣.

١٧١. **MAEN**. Beyrouth 1638, Bulletin No. 40, 11 Avril 1925.

١٧٢. **MAEN**. Beyrouth 1638, Bulletin No. 17, 14 Fév. 1925.

١٧٣. **MAEN**. Beyrouth 551, Déclarations faites par Abdulghaffer Pacha el Attrache, lors de la réception de l'Aid el Kebir, 12 Juillet 1924.

١٧٤. أبو راشد، جبل، ص٢٢١.

«ساراي» مطلب الوفد وادعى أن لا شرعية لهذه الوثيقة[١٧٥]. وتعرّض الوفد، في الوقت نفسه، إلى القانون الكيفي الذي تطبقه الإدارة في الجبل بعصبية وأبعد عنها المؤيدون[١٧٦]. وهكذا تأزّم الخلاف مع سلطة الانتداب وقيل فيه إنه أصبح أشدّ استبداداً من حكم العثمانيين[١٧٧]. وعندما سافر «كاربييه» في إجازة شخصية في أيار ١٩٢٥ وحل محلّه نائباً عنه ضابط باسم «رينو» Raynaud، أعار أذناً مفتوحة أكثر للشكاوى[١٧٨]، كما أظهر بعض التراجع عن معاوني «كاربييه» وقراراته[١٧٩]. وبدأ البعض من آل الأطرش أسلوباً جديداً. لقد تراجعوا عن المطالبة بحاكم أهلي ولكنهم أبدوا رغبتهم باستبدال «كاربييه» فقط. وهكذا جمّدوا طلبهم بحاكم من آل الأطرش، ونجحوا في جمع صفوف الجبل جراء هذا المطلب وكان سلطان في هذا الصف مع عائلته[١٨٠]. عمّت الجبل حركات حثيثة في ذلك الوقت (حسب تقرير «أبو راشد» في حينها)، وعادت اللقاءات إلى «المضافات» وأحاديث السياسة[١٨١]. وتقرر أن يتوجّه وفد إلى المبعوث السامي في دمشق وإلى المفوض السامي في بيروت لعرض المطالب الجديدة، فقوبلوا من «ساراي» المفوض السامي بفظاظة وطردهم[١٨٢]. ثم استغل سلطان مناسبة قتل «حمود نصر» على يد بدوي، فتسلّحت جماعته. كما أن المجلس في السويداء، الذي كان عليه أن يقرر بتاريخ ٣ تموز ١٩٢٥ في موضوع الحاكم، وجد نفسه في مواجهة مع «جمعية وطنيّة». وحدث اشتباك بالأيدي بين فارس الأطرش الملقب «أبو الفرنسيين» وبين حسين مرشد من جماعة الوطنيين. وعندما تقدم الضابط الفرنسي لمساعدة فارس، هاجمه حسين مرشد بمسدس واندلعت إثر ذلك أزمة حادّة، وأقرّت البعثة الفرنسية في دمشق عقوبات صارمة تشترط تسليم حسين مرشد للسلطة، وتوقيف ٢٠ شاباً كرهائن، ودفع غرامة مالية عالية، وهدم منازل آل مرشد، إذا لم يوفوا بهذه الالتزامات حتى موعد محدّد.

فبدأ النساء والأطفال والمسنّون يغادرون المدينة، كما استعد سلطان ومؤيدوه لحماية منازل مرشد[١٨٣].

---

١٧٥. أبو راشد، جبل، ص٢٢١-٢٢٢.

١٧٦. الاحتجاج رقم ٢١؛ أبو راشد، جبل، ص٢٣٣.

١٧٧. أبو راشد، جبل، ص٢٢٣.

١٧٨. Raynaud/Martinet, **Les bedouins de la mouvance de Damas**, Beyrouth 1922.

١٧٩. أبو راشد، جبل، ص٢٢٦-٢٣٢؛ **FO** 371/10850 Smart, 15 Juillet 1925.

١٨٠. **MAEP**, E 239, Raynaud à Schoeffler, 2 Juin 1925.

١٨١. أبو راشد، جبل، ص٢٥٠-٢٥٢.

١٨٢. **MAEP**, E 240؛ أبو راشد، جبل، ص٢٥٤؛ الحكيم، مذكرات، ص٢٤٣.

١٨٣. أبو راشد، جبل، ص٢٦٧-٢٧٤؛ **MAEP**, E 239 Raynaud à Délégation, 3 Juillet 1925.

ترك «رينو» السويداء دون نتيجة وحل محلّه «تومي مارتان». وقرّر المفوض السامي «ساراي» أن يهاجم، ودعا وجهاء آل الأطرش، حمد ونسيب وعبد الغفار ومتعب وسلطان لمقابلته في دمشق. وكان ينوي اعتقالهم[١٨٤]. لكن سلطان استشم ريح المؤامرة ونصح أقرباءه بعدم الذهاب. فلم يذهب سلطان واحتج متعب بالمرض وذهب الثلاثة الآخرون وباتوا ليلتهم في بيت العائلة في دمشق. وفي الصباح الباكر، اعتقلوا وسُفّروا إلى تدمر حيث أودعوا السجن هناك[١٨٥]. نُصح المفوض في دمشق بالعدول عن ذلك وحذر من عواقب هذا التصرُّف[١٨٦]. وذهب الشاب حسين الأطرش يبحث عن أقربائه، وعندما عاد إلى الجبل أنبأ عن الاعتقال. وكان ذلك السبب المباشر لاندلاع الثورة. إن الدعاية التي نُشرت من قبل سلطان الأطرش وجماعة الوطنيين بأن «الفرنسيين كالأتراك لا يؤمن جانبهم» قد تأكدت، وعادت إلى الأذهان الخدعة العثمانية الأخيرة. وتيقظت ذكرى المعدومين شنقاً من شيوخ الجبل[١٨٧]. وهكذا وبعد عدة اعتقالات في الجبل أصبح من الصعب على سلطان التراجع عن تعبئته. وفي آخر تموز ١٩٢٥ أبلغ «تومي مارتان» البعثة في دمشق أن القرى الجنوبية قد انضمّت إلى سلطان الأطرش[١٨٨].

فشلت السياسة الفرنسية بسبب تناقضاتها الداخلية، وأدّت هذه السياسة لتقوية حجج المعارضة الوطنية. وبالرغم من الإنجازات المعتبرة التي حققها الانتداب (والتي قد أهملت في كتابة التاريخ ضمن إطار القومية العربية) قد فشلت أيضاً هذه السياسة القائمة على الأسلوب الأبوي لدى الضباط والمفوضين السامين في تعاملهم مع المواطنين. بيد أن القومية العربية، والشعور الفتي عند الوطنيين علا نداؤهما في الأرياف والمدن: إن الشرف العربي مجروح - الموضوع الجوهري لا تنقذه إلاّ الثورة (تعابير توقظ كل شعور قومي). وظهر هذا الشعور في نداءات سلطان الأطرش بالثورة علناً. ومع النداَء للشرف رُدّت الحياة إلى بهاء العشائر الذي قد ركّز «كاربييه» على نقاط الضعف فيه فنال توفيقاً. إن الثورة السورية الكبرى، بالرغم من كونها مقاومة محقة ضد الاستعمار، قد أخّرت التطور الاجتماعي في الجبل (وربما في سوريا إجمالاً) لسنوات. واستغرق وقتاً طويلاً حتى أبرز مسائل السياسة الاجتماعية والاندماج مرة أخرى في نهاية الثلاثينيات، وبشكل فذ في «شعبية» سنة ١٩٤٧.

---

١٨٤. **MAEP**, E 234, Sarrail à Délégation, 11 Juillet 1925; Coblentz, Le Silence, p. 238.

١٨٥. **MAEP**, E 234; Delolee-Desloges à Sarrail, 12 Juillet 1925.

١٨٦. المصدر السابق.

١٨٧. **FO** 371/11505, Mayers, Beirut, 7. Jan. 1926;**FO** 371/10850 Smart, Damascus, 15 Juillet 1925.

١٨٨. **MAEP**, E 193, Tommy-Martin à Délégation, 21 Juillet 1025.

٦- الجبل والثورة السورية الكبرى

بكل اعتبار ينظر إلى الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧) كواقعة تاريخية أهملت من قبَل مدرستين للتاريخ، السورية والفرنسية. لقد كانت الأسس المرجعيّة، التي أمكن أن تلقي ضَوءاً على كتابة تاريخ «الوطنية السورية والاستعمار الفرنسي»، قد جرى سبرها في مكان آخر[١٨٩]. مع أن البحث في أبعاد الثورة في الجبل جهوياً قد شمل المدى الذي أخذته الثورة من بعد وطني أيضاً. إن الثورة السورية الكبرى، هي في نظر الكثيرين، نسخة جديدة، واستمرارية قياديّة للثورة العربية، التي تنحدر جذورها بالنسبة للجبل إلى الحدث المشهور لسنة ١٩١٠-١٩١١ والإعدامات التي أعقبته. أما قائدها في الجبل، سلطان الأطرش، فقد ناقشنا مسألة نسبه ومكانته في الجبل. والمسألة التي ما زالت غامضة هي: منذ متى كان التواصل بين الجناح الوطني في الجبل والوطنيين في المدن؟

إن زيارة إبراهيم هنانو، أحد قادة طلائع الانتفاضات ضد الفرنسيين، إلى الجبل سنة ١٩٢١ تركت لديه انطباعاً كبيراً دامغاً عن سلطان الأطرش، عندما تباحثا في موضوع ثورة ضد الانتداب الفرنسي[١٩٠]. ولقد ذكرت الاستخبارات الفرنسية في تقارير عن رائحة مخططات لثورة سورية كبرى منذ ثورة (١٩٢٢)، حيث وقعت سنة ١٩٢٢ ضمن بريد وارد من حيفا رسالة تقول:

«... يجب الاستفادة من حادثة الجبل (قضية أدهم خنجر - المؤلّفة) ويجب عمل كل شيء، أولاً، حتى تمتدّ الثورة إلى حوران. حانت ساعة الثورة الدّامية. نرجوكم أن تتأكدوا أن كل شيء جاهز. وعندما تندلع الثورة في جبل الدروز وحوران وضواحي حلب يجب أن تتحرّك المدن وتتدخّل. فيجب هدم الجسور وقلع سكك الحديد وقطع خطوط التلغراف وقيام المظاهرات. وفي اللحظة المناسبة يجب أن تصبح ثورة حقيقية»[١٩١].

كان رُسل الأمير عبدالله السريّون يحركون الجبل منذ ١٩٢٠. وبثت فرنسا أخباراً مفادها أنها تتخوّف من حرب عالمية ثانية وأنها ستخلي سوريا، وفي المقدمة جبل الدروز[١٩٢]. تقدم الشباب بأعداد إلى الانتساب إلى الجيش الأردني ومنهم حسين وعلي وأسعد الأطرش

---

١٨٩. Schäbler, "Das Phänomen der Vermeidung"; "History in the Way of Politics".

١٩٠. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٤، ص٣٩؛ MAEN, Beyrouth 551, Catroux à Gouraud, 28 Août 1921.

١٩١. MAEN, Beyrouth 982, Bulletin de Renseignements, No. 71, 9 Août 1922.

١٩٢. MAEN, Beyrouth 982, Bulletin No. 18, 16 Fév. 1925; MAEN, Beyrouth 982, Bulletin No. 22, 23 Fév. 1925.

ودخلوا في خدمة الأمير عبدالله[١٩٣]. وهكذا يتبيّن أن عمّان كانت مركز تحرّك وطني في تلك الأيام وكذلك كانت بغداد والقدس. ولكن الأمير عبدالله كان تحت مراقبة الإنكليز الذين منعوه من مساندة سوريا، كما نبّهوه إلى المتشدّدين السوريّين واللبنانيّين الذين كانوا في إدارته مثل: علي الركابي، نبيه العظمة، عادل أرسلان، رشيد طليع، مظهر رسلان، حسن أبو الهدى وغيرهم. ولكن مدير دفة الحركات الوطنية كان القاهرة منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى. غير أن هذه التعدديّة في مراكز النشاط المختلفة كانت من أسباب تشتُّت شمل الوطنيين وتباعدهم[١٩٤]. وفي هذا المجال، ظهرت في «المؤتمر السوري - الفلسطيني قناتان منقسمتان ومختلفتان بين أصوات الوطنيين:

- كان الجناح الأول يدعو بنغمة «هاشمية - بريطانية» ظاهرة في دور الدكتور الشهبندر.
- وكان الجناح الثاني يرفض قطعاً البريطانيين وعنه ينجرّ الرّفض على الهاشميين. فهم متلازمون مع الإنكليز. كان صوت هذه القناة شكيب أرسلان[١٩٥].

أثار الزعيمان ميولاً مضادّة أما الشيء الذي جمع بين سلطان الأطرش وبين الدكتور الشهبندر، إلى جانب الميل إلى الهاشميين والبريطانيين، فهو كراهيتهما لشكيب أرسلان. وقد ذكر سلطان باشا في مذكراته أن أرسلان قد دعا عمّه أثناء إقامته في القاهرة «كقائد عصابة تقاوم الخلافة»، بينما تحدث يحيى الأطرش فيه بصورة إيجابية[١٩٦]. لقد تعرف سلطان على الدكتور الشهبندر أثناء الثورة العربية وكذلك عندما جاء الشهبندر إلى الجبل بقصد الحماية. ولقد عرفه بصورة أقرب في وقت زيارة «لجنة كينغ - كرين» إلى الجبل[١٩٧]. كان الشهبندر من الوطنيين القلائل الذين بقوا على قيد الحياة، ومن بين من طلبوا العفو عن الذين اعتقلهم سامي باشا الفاروقي وأعدمهم شنقاً، ومن بينهم والد سلطان باشا الأطرش. فكلا الرجلين تعارفا منذ زمن بعيد[١٩٨]. لقد كان هناك تواصل قديم وعميق أيضاً، بين نسيب البكري وزعماء الجبل أيام الثورة العربية حين أمضى نسيب مدة طويلة في الجبل[١٩٩].

واستمر تواصل آخر أيضاً بين آل الأطرش وبعض الوطنيين في دمشق خلال الانتداب الفرنسي، وبخاصة مع الصحفيِّين الذين كانوا يوردون بعض الأعمدة عن الجبل حصراً، وما

---

١٩٣. **MAEN** Beyrouth 982, Schoeffler, 9 Mai 1924.
١٩٤. Khoury, "Factionalism".
١٩٥. Khoury, "Factionalism".
١٩٦. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٣، ص٢٤.
١٩٧. Seikaly, "Abdul-Rahman Shahbandar"; Khoury, **French Mandate**؛ حنا، عبد الرحمن الشهبندر.
١٩٨. سلطان الأطرش، مذكرات، ج٦، ص٣٧.
١٩٩. المصدر السابق.

يحدثه «كاربييه» من سوء وحظر على الصحف العربية من دخول الجبل[٢٠٠]. وقامت عائلة عز الدين الحلبي باتصالات كذلك مع حلقات وطنية في دمشق. إن أهم الاتصالات كانت في الاتفاق على قيام الثورة الكبرى، الذي تم في ربيع عام ١٩٢٥[٢٠١]. وفي شهر آذار تلاقى في دمشق كل من عبد الغفار الأطرش مع نسيب البكري وعثمان الشرباتي (تاجر حبوب في الميدان ووطني متعصِّب) ومعهم آخرون لم ترد أسماؤهم في تقارير المخبرين. وطلب أن يحرِّك موضوع التحاق جبل الدروز بدولة دمشق[٢٠٢]. وقد تحدث الشهبندر في مذكراته عن لقاء يعتبره الأول، وهو أنه التقى سراً في بيت صاحب جريدة «الفيحاء» قاسم الهيجاني في دمشق، مع حمد الأطرش في شهر أيار ١٩٢٥ وكان الموضوع كيف يمكن إشعال الثورة[٢٠٣]. بعدئذ عقدت اجتماعات عدة كانت غاية في السريَّة وحضر أكثرها زعماء من جبل الدروز[٢٠٤]. ويضيف الشهبندر أن هذه الاجتماعات كانت «باسم أفراد عاديين وليس باسم حزب»[٢٠٥]. ويذكر سلطان الأطرش في مذكراته عن هذه اللقاءات، أنه قد تمّ الوعد خلالها أن تتوحد «القوى الوطنية من خارج ومن داخل العاصمة وتمد يد العمل المشترك مع الجبل»[٢٠٦]، وإذا ما انفجرت الثورة يجب أن تعمَّ جميع أنحاء سوريا.

أسّس الشهبندر «حزب الشعب» في حزيران ١٩٢٥، وكان أول منظَّمة وطنيَّة في زمن الانتداب. وكانت قد بدأت نشاطها منذ مطلع العام بصورة غير نظامية[٢٠٧]، وكان عددها قرابة ١٠٠٠ عضو عند تشكيلها من المثقفين والصحفيين والتجار والملاّكين. أما عن عدد الدروز الذين التحقوا بحزب الشهبندر من خارج الجبل، فقد كان الالتحاق به أمراً صعباً. على كل حال، لم يكن للحزب أية وسيلة يساعد بها في الجبل، كما يذكر «الخوري»[٢٠٨]. ولكن كما يذكر الشهبندر، قرَّر الحزب أن يشعل نار ثورة في الشمال متزامنة مع إخواننا في الجنوب. وكان ذلك في ٢٠ آب ١٩٢٥ بحضور كل من: يحيى حياتي، حسن الحكيم، سعيد حيدر، جميل مردم، نسيب البكري، فوزي البكري، سعد الدين المؤيد العظم،

---

٢٠٠. Bulletin de Renseignements No. 11, 31 Jan. 1925; No. 42, 17 Avril 1925.

٢٠١. Bulletin No. 12, 2 Fév. 1925.

٢٠٢. **MAEN**, Beyrouth 982- Bulletin No. 29, 14 Mars 1925.

٢٠٣. سعيد، الثورة، ص٣٠٨؛ شهبندر، مذكرات، ص٦؛ سلطان الأطرش، مذكرات، ج٦، ص٣٧.

٢٠٤. سعيد، الثورة، ص٣٠٨؛ السفرجلاني، تاريخ، ص١٢٤.

٢٠٥. المصدر السابق.

٢٠٦. المصدر السابق.

٢٠٧. السفرجلاني، **تاريخ**، ص١٠٧؛ Khoury, **French Mandate**, pp. 141-148.

٢٠٨. Khoury, "Factionalism", p. 454.

وتوفيق الحلبي(٢٠٩). ومن الجدير بالملاحظة عدم الموافقة بين مذكرات الشهبندر ومذكرات سلطان، وقد يكون في ذلك إشارة إلى الاستياء الذي كان لدى الدروز مؤخراً، حيث تملّكهم الشعور بأن الوطنيين في المدن قد تخلّوا عنهم عند النقطة الحرجة، على كل حال ورد في مذكرات الجهتين، صيغة اتهام بالمسؤولية.

في طور توالي الأحداث، ظهرت جماعة في الجبل تقول برأي جديد «نعم لحاكم فرنسي ولكن لا لكاربييه».

وقد طرح الانتداب في شهر حزيران ١٩٢٥ في غياب «كاربييه»، سياسة كانت بحدٍّ ذاتها محاولة لمعرفة مدى ما يحاك من سياسات في «المضافات» بعد أن سمح الحاكم بالوكالة بالتردُّد عليها، بقصد كشف ما يدور بين الشيوخ الكبار. ولتنشيط الاقتراح المطروح، شكلت لجنة برئاسة عبدالله النجار (لبناني مثقف سياسياً ومدير المعارف)، ومعه حنا أبو راشد (صحفي) والترجمان يوسف الشدياق والقاضي علي عبيد(٢١٠). فوُسعت هذه اللجنة لكسب جماعات تساند الاقتراح الجديد وتسعى لحركة سلميّة(٢١١). وفي سياق هذا النشاط تشكلت فئة تحت اسم «الجمعية الوطنيّة» التي سعت لضمِّ الشباب من عائلات الصف الثاني في الجبل، وطرحت شعارين: «استقلال سوريا» و«حاكم فرنسي غير كاربييه» (بالرغم من أنهما طلبان متناقضان). وقصدوا بذلك كسب أعضاء المجلس إلى جانبهم، كونهم يمثلون الشعب. كان أبو راشد فخوراً بالنجاح في توضيح السياسة التي تسعى إليها هذه اللجنة، وبنتيجة ذلك قامت أول مظاهرات سلميّة وطنية في الجبل أمام مبنى المجلس في السويداء في ٣ تموز ١٩٢٥ - غير أن تدخل الضباط الفرنسيين أدّى إلى إراقة دماء(٢١٢). ولكن يذكر سلطان الأطرش أن مطالب هذه الفئة كانت متزمِّتة وتقتصر على استقلال سوريا ووحدتها فقط. وكان الوضع في الفترة القصيرة قبل انفجار الثورة الكبرى، كما يلي:

- إن الجناح الذي يرفض الانتداب الفرنسي رسمياً يسعى إلى الثورة ضده، ليس معارضة للرأي الذي قال بالاستفادة من الانتداب في تطور البلاد فحسب، وإنما كفاح ضد تمادي تسلط الانتداب مثل حكومة «كاربييه»، واعتبر سلطان ورفاقه أن «خيانة دمشق» قد تكون سياسة قصد بها وقف الثورة(٢١٣).

---

٢٠٩. الشهبندر، مذكرات، ص١٦٣.

٢١٠. **MAEN**, Beyrouth 551, Notice de renseignement sur Hana Abu Rachid, Fév. 1930.

٢١١. أبو راشد، جبل، ص٢٥٠.

٢١٢. أبو راشد، جبل، ص٢٥٧، ٢٦٦؛ سلطان الأطرش، مذكرات، ج٦، ص٣٤.

٢١٣. وصف المعارك حسب عبيد؛ الشهبندر؛ سلطان الأطرش؛ النجار؛ سعيد؛ الريس؛ إضافة إلى Andréa وBokova.

- في ١٨ تموز ١٩٢٥ أطلقت النار على طائرات استطلاع في جنوب الجبل.
- في ٢٠ تموز ١٩٢٥ استقبل سلطان ٢٥٠ مقاتلاً في صلخد.
- في ٢١ تموز ١٩٢٥ هاجم سلطان الحملة الفرنسية على نبع الكفر، بقيادة الكابتن «نورمان» Normand فأبادها، وسمِّيت «معركة الكَفر» ودخلت التاريخ بهذا الاسم.

كانت قبل ذلك قد سرت أحاديث بأن الأحداث الأخيرة قد ألحقت الإهانة بكرامة الدروز، وإذا استمر الحال فستداس بالأقدام. وهكذا رفض سلطان إخلاء طريق السويداء كما أمر «نورمان»، فغضب الأخير ووجَّه الشتائم إلى سلطان، وكانت معركة الكفر وهاجم الدروز الحملة وأبادوها عن بكرة أبيها[٢١٤]. وشملت حملة سلطان قرابة ٢٠٠ مقاتل جلّهم من جنوب الجبل، من القرى الثائرة التقليدية: ملح وصلخد وعرمان وغيرها، وكانت القرى تتمثل ببيارقها كما كانت زمن العثمانيين[٢١٥]. احتمى الجنود الفرنسيون في حجر في قلعة السويداء حتى ٢٤ أيلول ١٩٢٥ بينما هاجم الشعب في هذه الأثناء سراي الحكومة وفتح السجون. وإلى جانب القرى التي هاجمت في الجنوب وقفت جموع جديدة من الفلاحين والعمال ومن خارج الجبل ومن البدو مثل السردية، وساعد في ذلك سوء موسم العام. وأصبح عدد الثوار بين ٨,٠٠٠ و١٠,٠٠٠ مقاتل[٢١٦]. شكل الجنرال «ميشو» Michaud حملة عسكرية من نيِّف و٣٠٠٠ رجل مدعّمة، من أجل إعادة الهدوء والنظام. وأبادها الدروز في معركة المزرعة عن بكرة أبيها أيضاً وغنموا أسلحة أوتوماتيكية وغيرها، فعمَّت البهجة أرجاء الجبل بعد هذا النصر الثاني. وفقدت الجماعات التي لم تشارك في بداية الثورة، مثل آل عامر، السيطرة على تابعيها، ولم يعد أحد يقبل لنفسه أن يكون بعيداً عن ثورة منتصرة. أصيبت سلطة الانتداب بنكسة كبيرة، قال فيها الجنرال «أندريا» Andréa «إنها صفعة قاسية لهيبتنا» !Coup dur à notre prestige[٢١٧]. وبوشرت الاتصالات، ونقل الموقوفون في تدمر إلى دمشق، من زعماء الأطرش وعقلة القطامي. كما قام عبد الغفار الأطرش وعبدالله النجار ويوسف الشدياق بمفاوضات مع سلطان الأطرش من أجل مبادلة الأسرى بالمعتقلين. ونقل هؤلاء إلى سلطات الانتداب، أسباب استياء الثوار وشروطهم وألقوا الضوء على تصرفات «كاربييه»، وقد شملت الشروط:

- انسحاب القوات الفرنسية من الجبل والعفو العام.

---

٢١٤. سلطان الأطرش، مذكرات، ج ٧، ص٤٠.

٢١٥. راجع الفصل ١، ٦.

٢١٦. **FO** 371/10850, Smart to Chamberlain, 27 July 1925.

٢١٧. Andréa, **Révolte Druze**, p. 55.

- إطلاق سراح المعتقلين.
- تسمية مستشار فرنسي، وليكن «رينو» Raynaud، بدون امتياز تدخل.
- الحاكم «أهلي» والمجلس «مجلس أعيان» من العائلات القيادية (أي ليس من عائلات الدرجة الثانية كما كان الحال في عهد «كاربييه»).
- يضاف إلى ذلك: أن للجبل الحق في أن يتّحد مع أية دولة سورية، إذا ما رغب في ذلك[٢١٨].

بذل عبدالله النجار ويوسف الشدياق جهداً كبيراً، خفية عن «رينو» لإقناع سلطات الانتداب باتفاق لوضع حد للقتال. وبينما هذه المفاوضات جارية، أرسل سلطان الأطرش الدكتور الشهبندر ونسيب البكري إلى الوطنيين في دمشق لنقل أخبار الانتصارات في جبل الدروز[٢١٩]. وفي ١٧ آب ١٩٢٥، صعد إلى الجبل ثلاثة من ممثلي حزب الشعب، وطلبوا من الدروز أن يوقفوا الاتفاق مع الفرنسيين، وقرّروا مهاجمة دمشق، بحملة مختلطة من دمشقيين ودروز تكون بتاريخ ٢٣/ ٢٤ آب ١٩٢٥. كان الاتفاق، حسب هذا المخطط، أن يلتقي الفريقان في بلدة صغيرة خارج دمشق ومنها تندفع الحملة الوطنية على دمشق[٢٢٠]. بيد أن مخطط هذه الحملة فشل مرات عدة بعد إقرارها المتكرر. أما السبب، حسب الشهبندر، فهو أن الثلاثة لم يكونوا من الحزب وإنما أشخاص أصدقاء[٢٢١]. ثم اطلع الشهبندر ورفاقه في ٢٠ آب ١٩٢٥ على المخطط من جديد. وبعد يومين أعلموا الدروز أن تجهيز ٢٠٠ مقاتل كما وعدوا به ليس ممكناً. وزدْ على ذلك أن المخطط المرسوم قد كشفته خيانة[٢٢٢]. واعتقل قياديون من حزب الشعب، وأصبح الحزب محظوراً[٢٢٣]. وهكذا وجد الوطنيون من الجبل أنفسهم أمام حملة فرنسية. وبدأ القصف عليهم من الجو[٢٢٤]. لم يكن في القرية في مكان اللقاء سوى الشهبندر ونزيه المؤيد العظم ويحيى الحياتي وليس معهم، حتى مقاتل دمشقي واحد[٢٢٥]. ولم يحدث الهجوم وفشلت الحملة المشتركة وأدانتها الأجيال. الدمشقيون بنظر الدروز، مدنيّون ضعفاء وليسوا أهلاً للحرب. والدروز بنظر الدمشقيين

---

٢١٨. أبو راشد ص، حوران، ص٤١٨-٤١٩؛ سلطان الأطرش، **مذكرات**، ج٩، ص٤٠.
٢١٩. سلطان الأطرش، **مذكرات**، ج٨، ص٤٠.
٢٢٠. الشهبندر، **مذكرات**، ص١٦٩؛ سعيد، **الثورة**، ص٣٠٨، ريس، **كتاب**، ص١٩١؛ عبيد، **الثورة**، ص١٣٩.
٢٢١. الشهبندر، **مذكرات**، ص١٦٩.
٢٢٢. سعيد، **الثورة**، ص٣١٠؛ سلطان الأطرش، **مذكرات**، ج٩، ص٤٢.
٢٢٣. سعيد، **الثورة**، ص٣٠٩.
٢٢٤. Bokova, **La Confrontation**, p. 178; FO 371/10851, Smart to Chamberlain, 29 Aug. 1925.
٢٢٥. سعيد، **الثورة**، ص ٣٠٩؛ الشهبندر، **مذكرات**، ص١٧٠.

جماعة حرب ولا يصلحون لشيء آخر(٢٢٦).

والجدير بالملاحظة أن التعاون بين الوطنيين النازحين إلى الجبل والدروز بقي على حاله رغم هذا الواقع وأن المقاومة اكتسبت شكلاً قومياً بالفعل. وفي ٩ أيلول ١٩٢٥، عقد اجتماع بين وطنيين من دمشق وآخرين من الجبل(٢٢٧)، تقرر فيه الاتصال «باللجنة السورية - الفلسطينية» كي تبدأ بصوت دعائي للثورة في العالم وأن تقوم بجمع المال لها. كما اتفق جدّياً هذه المرّة على الهجوم مجدّداً على دمشق. كما يجب أن توسّع الثورة إلى جنوب لبنان. وبالرغم من الخلاف الذي وقع بين المجاهدين من الجبل بقيادة صياح الحمود الأطرش وآخرين من الغوطة والمرج(٢٢٨)، ولأنهم لم يستطيعوا الدفاع عن المدينة، تحصن المجاهدون بالغوطة، وقصفت دمشق طوال يومين بالمدافع(٢٢٩).

وقد نودي بسلطان الأطرش كـ«قائد عام للثورة الوطنية» وتركزت قيادة الثورة في الجبل، من مجلس سمّي «المجلس الوطني» وضم أهم الزعماء. وقد تقرر صرف قمح للمجاهدين، وجهز درك وطني لمراقبة التوزيع. وكذلك جهزت محكمة ثورية لمعاقبة الخونة والمتعاونين(٢٣٠). كما شكلت مجالس أخرى في مراكز المقاومة، كالغوطة. وكلف كل من منير الريِّس ومظهر السباعي بالاتصال والتنسيق مع حماه حيث الثورة قد اندلعت هناك بقيادة فوزي القاوقجي، بتاريخ ٤ تشرين الأول ١٩٢٥(٢٣١). ثم انتشرت الثورة في حمص والقلمون(٢٣٢)، وقد حملها الدروز أيضاً إلى إخوتهم بالعقيدة في منطقة جبل الشيخ(٢٣٣).

وفي مراجعة نداءات الثورة الموقعة من سلطان الأطرش، يتبين المرء الانتساب إلى المعسكر الوطني العلماني كما يمثله حزب الشعب. كما تورد النصوص شعارات التوجيه القومي في عهد فيصل وتعود من جديد: «الدين لله والوطن للجميع»(٢٣٤). وكان فيها عودة مباشرة إلى الثورة العربية في الشروحات والعبارات مثل: «... ها هي ١٠ سنوات مضت، حيث كافحنا من أجل استقلالنا وحرِّيتنا». أما «القضية العربية المقدسة» و«الشرف العربي»

---

٢٢٦. أبو راشد، حوران، ص٤١٠؛ ريس، **الكتاب**، ص٢٠١.

٢٢٧. حضر الاجتماع: الشهبندر، نزيه المؤيد العظم، حسن الحكيم، جميل مردم، سعيد حيدر، حسن الخارات.

٢٢٨. أبو راشد، **حوران**، ص٤٢٤؛ الشهبندر، **مذكرات**، ص١٨٥؛ سعيد، **الثورة**، ص٣١٠؛ السفرجلاني، **تاريخ**، ص١٥٢.

٢٢٩. Khoury, **French Mandate**, pp. 174-182; Bokova, **La Confrontation**, pp. 207-216.

٢٣٠. قرقوط، **الحركة**، ص٧١-٧٢.

٢٣١. الريس، **الكتاب**، ص٢٥٥-٢٥٦؛ Khoury, **French Mandate**, pp. 171-173; Bokova, **Confrontation**, pp. 201-206.

٢٣٢. Schäbler, "History in the Way of Politics".

٢٣٣. Bokova, **La Confrontation**, pp. 217-224; **FO** 371/10835, Salisbury-Jones, 18 Nov. 1925.

٢٣٤. كان هذا الشعار منتشراً في جنوب لبنان خصوصاً.

فقد تم الحديث عنهما بطريقة غير دينية. وكان من شعار الثورة «أن الدرزيّ والسنيّ والشيعيّ والعلويّ والمسيحيّ هم أمة عربية واحدة قويّة» يجب أن تتحرّر من نير الاستعمار. كانت النداءات تحمل هذه العبارات إلى كل الجهات في المدن والأحياء وتعبئها على هذه المبادئ[٢٣٥]. وفي ١٨ آب ١٩٢٥ بينما كانت المفاوضات جارية مع فرنسا، قام الصحافي الألماني «فون فايتسل» Von Weizl بمقابلة صحفية مع سلطان الأطرش، الذي أكد «أن الثورة ليست محليّة فقط، بل هي ثورة عامة وهكذا يجب أن ينظر لها... هدفها استقلال عموم سوريا» - ويقصد بها «منطقة الانتداب بما فيها العلويون ولكن خارج لبنان». ويبيِّن سلطان طبيعة هذا الاستقلال:

«إننا نريد مجلسنا النيابي الحر، وجيشنا الوطني، وحكومتنا الوطنية وملكنا أو رئيسنا لدولتنا. فليكتف الفرنسيون ومثلهم الإنكليز في العراق بأن يكون حضورهم كمستشارين فقط»[٢٣٦].

في الحقيقة لم تكن الثورة السورية الكبرى يوماً «ثورة درزيّة révolte Druze تبعها عصيان في دمشق insurrection à Damas، كما يصفها الجنرال «أندريا» الذي قمعها في الجبل[٢٣٧]. فهي ثورة تلاق وطني، بالرغم من صعوبة التنسيق الذي لقيته وحتى لو لم تبلغ أهدافها.

تبع النصريَن الأولين للدروز خسارتهم الأولى في المسيفرة أواسط شهر أيلول ١٩٢٥. وتلتها في شهر شباط ١٩٢٦ معركة دامية في اللجاه حيث انتقل مقر القيادة الدرزية، ولكن حدثت هناك بعض المشاكل مع البعض من بدو السلوط[٢٣٨]. وفي ربيع ١٩٢٦، استعاد الفرنسيون السويداء بعد معركة دامت ست ساعات قتالاً دامياً مستميتاً[٢٣٩]. وشكل الجنرال «أندريا» الذي سمي حاكماً للجبل منذ تشرين الأول ١٩٢٥[٢٤٠] «سرايا الحرس السيار الدرزي» (الإسكادرون). وكان على الرجال أن يلتحقوا بسلاحهم وخيولهم وتصرف لهم رواتب عالية ذهباً[٢٤١]. وتشكلت من ١٠٠ رجل، على رأسها ضابط فرنسي مع إبراهيم الأطرش - وكان اشتراك هذا الأخير علامة واضحة لتراجع التأييد للثوار في الجبل. ونهاية

٢٣٥. سعيد، الثورة، ص٣١١-٣١٦؛ السفرجلاني» تاريخ، ص١٥٣-١٦١ (نداءات الثورة).

٢٣٦. Neue Freie Presse, Wien, 21. August 1925, “Gespräch mit dem Sultan der Drusen. Im Hauptquartier der Aufständischen”.

٢٣٧. Schäbler, “Coming to terms with failed revolutions”; Andréa, **La révolte druze et l'insurrection de Damas 1925-1926**; Longrigg, **Syria**.

٢٣٨. أبو راشد، حوران، ص٤٥٨؛ الشهبندر، مذكرات، ص٢١٥-٢١٦.

٢٣٩. Bokova, **La Confrontation**, p. 238.

٢٤٠. **MAEN**, Beyrouth 551, No. 366/S.

٢٤١. Bokova, **La Confrontation**, p. 239.

شهر أيار ١٩٢٦ زار السويداء المفوض السامي الجديد، وهو المدني الأول في هذا المنصب، «هنري ده جوفينيل» Henri de Jouvenel[٢٤٢]. بادئ الأمر زار منطقة آل عامر وتجمع هناك المستسلمون أمام الحاكم الجديد[٢٤٣]، إذ، في شهر أيار ١٩٢٦ استسلمت أكثرية قرى شمال الجبل[٢٤٤]، بينما كان الجنوب ما زال حتى ذلك التاريخ صامداً مع الثوار. وفي شهر حزيران ١٩٢٦ دخل الجيش صلخد ومعها قرى أطراف الجبل الشرقيّة. ولكن جماعات الثوار توزعت في جميع الجهات، وكانت قيادة الثورة في تنقل مستمر ودعمتها القرى المستسلمة رسمياً. إن سلطان الأطرش والدكتور الشهبندر استخدما العنف بشكل متزايد أيضاً من أجل تأخير استسلام القرى، بينما أمر الجنرال «أندريا» بتوزيع إعلانات بالعفو العام، باستثناء القياديِّين الداعين للثورة[٢٤٥]. وصدرت أحكام بالموت غيابياً على كل من: سلطان الأطرش وعادل أرسلان والدكتور الشهبندر وزيد ومتعب وصياح الأطرش وعقلة القطامي وآخرين[٢٤٦]. إن العفو العام كان مسألة مركزية[٢٤٧]. وقال حمزة درويش في استجواب مع ضباط فرنسيين إن نهاية التمرد تتعلق بالعفو «وبوقوف فرنسا عند كلمتها - وإلا سيبتعد الباقون إلى جانب سلطان»[٢٤٨].

وفي الخريف أصدر الأمر بالانسحاب إلى اللجاه[٢٤٩]، وفي شهر تشرين الأول ١٩٢٦ غادر سلطان والشهبندر الجبل، بعد أن قابل وطنيون فيصل، ملك العراق[٢٥٠]. واستقر سلطان الأطرش والشهبندر ونسيب البكري في «الأزرق» على الأراضي الأردنية وكان قد سبقهم كثير من النساء والأطفال للحماية منذ مطلع الثورة[٢٥١]. واستجابة لعدة احتجاجات فرنسية على موقف الإنكليز، وتغاضيهم عن نشاطات الثوريين التي تأتي من مراكز اللجوء ضد منطقة الانتداب الفرنسي، قامت القوات البريطانية بتطويق الأزرق وأجبرت سلطان على الرحيل مع قيادته إلى الأراضي السورية. فانتقل إلى الصفا لمدة قصيرة ولكنه اضطرَّ للعودة إلى الأزرق، بعد تعرضه لوابل من القنابل الفرنسية وقلة التموين طوال إقامته. فعاد الإنكليز

---

٢٤٢. كان de Jouvenel رئيس تحرير صحيفة Le Matin ووزير المعارف وممثل فرنسا لدى عصبة الأمم.

٢٤٣. Andréa, **Révolte Druze**, p. 96.

٢٤٤. Andréa, **L'insurrection**, pp. 129-141.

٢٤٥. **MAEN**, Beyrouth 2362, Instruction relative à l'application de l'arrêté No. 544, 24 Nov. 1926.

٢٤٦. **FO** 371/11509, Vaughan-Russell, 1 April 1926, FO 371/11507, Hole, 19 Aug. 1926.

٢٤٧. **MAEN**, Beyrouth 2362, Dossier, 64, 21 Sept. 1926؛ القاسمي، «وثائق جديدة».

٢٤٨. **MAEN**, Beyrouth 2362, Dossier 63, Sept. 1926, Note de Renseignements sur Hamze bey Derviche.

٢٤٩. **MAEN**, Beyrouth 1638, Rapport du 15 au 30 Nov. 1926.

٢٥٠. الشهبندر، **مذكرات**، ص٢١٨، عبيد، **الثورة**، ص٢٠٤.

٢٥١. **FO** 371/11505, Shuckburgh to Oliphant, 17 Déc. 1925.

ثانية إلى تعذيب الثوار اللاجئين وقهرهم، وأعادوهم عنوة إلى حيث أتوا[٢٥٢]. وفي شهر أيار ١٩٢٧ صمد محمد عز الدين الحلبي مع ٢٥٠ رجلاً في الصفا[٢٥٣]، وفي الجنوب عاد سلطان ومن معه إلى البادية مرة أخرى[٢٥٤]. وفي شهر حزيران ١٩٢٧ توحّد الفريقان في الجنوب. فعاد البريطانيون وأنذروهم بالعودة وحدّدوا لهم مدة أقصاها ١٦ تموز ١٩٢٧، وعليهم أن ينزحوا عن الأراضي التي كانت تحت سيطرتهم في البادية[٢٥٥]. وسمح الملك عبد العزيز بن سعود للاجئين أن يقيموا فوق أراضيه، بعد توسط من شكري القوتلي وعادل أرسلان، وحددت لهم منطقة النبك على وادي السرحان، في النجد، بالقرب من ملاّحات «كاف»[٢٥٦]. واستقبل ابن سعود قادة الثورة بترحاب ووزّع عليهم سيوف الشرف التذكارية[٢٥٧].

إنهالت على فوزي القاوقجي، في حماه، القنابل الفرنسية، في الحي الذي كان يتمترس فيه ويختفي. ففرّ في شهر نيسان ١٩٢٧ إلى العراق[٢٥٨]، وهكذا قمعت الثورة نهائياً.

تفاقمت الخلافات السياسيّة منذ بداية الثورة وزادت حدّة بعد فشل الثورة السورية الكبرى. ففرضت التفرقة نفسها على اللجنتين اللتين تشكلتا من أجل تمويل الثورة. ويورد شكري القوتلي، الذي كانت له علاقة مميّزة وفوق العادة مع ابن سعود، أنه قام بصحبة عادل أرسلان بإقناع الحاج أمين الحسيني بضرورة تشكيل لجنة ثانية في القدس لتمويل الثورة السورية الكبرى. وتكوّنت هذه اللجنة الجديدة فعلاً تحت اسم «لجنة القدس» - بيد أنها ما لبثت أن اختلفت مع «المؤتمر السوري - الفلسطيني» المنعقد في القاهرة[٢٥٩]. لقد كان التمويل الذي وصل لمساعدة الثورة قد أرسل في الحقيقة من مغتربي أميركا، حيث تشكل هناك «اتحاد سوريا الجديدة» وكانت له فروع تحت أسماء المقاتلين في عدة مدن[٢٦٠].

وبعد فترة قصيرة عمّ السخط فئات اللاجئين بسبب توزيع المساعدات. لقد شكا الشهبندر

---

٢٥٢. مقابلات مع زيد الأطرش وحمد قرقوط؛ عبيد، **الثورة**، ص٢٠٥-٢٠٦.

٢٥٣. **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements du 15 au 31 Mai 1927.

٢٥٤. MAEN, Beyrouth 551, Bulletin, 6 Juin 1927.

٢٥٥. **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements du 1er au 15 Juillet 1927.

٢٥٦. عبيد، **الثورة**، ص ٢٠٦؛ **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements du 15 au 31 Juillet 1927.

٢٥٧. **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements 9 au 23 Sept. 1927.

٢٥٨. الخوري، **تاريخ**، ص٥٥٣؛ Khoury, **French Mandate**, p. 204.

٢٥٩. Khoury, "Factionalism", pp. 460-461.

٢٦٠. حديث مع زيد الأطرش (شقيق سلطان الأطرش) ومنظور الأطرش (ابن سلطان الأطرش)؛ **MAEN**, Beyrouth 551, Lettre de Adel Arslan aux chefs rebelles des groupements de l'Ouest, 15 Mars 1927.

من أن القدس لم ترسل المساعدات منذ مطلع ١٩٢٧ للثوار في اللجاه، بل للذين في الغوطة فقط ولربما كانوا يهمونها أكثر[٢٦١]، بعد أن كان عادل أرسلان قد أكّد للمجاهدين في اللجاه بأن المساعدة ستأتيهم حتماً[٢٦٢]. لقد بلغ عدد النازحين ١٣٠٠ شخص، خارج منطقة الانتداب الفرنسي. و٤٠ عائلة أمكنها البقاء في الأزرق بواسطة برجس الأطرش، عملوا هناك بتجفيف الملح. كما نزحت عائلات أخرى إلى فلسطين أو إلى عمان للعمل هناك[٢٦٣]. ولكن القسم الأكبر من اللاجئين هم الذين نزحوا إلى النبك وكانوا يتلقون التموينات القادمة من القدس التي قام عادل أرسلان بنفسه بتوزيعها، غير أن هذه التموينات قلّت وعمّ العوز في المخيمات وتسبب ذلك بخلافات. وشعر سلطان عندها بمساس بهيبته ووجد نفسه في خلاف مع عادل أرسلان الذي كان على خلاف دائم مع قيادة الأطرش. وتبودلت اتهامات حول التوزيع والدراهم. وهكذا تأكد للاجئين أنهم ليسوا وحدهم في سوء الوضع. كذلك عمّ خلاف بين جناحي الوطنيين من المدن، وكان خلاف مزدوج الوجه، من جهة في عدالة توزيع المعونات، ومن جهة ثانية، وهو الخلاف الأهم: في تحديد المسؤول عن نكبة فشل الثورة. وعلى هذا وقف الإخوة البكري الذين فقدوا كل بيوتهم، بمحاجّات نزاع مع الدكتور الشهبندر، واتُّهم (ظناً) بأنه جهز لنفسه عيادة في القاهرة بأموال اللاجئين سنة ١٩٢٧. وتم العفو عن آل البكري وبمناورة سياسية سنة ١٩٢٨، بينما بقي الشهبندر على اللائحة السوداء. هكذا أفقد معسكر الوطنيين في النفي الروح المعنوية. ودام النفي ١٠ سنوات، حتى تشكلت في سوريا حكومة وطنية وعمّمت عفواً عاماً، تمكّن بموجبه اللاجئون من العودة إلى ديارهم[٢٦٤].

قام «أبناء الصحراء» - كما سُمّوا من قبل المنظمات المساعدة - في الكاف في وادي السرحان - بتجفيف الملح ونقله على الجمال وتسويقه في الأردن من شدة العوز، طوال إقامتهم تقريباً. لكن انقسم لاجئو النبك أيضاً إلى جناحين. وكان السبب في هذا الانقسام، كما في سابقه، التوزيع والعوز. وتشكلت لجنة من الذين ادعوا بعدم إنصافهم من قبل لجنة الأطرش، من كل من: محمد عز الدين وعلي عبيد ومعهم علي الملحم[٢٦٥] ويوسف العيسمي من عائلات الدرجة الثانية من الجنوب وتكلفت بالتوزيع. ورحل الأطرش وبعض

٢٦١. Khoury, "Factionalism", footnote 77.

٢٦٢. **MAEN**, Beyrouth 551, Lettre d'Adel Arslan aux Chalghin en date du 15 Mars 1927.

٢٦٣. **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements, 9 au 23 Sept. 1927.

٢٦٤. **MAEN**, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements, du 15 au 22 Août 1927, Annexe.

٢٦٥. حديث مع كل من: زيد الأطرش، حمد قرقوط، جاد الله عز الدين؛ نيسان ١٩٩١ وأيلول ١٩٩٣.

الآخرين معهم إلى الحديثة وبقي قسم آخر في النبك(٢٦٦). أما سلطان الأطرش فقد انتقل وعائلته إلى الكرك عام ١٩٣٢(٢٦٧).

وقد بدت بوادر «الشعبية» في الظهور.

---

٢٦٦. Khoury, "Factionalism", pp. 460-461. **MAEN**, Beyrouth 551, Note sur la situation des dissidents druzes, 29 Déc. 1931.

٢٦٧. حديث مع زيد الأطرش وحمد قرقوط، شهر نيسان ١٩٩١.

الفصل الرابع

الشعبيّة


Universitäts- und Landesbibliothek
Sachsen-Anhalt

١- سوريا حتى نهاية الانتداب

عُرفت التسع عشرة سنة بعد الثورة السورية الكبرى حتى نهاية الانتداب في سوريا، بالتاريخ السياسي المضطرب والأزمات الاقتصادية. ومن أجل أن نلمّ بنتائجها على دولة جبل الدروز، لا بدّ من أن نلقي نظرة على مجريات الأحداث في دمشق، فبعد بعد أن اتّحدت دولة حلب مع دولة دمشق أصبحت دمشق عاصمة الجمهورية السورية منذ بداية سنة ١٩٢٥.

أعفي المفوّض السامي «ده جوفينيل» وحلّ مكانه الدبلوماسي «هنري بونسو» Henri Ponsot الذي أعلن أن كل ما يشاع عن نهاية الانتداب باطل. ولكنه أضاف أن نيّة سلطة الانتداب، حفاظاً منها على مصلحة دولة جبل الدروز ودولة العلويّين وحقهم في الاتحاد مع دولة سورية، أن تعمل رويداً رويداً على نقل مهام السلطة إلى أيدي حكام وطنيين، وأن قوانين الطوارئ مثل قوانين الصحافة ستخفّف. واتّحد الوطنيون في دمشق على مبدأ «العمل المشترك السليم» وكانت في الطليعة «الكتلة الوطنية». لقد استمرّت «الكتلة» في ميدان العمل طوال التسعة عشر عاماً حتى الاستقلال. وبينما كان الجناحان المتشدّدان يكافحان في المنفى، انحرفت «الكتلة» في داخل البلاد إلى النفعيّة[١]. ولم تكن حزباً ذا أهداف مرسومة خاصة بها، وإنما كانت عبارة عن تجمّع مفكّك، وكل وجيه سياسي فيها أتى بمؤيّديه الشخصيين الذين كانوا موالين للزعيم وشخصه فقط، (كما هو الشأن في كل علاقات بين زعيم وجماعته) دون أي شعور بأي التزام تجاه «الكتلة» كمنظمة. وأسس فخري البارودي سنة ١٩٢٩ منظمة «الشباب الوطني» وكان هدفه في البداية تكوين جيل جديد من القيادات

---

١. Khoury, **French Mandate**, pp. 243-284.

الوطنية[٢] . كما تأسّست سنة ١٩٣٣ من صفوف الجيل الثاني للوطنيين «عصبة العمل القومي» ، وقد انعكس عمل هاتين المنظمتين أيضاً في جبل الدروز .

في سنة ١٩٢٨ ، أجريت انتخابات جمعية تأسيسية لوضع دستور للجمهورية السورية ، تحت راية «الكتلة» ، غير أنها كانت متباعدة الآراء في نقاط عديدة مع وجهة نظر الانتداب الفرنسي[٣] . وأنجزت الجمعية سنة ١٩٣٠ ، دساتير مختلفة منفردة لكل واحدة من الدويلات السورية . وبهذه الخطوة ، كان تأييد جديد للانفصال . واستمر الجدل بين سلطة الانتداب الفرنسي وبين «الكتلة الوطنية» ، وأصبح القدر السياسي لدولة جبل الدروز ودولة العلويين ولواء الإسكندرون ، من النقاط الجوهرية للكفاح الوطني حتى نهاية الانتداب . لقد جرت في شتاء ١٩٣١-١٩٣٢ انتخابات للمجلس النيابي ، ونالت «الكتلة الوطنية» ١٧ مقعداً من أصل ٦٥ وقد طالب المجلس بمعاهدة على نمط المعاهدة العراقية-البريطانية[٤] . ولكن سوء الحالة الاقتصادية بعد الثورة ، أدى إلى تظاهرات وعدم استقرار ، فعطّلت سلطة الانتداب بقيادة المفوض السامي الجديد «ده مارتيل» de Martel المجلس النيابي وأوقفت الدستور . واعتبر رئيس الجمهورية السورية مطلق الصلاحيات . وكان وقتها تاج الدين الحسني الذي حكم البلاد بالمراسيم . وفي نهاية سنة ١٩٣٥ ، توفي إبراهيم هنانو الزعيم السوري الحلبي ، الذي نظّم ثورة الشمال في بداية عهد الانتداب . وقد أدى احتفال مأتمه إلى تظاهرات حاشدة وصدامات في الشوارع[٥] . وشلّ إضراب عام في شهر كانون الثاني ١٩٣٦ الحياة العامة . وعمّت مطالب الشعب بالدستور والعفو العام ، ووصل التأييد من العراق وفلسطين . وأذعن المفوض السامي على أثرها وتمّ الاتفاق معه أن يسافر وفد سوري مفاوض إلى باريس حيث كانت وقتها «الجبهة الشعبيّة» على رأس الحكم . ودام التفاوض في تحضير المعاهدة حتى خريف ١٩٣٦ . ولكن المجلس النيابي الفرنسي عارض لجنة التفاوض الفرنسية ولم يصدّق مشروع المعاهدة .

وقد جرت في سوريا انتخابات نيابية في شتاء ١٩٣٦ ، وكان عليها أن تحقّق الاستقلال . وفازت «الكتلة» في هذه الانتخابات بأكثرية مقاعد المجلس . وبموجب مرسوم من المفوض السامي أُلحقت دولة جبل الدروز والعلويين ومنطقة الجزيرة في شمال البلاد (بين دجلة والفرات) بدولة سوريا . وقامت في بعض هذه المناطق أزمة بين مؤيّدي الالتحاق وبين

---

٢ . Khoury, **French Mandate**, p. 312.

٣ . وأهمها إعلان عن سيادة الدولة المستقلة .

٤ . اعترفت المعاهدة البريطانية - العراقية سنة ١٩٣٢ باستقلال العراق .

٥ . Khoury, **French Mandate**, pp. 457-468.

الانفصاليين. وفي سنة ١٩٣٩، كان المفوض السامي الجديد «بيو» Puaux مبعوثاً للحكومة الفرنسية المحافظة الجديدة، وأعلن أن مصلحة فرنسا هي المحافظة على حقها في الانتداب. فاستقالت الحكومة السورية واستقال رئيس الجمهورية السورية، وشكل المفوض السامي مجلس إدارة لتصريف شؤون البلاد بإشرافه. واستمرّ الحال هكذا طوال الحرب العالمية الثانية حتى قام الحلفاء، بريطانيا وفرنسا الحرّة، بإلغاء الانتداب في سوريا وأعلن استقلال البلاد. وأعلن الجنرال «كاترو» استقلال سوريا في احتفال بتاريخ ٢٧ أيلول ١٩٤١. ولكن الحلفاء تنازعوا في ما بينهم على مناطق النفوذ. غير أن هذا التنافس وتضييق دوائر النفوذ الذي اندفع فيه الحلفاء بكل تشدّد من أجل التسلّط، كان لمصلحة سوريا وقاد إلى إنهاء الانتداب. وجرت في سوريا سنة ١٩٤١ انتخابات نيابية وفازت «الكتلة» مرة أخرى بأكثرية المقاعد[٦]. وانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. وطالبت الدولة بقيادة القوّات المسلحة الخاصة Troupes Spéciales. ولكن فرنسا تمسّكت بأن يكون لها امتيازات في سوريا. وفي سنة ١٩٤٥ أُنزلت قوّات فرنسية في بيروت، وادعت فرنسا أن هذه القوّات إنما جُلبت لتحل محلّ القوّات الحالية. وتبع ذلك احتجاجات وتظاهرات ومواجهات في سوريا، أدّت في النهاية إلى الانفجار. واقتحمت القوّات الفرنسية المجلس النيابي في دمشق، وبعد تهديد بريطاني بالتدخّل العسكري، بدأت القوّات الفرنسية بالانسحاب من المدينة. وكان جبل الدروز أول منطقة تحرّرت في سوريا «بانقلاب أبيض» ودون إراقة دماء. وأُجبر الفرنسيون على الخروج تحت الحماية من الجبل.

وبعد عام من الأحداث، غادر آخر جندي أجنبي التراب السوري، في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وكان يوم الاستقلال، «يوم الجلاء»، وبه كان الاستقلال الثاني لسوريا. لقد أوردنا هذه الفترة التاريخية في سياق عابر شامل. ولكن كيف كانت فترة التسعة عشر عاماً المضطربة في «منطقة المنازعات»، دويلة جبل الدروز، وكيف كانت تأثيراتها؟

٢- حقبة التحول من محاربين إلى موظفين

تميّزت فترة التسع عشرة سنة، منذ نهاية الثورة السورية الكبرى حتى النهاية الحقيقية للانتداب الفرنسي، بتطوّرات اجتماعية سريعة، كما كانت تاريخاً سياسياً متقلّباً.

لقد تتالت تطوّرات اجتماعية وسياسية تفاعلت مجتمعة، في مطلع الاستقلال السوري

---

٦. Hourani, **Syria and Lebanon**, pp. 279-285.

وبداية العهد الجديد وأدت إلى صدام داخلي ثان في الجبل وهو ما عرف باسم «الشعبيّة». وما زالت آثار حروب الأهل عالقة في النفوس حتّى يومنا هذا. ويقال غالباً «إن العاميّة انتهت مع الشعبيّة فقط»[٧]. وولدت «الشعبيّة» في جنوب الجبل أيضاً، حيث استمر منذ «العاميّة» تقليد «ثوري اجتماعي». لقد كانت الجماعة ملتحمة طوال فترة الثورة السورية الكبرى القصيرة، ولكن بعد نكستها بدأت الانقسامات. ففي «العاميّة» كان الهدف الأول هو معاملة العائلات من الدرجة الثانية في حقوق تقسيم الأراضي، وإنهاء التعاقب على الحقول الزراعية، ووضع حدّ لإقطاع الأطرش والترحيل. أما في «الشعبيّة» فقد كان الهدف التساوي أكثر في الحقوق المنتظرة مع تقدم الاندماج في سوريا، وأن تحل محل الزعامة العشائرية نخبة من الخبراء. ولكن العشائرية تلقت ضربة من قبل جيل متعلم جديد. لم يكن النظام العشائري قد انتهى، بل اخترقته حركة الشعبية، على الرغم من أن بعض خطوات التحديث قد نفذت.

لقد شهدت فترة الثلاثينيات من القرن العشرين، تطوّراً اجتماعياً، بدأ مع الانتداب، ويعدّ استصلاح الأراضي مظهراً لذلك. وسُمّي في الجبل حاكم جديد «كليمان غرانكور» Clément Grandcourt في شهر تشرين الأول ١٩٢٧. وقد حكم مع ضباطه بيد من حديد وبخاصة في جنوب الجبل الذي استمرّ ثائراً مدّة أطول[٨]. وانطلق «غرانكور» من حيث توقف «كاربييه». إذ أراد أن يطلق اسمه على أحد شوارع شهبا تقديراً لأعماله. وأعاد فتح الطرق، ومدّ الهاتف حتى قرية مردك في شمال الجبل[٩]. كما أجبر سكان القرى على أعمال السخرة بمعدل يوم كل ثلاثة أيام في الأشغال العامّة. وأعاد المعلّمين، وعادت معهم خدمات استخبارات الانتداب. وأعيدت عقوبة تكسير الحجارة في الشوارع. ونفذ التجريد من السلاح بكل صرامة. وللمرة الأولى في تاريخ الجبل، اضطر بعضهم لشراء قطع السلاح المطلوب منهم تسليمها. وبدأت القرى المحاذية للبادية تعاني من الحوادث مع البدو ونهب قطعانها. حيث كان الوضع الاقتصادي سيئاً للغاية وبخاصة في جنوب وشرق الجبل، بسبب الجفاف المتواصل في المنطقة، وموجات الجراد التي كانت تداهم باستمرار. وعومل الجنوب الذي تحمّل العبء الرئيس للثورة، بقساوة شديدة أكثر مما عومل به شمال الجبل، الذي سبق بالتسليم لفرنسا. وتبيّن أن سلطة الانتداب قد تنبّهت لغلطاتها السابقة. ولذلك سلّطت عيون استخباراتها على ضباط الخدمات الخاصة الفرنسيين في الجبل، واستحضرت ضباطاً من الخارج إلى الموقع،

٧. مقارنات وتأكيدات من خلال عدة مقابلات في الجبل.

٨. Arrêté No. 1063.

٩. MAEN, Beyrouth 551, Bulletin de Renseignements, 15-31 Déc. 1927.

من أجل تقييم الأوضاع وأخذت الاحتياطات اللازمة[١٠]. وطبقاً لمشورتهم أصبح التجريد من السلاح فردياً وليس عاماً كما كان فريضة جماعية على القرية. وطوال ٧٠ عاماً ظلت السلطات الحاكمة تحاول تجريد الجبل من السلاح ولكنها لم تفلح أبداً. ومع هذا، عاد التسلّح وعمّ الجانبين وقت «الشعبيّة» السلاح الذي كان مخفياً. وانطلقت مرحلة جديدة، ولم يعد يسأل عن الفئات المحاربة التقليدية، كما كان قديماً. ولكنها عادت سنة ١٩٤٧ والتهبت من جديد، غير أنها انتهت وذهبت أدراج الرياح. والذي يرغب في القتال الآن عليه أن يلحق بالجيش السوري. وتقديراً لإنجازاتهم الحربية عُيّن في الأربعينيات عبد الغفار وحسن الأطرش كوزراء حرب. وقد خلف الأمير حسن (ولد ١٩٠٥)، وهو سليل جيل الأطرش الأول في الجبل، الأمير حمد الذي قتل أثناء خلاف مع آل المقداد سنة ١٩٢٦[١١]. وبدأ حياته السياسية، كناطق بلسان الغاضبين من الانتداب في جنوب الجبل. ولم يكن في بداية حياته مرموقاً على المسرح السياسي.

وقد عانى الجبل من عامين من الثورة وعامين من القحط، مما أدّى إلى إنهاكه اقتصادياً. ودام ذلك حتى سنة ١٩٢٩ حين بدأ شيء من الفرج، وكان الموسم جيّداً فوق العادة. وفي العام الذي تلاه كان عادياً، وبلغ الجبل حدوده السكانية. فقد وصل جنوباً وشرقاً إلى أبعد الحدود الممكنة في البادية. إلاّ أن فترة جفاف عادت وتحكّمت سنة ١٩٣٣-١٩٣٤، بحيث أصبح السكن في المناطق الجنوبية خطراً[١٢]. وكانت الإمكانيات على حدود حوران من جهة الغرب، غير مساعدة أيضاً. فضاق العيش في الجبل وقلّت المؤن[١٣]. ولم يبق من وسيلة سوى السفر إلى لبنان أو إلى فلسطين أو الهجرة إلى ما وراء البحار، وهي الإمكانيات التي استفاد منها النمو السكاني خاصةً أن الأملاك الزراعية قد توزّعت بسبب حق الإرث في الجبل. وأصبح المزارع الصغير بالكاد يقتات. والقطع الزراعية الطويلة أصبحت لا تتجاوز بعض الأمتار عرضاً. حتى الملاّكون الكبار توزّعت ملكيّاتهم، وأثر ذلك في وضع الشيوخ.

وفي تقرير لرئيس الاستخبارات الفرنسي يوجّهه إلى خلفه، عن التطوّر في الجبل يقول: «الدرزي ما زال يتحدّى كل ضغط يمنع أو يحدّ من كبريائه. ولا يرفع من مكانته. وأعمال

١٠. MAEN, Beyrouth 551, Compte rendu du Mortier, Lieutenant Colonel, Dir. SR Levant sur la situation au Djebel Druze.

١١. في سيرة حياة الأمير حمد: أنظر من هو في العالم العربي، ص ٤٣.

١٢ MAEN, Beyrouth 551, Brigault de Granrut, 24 Août 1933؛ الصغير، بنو معروف، ص ٦٦٣؛ معضاد القرقوط، أضواء، ص ٦١.

١٣. NA RG 84 3247/7, development study, s.d.

الحقول قائمة على الفقراء ولكن العوز يجرّهم إليها شيئاً فشيئاً. في رأس الدرزي تقدير صحيح لمصلحته. إن الذين يدعون بالوجهاء، هم منشغلون دائماً في تحسين مردود أملاكهم. طبعاً لا يستطيع المرء أن يقول بأنهم يعملون فعلاً، ولكنهم يحاولون. والمثال أبناء حسين الأطرش في عنز أو أبناء فارس في ذبين. إنهم لا يهابون مشاركة عمالهم في العمل معهم في الحقول»[١٤].

إن إعادة تقسيم الأراضي ما تزال قائمة، يستغلها الشيوخ ويستفيدون منها مادياً. فقد كانوا ينظّمون خلط الحقول ويعيدون تقسيمها كلّما رأوا أن الفلاحين قد استصلحوا الأراضي، وأمكن فلاحتها[١٥]. إن سلطة الانتداب التي عملت في غالبية أنحاء سوريا على «استقرار القطاعات الزراعية»، لم تتدخّل في جبل الدروز إلا بنصيحة أحياناً، وقد بوشر للمرة الأولى سنة ١٩٣٦ بأعمال مسح الأراضي في «بلد العادات والتقاليد»، من أجل تثبيتها. ولكن «مسائل معيّنة استوجبت دراسة أدق»، وعلّقت أعمال مسح الأراضي في نفس السنة[١٦] وبقيت هذه المسألة حتى سنة ١٩٥٨ زمن قانون استصلاح الأراضي. وبيعت للمرة الأولى تقريباً، في شهر شباط ١٩٢٥، غراس مثمرة في الجبل. أما الآن فالبحث عن الغراس المثمرة لا ينقطع[١٧].

وبسبب تكاثر السكان وضيق الأراضي الزراعية، قرّر سكان مدينة السويداء اقتسام أرض الرعي التي عرفت «بالمشاع القديم» شرق السويداء في أعالي الجبل واستغلت في زراعة الأشجار المثمرة. لقد سبق لهذه الزراعة أن شُجعت زمن الانتداب[١٨]. ورغب عبد الغفار الأطرش ومؤيدوه أن يجري توزيع الحصص قياساً على قدر ما يملك كل فلاح (وحسب طلب آل الأطرش، يكون لهم الثُمن)، كما كان في توزيع «الجَذَر». غير أن العدد الأكبر من السكان كانوا راغبين في أن يكون التوزيع على عدد السكان في السويداء. كما تحرّك سكان القرى المجاورة وطالبوا بإشراكهم بالتقسيم. وبعد جدال دام سنتين، احتدّت الأمور بحيث استدعت تدخّل سلطات الانتداب. وكان القرار النهائي بأن الحق في امتلاك أرض ظهر الجبل لسكان السويداء فقط. ويجري التوزيع على المبدأ التالي: حصتان للفدان (وبذلك

---

١٤. **MAEN**, Beyrouth 551, Olive, Notes pour mon successeur, 8 Oct. 1930.

١٥. **MAEN**, Beyrouth 1638, Bulletin de Renseignements, 16 Fév. 1925.

١٦. **MAEN**, Beyrouth 870, Rapport relative au travaux du cadastre et d'amélioration foncière effectués en 1936, s.d.

١٧. **MAEN**, Beyrouth 1638, Bulletin de renseignements No. 12, 2 Fév. 1925; 3 Nov. 1927.

١٨. شجع «كاربيه» زراعة الأشجار المثمرة.

يشترك الملاكون بأفضلية) وحصة واحدة لكل ساكن ذكر.

لقد خدم مبدأ التقسيم هذا الملاكين أكثر. ومع هذا فقد كانت فيه إيجابية بأنه أصاب غير الملاّكين بنصيب من الأرض أيضاً[١٩]. وكذلك أصبحت المهن اليدوية الحقيرة سابقاً جذابة. وافتتحت سنة ١٩٢٥ أولى ورشات تصليح السيارات. وجهزت بقطع التبديل اللازمة. وكان عدد السيارات في السويداء قد بلغ ١٤، عامّة وخاصة[٢٠]. وفي ثلاثينيات القرن العشرين أصبح الميكانيكيون مهنيين من أبناء البلاد[٢١]. كما أصبح سرايا الحرس السيّار Escadron Druze مصدر كسب جديد في الجبل. لقد جهزتها سلطة الانتداب في البداية لسبب سياسي عسكري محض، تحت نية «أن يكون للمزاج الدرزي التقليدي المحارب، حقل انشغال»[٢٢] – مع غض الطرف عن حقيقة أن «الاسكادرونات» قد قدمت خدمات كبيرة ضد الثورة خلال الفترة ١٩٢٥–١٩٢٧[٢٣]. ولشدة الإقبال عليها في ما بعد، كان يؤخذ من وقت لآخر، فرد من كل عائلة فقط.

وقد افتتحت مدرسة متوسطة في الجبل لتحضير الشباب لدراسات متخصصة. ولكن القبول فيها كان محدوداً بحجة أن: «... سوق العمل في الجبل محدودة ولا تتحمّل خريجي جامعة كثيرين»[٢٤]. وبالموازاة، جعلت سنة إضافية أعلى في المدارس العادية، تحضر الشباب للتوظيف. كانت المدارس بالنسبة إلى الشعب في الجبل، مطلباً مهماً. فمنذ سنة ١٩٢٦ حتى سنة ١٩٣٣ ارتفع عدد المدارس من ٧١ مدرسة إلى ١٠٥، في وقت لم يكن التعليم الإلزامي مفروضاً بعد. ومن أجل متابعة الدراسة في دمشق وبيروت، كانت حوالى ١٠ منح دراسية مخصصة للجبل[٢٥] ولكنها كانت لأبناء الوجهاء ذوي التأثير الذين كانوا يؤخذون دون مسابقات. بينما كان على أبناء الشعب العاديين أن يتقدّموا بامتحان يقتسمون به ما تبقى من منح شاغرة[٢٦]. وكان وقت «الشعبيّة»، عدد من خريجي الدراسات العليا في الجبل مثلاً:

– سعيد أبو الحسن (ولد ١٩١٦) – حقوق، دبلوم، جامعة القديس يوسف في بيروت.

١٩. جادالله عز الدين الحلبي، ٢٨ أيلول ١٩٩٣؛ راجع فصل ٢، ٥.

٢٠. **MAEN**, Beyrouth 1638, Bulletin de Renseignements, No. 18, 16 Fév. 1925.

٢١. **MAEN**, Beyrouth 551, Massiet 2 Oct. 1925.

٢٢. **MAEN**, Beyrouth 551, Rapport du Capitaine Désidéri, s.d. (1934).

٢٣. **MAEN**, Beyrouth 551, Ponsot à Clement Grandcourt, 10 Mai 1928.

٢٤. **MAEN**, Beyrouth 551, Rapport du Capitaine Désidéri, s.d. (1934).

٢٥. **MAEN**, Beyrouth 551, Massiet à Haut-Commissariat, 2 Oct. 1933.

٢٦. حديث مع سعيد أبو الحسن (مولود ١٩١٦).

– جادالله عز الدين (١٩١٦) – مهندس زراعي، جامعة عين شمس، القاهرة.
– جميل أبو عسلي (١٩١٥) – حقوق، جامعة دمشق.
– حسين عبد الدين – حقوق، جامعة دمشق.
– معاذ هنيدي (١٩١٢) – لغة فرنسية، بيروت.
– الطبيب توفيق عز الدين – جامعة القاهرة (تخرج زمن كان والده في المنفى) . . . وغيرهم.

لقد كان إلى جانب هؤلاء عدد كبير من المعلمين والضباط من أبناء المنطقة (كان العمل المتوافر الذي يستطيعه المرء في الجبل هو وظيفة «معلّم أو ضابط» كما يرد في الأقوال غالباً)[٢٧]. ومما ورد في تقارير الفرنسيين، أن عدد الموظفين ازداد تزايداً سريعاً في «الدولة الدرزية». وكان التنافس بين الزعامة العشائرية ونخبة الموظفين الجديدة أهم الأسباب التي أدت إلى تفجر «الشعبيّة». ومثال عن ذلك أن الحقوقي سعيد أبو الحسن رفض «العمل مع أمّيين لأنهم أبناء سلالة كبيرة فقط»[٢٨].

في شهر أيار ١٩٣٠، نصّ شبه الدستور التنظيمي statut organique الذي وضع ذلك العام للجبل، في قسمه الأول على المساواة بين المواطنين أمام القانون. وعلى حرية الفرد، وحرية الاعتقاد وحرية الرأي والصحافة، مع تأكيد على حقوق أخرى أساسية وعلى اللغتين الرسميتين: العربية والفرنسية. كما كان فيه قسم ينظم الإدارة العامّة:
– السلطة الحكومية تتألف من: الحاكم بالتعاون مع مجلس مديرين.
– القضاء: حصراً بيد قضاة المحاكم الرسميّة.
– المجلس: غير منتخب، قوامه ١٠ وجهاء يسمّيهم الحاكم العام، كما يسمي المديرين والمديرين القضائيين.
– مهمة المجلس هي النظر في الضرائب والميزانية والقوانين وبصورة عامة في تمويل الدولة، كما تشير الفقرة ١٨[٢٩].

كانت لإعلان هذا الدستور التنظيمي ردود فعل مختلفة:
– وجهاء العشائر ورجال الدين وجدوا فيه أن نفوذهم يضمحل. وبالمقابل رأى فيه الفلاحون الصغار والطبقة الثانية تخفيفاً ما، «لم يعد هناك شيخ».

---

٢٧ . حديث مع سعيد أبو الحسن وجاد الله عز الدين.
٢٨ . NA RG 84/3247, revised list of attorneys, 5 March 1948؛ حديث مع سعيد أبو الحسن، ٢٦ أيلول ١٩٩٣.
٢٩ . Arrêté du Haut Commissaire de la République Française, N 2114, du 14 Mai 1930, promulgant le Statut Organique du Djebel Druze.

– المتنفذون السياسيّون من أصحاب الخبرة في الجبل، مثل عبد الغفار الأطرش، رأوا في الدستور مساعدة لنفوذ أكبر.

– ومن الملاحظ أنه بالرغم من نصوص الدستور فإن الأوضاع لم تكن حرّة فعلاً. وفي نفس السنة ١٩٣٠، صدر مرسوم في حفظ النظام العام: حدد عقوبة حتى عامين سجناً مع غرامة نقدية على كل من يحاول أن يثير شغباً أو إزعاجاً للراحة العامة والنظام، كما تنطبق العقوبة على «محاولة ترويج لغط يؤثر في الرأي العام»[٣٠].

– ويعتقد أن هذا المرسوم كان موجهاً إلى سياسة المضافات ومحاصرة تعاضد الفئات ضد موظفي سلطة الانتداب، كما يمكن أن يطال المرسوم الدعاية الوطنية من أجل إلحاق جبل الدروز بسوريا.

واتخذ الأمير حسن الأطرش وعبد الغفار الأطرش من الأزمة الاقتصاديّة منفذاً كي يطرحا، على السلطات العليا للانتداب، تنظيماً جديداً في الجبل: فبرهنا أن منصب المستشار الإداري الفرنسي غير ضروري، وهو باهظ التكاليف. كذلك في إدارة الأشغال العامة، إذ يجب أن تعلن الأشغال العامّة كتابياً. وحيث إن أجور الموظفين الوافدين من الخارج عالية بمقدار ضعفي أجور العاملين من أبناء الجبل، لذلك يستحسن اقتصار التوظيف على المواطنين المحليين فقط. كما يجب فتح مدرسة نموذجية في السويداء، يجري تمويلها من خلال إغلاق بعض مدارس الريف إذا لزم، ويقترح فرض ضريبة جمركية على القمح المستورد من الخارج. ويجب أيضاً تجريد البدو من السلاح لأنهم يعكرون عيش سكان القرى الحدودية، المجرّدة من السلاح[٣١]. وباختصار: إن زعماء الجبل يعملون بسياسة الكرامة والتعاون وبالنفعيّة أيضاً. مع أن التعاون المشترك يمكنه أن يمضي بدون احتكاكات كما هي الحال في دمشق. إن الجنرال «ماسيه» Massiet الذي خلف «غرانكور» مبعوثاً للمفوض السامي لدى دولة جبل الدروز وحاكماً للمنطقة، قد أكد للأمير حسن أنه يتفهّم جميع مطالبه ويساند رغبات آل الأطرش. وقد اقترح أن يكون للحاكم مكتب تعاون مباشر، يكون سكرتيره مولوداً في الجبل[٣٢]. أما الأمير حسن ومن حوله فبرزوا بأشخاصهم وخبراتهم في السياسة الإدارية بينما اشتبك الضباط الاستعماريون الفرنسيون، بالسياسة العشائرية التقليدية مع «لغة الشرف». وظهر «المرض الدرزي» مرّة ثانية وبرز في مطلع الأربعينيات في الاتصال بين الأمير

٣٠. Arrêté N 157, 24 Oct. 1933.

٣١. MAEN, Beyrouth 551, Audience chez le Haut-Commissaire accordée à la Délégation Druze, 20 Sept. 1933.

٣٢. MAEN, Beyrouth 551, Massiet à Haut Commissariat, 2 Oct. 1933.

حسن والعميد «بوفييه» Bouvier (وسيتم بحث ذلك في الفصل التالي). و تنامت خبرة الموظفين الأهليين، وأمكن ذلك ضباط الخدمات الخاصّة باتخاذ مناصب المستشارين، بينما أصبح مدراء الدوائر المحليّين يديرون أعمالهم بأنفسهم(٣٣).

بيد أن المعارضة ضد آل الأطرش تنامت أيضاً. وأما الانقسام في مخيمات اللاجئين في النبك، بين الأطرش في المنفى وبين معارضيهم، فقد تسرّب إلى الجبل. وتواصلت الرسائل من محمد عز الدين وعلي عبيد وعلي الملحم وقاسم أبو خير إلى أقاربهم وأصدقائهم يعبرون بها عن استيائهم من تعامل الطرشان. وعن رسالة جوابية من الجبل إلى النبك سنة ١٩٣٠ ما يخطر «بالشعبيّة» ما يلي:

« . . . إن شيوخنا القدامى ينظرون إلى مصالحهم الشخصية فقط . . . ولم يعد أبناء الشعب يعترفون بنفوذهم. البلد يحتاج إلى مفكرين مثلكم. إن رجال الشعب يعملون من أجل رفاهية الوطن . . . وإنهم يشكلون روحاً واحدة قد أجمعوا عليها وهي الوطن والإخلاص والتضامن»(٣٤).

الرسالة موقعة من كل من حمد البربور (من أوائل المتنازعين مع سلطان الأطرش)، محمد العبدالله، صالح عزيز، مرعي حاطوم، يحيى كيوان، حسين الشوفي وقاسم أبو خير الذي أصبح قائد «الشعبية» في ما بعد. وفي سنة ١٩٣٣ قدمت إلى سلطات الانتداب مذكرة تحمل ١٧٠ توقيعاً وفي مقدمتهم حمزة درويش وسليم الجرمقاني. ويشير الموقعون إلى أنفسهم بـ«نحن حزب الشعب وعائلات جبل الدروز»(٣٥). وقد دعمت سلطة الانتداب عام ١٩٢٨ لمدة قصيرة الحركة الشعبيّة التي اعتمدت على دستور ١٩٣٠، ولكن صنّفتها من بعد كحركة غير مرغوب فيها لأنها تدعو إلى زعزعة الأوضاع في البلاد(٣٦). كما أن حمد البربور، قد أعفي من عضوية المجلس بعد أن تبيّن أنه موقع على الرسالة التي اكتشف أمرها. وحسب معطيات مؤسِّسي «حزب الشعب» أعلاه، فهم مجموعة من فلاحي الجنوب، كانوا يسعون إلى تأسيس حزب معترف به، يحمي حقوقهم من الوجهاء، ويخفّف الضرائب عن الفلاحين وينمّي ثرواتهم(٣٧). وفي نغمة

٣٣. **MAEN**, Beyrouth 551, Devic à Haut Commissariat, 7 Fév. 1934, 10 Mars 1934.

٣٤. **MAEN**, Beyrouth 551, Direction du Service de Renseignement, information, 834, 2 Déc. 1930, annexe.

٣٥. **MAEN**, Beyrouth 551, 20 Juin 1933 (النسخة العربية الأصلية للرسالة).

٣٦. **MAEN**, Beyrouth 551, Direction du Service de Renseignements, 19 Nov. 1930; information 814, 27 Nov. 1930; information 834, 2 Déc. 1930.

٣٧. **MAEN**, Beyrouth 551, Direction du Service de Renseignements, information 785, s.d.

تعـود إلى «العاميَّة» قبل ٥٠ سنة، عاودت الحركة نفس الطريقة بعد ١٥ سنة واكتست ثوباً وطنياً. كما أصبحت «العامية» توصف في غالبية أنحاء العالم بالمفاهيم التقدمية والأفكار الجريئة حسب إيديولوجيات ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين. ولقد تلاقت في الحركة «الشعبية» جماعات الطبقة الثانية في المنطقة الجنوبية من رجال عائلات كثيرة (بربور، قرقوط، وغيرهم كثيرون) كما انضم إلى صفوفها كثير من غير الملاكين، أملاً في تحسين أوضاعهم، لاسيَّما أن في أوساطهم عدداً من المنفتحين، علماً أن فئة الطبقة الثانية من ملاكين وغير ملاكين مع حفنة كبيرة من المثقفين، كانتا المحرك للشعبية في السنوات التي سبقتها.

وبالتلازم مع هذه التحـركـات، تنـامـت المطـالـب المختـلفة لفـئات المعـارضة الوطنية والقـومية المتشدِّدة على مختلف صبغاتهم، أهمها طلب الوحـدة مـع سـوريا، بيـد أن سياسة الانتداب بالتعـاون مع الأمـير حسـن كانت في استـمرار الانفـصال عـن سـوريا، سنة ١٩٣٥. وقـد صرَّح ضابط فرنسي مبعوث في دولة جبل الدروز عـلناً بما يلي:

«إن استقلال جبل الدروز هو إنجاز من سلطة الانتداب... الدروز سكان متجانسون، يطوِّرون أنفسهم في محيط يختصُّ بهم. لا يريدون دولة بالمعنى الدولي، وإن الانتداب قد وجد من أجلهم. وجبل الدروز حكومة مستقلة وليس دولة. ويحصل الدروز على بطاقات هوية مع المعلومات التالية: «مواطن سوري ينتمي لحكومة جبل الدروز» Sujet Syrien, ressortissant du Gouvernement du Djebel Druze.

توجيه: الرغبة في الاستقلال الذاتي تقوّى وتدعّم.

توجيه: يجري إعداد التطور المنظور بهدف سياسة استقلالية درزية محدّدة معلنة في عهدة سلطة الانتداب تتحمّلها سياسياً، واقتصادياً، ودبلوماسياً»[٣٨].

بيد أن المفوضية السامية أجرت تعديلاً على الفقرة الأخيرة وأصبحت مُعدلة كما يلي: «يجري إعداد التطور المنظور بهدف استقلالية سياسية درزية»[٣٩].

وهكذا فقد توجّه الكفاح السياسي في الأعوام التالية تبعاً لما تقدم واشتد توقداً نحو التحرر والاندماج.

٣٨. **MAEN**, Beyrouth 551,Tarrit à Martel, 7 Mai 1935.

٣٩. **MAEN**, Beyrouth 551, Lagarde à Tarrit, 21 Mai 1935.

٣- انفصاليون واتحاديون واندماجيون

بعد النجاح الساحق الذي حققته «الكتلة الوطنية» في الانتخابات، وكذلك في سياق المفاوضات السورية - الفرنسية من أجل المعاهدة، صدر في كانون الأول ١٩٣٦ مرسوم عن المفوض السامي يؤكد إلحاق «المنطقة المجاهدة»، جبل الدروز، بالدولة السورية. وكانت منطقة جبل الدروز ومنطقة العلويين آخر منطقتين بقيتا خارج الجمهورية السورية، التي كانت حتى مطلع سنة ١٩٣٦ تتكون من ثماني محافظات فقط[٤٠]. وقد جهدت «الكتلة الوطنية» في سعيها إلى اندماج كامل للجبل. غير أن سلطة الانتداب أصرت على منح بعض الصلاحيات المحددة في مجالي الإدارة والمالية في هاتين المنطقتين. و تظهر هذه الصلاحيات، مقارنة مع نظام فدرالي، مميّعة، بينما تظهر في إطار النضال الوطني الذي يشترط اندماجاً كاملاً في دولة منسجمة، تظهر كعرقلة استعمارية، وأصبح الوضع في الجبل كما يلي:

- يسمى الحاكم من قبل رئيس الجمهورية السورية.
- يقترح الحاكم أسماء الموظفين الكبار ويعين صغار الموظفين.
- ينتخب تسعة من أعضاء المجلس انتخاباً وثلاثة يعينهم الحاكم.
- يسمي رئيس الجمهورية الموظفين السامين القضائيين.
- لحكومة الجبل الحق في جباية الضرائب.

بيد أن المادّة الأولى من مرسوم ١٩٣٦ قد نصت «إن منطقة جبل الدروز جزء من سوريا». فانطلق النضال في الأعوام التي تلت وعمّ جهات المحافظة المستقلة مالياً وإدارياً من أجل اندماج كامل.

انتقلت المهام الإداريّة من الحاكم الفرنسي إلى حاكم سوري. ومع أن «الكتلة» وعدت بتسمية موظفين دروز لوظائف في محافظات أخرى، منعاً للبطالة بين ذوي الخبرة، كما يعين سوريون بالمقابل في الجبل، إلاّ أنه رافق تسمية «نسيب البكري» كأول حاكم سوري في جبل الدروز شيء من التململ لدى بعضهم[٤١]. وكانت تسمية نسيب البكري، في الواقع، لعبة ذكية من الحكومة السورية، لأنه لم يكن لأي عضو في «الكتلة» صلات تاريخية في الجبل أقوى وأقرب من صلاته. وهو الوسيط القديم بين «فيصل» والمجاهدين في الثورة السورية

---

٤٠. FO 371/20065, MacKereth to Eden, 2 March 1937.

٤١. FO 317/20848, MacKreth to Eden, 5 Jan., 12 Jan. 1937.

الكبرى ١٩٢٥، من بعد في الجبل. ولكن الدبلوماسية عند سياسيي آل الأطرش كانت ترشح بالإجماع وعلناً الأمير حسن الأطرش. وعاد الصراع القديم من أجل منصب الحاكم العام. وكان الأمير حسن واضحاً في طلبه، «المنصب لابن الجبل» والمعني بذلك شخصه طبعاً. وكان له في هذا المبدأ معين يسانده، هو «تري» Tarrit، المبعوث الفرنسي، ومعه المستشار المدني «برينو» Pruneaud، وكانا ما زالا أمينين لتوجيه العام الفائت وما زالا يسعيان لاستقلالية الجبل عن سوريا، ويساندانها[٤٢]. واستقبل نسيب البكري بكل فتور منهما أيضاً. وبعد أخذ وردّ، توافق الأمير حسن مع «الكتلة» على إجراء حفظ ماء وجه الجانبين: استقبل نسيب البكري بكل تكريم ثم عاد إلى دمشق بسبب واجباته النيابية، وأوكل مكانه توفيق الأطرش قائد الدرك قائماً بالأعمال[٤٣]. وبعد انتهاء مدة التعيين، سمي الأمير حسن الأطرش حاكماً. وبتعليمات من الأمير أغلق مكتب «الكتلة» في السويداء[٤٤].

يشير ذلك إلى معارضة قوية، ضد الأمير حسن الأطرش، لاسيّما أنه في الوقت نفسه قد تأسست أحزاب في الجبل. كما أصبح «للكتلة» قاعدة أيضاً، وكانت أولوية النفوذ بالعلاقات «لحزب الشعب» إذ إنه كان يتضمن شيئاً من الأهداف الاجتماعية. كما كان هناك تنظيم آخر تحت اسم «هيئة الشعب الوطنية» تعاون مع جمعية «الشباب الوطنية» وله مكتب في صلخد. لقد كانت تلك المنظمات غير ثابتة، قائمة بسبب عدم الرضى العام عن الوضع الداخلي في الجبل وهي متوافقة على تعارف موحَّد: الالتحاق بسوريا.

كان الاختلاف واضحاً بين تصورات الأجيال للموقف. لقد حضَّر بعض الشيوخ القدامى، محمد عز الدين وأخوه فواز، سنة ١٩٢٨ (عندما كان محمد يتمتع بالنفوذ) وثيقة لمبدأ اتحاد بين سوريا والشعب الدرزي تنطلق من استقلالية منطقة الجبل السورية، وقد وجدتها الاستخبارات الفرنسية لدى فواز[٤٥]. وتتشكل الوثيقة من ٢٠ بنداً فيها مشروع اتحاد على النحو التالي: «مراعاة للوضع والعادات والتقاليد الاجتماعية لعشيرة الجبل التي تختلف عنها في سوريا، ونظراً لحقيقة أن الجبل أرض لا يمكن فصلها عن سوريا، فهو يرتبط بها بعلاقات العرق واللغة والاقتصاد الجيد». وتشير الوثيقة أيضاً إلى تحفظات في الحقوق السيادية، وبموجب هذا العهد تكون القيادة العليا فيه لسوريا. وبالنسبة للحاكم ينتخب لمدة

---

٤٢. **FO** 371/20848, MacKereth to Eden, 8 April 1937.

٤٣. Homet, **Histoire secrète**, p. 185.

٤٤. **FO** 371/20848, MacKereth to Eden, 21 April 1937.

٤٥. **MAEN**, Beyrouth 551, Copie d'un projet de convention entre la Syrie et le Djebel Druze, 14 Août 1928.

عامين ولا يعاد انتخابه. كما يمر النص بمواقع مختلفة على تقاليد العشيرة والرجوع إليها. يستثنى الجبل من «الخدمة العسكرية التي تطبق في سوريا. ويكون للجبل علم وطني يوضع في زاوية العلم السوري». هذه كانت تصورات جيل المسنّين والذين يمكن اعتبارهم اتحاديين ضمن حدود. بينما كان جيل الشباب، بآراء متزمّتة، يدعو إلى اندماجية كاملة مع الوطن الأم. كما كان الشباب أصحاب أهداف، همّهم الخلاص من العشائرية القديمة وإسكاتها. وكانت مطالبتهم، بالنسبة للمحيط الديني، في أن تسمّى وزارة العدل قضاة الأحوال الشخصية للمذهب، وأن يتم انتقاؤهم من الشعب[٤٦]، ومن الطبيعي أن يصرّ الشيوخ الروحيون على عدم تدخل الدولة في الشؤون الدينية. وهذا من المواضيع البارزة في الصراعات الاجتماعية. ولقد كانت الدلالة الرسمية على الممثلين البرلمانيين من الجبل: «مسلم درزي».

هكذا كان الاتحاديون يجهدون إلى استقلالية تحت عبارة «رقعة الوطن» بمفهوم اندماج أفقي في منطقة وجماعة، بينما الاندماجيون بالمقابل، قد طالبوا بها، عبر تعبئة اجتماعيّة، اندماجاً عامودياً تاماً في الدولة السورية. لقد كان الاندماجيون يتمثلون بالشباب والمثقفين مثل سعيد أبو الحسن وغيره. وقد كانوا في ثلاثينيات من القرن العشرين أقلية. غير أن مدارس الجبل، التي فاق عددها المئة، كانت تشحذ الأفكار المتطرفة لشباب جيل وطني متزمّت، وكانت المطالب تتركّز وتلح على إلحاق الجبل وإلحاق «الفرقة الدرزية» العسكرية groupement Druze بدولة سوريا، وإلغاء الضرائب الاستعمارية والإدارة الاستقلالية، وكلهامطالب قام ينشدها المعلمون والطلاب[٤٧]. تلاقت من بعد أجنحة الشعب الوطنية وتواصل نشاطها مجتمعة وبخاصة رجال «الشعبيّة» (وسيأتي الكلام فيها)، مثل جميل أبو عسلي وحسين الشوفي ومحمد الحلبي وغيرهم[٤٨] الذين تجمعوا في «هيئة الشعب الوطنية». فمثلاً: كان حمد قرقوط رئيس لجنة توجيه الشباب، كما كان هناك تنظيم آخر يوجهه الحقوقي سعيد أبو الحسن (خريج بيروت وقد عمل في الجزيرة ثم في دمشق وعاد إلى السويداء بعد سن التقاعد) الذي أسس فرع «عصبة العمل القومي» في الجبل ١٩٤٢ وبلغت ١٠٠٠ عضو تقريباً. وبينهم ضباط ومثقفون جدد، من نشطاء دعاية الاندماج التام وإلغاء امتيازات الجبل الإدارية[٤٩].

---

٤٦. مقابلات مع سعيد أبو الحسن وجادالله عز الدين الحلبي؛ أنظر الفصل القادم.

٤٧. جادالله عز الدين، «حديث في الندوة التي أقامها المركز الثقافي العربي بالسويداء بمناسبة ذكرى ٢٩ أيار».

٤٨. مقابلات مع كل من سعيد أبو الحسن، جادالله عز الدين (٢٦/ ٢٧ / ٢٨ أيلول ١٩٩٣) ومع حمد قرقوط.

٤٩. سعيد أبو الحسن، خريج جامعة «سان جوزيف» (١٩٤٢)، قاض في القامشلي وفي الجزيرة (١٩٤٧)، محام.

لقد كان «الانقلاب الأبيض» على الفرنسيين في السويداء في شهر أيار ١٩٤٥ من أهم انتصارات المثقفين والوطنيين في «عصبة العمل القومي». وبالعودة إلى سنة ١٩٣٦، والمعارضة داخل الجبل التي أخذت تهدد نفوذ الأطرش، بخاصة من جانب «الكتلة» في دمشق، فقد أسس الأمير حسن الأطرش «حزب الدفاع عن الاستقلال». وانتسب إليه: حمود جربوع ومتعب الأطرش وعبد الغفار الأطرش والأمير حسن نفسه. أما بالنسبة لسلطان باشا الأطرش فقد أصدر تصريحاً صحفياً في المنفى ذكر فيه أن الدروز ضحوا وبذلوا جهوداً كبيرة للوحدة السورية وما زالوا مستعدين لذلك. كما أدان كل حركة انفصاليّة تضعف سوريا وتبذر النزاع بين المواطنين. وحيا المعاهدة السورية - الفرنسية لأنها تأتي بالوحدة والاستقلال[٥٠]. ولم يكتم شعوره في حينها بأن «الكتلة» تتناسى من هم في المنفى وأن الشقاق بين إخوة الجهاد قد تعمّق. هكذا يلاحظ أنّ نظرة جيله كانت اتحاديّة وليست اندماجية. وفي شهر نيسان ١٩٤٧ صدر العفو العام عن آخر المنفيين[٥١] وبذلك استطاع سلطان الأطرش أن يعود من الكرك، كما استطاع الدكتور الشهبندر أن يعود من القاهرة. ولم يكن يوم استقبال عودتهم واحداً، رغبة من مؤيديهم كي لا ينشطر الابتهاج. فوصل الشهبندر يوم ١٤ أيار ١٩٣٧ إلى دمشق واستقبل بحماس شديد من المواطنين[٥٢]. وفي ١٨ أيار وصل سلطان الأطرش إلى السويداء. واستقبل في اليوم التالي في دمشق بحماس شديد أيضاً. وقد شارك في استقباله الإخوة من لبنان كذلك واحتفلوا به كأنه لبناني. ويذكر سلطان ذلك اليوم فيما بعد:

«... عندما وصل الشهبندر خرجت له دمشق، وعندما وصلت أنا حضر لبنان أيضاً»[٥٣].

تلاقى الدروز العائدون من مختلف المواقع، في عمان[٥٤]. وتعاهدوا على دفن ما كان بينهم من نزاعات. وقرروا العودة مجتمعين، يلتحقون بالحركة الوطنية في البلاد، «حياديين» فيما يخصّ قضايا الجبل الداخلية[٥٥]. وكان في هذا لفتة بألاّ يضعف الخلاف من سمعتهم. وكان سلطان الأطرش في السنوات التي تلت محط مديح، كما كان عميق الصمت ونادراً ما

٥٠. NA T 1177, American Consulate General, press review, 23 April 1937; Homet, **Histoire secrète**, p. 150.

٥١. حديث مع أعضاء من آل حاطوم (١٩٣٢)، ذبين؛ NA T 1177 Gould, 2 Nov. 1932.

٥٢. NA T1177, Marriner, 28 May 1937.

٥٣. MacDowell, **Druze revolt**, p. 384.

٥٤. الدبيسي، **أهل التوحيد**، حاشية ١، ص٨٨، (أول استخدام لاسم «جبل العرب»).

٥٥. مقابلات مع كل من: زيد الأطرش، حمد قرقوط، جادالله عزالدين (٣٠ أيلول ١٩٩٣).

يتكلمّ إلاّ في المناسبات الرسميّة[٥٦].

لم يكن وقف الخلاف داخل الجبل سهلاً. لقد أجريت في نفس السنة ١٩٣٧ انتخابات للمجلس النيابي بعد أن تأجلت لما بعد عودة سلطان. وكان من الطبيعي أن يكون تأثير العودة صعباً بالنسبة للمعارضة، لوصول مرشحيها وقت كانت كل المناصب، من الحاكم حتى المراقب في الأشغال العامة، بمن فيهم مديرو النواحي في صلخد والسويداء، تحتلها جماعة الأطرش. وكان الشاب علي مصطفى الأطرش، يقود المعارضة، إذ إنه كان لمدة قصيرة في الحركة الشعبية. كما قبلت المعارضة بحاكم من آل الأطرش ولكنها كانت ترغب في تسمية مرشحين لها في المجلس الإداري[٥٧]. لقد سمى الرئيس السوري، سلطان الأطرش لمنصب حاكم الجبل[٥٨]. لكن سلطان تخلى عن المنصب لصالح الأمير حسن.

كانت سنة ١٩٣٩ مناسبة مواتية لجميع الفئات السياسيّة لتبرز نفسها، إثر زيارة للمفوض السامي «بيو» Puaux، وأعادت المناسبة للذاكرة سنوات الانتداب السابقة ببلاغاتها وتشريفاتها وانطلاقاتها من زيارات المفوضين السامين، ولكن في هذه المرّة وقف الانفصاليون والاتحاديون والاندماجيون وجهاً لوجه. لقد كانت طريق المفوض السامي عبر قرى مزينة بالبيارق والأعلام الفرنسية بينما في قرى أخرى كانت الأعلام السورية وحدها، تخفق في كل مكان. وكان ذلك دلالة على وجود مؤيدين لسوريا ومؤيدين لفرنسا ومؤيدين للجبل نفسه. تكلم وقتها سلطان، لأول مرة منذ عامين، علناً. فاستغل المناسبة وشكر العقيد «بوفييه» لتعاونه مع الأمير حسن. ولم يكن في موقفه هذا ميل نحو الانفصاليين ولكنها كانت إشارة موافقة منه. وطلب وفد من الانفصاليين (عبد الغفار الأطرش وطلال عامر وعقلة القطامي) استقلال الجبل تحت حماية فرنسا. كما أن وفداً بالمقابل مثّل الاتحاديين والاندماجيين (سليمان نصار وحسين عبدالدين ومحمد الحلبي وعلي مصطفى الأطرش وفاضل عزام وقاسم أبو خير). وقد تمسّك بأن يكون الجبل جزءاً من دولة سوريا، كما اعترفت فرنسا بذلك، لأن الجبل لا يستطيع العيش بدون سوريا[٥٩].

إن خلفية هذه الحدّة والتي ازدادت توتراً في ما بعد، كانت في الضغط المتزايد من دمشق ومن المعارضة داخل الجبل، على عائلة الأطرش، لا سيما أن الأمير حسن الأطرش وتابعيه

---

٥٦. FO 684/12, Press review: **La Chronique**, 28 Jan. 1939؛ مقابلة مع جادالله عزالدين (٣٠ أيلول ١٩٩٣).

٥٧. **NAT** 1177, report, 17 Sept. 1937.

٥٨. **NA T** 1177, report, 22 Nov. 1937, 11 March 1938.

٥٩. **FO** 684/12, Press review: **La Chronique**, 28 Jan. 1939; **Le Jour**, 15 Jan. 1939, **Palestine Post**, 4 Jan. 1939, **Les Echos**, 28 Jan. 1939.

قد أحسّوا بأنهم بين فكي كماشة. فإذا نجحت دمشق بالتعاون مع المعارضة في الجبل، فسيعني هذا نهاية نفوذ ٦٠ عاماً لآل الأطرش في الجبل. وهنا لم يستطع سلطان أن يتخلّى عن ذويه في هذا الوضع المتردّي. فالوحدة مع سوريا هي بالنسبة له أمر مهم، ولكن وحدة مع إنهاء لذويه شيء آخر، وحتى لو لم يكن يميل إلى الأمير حسن ولا إلى سياسته[٦٠]. كان عبد الغفار الأطرش عضواً في المجلس النيابي سنة ١٩٣٨. فقال فيه أحد قادة «الكتلة» من السياسيين إنه من «أعوان فرنسا». فأعلن على أثرها نواب الجبل استقالتهم فوراً وأكدوا أنهم لن يعودوا أبداً. فقام عندها البعض من تابعي عبد الغفار في القرى ولوثوا العلم السوري بالأوحال، وكان من الطبيعي أن يستدعي هذا التصرف الاتحاديين للساحة. زد على ذلك سبباً آخر استثارهم أيضاً في قرار للمفوض السامي سنة ١٩٣٨، تحت رقم ٦٠ يخصّ حماية فرنسا للأقليات في ميدان قانون الأحوال الشخصية. لقد اتخذت سلطة الانتداب من ذلك ذريعة جديدة، تتدخّل من خلالها في مناطق الأقليات، مثل جبل الدروز، أملاً في جذبه لجهتها[٦١]. ورداً على ذلك استقال سنة ١٩٣٨ رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة في دمشق، واستمر المفوض السامي «بيو» بالحكم مع مجلس من المديرين. ويورد «ماك كرث» McKereth في ما يتعلق بجبل الدروز في هذه المناسبة:

«لقد كان مدى خيط الصلاحيات التي سمحت فرنسا بها للوطنيين السوريين، بين كانون الأول ١٩٣٦ وكانون الأول ١٩٣٨، كافياً ليجعل «الكتلة الوطنية» تشنق نفسها به أمام أعين أكثر السوريين... لقد استطاع المسؤولون السياسيون الفرنسيون أن يعزفوا بمهارة على كافة الأوتار»[٦٢].

لم تنس «الكتلة» الإرباك الذي لقيه نسيب البكري حاكم الجبل المسمى من قبلها. وأحس بذلك الاندماجيون أيضاً[٦٣].

وفي الوقت نفسه فإن المعارضة ضد الأطرش، وضد الانفصاليين من الجبل وضد الجماعات العائلية، قد تراجعت لأول مرة أيضاً، كما كُبِّلت يد المعارضة عقب زيارة المفوض السامي «بيو» للجبل. وعن ذلك جاء في برقية صادرة عن مكتب «حزب الشباب الوطني» في السويداء إلى دمشق ينبئ فيها جميل أبو عسلي وحسين عزالدين، أن جماعة من

٦٠. حديث مع منصور الأطرش، في ٧ نيسان ١٩٩١.

٦١. **FO** 684/12, Extract from Les Echoes, 12 March 1939, The Truth about the Law of Personal Status or the Decree Nr. 60 L.R and 176 L.R, issued on 13 March 1936 and 18 Oct. 1939.

٦٢. **FO** 371/23277, MacKereth to Halifax, 3 July 1939.

٦٣. حديث مع سعيد أبو الحسن، ٢٦ أيلول ١٩٩٣.

مؤيديهما قد اعتقلوا واقتحمت منازلهم بحجة البحث عن أسلحة، وأن بعض الوجهاء اعتقلوا بحجة دعوة منهم للامتناع عن دفع الضرائب. كذلك اعتقل شخصان بسبب رسالة وجهاها إلى أعضاء «الكتلة الوطنية» في المجلس النيابي، وأن الشباب يحتج ويطلب عودة حاكم الجبل الشرعي إلى منصبه(٦٤).

وقد عمل الأمير حسن الأطرش «كمدير سام» Administrateur Supérieur وسكرتيره سلمان حمزة، بكل تعاون مع مبعوث المفوض السامي، العقيد «بوفييه»، الذي كان يتصرف كأنه درزي. وقد حدث خلاف حاد بين المستشار المدني «برينو» الذي هدد بتحديد نفوذ آل الأطرش و«بوفييه» سنة ١٩٤٠، بحيث أمر «بوفييه» الأمير حسن بمنع «برينو» من دخول السراي الحكومي. ولقد ورد في ملف غاضب على مستوى فرنسي عال، الملاحظة التالية: «... احترام هيبة المكلَّف الفرنسي لا يفيد بشيء في الحدث الرّاهن»(٦٥). وبعد عام من ذلك، نقل المكلف «برينو» إلى دير الزور.

في الحقيقة كان كلٌّ من حسن الأطرش وأتباعه، وكذلك المعارضة، ثابتاً على نهجه بعد نهاية ثورة ١٩٢٥. غير أنهما توصلا بالنهاية إلى نهج سياسة موحدة نتيجة لما يلي: نتج نزاع استراتيجي حاد بين البريطانيين والفرنسيين الأحرار بعد دخولهم الجبل كحلفاء، سنة ١٩٤١. وكان موقفهم من السلطة في الجبل هو التالي: يوم ٢٤/ ٢٥ تموز ١٩٤١ احتل البريطانيون الجبل. وأنزلوا العلم الفرنسي عن دار الحاكم ورفعوا مكانه العلم البريطاني. كما أن الأمير حسن من جهته قد تجاهل ممثل فرنسا الحرّة الذي حل محل «بوفييه»، وتوجه إلى الممثل البريطاني وأيّده. فقد يكون تراءى له وقتها أن أيام فرنسا في سوريا أصبحت محدودة. وطرد العقيد «بوفييه» ممثل فيشي من الجبل. اعتقاداً منه أن التوجه إلى البريطانيين سيكون أجدى. فغضب ضابط فرنسي يدعى «كاترو» وقام بإرسال فوج مدفعية إلى السويداء كي يجعل لفرنسا الحرّة مرجع تمثيل، وليضغط على الجبل بغية إخضاعه سياسياً وإدارياً إلى «كاترو» فقط(٦٦). ولكن «الفرقة الدرزية» السابقة كان قد حلّت، وحلّت محلها «كتيبة درزية» بريطانية جديدة Druze Legion، سبق تشكيلها في الأردن ضمن «الفيلق العربي». ولهذا، كان الفرنسيون الأحرار بقيادة «كاترو» غير راضين بذلك، لا سيما أن الأمر مسألة كرامة فرنسا من جهة، كما أنهم خشوا من جهة ثانية من مخطط يلحق جنوب سوريا بالأردن. أما الدروز، من

٦٤. «بيان الشباب الدرزي»: FO. 684/9؛ FO 684/12, Bureau of Shabab from Sueida, 23 Feb. 1939.

٦٥. MAEN 551, Dossier: M. Pruneaud, Conseiller Administratif au Djebel Druze, Oct. 1940; FO 371/24591, Gardener, political report, 21 Oct. 1940.

٦٦. FO 371/27308, Catroux à Dunn, 29 July 1941.

جهتهم، وبناءً على قدرتهم القتالية، وما برهنوا عليه من حذق في الماضي وما قدمّوه لجبل الدروز من عزّة، فقد شغلوا «تشرشل» و«ديغول» شخصياً[٦٧].

وفي أيلول ١٩٤١ دخلت سراي الحكومة في دمشق وزارة جديدة معتدلة برئاسة حسن الحكيم كان فيها عبد الغفار الأطرش وزيراً للدفاع. كما كان فيها منير العباس عن جبل العلويين، وزير برق وبريد. وهكذا كانت منطقتا النزاع، لأول مرة، ممثلتين، وعاد مجدداً النزاع السوري - الفرنسي العنيف. وفي سنة ١٩٤٢ احتفلت الحكومة السورية، بحضور ممثلين بريطانيين وفرنسيين، بعودة وحدة جبل الدروز وجبل العلويين مع الدولة السورية: «عودة الابنين الغاليين إلى حضن الوطن الأم»[٦٨]. وصدر مرسوم جمهوري بتسمية «محافظة جبل الدروز» مع الاحتفاظ بالحقوق العليا المتنازع عليها[٦٩]. توفي عبد الغفار الأطرش، على أثر سكتة قلبية في ربيع سنة ١٩٤٢، ورفض سلطان الأطرش المنصب المعروض، وبذلك أصبح الأمير حسن الأطرش وزيراً للدفاع[٧٠].

في سنة ١٩٤٣ جرت انتخابات نيابية، وأصبح الأمير حسن الأطرش معارضاً للانتداب منذ أن عزل «بوفييه»، وشكا من تدخّل الفرنسيين في الانتخابات. لقد استمالت السلطة الفرنسية بعض العائلات التي تجنّد أبناؤها في سرايا «الاسكادرونات»، كما قامت بدعم مالي ونشرت في صحيفة «الجبل» طبقاً لطلب المراقب الفرنسي دعاية علنية وصور لمرشحين تساندهم.

كان المرشحون في السويداء هم:

الأمير حسن ويوسف هلال وعبد الغفار من عائلة الأطرش - ينافسهم:

حسين عبد الدين وعبد الكريم نصر وظاهر القنطار - على «قائمة الشعب».

وترشح في شهبا:

حسن عامر وضده محمد عزالدين.

كما ترشح عن صلخد: علي مصطفى الأطرش (وكان معارضاً).

وفاز مرشحو الأطرش في جميع الدوائر وفاز معهم عقلة القطامي الذي كان مؤيداً للأطرش أكثر منه لجهة إخوته في المسيحية، كما كان في الوقت نفسه يشغل واحداً من تسعة مقاعد للمسيحيين في المجلس النيابي[٧١]. لقد كان للجبل مقعدان زيادة عن مقاعد جارته

---

٦٧. **FO** 371/27364 Druze Legion, Nov./Dec. 1941.

٦٨. حديث شكري القوتلي: **FO** 371/31466, press report: **al-Kifah**, 21 Jan. 1942.

٦٩. Arrêté No. 22/FL, 22 Jan. 1942.

٧٠. **FO** 371/27330, Gardener, 14 March, 5 April 1942; FO 371/27330, Gardener, 8 Aug. 1942.

٧١. («جلسات المجلس النيابي» من تاريخ ١٧ آب ١٩٤٣) **FO** 371/35179, Bootheway, 4 July 1943.

محافظة حوران: مقعد مسيحي ومقعد بدوي.

لم يعيّن حسن الأطرش وزيراً في وزارة سعدالله الجابري الجديدة، على خلفية الإرباك الذي قام به حسن سنة ١٩٣٦. وكذلك لم يعيّن وزير من العلويين. كانت الوزارة، بنظر المنطقتين، إقليمية، وشنّ الطرفان حملة على دمشق التي كان لها خمسة مقاعد في الحكومة من أصل ثمانية، لهذا الاستئثار أُبعد نواب الجبل عن الحكومة بقصد تنقية الأجواء ووجهت دعوة تكريم لسلطان الأطرش في دمشق، ومع هذا فقد بقي الرئيس شكري القوتلي وسعدالله الجابري متصلّبين في موقفهما. وأملاً بالتفاهم منحت الحكومة محافظة الدروز ميزانية لرصف طريق بين شهبا وصلخد[٧٢].

كانت الحكومة تراقب كل زيارة فرنسية سامية إلى الجبل وإلى العلويين، بكل غيرة، كما في زمن العثمانيين تماماً. فمنعت القنصليات الأجنبية من الاتصال بالمنطقتين[٧٣]. وهكذا، فقد تولدت علاقة عدم ثقة بين الحكومة من جهة وبين العلويين والدروز من جهة ثانية. وتابعت الصحف العالمية نشر أحداث ومشاكل في المنطقتين[٧٤]. لقد قررت الحكومة وضع حدّ للامتيازات الخاصة التي فرضها الانتداب في مناطق الأقليات. وبهذه الخطوة، تلاقت مواقف المعارضة التي تطالب بالاندماج التام في الجبل، وأدرك جناح الأطرش المسيطر هناك أن الأمر أصبح مسألة وقت فقط، وأن البريطانيين سينسحبون قريباً، وسيكون المستقبل لحكومة «الكتلة». وأقام الاندماجيون مؤتمراً في موقع «المزرعة» الرمزي للمعركة الشهيرة، شارك فيه الاتحاديون أيضاً. صوّت المؤتمر على التحاق فوري مع سوريا. لقد كان من المتّبع في بعض أوساط الجبل وقتها، أن يكون المرء على رأس الاندماجيين، بيد أن الأمير حسن انحرف إلى معسكر الاتحاديين. وفي ٧ أيلول ١٩٤٤، صوت المجلس الذي يرأسه حسن الأطرش، بالإجماع، على التحاق الجبل «بسوريا الأم». وأعلن إلغاء الامتيازات الإدارية المالية لمحافظة الجبل، بموجب مرسوم ١٩٤٢. فقامت في السويداء مظاهرات تأييد للقرار وعمّت الفرحة وهنأت المعارضة الأمير حسن على هذه الخطوة. ولم تُبد دمشق ترحيباً خاصاً، وفوجئ جناح الأطرش بموقف الحكومة الفاتر[٧٥].

ذكّر النائب في المجلس النيابي عقلة القطامي في شهر تشرين الأول بأن الخطوة القانونية

---

٧٢. FO 371/27330, Gardener, 6, 14, 24, 25 Sept. 1943; 13 Nov. 1943; FO 371/20069, annual report 1935.

٧٣. FO 371/52867, Shone, 31 Jan. 1946; NA RG. 84, 1197/10, Mattison, 24 June 1946.

٧٤. NA RG 84, 1197/10, 8 June 1946.

٧٥. FO 371/40304, weekly political summary, 13 Sept. 1944; 20 Sept. 1944.

في إلحاق الجبل لم تؤخذ بعد[٧٦]. وفي شهر كانون الأول ١٩٤٤، قرّر المجلس، برئاسة سعدالله الجابري للوزارة، نهاية الاستقلال المالي الإداري للجبل اعتباراً من ١ كانون الثاني ١٩٤٥. وقد ذكر النائب نجيب الريّس، أن عدداً هائلاً من المراسيم والقوانين قد صدرت سابقاً في هذا الجزء من الوطن ويجب إلغاؤها فوراً. فعارضه النائب حلمي الأتاسي، واقترح إعادة قراءة هذه القوانين[٧٧]. وهكذا أقر الاندماج فوراً. ونصّ القانون رقم ١٣٤ «على جماعة مذهبية»، وبذلك بقي منصب «قاضي المذهب»، الذي أحدث في عهد الانتداب سنة ١٩٢٧، قائماً، ويسمى بقرار من وزير العدل بناءً على اقتراح من «شيوخ العقل» والهيئة الروحية. وحُفظت «لجماعة المذهب» حقوقها الشخصية التراثية (في الإرث والوصيّة والزواج ومنع تعدد الزوجات وعدم إعادة زواج المطلّق)[٧٨]. والخطوة التاريخية التي اتخذها المجلس المحلّي بإلغاء استقلالية الجبل «وعودة بني معروف الدروز، إلى الوطن الأم الذي أراقوا الدماء من أجله» هذه الخطوة كانت موضوع خطب ترحيبية واحتفال وطني في المجلس النيابي. لقد كانت أهم الكلمات وأشملها، كلمة فارس الخوري في عرضه الوافي عن دور الجبل في تاريخ البلاد، منذ العهد العثماني حتى سنة ١٩٤٤. فهي نمّت بلمحة بارزة عن المظهر الوطني الذي تحلّى به المسؤولون في الجبل وما ورد في المرسوم الذي اقترحته «الكتلة» وهذا ملخص عن كلمة فارس الخوري:

كان الجبل جزءاً صغيراً من وطن كبير، زمن الإمبراطورية العثمانية، ولم يخطر ببال أي من أبنائه يوماً أن يطالب بامتياز أو أن يكون انفصالياً. أجل لقد كافح الجبل ضد إبراهيم باشا، ولكن عندما جاءت الحركة الوطنية، وجاء الأمير فيصل، كان الدروز أوّل من حيّاه وحاربوا في صفوف الحملة العربية. وعندما أسّسنا الحكومة العربية، هنا في هذه المدينة، كان أبناء الجبل معنا. ووقف الموظفون في الجبل في الطليعة يساندون الحكومة المركزيّة. لقد فتّت الفرنسيون الوطن إلى دويلات صغيرة، واتخذوا المعتقدات قاعدة لها. فأقاموا دولة سنيّة مركزها دمشق ودولة مسيحيّة في لبنان. ودرزية في الجبل وعلويّة في اللاذقية. وكان في ذلك خطر كبير وضرر عظيم. ولم يكن بالنسبة للأكثرية بأعظم منه، بالنسبة للأقليات أنفسهم، إذ إنهم سيبقون أقليات حتى آخر العمر. سيّان أي أحزاب تشكّل، فكل حزب يسعى لأن يكون أكثريّة وينال حكم الدولة. ولكن حزب الأقلية الدينية يبقى مدى الدهر أقلية. ولهذا نحن نستحق أمة تشمل الجميع إلى الأبد. لقد امتدت الثورة السورية الكبرى حتى دمشق ووادي التيم وجنوب لبنان

٧٦. جلسات المجلس النيابي، ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٤.
٧٧. جلسات المجلس النيابي، ٣١ كانون الأول ١٩٤٤.
٧٨. جلسات المجلس النيابي، ٣١ كانون الأول ١٩٤٤. قانون الأحوال الشخصية..

وحتى البادية في الشمال. ودامت عامين اثنين. وكلفت نيفاً و١٠,٠٠٠ شهيد. ومن أجل هذا فُصلت منطقة جبل الدروز، وفصلت منطقة العلويين. لقد جهدنا سنة ١٩٣٦ في أن نستعيد المنطقتين، لكن كان أحسن ما استطعناه هو وحدة باستقلالية مالية إدارية[٧٩].

إن فكرة تمثيل ديموقرطي محلي ضمن نظام فيدرالي كان بالنسبة «للكتلة» مرفوضاً حتى التفكير فيه. واتبعت مبدأ مركزية متشدِّدة لا محل فيها لأي صلاحيات خاصة لمناطق معينة. وأُلقيت هذه الأفكار جانباً بسبب السياسة الانتدابية.

وهكذا تلاقى الاندماجيون في الجبل مع «الكتلة»، بأن كل ما يتعلق بالمصالح العليا في المحافظة، هو في يد آل الأطرش. وفي هذا جمع بين «إقطاعية وعشائرية وفساد»، لا بد من إقصائه. ولا يمكن الإصلاح المنشود إلا باندماج عامودي فردي وليس فئوياً[٨٠].

قام اتحاد بين الأمير حسن والاندماجيين، مرة أخرى، سنة ١٩٤٥، عندما عمّ الحماس سوريا وتصاعدت الأزمة مع الانتداب الفرنسي، وقامت المظاهرات الطلابية في شهر كانون الثاني ١٩٤٥ في السويداء من أجل بناء جيش وطني[٨١]. لقد رمى المتظاهرون شبابيك نادي الضباط الفرنسيين وشبابيك مساكنهم بالحجارة. وهدّد الفرنسيون باحتلال السراي، فأدى الأمر إلى صدام المواطنين مع الدرك الوطني المحلّي[٨٢]، في شهر أيار ١٩٤٥، حيث عم النضال أنحاء سوريا كافة، وقصفت دمشق، عن بعد بالقنابل، مرة ثانية في عهد الانتداب الفرنسي، قام ١٦ ضابطاً من «الفرقة الدرزية» باعتقال الضباط الفرنسيين (المتواجدين في السويداء) وكان عددهم عشرة ضباط وحوصرت القلعة وكانت فيها حامية من ١٧٠٠ رجل، مالوا فوراً إلى الجانب السوري وتمت حركة الانقلاب دون إراقة أية قطرة دم مقاومة، ولعبت «عصبة العمل القومي» وموجهها سعيد أبو الحسن أهم دور في الحركة. وقام الأمير حسين الأطرش بتمثيل الانقلاب والإعلام عنه خارجياً. كما أن الرئيس شكري القوتلي ورئيس الوزراء سعد الله الجابري كانا قد أُعلما مسبقاً بالحركة. أما وحدة «الفرقة الدرزية» فقد أصبحت فوراً جيشاً سورياً خالصاً، وسحبت القوات الفرنسية المتبقية في الجبل تحت حماية بريطانية. تقدمت أحداث الجبل هذه، أعياد «الجلاء» الرسمي، بعام كامل (يوم جلاء آخر جندي فرنسي عن الوطن)[٨٣]. وعلى الرغم من وحدة الجبل، في مجابهة فرنسا، بقيت

٧٩. جلسات المجلس النيابي، ٣١ كانون الأول ١٩٤٤.

٨٠. في النقاط الجوهرية للشعبية أنظر الفصل القادم.

٨١. FO/371/45557, Beaumont, 30 Jan. 1945.

٨٢. FO 371/45592, Shone, 23 Jan. 1945.

٨٣. **NA RG** 84/1197/5, telegram Satterthwaite, 30 Jan. 1945؛ حديث مع سعيد أبو الحسن وجادالله عزالدين، ٢٦/٢٧ أيلول ١٩٩٣.

شقاقات كبيرة قائمة فيه، حتى بعد إجلاء العدو المشترك من المنطقة. تواجهت فئة الأطرش والمعارضة في ما بعد، ووقفتا ضد بعضهما. وأدى ذلك إلى صدام مسلح في الجبل بعد عامين.

٤ - «الشعبيّة» سنة ١٩٤٧

منذ سنة ١٩٤٤ قويت ميول سورية تنشد الانضمام إلى إمارة عبدالله في الأردن أو إلى العراق. وكان في نفس عبد الله حلم تأسيس مملكة سورية. وقد ظهر ذلك في تحرّكات في الريف ضد دمشق، كما لو كان النظام ملكياً. كانت حوران، تحسّ بغبن بالنسبة للجبل، منذ زمن بعيد (الجبل له وزير في الوزارة، وحوران بلا وزير). كانت تعزو ذلك في الدرجة الأولى، إلى سياسة الفرنسيين، وسياسة «الكتلة الوطنية» في دمشق في الدرجة الثانية. إذ لا ريّ في حوران ولا استصلاح أراض. وهكذا كان يظهر لشيوخها أن الوضع في الأردن أفضل لهم. فأصبحت قلّة ثقة الحورانيين بالمواطنين الدمشقيين عميقة، خاصة أنهم الملاكون الغائبون والأناس المبتزون منذ قرون. والدولة السورية المستقلة، بالنسبة لهم قبل كل شيء، تعني امتداداً للدائنين وملاّك الأراضي. ولذلك كان الأمير عبد الله في نظرهم هو الأكثر جاذبية. لذلك أكثر الحورانيون من الزيارات إلى الأمير الذي بدوره أذن للحورانيين بزيارته[٨٤].

أما الجبل، مقارنة، فقد حصل على معونة جيدة. لكن أبناءه وجهوا الاتهام للحكومة بأنهم مهملون أيضاً، بخاصة بعد انحسار النفوذ الفرنسي في سوريا. فهم ناقمون كجيرانهم لوضعهم. ولربما كان هدف الأطرش الضغط على دمشق من وراء هذه المناورات أولاً، واستباق الطريق بالهروب إلى الأمام، مع تزايد حدة النزاع الداخلي في الجبل الذي تشجعه وتدعّمه دمشق، ثانياً. إن التقارير السياسية البريطانيّة تشير إلى أنه في فترة ١٩٤٤-١٩٤٧، قد تردّدت بعثات ووفود كثيرة من الأطرش نحو عبد الله، وكانت تقول إنّها تبلّغ الأمير عبدالله استعداداتها، باسم سلطان الأطرش، لضمّ منطقة الجبل إلى الأردن. لقد أصبحت هذه المباحثات الأوليّة حثيثة، بخاصة عندما تحركت الحكومة السورية لدمج المنطقة وأخذ الاحتياطات اللازمة لسحب النفوذ من آل الأطرش. وقد اختصر عدد «الفرقة الدرزية» groupement Druze وأصبح ٦٥٠ رجلاً بدلاً من ١٧٠٠، ونقل قائدها حمد الأطرش وحل

٨٤. **FO** 684/14, Gardener, 16 Aug. 1941; 16. Oct.; 31 Oct. 1941.

محلّه ضابط غير درزي[٨٥]. لقد كانت «الفرقة» أقرب أن تكون قوة خاصّة، أكثر منها جزءاً من الجيش السوري. ولذلك كان لا بد من أن يعسكر في مكان آخر في سوريا. استدعى الأمر تدخّل سلطان باشا، وأشيعت نغمة في أوساط الجيش عن مخطط خاص لحمد الأطرش وأجيب سلطان بأنه لا مراجعات لأوامر القيادة العامّة[٨٦]. أحرق متظاهرون، في السويداء، العلم السوري. فقامت الحركة الشعبية بمظاهرات مضادّة وبدأ الوضع يحتدّ في الجبل شيئاً فشيئاً. وخشي كل من المعارضة في الجبل والحكومة في دمشق، من انقلاب، تستدعي فيه الجبهة الطرشانية تدخل الأردن والانضمام إلى العرض الملكي الجديد هناك، لاسيما أن جميع المهام الحكومية، الإدارية والسياسية، هي بيد جماعة الأطرش، وهذا ما يسهِّل لهم المهمة. لقد كانت السلطة في شهبا بيد جماعة الأمير حسن الأطرش، حيث إن الفريقين (عامر والأطرش) كانا يتعاونان معاً في تلك الأيام المضطربة. كما أن قيادة الدرك كانت في يد الأطرش أيضاً[٨٧]. والأطرش كان يسعى للبقاء في السلطة، مهما كانت الصعوبات. ولاح في الأفق شبح إمارة مستقلة. كان أمرها يتعلق تحديداً بالأردن. إن معاناة السياسة مع السيادة في الأردن كانت تتراءى لهم أنسب بكثير منها في الجمهورية السورية التي تشجع المعارضة الداخلية في الجبل. وفي سنة ١٩٤٦ احتدم الوضع كثيراً. انتشر سعي الملكيين في كل مكان في سوريا. فقد كان البريطاني «غلوب باشا» Glubb Pasha رئيس أركان الجيش العربي الأردني، وله علاقات فوق العادة مع الملكيين السوريين وكذلك مع بعض زعماء الجبل الكبار[٨٨]. لقد شعرت الحكومة في دمشق بأنها مهدَّدة جدياً، وسليمان المرشد، الذي قاد حركة أخرى ضد الحكومة في منطقة العلويين وأعدم شنقاً، كان يشار إليه كمثال[٨٩].

كان وضع البلاد الاقتصادي حرجاً، فقد كانت سنة ١٩٤٧ سنة جافة فوق العادة، وليس لها مثيل منذ ثلاثين سنة مضت. فالمؤن قليلة جداً، والحكومة واصلت فتح مكاتب الحبوب «الميرة»، التي استغلها الانتداب الفرنسي في آخر سنواته كمؤسسة شراء حبوب احتكارية[٩٠]. وهكذا هرّبت أطنان حبوب إلى خارج البلاد. الملاكون الكبار في الجبل – وليس الأطرش فقط –، تحوّلوا إلى زراعة الحشيش الذي كانوا يسوّقونه عن طريق

٨٥. **NA, RG**, 84/1197/14, military report, Dufour, 21 March 1946.

٨٦. **NA, RG**, 84/1197/14, military report, Dufour, 11 March 1946.

٨٧. **FO** 371/52889, British Legation in Beirut, report, 8 March 1946.

٨٨. **FO** 371/52906, political reports, 14 Aug. 1946, 9 Oct. 1946.

٨٩. Khoury, **French Mandate**, pp. 524-525.

٩٠. **NA RG**, 84/3247/8, report, 15 Dec. 1948.

الأردن[٩١]. إن شراء الحبوب بدلاً من زراعتها في زمن ندرتها، قد أدى إلى تردّي أحوال الفئة الفقيرة من الشعب. وساد الضجيج من استبداد ملاّك الأراضي في كامل المنطقة، وليس في الجبل فحسب، ونمت ثروات الأعيان والأسياد وبانت للعيان. فالأمير حسن الأطرش، مقيم في السويداء في منزل حديث «على طراز البيت الريفي الفرنسي» أثر حتى في عضو كتيبة أميركية، وكان يقود سيارة «ستوديباكار موديل ١٩٤٦»[٩٢] وكان يحب التحديث والتقدم وامتلك جرارات للعمل في أراضيه. بيد أن وضعه تراجع سنة ١٩٤٧، عام أول انتخابات نيابية بعد استقلال الجمهورية[٩٣]. لقد كان في دمشق حزبان رئيسان هما «الحزب الوطني» و«حزب الشعب» ومعه حزب الأحرار[٩٤].

خاضت «الجبهة الشعبيّة» في الجبل معركة انتخابية حقيقيّة، فوزعت مناشير دعائية تستنهض الشعب إلى المصالحة والمنفعة في انتخاب الجبهة[٩٥]. وعقدت تجمعات انتخابية شعبية، كان أهمها في المزرعة بدعوة من داود هنيدي. وتكلّم في هذا التجمع جميع الذين كانوا في صفوف الحركة الشعبية من ذوي الأسماء المعروفة[٩٦]. قدم المنافسون الشعبيون أنفسهم للجمهور. واحتدّ التنافس، فتنازل في السويداء يوسف هلال الأطرش وبقي للأطرش منافسان فقط. كما تنازل في الجنوب: سليم الجرمقاني وسعيد أبو الحسن (شعبيّان) عن ترشيحهما لصالح حسين الشوفي[٩٧]. وأصبحت لوائح التنافس بالنتيجة كما يلي:

– في السويداء: جميل أبو عسلي وداود هنيدي وعبد الكريم سلام ومعهم حنا البشارة عن الشعبيّة وعن المسيحيين. وينافسهم: متعب الأطرش ويوسف عبد الغفار الأطرش ومعهم عقلة القطامي عن المسيحيين.

– في صلخد: حسين الشوفي، شعبي، ينافسه علي ذوقان الأطرش (أخو سلطان باشا).

– في شهبا: حمد عزام، شعبي، ينافسه حسن عامر[٩٨].

---

٩١. **NA RG**, 84/1197/10, Dennett, 6 Dec. 1946; FO 371/62169, Scrivener, 11 Aug. 1947; NA RG 84/3247/6, Memminger, 13 Nov. 1947. NA M1221, report 1390, "Gold, diamond and narcotics smuggling in Palestine and the Levante states", 22 Oct. 1943.

٩٢. **NA RG**, 84/1197/11, Mattison, 24 Aug. 1946.

٩٣. Seale, **Struggle**, p. 31.

٩٤. Longrigg, **Struggle**, pp. 31-32; Torrey, **Syrian Politics**, p. 90-100.

٩٥. «أيها الشعب الكريم»، توقيع: جميل أبو عسلي وداود هنيدي.

٩٦. صحيفة الجبل، رقم ٦٧٨، ٧ حزيران ١٩٤٧؛ وأشكر نمعان حرب لسماحه باستخدامي أرشيفه الخاص لصحيفة **الجبل**.

٩٧. صحيفة الجبل، رقم ٦٨٣، ١٧ و١٨ تموز ١٩٤٧.

٩٨. حديث مع كل من حمد قرقوط، جادالله عزالدين، سعيد أبو الحسن.

في مطلع الترشيح للانتخابات حدثت مشاكل بالنسبة لطلب «جميل أبو عسلي» ترشيح نفسه للانتخابات. ورفض المحافظ طلبه لمخالفته الفقرة ١٣ من قانون الانتخابات. لقد كان قاضياً موظفاً وكان عليه أن يستقيل من وظيفته قبل ثلاثة أشهر[٩٩]. ومع هذا فقد استمر ونافس بعد أن أجلت الانتخابات من ٧ إلى ١٧ تموز ١٩٤٧ وكانت نتائج الانتخابات كما يلي[١٠٠]:

فاز مرشحو العائلات الكبيرة: متعب ويوسف الأطرش وعقلة القطامي عن السويداء وعلي ذوقان الأطرش عن صلخد وحسن عامر عن شهبا.

وطعنت «الجبهة الشعبية» بقانونية الانتخابات وشكت من تلاعب في دوائر التصويت[١٠١] وأصدرت البيان التالي:

«. . . إلغاء هذه الانتخابات المزوَّرة. كفّ تسلّط السلطة المحليّة. نقل المحافظ وقائد الدرك ومدراء النواحي إلى خارج المحافظة واستقدام موظفين سوريّين حياديين من خارج الجبل، فرض مقاومة صارمة ضد الساعين من آل الأطرش لإلحاق الجبل بالمملكة الأردنية، وإدانة هذا المسعى الاستعماري الصهيوني، وكذلك إدانة الحركة البريطانية التي تسعى لتثبيت إمارة مزيّفة للأطرش في الجبل»[١٠٢].

إن سوريا جمهورية مستقلة، الجبل جزء منها، فلتكلّف الأمور ما تشاء. هكذا قست اللهجة في الأوساط الشعبية كافة. وفي تلك الأثناء صدر عن جماعة «الحركة الشعبية» نداء في اتجاه آخر تتساءل فيه إذا كان: «الشعب يرغب حقاً أن يكون في ظل دستور جمهوري ديمقراطي في القرن العشرين أم هو يرغب أن يكون في ظل سلطة مستبدة، عائلية، وراثية محبطة، لا يهمّها إلاّ خدمة مصالحها بينما هي عائلة كالآخرين، مهما كان لقب أفرادها، لا سيّما أنه لقب غير شرعي؟»[١٠٣].

كانت أهداف المثقفين وأفكارهم في «الشعبيّة» وقتئذ تتلخص بما يلي:

١- سياسة وطنية مخلصة تساعد في تقدم الوطن ونصرته.

٢- تشكيل لجان من أشخاص ثقة، يحاربون الثقافات المغرضة، والدعايات المضرّة بالتوجه القومي.

٣- إلغاء استغلال آل الأطرش للمصالح العامة والرسميّة (بيوت، وظائف).

---

٩٩. رسالة الحاكم حسن الأطرش إلى جميل أبو عسلي، ٢٣ حزيران ١٩٤٧.

١٠٠. صحيفة **الجبل**، ٢٩ تموز ١٩٤٧.

١٠١. «هيئة الشعب الوطنية في جبل العرب»، مذكّرة عن عمليات تزييف الانتخابات.

١٠٢. رسائل إلى «هيئة بيان الشعب» من أنحاء الجبل.

١٠٣. بيان «هيئة الشعب الوطنية في جبل العرب»، بدون تاريخ ومن ١١ آب، ١٩٤٧.

٤- إقامة مشاريع حيويّة في المناطق التي تعاني الحرمان.
٥- مكافحة الذين يحاولون استغلال الحركة لأهدافهم.
٦- تطهير الجهاز الإداري من الموظفين المؤيدين للرجعية.
٧- إذا لم تستطع الحكومة المركزية ربط الهيئة الروحية بوزارة العدل، يطرح الموضوع على التصويت الشعبي محلياً ويجزم به.
٨- يجب إعادة تنظيم مكتب الأمن القومي وجعله حيادياً.
١٠- يطلب تطبيق عقوبات بحق الذين يروِّجون دعايات خارجيّة تمس بالرأي العام[١٠٤].

لقد تتبّعت فئة من وجهاء الدرجة الثانية مصالحها الخاصة فقط. فلم يترك حمزة درويش مناسبة إلا وتحدّث عن الحرب، مثلاً، ومثله قاسم أبو خير. أما المثقفون فقد عملوا على إبدال وجاهة الوراثة بوجاهات مثقفين يسعون إلى تحديث الأسرة والمجتمع. ولكن «الشعبيّة»، من خلال تأثير الجيل القديم، اتخذت شكلاً عشائرياً، كما كان إلى جانب آل الأطرش عائلات هامّة، مثل آل جربوع، وهم سابقاً من وجهاء «العاميّة» وكانوا ضد الأطرش. وكانت «العاميّة» ما زالت حيّة في الأذهان وقد نسبت حركة «الشباب الوطنية» نفسها لها[١٠٥]. وكان عليها الآن أن تنجز ما لم تنجزه «العاميّة». فلم تكن «الشعبيّة» في الجبل ذات أفكار سياسيّة حديثة في العالم فحسب، وإنما إلى ذلك، كانت حركة اجتماعية في «تراث ثوري»، من أجل العدالة، نمَت وتغذّت على «الإيديولوجيات» العالمية.

لقد كان هايل السرود المنتخب البدوي والنائب الوحيد في المجلس، من لائحة الجبل، في انتخابات ١٧ آب ١٩٤٧ بعد قبول طعن الحركة «الشعبيّة» فيها[١٠٦]. ولدى سؤال أحد النواب عن سبب غياب أسماء منتخبي الجبل عن لائحة النواب، مع أن الانتخابات قد أجريت هناك، والنتائج قد أرسلت إلى دمشق. فأجابته الحكومة بأن النتائج ما زالت تدقَّق. فقام وفد عن مرشحي آل الأطرش وكذلك وفد عن الجبهة الشعبية برحلات إلى دمشق، ووصلت كذلك مذكرات ومضبطات عديدة[١٠٧]. وأشارت العرائض إلى أن الحكومة، قد أمدّت «الجبهة الشعبية» بالمال والسلاح. ولربما كان الدعم محدوداً، ولكنها شكوى بحد ذاتها، وفي جميع الأحوال كانت استراتيجية الجناحين أن يبقى التنافس داخل الجبل، ويهنّأ

---

١٠٤. عن جادالله عزالدين، أرشيف خاص.
١٠٥. رسالة الشباب الوطني من متان، ٢٤ حزيران ١٩٤٧.
١٠٦. جلسات المجلس النيابي، ١٩ أيلول ١٩٤٧.
١٠٧. «هيئة الشعب الوطنية في جبل العرب»، مذكّرة لجميل أبو عسلي، بدون تاريخ؛
FO 371/62169, political report, Scrivener, 11 Aug.; 15 Aug. 1947; **NA RG**. 84/3247/6, American Legation, Memminger, 13 Nov. 1947.

الفائز بالنتيجة(١٠٨). بيد أن المفاوضات تعقدّت في دمشق، واحتدّ الوضع على خلفيتها في الجبل. وأعلن آل الأطرش عن استعدادهم بأن يتنازل يوسف عبد الغفار الأطرش عن ترشيحه، وأن يقدم الأمير حسن استقالته من منصبه كمحافظ، بشرط أن تعلن الحكومة أسماء مرشحيها أولاً. وأصرّت الحكومة أن يعلن آل الأطرش الانسحاب والاستقالة مسبقاً.

تنادت «الحركة الشعبيّة» إلى مؤتمر عام في قرية «بريكه» وتقرر أن يقود الحملة الانتخابية الجديدة حمد عزام. كما طرحت على الحكومة مطالب جديدة تضمنت وجوب إعادة تنظيم الجهاز الإداري في الجبل، وفتح مشاريع لمكافحة البطالة، وتوزيع بذار على الفلاحين. وسمّت الحركة الشعبية نفسها «الحركة من أجل الإصلاح»(١٠٩)، ونادى المؤتمر للسلم العام والتصالح. إلاّ أن صدامات دامية حدثت في القرى التي تجمع عائلات شعبية وعائلات أطرش أو مؤيدين لهم، وفي مناطق أخرى من الجبل. ففي نهاية شهر تموز ١٩٤٧، اشتبك آل هنيدي مع آل نصر (مؤيدين للأطرش) في المجدل، ووقع عدد من القتلى والجرحى. كانت جريدة «الجبل»، التي كانت تصدر وقتها وتميل لجهة الشعب، تبدي أسفها لخلوّ المنطقة ممن يستطيعون التدخّل لوقف مثل هذه الحوادث المؤسفة: المحافظ كان في لبنان، والنائب العام في دمشق وكذلك كان قائد الدرك والأمن(١١٠). عقب حادثة المجدل، صدر تصريح صحافي عن رئيس الحكومة جاء فيه: إن نتائج انتخابات الجبل ما زالت تدقّق وأنه ليس لحادثة المجدل أية علاقة بالصالح العام. وهي مجرّد حادثة عاديّة(١١١). وتركت حكومة دمشق الجبل، بناءً على إرادة رئيس الجمهورية شكري القوتلي «يطيح نفسه بنفسه». وفي شهر آب ١٩٤٧، قامت حركة «الشباب الوطنية» في جنوب الجبل، بجولة دعائية في القرى من أجل شرح أهداف الحركة الشعبية بصورة عامّة، وعلى الرغم من أن الجولة مرت في قرى ذات نفوذ طرشاني، فقد انتهت دون حوادث. الحكومة من جهتها، أمرت رجال الأمن بعدم التدخّل وسحبت أغلبيتهم إلى خارج الجبل بحجّة أنه لا يمكن أن يكونوا حياديين في مثل هذه الأحوال(١١٢).

لقد بدأ التفاوض في الشهرين التاليين، واستدعى خطر النزاع بين الإخوة حضور وفود من أعلى المستويات في المحيط المذهبي، من العقال الروحيّين ومن الوجاهات الدنيوية والنفوذ

١٠٨. FO 371/62169, political report, Scrivener, 29 Aug. 1947; NA RG 84/3247/6, American Legation, Memminger, 13 Nov. 1947.

١٠٩. NA RG. 84/3247/1 Memminger, 20 Aug. 1947.

١١٠. الجبل، ٣٠ تموز ١٩٤٧.

١١١. النصر، ٣١ تموز ١٩٤٧.

١١٢. رسالة الشباب الوطني، ٢٠ آب ١٩٤٧؛ الجبل، ٣٠ تموز ١٩٤٧.

إلى المواقع. وكان الدنيويون ممثلين بكمال جنبلاط من لبنان (وهو صهر حسن الأطرش). وكان وفد الروحيين مؤلفاً من أعلى مستويات العقال: شيوخ وادي التيم، وكذلك شيخ عقل الطائفة في فلسطين أمين طريف، وقاضي المذهب اللبناني علي مزهر وغيرهم.

كانت دوافع الفضاء الروحي من خارج الجبل، هي دفع أخطار الوضع الراهن المتأزّم عن عموم أخوة المذهب، وشدّ الروابط التاريخية والتراثية بينهم، والمصالحة، ووقف أسباب الضعف والتفتت بين أخوة العقيدة. ضمّ «الوفد الكريم» نيفاً و٢٠٠ شخصيّة من ذوي النفوذ، وبقيت الوفود في الجبل فترة ٥ أيام بمشاركة جميع الفئات وحضور ممثلين عن الحكومة المركزية في دمشق. وقد تطلب تنظيم اللقاءات عناء كبيراً. فقد كان لا بد من تشكيل ثلاثة لجان حتى أمكن لقاء الجميع. وقد أورد نجيب حرب في جريدة «الجبل» أن الوفود بذلت جهداً كبيراً لإيجاد حل[١١٣]. كذلك فعل «شيخ العقل» في الجبل ومعه الشيوخ الروحيون، وقد كانوا في نشاط دائب لحسم الخلاف منذ انطلاقته، سواء في الشمال أو في الجنوب، وجهدوا في مسعى التصالح، ولكن خطر الاقتتال بين الإخوة كان أشدّ واستدعى تدخل وجهاء أعلى مرتبة من خارج الجبل. ومع هذا، لم يتجنب الشقاق الهيئة الروحيّة من الجبل نفسها. وكما ذكر سابقاً حيث إنه في سنة ١٩١٠، هدمت حملة سامي باشا الفاروقي «المجلس» في السويداء، واتخذ صالح طربيه مكاناً آخر هو «المجلس الغربي» حالياً. وأصبح الجديد «المجلس الشرقي»، وهكذا بدأ التنافس بين فئتين. المجلس الغربي «لآل جربوع»، والشرقي «لآل أبو عسلي»[١١٤]. لكن ظروف الشدّة في عهد العثمانيين، كما في عهد الانتداب، خففت حدّة الفصل بين الفضاءين الرّوحي والدنيوي لدرجة أن صحيفة «الجبل»، التي التزمت بأهداف الحركة الشعبية، كتبت عن اجتماعات سياسية للمجالس الدرزية سنة ١٩٤٧.

طالب آل الأطرش أن يتمسّك الطرفان بإعلان نتائج الانتخابات، بيتما تشدَّدت «الشعبيّة» بطلب إلغاء هذه النتائج. فأعلن آل الأطرش عند ذلك تنازلهم واستقالتهم من جميع مناصبهم. ولكن هذه الخطوة لم تأت بأي تقدم لحل[١١٥]. وعمّ الفشل وزاد التأزم، كما أن الوضع الاقتصادي بات بائساً جداً. وصدرت في صحيفة «الجبل» نداءات تدعو الحكومة، تحت عناوين ملحّة مثل: «لا تفوِّتوا الفرصة»، ومقالات تدعو إلى تجديد الجهاز الذي أصبح شاغراً وأن يشغله موظفون من خارج الجبل. كما دعت المقالات إلى توظيف أبناء

---

١١٣. الجبل، ١٩ آب ١٩٤٧.

١١٤. مقابلات مع محمد طربية.

١١٥. الجبل، ٨ و١٠ أيلول ١٩٤٧.

الجبل في أماكن أخرى كي يتم التحرر من مصالح الفئات العائليّة. وكان التوقيع في خاتمة المقالات «أبو الجوع»[١١٦]. في ٢٤ أيلول ١٩٤٧ أجيز الأمير حسن الأطرش لمدة شهرين، بعد أن تخلّى كلياً عن مهامِّه. وناب عنه سليمان نصار من قرية «ساله» الذي كان يتمتع بثقة الفئتين[١١٧].

في ما بين ذلك أصبحت لمطالب الشعبيين طبيعة اجتماعية أكثر. فإلى جانب طلب إلغاء الانتخابات وإعادة التنظيم الإداري أخذوا يلحّون في طلب مدِّ الفلاحين بالبذور من قبل الدولة، لأن عدم توافر البذور يهدد الموسم القادم. وطالبوا أيضاً بفتح مدارس جديدة وقطع دابر التهريب، ومد الهاتف وتجهيز البريد كي يسهل الاتصال بالعاصمة. وكانت البذور أهم المطالب الملحّة ولها الأولوية لأن الفلاحين هاجروا، والمواد الغذائية شحيحة. وعن تقرير للمفوضية البريطانية أن الشلل ساد المنطقة وعمّها الجوع[١١٨]. فرفض رئيس الجمهورية شكري القوتلي هذه المطالب، وتعمّد إنهاء آل الأطرش «عملاء سوريا الكبرى»[١١٩]. فأصدر مرسوماً في نهاية شهر تشرين الأول ١٩٤٧، بتثبيت أسماء المرشحين وأعلن موعداً لانتخابات جديدة في ٦ كانون الأول ١٩٤٧، وقامت في نفس الوقت مناورة عسكرية على طريق القنيطرة[١٢٠].

عقدت جماعة الأطرش اجتماعاً في «نجران»، قررت فيه مقاطعة الانتخابات وقطع خطوط الهاتف واحتلال مخافر الدرك المهجورة[١٢١]. وهكذا أصبحت المنطقة أمام صدام مسلّح لا يمكن تجنّبه. كتّلت «الشعبيّة» مناصريها في الجنوب واتجهت نحو القرية، حيث سلطان الأطرش، القائد الحربي، الذي تجمّع حوله المؤيدون ببيارقهم. هدمت «الشعبيّة» بيوت الأطرش التي كانت في طريقها: في قرى عنز، وأم الرمان وذبين. بعد ذلك بيومين، وقعت معركة «بكا» التي خسرتها «الشعبيّة» وسقط بنتيجتها قتلى وجرحى عديدون من الجهتين. وكان من بين القتلى: سعيد الأطرش وحمزة درويش وصالح عزيز. أما سلطان الأطرش، فقد بقي على تقاليده العشائرية ولم يغادر منزله، واقتيد إليه الأسرى من وجهاء «الشعبيّة» وكان من بينهم قاسم أبو خير، وهو مجاهد في الثورة وأحد الذين كانوا في منفى

---

١١٦. الجبل، ١٢ آب ١٩٤٧.

١١٧. الجبل، ٢٤ أيلول ١٩٤٧؛ **FO** 371/62169, Beaumont, 25 Sept. 1947.

١١٨. الجبل، ٢٩ أيلول ١٩٤٧؛ **FO** 371/62169, British Legation, 3 Nov. 1947.

١١٩. **FO** 371/62169, Dundas, 7 Nov. 1947; **NA RG** 84/3247/6 Memminger, 13 Nov. 1947.

١٢٠. **FO** 371/62169, British Legation, 14 Nov.; 22 Nov. 1947.

١٢١. **FO** 371/62169, Dundas, 29 Oct. 1947.

النبك. وقد كرّم سلطان أسراه وذبح لهم خروفاً وليمة[١٢٢].

كان النصر محدوداً، جاء عنه في تقرير البعثة الأميركية:

«كان آل الأطرش قد فوجئوا بانتصارهم كالآخرين، على ما يبدو. لقد كان علي الأطرش في دمشق يتوقع الهزيمة وبالتالي الهرب إلى الأردن. إن أحد الاستنتاجات عن ذلك أن الحكومة لم تمنح الشعبيين الدعم الكافي كما كان يزعم الطرشان. لقد كان في إيضاحات وزير الدفاع أحمد الشراباتي وقتها بأن هزيمة الشعبيين كانت نتيجة هجوم متهورٍ على موقع مستعد للمعركة»[١٢٣].

أطلقت الحكومة المركزيّة على منطقة جبل الدروز، المحافظة الأولى، اسم «محافظة السويداء»[١٢٤]. وسمت عارف النكدي (لبناني، رئيس محكمة النقض في دمشق)، محافظاً لها. وكان ذلك تأكيداً رمزياً للاندماج التام. كما كان ذلك أيضاً، إبعاداً لآل الأطرش عن السلطة في الجبل. ففاوض النكدي فوراً وسعى، بمساعدة كمال جنبلاط، إلى هدنة ووقف استعمال السلاح لمدة عشرة أيام بعد معركة «بكا». تسلّم النكدي بذوراً ومعونات ماديّة من الحكومة، ومساعدة للمحتاجين وبيت اليتيم[١٢٥]. كما مُنح صلاحيات كافية من أجل وقف حمل السلاح ومن أجل إعادة النظام. عاد آل الأطرش مرة ثانية إلى مركز الوجاهة. ليس فقط لأنهم سياسيون محنكون ولكن أيضاً بسبب التأييد المتزايد من الأهالي لهم وانضمام المقاتلين إليهم بسبب مركزهم التاريخي في الجبل.

لم يكن في زمن «العاميّة» دور لوساطة مصالحة داخلية. ولكن في هذه المرّة في زمن «الشعبيّة»، فقد سجلت الوساطات على صفحات صحيفة «الجبل». ووجّهت نداءات إلى «بني معروف» كافة لحفظ كيان الجماعة، ووحدة العشيرة، ولها مقال بعد معركة «بكا» يؤكد ان العشيرة لن تتقسم وأن الكيان غير مهدد[١٢٦]. لقد كانت سنة ١٩٤٨ سنة التواصل والتصالح في البلاد. وكان الجبل ممثلاً في المجلس النيابي بالمقعد البدوي فقط. وصرّحت الفئتان عن أسفهما للدم الذي أريق، كما أكدت «الشعبيّة» رغبتها في إعادة تنظيم الجبل. وأُجريت انتخابات نيابية في الجبل في نيسان ١٩٤٨ وتراجع آل الأطرش كلية عن المشاركة فيها، وبذلك انتخب المرشحون الشعبيون فقط، ودخلوا المجلس بعد أن أعلنت قانونية الانتخابات. بيد أن

---

١٢٢. في النظام العشائري كان هذا إهانة للضيف.

١٢٣. **NA RG**, 84/3247/6, Memminger, 13 Nov. 1947.

١٢٤. **NA RG**. 84/3247/6, Memminger, 26 Nov. 1947; NA RG 84/3247/13, Moose, 13 Jan. 1953.

١٢٥. الجبل، ٢٠ كانون الأول ١٩٤٧.

١٢٦. الجبل، ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧.

رئيس الجمهورية شكري القوتلي كان على وشك إعلان عدم صلاحيتها قبل إعادة الانتخابات الرئاسيّة بفترة قصيرة، ذلك بعد أن أبلغه وفد من آل الأطرش بأن انسحابهم كان مجرّد حركة رمزيّة ولذلك لن يؤخذ به[١٢٧]. لم تكن للمناصب أهمية كبيرة عند سلطان باشا الأطرش. وكانت فعلاً حركة كرامة من جانبه، خاصة أن على المرء أن يبدي كرماً بعد النصر. وهكذا أعاد سلطان نفس الموقف في شهر أيلول ١٩٤٨ وأعلن أن كافة المرشحين من آل الأطرش وعامر قد تراجعوا عن ترشحهم للانتخابات ما عدا عقلة القطامي الذي يحتفظ بتنافسه على المقعد المسيحي، والأمير حسن الأطرش من جانبه كان يعلم أن حياة هذا المجلس لن تكون طويلة. وخاصة أنّ الزعيم حسني الزعيم قد قابله سراً قبل أشهر عدّة من انقلابه[١٢٨].

بمساع من عارف النكدي عقدت راية الصلح وهي شعار المصالحة حسب التقاليد العشائرية القديمة. لقد جرى الصلح أولاً بين آل جربوع وآل أبو عسلي على راية قتيلين من آل جربوع دون دفع ديّة. تمت المراسم بأن تقدم الوسطاء براية بيضاء إلى ذوي القتلى مع عبارة «صلح» علنية، وعقد مسؤول من ذوي كل قتيل عقدة، ثم انتقل الوسطاء إلى المتهمين بالقتل وعقد كل وجيه فيهم عقدة. وهذا، وكما هو معروف عشائرياً منذ القدم، فقد حسم الموضوع وكأنه لم يكن، والتزم الفريقان وضمناً من اللحظة، فلا ثأر ولا وعيد[١٢٩]. لكن الصلح الأهم، كان ذلك الذي حضّر له طويلاً: صلح آل الأطرش والشعبيّة. لقد تم في صلخد، يوم ٢٤ كانون الأول ١٩٤٨.

بهذا الصلح انتهت «الشعبية» ودخل نوابها الأربعة المجلس النيابي في شهر شباط ١٩٤٩. غير أن هذا المجلس حلّ بعد انقلاب «حسني الزعيم» بتاريخ ٣٠ آذار ١٩٤٩. وهلّل الجبل كبقية سوريا للانقلاب[١٣٠] واختير كل من جميل أبو عسلي وجاد الله عزّ الدين بعدها أعضاء في الجمعية التأسيسية لسنة ١٩٤٩، التي لم تعمّر طويلاً[١٣١].

٥- تقييم ونظرة للمستقبل

أُطلق على الجبل اسم «محافظة السويداء». واستمر نفوذ آل الأطرش قائماً. كما بقيت

---

١٢٧ - **NA RG**, 84/3247/6, Memminger, 17 April 1948.

١٢٨ - Seale, **Struggle**, p.74.

١٢٩ - **الجبل**، ١٥ كانون الأول ١٩٤٧؛ مقابلات مع أعضاء من آل أبو فخر.

١٣٠ - **الجبل**، ٢٠ نيسان ١٩٤٩.

١٣١ - حديث مع جادالله عزالدين، ٣٠ أيلول ١٩٩٣؛ Seale, **Struggle**, p. 79.

العادات العشائرية القديمة مطبقة بالمصالحات. ولكن هل يعني هذا استمرارية تأثير وجاهة مرتبطة بروح الانفصال، خاصة أنه لم يكن هناك تحول في الوضع الاجتماعي البعيد المدى؟ وإذا ما نظرنا إلى مراسم الصلح في صلخد بدقّة، نجد فيها مثالاً حياً لكون تراث قديم وشعارات تقليدية تحمل رسالة جديدة تماماً.

شارك في الاحتفال نيف و٢٠٠٠ رجل، بينهم بعثة من دمشق. بدأ أولاً أحد أبناء حمزة درويش. وذكر في كلمته أن في اعتقاده وقناعته أن «الشعبيّة» قد حققت بعض أهدافها. وأنه باسمها يعلن الصلح، وأنه يتنازل عن دم والده بدون أي مقابل. هذا يعني لا ديّة تدفع، واحتفظ بالطابع السياسي. وجاء بعده شبلي العيسمي وتعرّض في كلمته لأهداف الحركة «الشعبيّة» ونادى الجبل:

«. . . علينا أن نتخلّى عن السياسات الضيقة الإقليمية والنزاعات العائلية والجشع. وأن على العاملين في الحقل الوطني أن يرفعوا مستوى الوطن بالعمل المشترك، في بناء المدارس والمستشفيات وشقّ الطرق وجرّ المياه وأن يجعلوا من الجبل جزءاً حياً من سوريا»(١٣٢).

بينما تطرّق سلطان الأطرش بكلمته إلى الماضي وجاء فيها:

«. . . إن الدروز عائلة واحدة، ولا فرق بين عائلة الأطرش وعائلة عامر أو أية عائلة أخرى. ونحن إذا اتخذنا الماضي مثلاً، نستطيع في المستقبل أن نصون الإرث ونصون شرف آبائنا»(١٣٣).

نلاحظ هنا أن جيلين تقابلا. وأن كلاً منهما يجسّد عصراً. لقد كان سلطان الأطرش آخر من مثل الجماعة القديمة. أضفى عليها بعداً اجتماعياً، زمن العثمانيين، وهو ومن حوله جمهرة فرسان جبل الدروز، جماعة الحرب القديمة. وكان شبلي العيسمي ابن إحدى عائلات الصف الثاني في جنوب الجبل، وقد وقف مع الشباب المناضلين ضد الأفكار التي حملها الآباء في تصوّرهم السياسي، في عصر جديد وجيل جديد.

في نظرة إلى صفوف المشاهدين، يتضح للرّائي، أين المستقبل وأين يكون. هناك حيث جلس نواب «حزب الشعب»، ويحضر نفس المجلس أيضاً «ميشال عفلق» و«صلاح الدين البيطار»، مؤسسا «حزب البعث» اللذان دخلا المجلس النيابي في الانتخابات الأخيرة. وفي الصفوف كانت عائلة الأطرش وجماعة الحركة «الشعبيّة» متّحدتين معاً. إن الأهداف الوطنية والأهداف الاجتماعية التي أشارت إليها «الشعبيّة» انصبّت مباشرة في حركة البعث التي

١٣٢ . الجبل، ٢٤ كانون الأول ١٩٤٧ .

١٣٣ . المصدر السابق.

امتصّت كالحركة الأقوى الشباب الناشطين سياسياً. وشكّل الدروز نسبة ٣٪ من الشعب السوري ونسبة ٣,٤٪ في حزب البعث[١٣٤].

كان منصور الأطرش بن سلطان، في صفوف البعث منذ سنة ١٩٤٦، حيث كان وقتها ما يزال يَدرس العلوم السياسية والتاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت (عام ١٩٤٧-١٩٤٨). فانتخب سنة ١٩٥٤ ممثلاً للبعث في المجلس النيابي، وكان لفترة مدير مدرسة في السويداء حيث كان كل مدرسيها بعثيين[١٣٥]. بعد عشر سنوات كان منصور ومعه شبلي العيسمي، الذي تكلّم في صلخد بلسان «الشعبيّة»، في قيادة حزب البعث الذي تولى السلطة سنة ١٩٦٣. وكان منصور صديقاً لإميل يوسف الشويري، وخالف سنة ١٩٥٦، قواعد المذهب وتزوّج من أخت إميل المسيحيّة[١٣٦]، في وقت كان «الزواج الداخلي» ما زال متبعاً بشدّة في الجبل. أحدث هذا الزواج إزعاجاً لدى البعض، بيد أن آخرين اعتبروا هذا الزواج شعار تقدميّة، وتعبيراً عن اندماج وطني في المجتمع السوري[١٣٧]. إن ما يعطي مفهومنا معنى حسياً هو أن الدروز اندمجوا اندماجاً عامودياً وأفقياً.

إن المرحلة التاريخية التي يتناولها هذا الكتاب قد اختتمت. فقد كانت مسيرة دروب طويلة شاقة، لحقبة تاريخية من «المجتمع الحدودي» في العهد العثماني، عبر فترة دولة جبل الدروز إلى «محافظة السويداء» بدراسة تؤخذ من زاوية الموقع نفسه. لقد كان تاريخ انتفاضات أتى بها كل عصر من هذه العصور، إلى ما كان معها من عناوين تحول في حياة جماعة الجبل ذاتها في الوقت نفسه. كانت هذه الفترة التاريخيّة بالمقابل، مقدمة لتاريخ الدولة السورية ومجتمعها ومشاكلها. لم تصل «قصة العشائر» إلى نهايتها. وكما أوضح هذا الكتاب فإن الدروز يقدمون مثالاً نموذجياً لكل قرائن «الجماعة النحننية». إلا أن هذه الجماعة، كما سبق أن بيّن هذا الكتاب، ليست بأية قرينة من القرائن، جماعة مغلقة، متلاحمة ومقيدة بسرية أصول مذهبها الباطني في كتلة مميّزة مطلقاً. فإن «الإثنية» لا تعدو شعور أفراد الجماعة، بشروط واقع وجدوا نفسهم فيه وتستخدم إرادياً وآلياً. ففي تعريف الدروز لذاتهم أن «ابن الجبل» هو في نفس الوقت ابن الوطن العربي. وينعت الشباب

---

١٣٤. Hinnebusch, **Authoritarian Power**, p. 184.

١٣٥. مقابلات مع منصور الأطرش، ٧/٨ نيسان ١٩٩١؛ Abu Jaber, **The Arab Ba'th**; van Dusen, "Political integration", pp. 129-130.

١٣٦. ما زال هناك ضغط اجتماعي شديد على الزواج من خارج الجماعة.

١٣٧. مقابلة مع منصور الأطرش، ٨ نيسان ١٩٩١.

أنفسهم «الشباب الوطني» تأكيداً لمعارضتهم الوطنية ضمن مجتمع الجبل. وإذا استخدموا تعبير «الشباب الدرزي» في مؤتمر في مدينة خارج الجبل فهو للدلالة على انتمائهم إلى «الجماعة النحننية» الدرزية. وليس في هذا تناقض، وإنّما هو عبارة عن نفس الهويّة. ومن تأثير القومية العربية أن ينظر إلى تعدد الهوية هذه في العالم العربي بعين حادة الدقة. أما ما جرّه الاستعمار الأوروبي على هذا الموضوع من متاعب، فقد سبق عرضه في الصفحات السابقة.



المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

المحفوظات

١ . محفوظات مجلس الشعب، دمشق .
جلسات المجلس النيابي السوري، ١٩٤٣-١٩٤٩ .

٢ . المحفوظات الوطنية، دمشق .
جبل العرب : الحياة الاجتماعية ١٩٢٢-١٩٥٧ .

٣ . مكتبة الأسد، دمشق .
سوريا ولبنان، المجموعة H، M3176(1) .

٤ . المديرية العامة للمصالح العقارية، إحصاءات داخلية .

٥ . محفوظات وأوراق عائلية في جبل الدروز : أبو عسلي، أبو فخر، حرب، عز الدين الحلبي، قطاعي .

الصحف

المقتبس، ١٩٠٨- ١٩١٣ .

الصفاء، ١٩١٠، ١٩١١ .

الجبل، ١٩٤٦-١٩٤٩

الكتب والمقالات

- الأطرش، سلطان: «مذكرات». في مجلة **بيروت المساء**، أعداد ٩٧، سنة ١٩٧٥ - ١٢٠ سنة ١٩٧٦ (إعداد يوسف الدبيسي وصلاح مظهر).
- أبو راشد، حنّا: **جبل الدروز**. بيروت، ١٩٦١ (الطبعة الثانية).
- أبو راشد: **حوران الدامية**. بيروت، ١٩٦١ (الطبعة الثانية).
- أبو فخر، فندي: «بعض مظاهر التنظيم الإداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا (١٨٣١-١٨٤٠)» في **دراسات تاريخية**، ٢٣/ ٢٤، ١٩٨٦.
- البعيني، حسن أمين: **سلطان باشا الأطرش مسيرة قائد في تاريخ أمة**. بيروت ١٩٨٥.
- ـــــــ **جبل العرب. صفحات من تاريخ الموحدين الدروز**. بيروت ١٩٨٥.
- البعيني، نجيب: **رجال من بلدي** (جزءان). بيروت، ١٩٨٤، ١٩٨٦.
- بيلوني، مصطفى: «عصبة العمل القومي وإسهامها في الحركة القومية في سوريا ١٩٣٣-١٩٣٩». في **دراسات تاريخية**، ٢٣/ ٢٤، ١٩٨٦.
- ثابت، كريم خليل: **الدروز والثورة السورية الكبرى وسيرة سلطان باشا الأطرش**، القاهرة، ١٩٢٥.
- جربوعة، حسين: **قانون الأحوال الشخصية لطائفة الموحدين الدروز**. د. ت.
- جربوعة، نايف فارس: **دراسات في الثورة العاميّة وتاريخ جبل العرب (١٦٨٥-١٩٢٧)**. دمشق، ١٩٩١.
- الجندي، أدهم: **تاريخ الثورة السورية في عهد الإنتداب الفرنسي**. دمشق، ١٩٦٠.
- حرب، نمعان: **الشهيد شهاب غزالة، بطل معركة الكفر**. دمشق، ١٩٩٣.
- الحكيم، يوسف: **سوريا والانتداب الفرنسي**. بيروت، ١٩٨٣.
- ـــــــ **سوريا والعهد الفيصلي**. بيروت، ١٩٨٦.
- حنّا، عبد الله: **عبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩-١٩٤٠) عالم نهضوي ورجل الوطنية والتحرر الفكري**. دمشق، ١٩٨٩.
- ـــــــ **العامية والانتفاضة الفلاحيّة في جبل حوران**. دمشق، ١٩٩٠.
- ـــــــ **تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري** (٤ أجزاء). دمشق، ١٩٩٣.
- الدبيسي، يوسف سليم: **أهل التوحيد «الدروز» وخصائص مذهبهم الدينية والاجتماعية**، (٥

أجزاء). بيروت، ١٩٩٢.
- الريس، منير: **الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي. الثورة السورية الكبرى.** بيروت، ١٩٣٦.
- رضوان، محمد رضوان: «الحركة العامية في الجبل ١٨٨٨-١٨٩٢» في عبد الله حنّا؛ **العاميّة والانتفاضة الفلاحيّة ١٨٥٠-١٩١٨ في جبل حوران**. دمشق، ١٩٩٠.
- الرفاعي، شمس الدين: **تاريخ الصحافة السورية في العهد العثماني ١٨٠٠-١٩١٨.** القاهرة، ١٩٦٩.
- الزركلي، خير الدين: «مقدمة» في كريم خليل ثابت: **الدروز والثورة السورية وسيرة سلطان الأطرش**. القاهرة، ١٩٢٥.
- زكار، سهيل: **بلاد الشام في القرن التاسع عشر**. دمشق، ١٩٨٨.
- سعيد، أمين: **الثورة العربية الكبرى، تاريخ مفصّل جامع للقضية العربية في ربع قرن.** القاهرة، ١٩٣٣.
- السفرجلاني، محيي الدين: **تاريخ الثورة السورية**. دمشق، ١٩٦١.
- شهبندر، عبد الرحمن: **مذكرات**. بيروت، دار الإرشاد ١٩٦٧.
- الصغيّر، سعيد: **بنو معروف في التاريخ**. القريّا (ب. ت).
- طربيه، محمد حسين: **من آثار الشيخ حسين صالح طربيه ١٩٢٧-١٩٥٤**. دمشق، ١٩٩٣
- طلاس، مصطفى: **الثورة العربية الكبرى**. دمشق، ١٩٧٩.
- طليعة، أمين: **مشيخة العقل**. بيروت، ١٩٧١.
- عبيد، سلامة: **الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر**. بيروت، ١٩٨٠.
- عوّاد، عبد العزيز: **الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤-١٩١٤**. القاهرة، ١٩٦٩.
- العودات، هيثم: **انتفاضة العاميّة الفلاحية في جبل العرب**. دمشق ١٩٧٢.
- العياش، عبد القادر: **معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين**. دمشق، ١٩٨٥.
- العيسمي، شبلي/ نمر، داود/ الشوفي، حمود: **التعريف بمحافظة جبل العرب**. دمشق، ١٩٦٢.
- فارس، جورج: **من هو في سوريا**. دمشق، ١٩٥١.
——— **من هم في العالم العربي**. دمشق، ١٩٥٧.
- قادري، أحمد: **مذكرات عن الثورة العربية الكبرى**. دمشق، ١٩٩٣.
- القاسمي، ظافر: **وثائق جديدة من الثورة السورية الكبرى**. بيروت، ١٩٦٥.
- قرقوط، ذوقان: **تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩**. بيروت، ١٩٧٥.

ـــــــــ «من معارك الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥-١٩٢٧ : معركة الكفر». في **دراسات تاريخية.** ٤٩/ ٥٠، ١٩٩٤ .
- قرقوط، معضاد: **أضواء على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمحافظة السويداء.** دمشق ١٩٨٨ .
- كرد علي، محمد: **المذكرات.** الطبعة الرابعة، دمشق، ١٩٤٨ .
ـــــــــ **خطط الشام** (٦ أجزاء) (الطبعة الثالثة). دمشق، ١٩٨٣ .
- المالكي، منير: **من ميسلون إلى اللجاه.** دمشق، ١٩٩١ .
- مظهر، صلاح: «الثورة العامية»، (مخطوطة)، السويداء ١٩٧٢ .
- المعلم، وليد: **سوريا ١٩١٨-١٩٥٨ . التحدي والمواجهة.** دمشق، ١٩٨٥ .
- نجار، عبد الله: **بنو معروف في حوران.** دمشق ١٩٢٤ .

المقابلات الشخصية

- د. سامي مكارم، بيروت ١٥/ ١/ ١٩٩١ .
- منصور الأطرش، المولود عام ١٩٢٥، القريّا ٧/ ٤/ ١٩٩١، ٨/ ٤/ ١٩٩١، ١٧/ ٤/ ١٩٩١، دمشق ٧/ ٩/ ١٩٩٣ .
- زيد ذوقان الأطرش، المولود عام ١٩٠٠، القريّا ٨/ ٤/ ١٩٩١ .
- عبد الله عبد الغفار الأطرش، ؟؟ ، القريّا ٧/ ٤/ ١٩٩١ .
- فرحان الجرمقاني، المولود عام ١٩٢٢، السويداء ٦/ ٧/ ١٩٩٣ .
- سلمان الحجيلي، ؟؟ ، سهوة الخضر ٨/ ٨/ ١٩٩٣ .
- واكد الواكد، المولود عام ١٩٠٥، القريّا ١٢/ ٨/ ١٩٩٣ .
- توفيق يوسف محمد بركات، المولود عام ١٩١٠، متان ١٦/ ٨/ ١٩٩٣ .
- فارس العيسمي، المولود عام ١٩١٥، متان ١٦/ ٨/ ١٩٩٣ .
- الشيخ سعيد الحناوي، المولود عام ١٩١٢، سهوة البلاطة ١٨/ ٨/ ١٩٩٣ .
- هاني أبو فخر، المولود عام ١٨٨٣، كفر اللحف، ٢٠/ ٨/ ١٩٩٣ .
- فضل الله داود هنيدي، المولود عام ١٩٣١، المجدل ٢٠/ ٨/ ١٩٩٣ .
- سلمان الخطيب، المولود عام ١٩٠٠، صماد ٢٣/ ٨/ ١٩٩٣ .
- سلمان أيوب، ؟؟، صمغ ٢٣/ ٨/ ١٩٩٣ .
- حسن حاطوم، المولود عام ١٩١٣، ديبين ٢٥/ ٩/ ١٩٩٣ .

- الخوري الياس الخوري، المولود عام ١٩٢٣، صمغ ٢٥/ ٩/ ١٩٩٣.
- سعيد أبو الحسن، المولود عام ١٩١٦، السويداء ٢٦/ ٩/ ١٩٩٣.
- جاد الله عز الدين، المولود عام ١٩١٦، السويداء ٢٧/ ٩، ٢٨/ ٩، ٣٠/ ٩/ ١٩٩٣.
- نمعان حرب، ؟؟ ، السويداء ٢٩/ ٨/ ١٩٩٣.
- فؤاد شلش، المولود عام ١٩٤٠، جبيب ٢٩/ ٩/ ١٩٩٣.
- عقاب سليمان نصّار، المولود عام ١٩٢٨، سالة ٣٠/ ٩/ ١٩٩٣.
- د. سرحان حداد، المولود عام ١٩٣١، عرى ١/ ١٠/ ١٩٩٣.

والشكر الخاص لـ :
فندي أبو فخر، محمد طربيه، حمد قرقوط.

المصادر والمراجع الأجنبية

I. ARCHIVE UND AKTENBESTÄNDE المحفوظات والمستندات

Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Nantes (MAEN)
Constantinople, Correspondance avec les Echelles, Damas (1851-1914).
Consulat de France à Damas (1851-1914).
Fonds Beyrouth (1918-1940): 306, 307, 363, 365, 444, 453, 454, 426, 481, 551, 567, 453, 870, 871, 872, 922, 982, 985, 1259, 1270, 1417, 1534, 1548, 1549, 1560, 1585, 1638, 1672, 1673, 2343, 2362, 2369, 2377, 2381, 2349, 2350, 2377, 2487, 2492, 2503, 2505, 2506.
Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris (MAEP)
Correspondance Politique des Consuls (CPC), Damas, tome 1-18 (1850-1896).
Correspondance Consulaire et Commerciale (CCC), Damas, tome 1-7 (1839-1894).
Nouvelles Séries, Turquie, Syrie-Liban, tome 428/29, 113-118 (1908-1912).
Série E, Levant 1918-1929.
Public Record Office, London
Foreign Office (FO), Series 371 General Correspondence, political (1921-1949)
Foreign Office (FO), Series 684 Embassy and Consular Archives (1922-1949)
Foreign Office (FO), Series 618 Embassy and Consular Archives, Turkey, Damascus.
Foreign Office (FO), Series 195 Embassy and Consular Archives, Turkey (1840-1890).
Foreign Office (FO), Series 141 Embassy and Consular Archives
Foreign Office (FO), Series 78 General Correspondence, Turkey
Politisches Archiv des Auswärtigen Amtes, Bonn
AA, Türkei R (1860-1918)
Bundesarchiv Potsdam, Abteilungen
R 901 (AA) (1920-1940)
Staatsbibliothek Preußischer Kulturbesitz, Berlin, Abteilung Handschriften
Wetzstein Nachlaß
US National Archives, Washington
NA, T1177 Records of the Department of State relating to internals of Syria (1930-1944)
NA, RG 84 (1943-1953)
Basbakanlsk Arsivi
Irade Meclis-i Mahsûs, 4607

II. OFFIZIELLE PUBLIKATIONEN UND DOKUMENTENEDITIONEN
المنشورات الرسمية والمطبوعات التوثيقية

The Arab Bulletin. Bulletin of the Arab Bureau in Cairo, 1916-1919. IV volumes, with a new intro-

duction and explanatory notes by Dr. Robin Bidwell, Archive Editions, 1986

Documents on British Foreign Policy 1919-1939. Edited by E.L. Woodward and Rohan Butler, First Series, vol. IV, London 1952

British Documents on Foreign Affairs: Reports and Papers from the Foreign Office Confidential Print. Part II, Series B (Turkey, Iran, and the Middle East, 1918-1939), Vol. 5, The Syrian Revolt 1925-27, Edited by Robin Bidwell, University Publications of America, 1985

Despatches from Damascus. Gilbert MacKereth and British Policy in the Levant, 1933-1939. Edited by Michael G. Fry and Itamar Rabinovich, Jerusalem 1985

Ministère des Affaires Etrangères: Rapport à la Société des Nations sur la situation de la Syrie et du Liban 1924-1938. Paris, 1929

Diplomacy in the Near and Middle East. Edited by J.C. Hurewitz, New York 1972 (Reprint)

III. DARSTELLUNGEN (EINSCHLIESSLICH UNVERÖFFENTLICHTER MANUSKRIPTE UND DISSERTATIONEN)

المراجع والمصادر

Abrahamian, Ervand: "European feudalism and Middle Eastern despotisms". In: **Science and Society,** 39, 1975

Abu-Izzedin, Nejla M.: **The Druzes - A New Study of their History, Faith and Society**. Leiden, 1984

Abu Jaber, Kamel S.: **The Arab Ba'th Socialist Party: History, Ideology and Organization.** Syracuse 1966

Akarli, Engin: **Some Ottoman Documents of Jordan. Ottoman Criteria for the Choice of an Administrative Center in the Light of Documents on Hauran, 1909-1910**. (Publications of the University of Jordan). Amman, 1989

– **The Long Peace. Ottoman Lebanon, 1861-1920**. London, 1993

– "'Abdülhamid II's attempt to integrate Arabs into the Ottoman System". In: Kushner, D. (ed.), **Palestine in the Late Ottoman Period**. Jerusalem u.a., 1986

Alavi, Hamza: "Peasants and peasant societies". In: **Journal of Peasant Studies**, 1,1, 1973

Alter, Peter: **Nationalismus**. Frankfurt, 1985

Anderson, Benedict: **Die Erfindung der Nation. Zur Karriere eines folgenreichen Konzeptes**. Frankfurt u.a., 1988

Anderson, J. N.: "The personal law of the Druze community". In: **WI**, N.S. 2, 1953

Andréa, Général: **La révolte druze et l'insurrection de Damas, 1925-1926**. Paris, 1937

Antonius, George: **The Arab Awakening**. New York, 1965 (4. Aufl.)

– "Syria and the French Mandate". In: **International Affairs**, vol.13,4. 1934

al-'Aqiqi, A. D.: **Lebanon in the Last Years of Feudalism**. Transl. and ed. by M.H. Kerr. Beirut, 1959

Asad, Talal / Owen, Roger (ed.): **The Middle East. Sociology of "Developing Societies"**. London, 1983

Auhagen, Hubert: **Beiträge zur Kenntnis der Landesnatur und der Landwirtschaft Syriens**. Ber-

lin, 1907

Baer, Gabriel: "Submissiveness and revolt of the fellah". In: Baer, G., **Studies in the Social History of Modern Egypt**. Chicago, 1969

– "The development of private ownership of land". In: Baer, G., **Studies in the Social History of Modern Egypt**. Chicago, 1969

– "Fellah rebellion in Egypt and the Fertile Crescent". In: ders., **Fellah and Townsman in the Middle East. Studies in Social History**. London, 1982

Barth, Fredrik: **Ethnic Groups and Boundaries.** Oslo, 1970

Bell, Gertrude: **Syria. The Desert and the Sown**. New York, 1973

Ben-Dor, Gabriel: "Intellectuals in Israeli Druze society". In: **MES**, 12,2 1976

Betts, Raymond F.: **Assimilation and Association in French Colonial Theory 1890-1914.** New York u.a., 1961

Bileski, Moritz: "Syrien und Palästina seit Kriegsausgang". In: **Zeitschrift für Politik,** XVI, 1926

Binion, Rudolph: **Defeated Leaders. The Political Fate of Caillaux, Jouvenel, and Tardieu**. New York, 1960

Blanc, Haim: "Druze particularism: Modern aspects of an old problem". In: **Middle Eastern Affairs**, Bd.3, 1952

Blet, Henri: **France d'outre-mer. L'oeuvre coloniale de la Troisième Republique**. (Histoire de la colonisation française, tome III). Paris, 1950

Bokova, Lenka: "Les Druzes dans la révolution syrienne de 1925 à 1927". In: **Guerres mondiales,** 153. 1989

– "La Révolution Française dans le discours de l'insurrection syrienne contre le Mandat français (1925-27)". In: **Revue du Monde Musulman**, 51-54. 1989

– **La confrontation franco-syrienne à l'époque du Mandat 1925 -1927.** Paris, 1990

Bonardi, Pierre: **L'imbroglio syrien**. Paris, 1927

Bordeaux, Henry: "L'Orient en marche. Dans la montagne des Druses". In: **Revue des Deux Mondes,** tome XXIX. 1925

Bou-Nacklie, N.E.: "The Avenantaires: Syrian mercenaries in French Africa". In: **MES**, 27,4, 1991

Bourdieu, Pierre: **Entwurf einer Theorie der Praxis**. Frankfurt, 1976

Bouron, Narcisse: **Les Druzes**. Paris, 1930

Brandt, Jürgen: **Die Politik des französischen Imperialismus in Syrien und Libanon vom Ende des 1. Weltkriegs bis zum Vorabend des großen Volksbefreiungskrieges**. Diss. A, Leipzig, (unveröffentlicht) 1966

– **Syrien, Libanon - Renaissance einer nationalen Identität**. Diss. B, (unveröffentlicht), Leipzig, 1980

Brown, Nathan: **Peasants against the State: The Political Activity of the Egyptian Peasantry, 1882-1952**. Unpubl. Ph.D. diss., UMI Ann Arbor, 1987

Bruinessen, Martin van: **Agha, Scheich und Staat. Politik und Gesellschaft Kurdistans**. Berlin, 1989

Brunhes, Jean: "Le dernier-né des États Syriens: Le Djebel Druze". In: **Revue Politique et Littéraire** (Revue Bleue), Déc./Jan. 1921/22

Brünnow, Ernst / Domaszewski, Alfred von: **Die Provincia Arabia**. Straßburg, 1909
Bryer, David: "The origins of the Druze religion". In: **Der Islam**, 53, 1979
Buckingham, J.B.: **Reisen durch Syrien und Palestina**. Weimar, 1828
Buheiry, Marwan: **Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939**. Beirut, 1981
Burckhardt, Johann Ludwig: **Reisen in Syrien, Palästina und der Gegend des Berges Sinai**. 2 Bd., übersetzt und annotiert von Wilhelm Gesenius, Weimar, 1823
Burgess, Elaine: "The resurgence of ethnicity: myth or reality?" In: **Ethnic and Racial Studies**, 1, 3, 1978
Burke III, Edmund: "A comparative view of French native policy in Morocco and Syria, 1912-1925". In: **MES** 9,2. 1973
Burton, Richard F. / Tyrwhitt Drake, Charles F.: **Unexplored Syria**. London, 1872
Büttner / Friedemann (Hrsg.): **Reform und Revolution in der islamischen Welt. Von der osmanischen Imperialdoktrin zum arabischen Sozialismus.** München, 1971
de Caix, Robert: **La France dans le Levant**: La Syrie. Paris, 1931
Cankaya, Mucellito Ali: **Yeni Mülkiye Tarihi ve Mülkiyeliler** (Neue Geschichte der Verwaltungshochschule Ankara und ihrer Absolventen). Vol. 1, Ankara 1968-69
Cantineau, Jean: **Les parlers arabes du Horan**. Paris, 1940
Carbillet, Capitaine: **Au Djebel Druse. Choses vues et vécues**. Paris, 1929
Catroux, Général: **Dans la bataille de Méditerranée. Egypte-Levant-Afrique du Nord 1940-44**. Paris, 1949
– **Deux missions en Moyen Orient 1919-1922**. Paris, 1958
Catroux, Lt. Colonel: "Le Mandat français en Syrie. Son application à l'état de Damas". In: **Revue Politique et Parlementaire.** 1922
Chevallier, Dominique: "Aux origines des troubles agraires libanais en 1858". In: **Annales**, XIV, 1, 1959
– **La société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe**. Paris, 1971
Churchill, Charles: **The Druzes and the Maronites under the Turkish Rule from 1840 to 1860**. London, 1862
Coblentz, Paul: **Le silence de Sarrail**. Paris, 1930
Comité Franco-Syrien: **Syrie et Liban**. Paris, 1925
Cuinet, Vital: **Syrie, Liban et Palestine.** Paris, 1896
van Dam, Nikolaos: **The Struggle for Power in Syria. Sectarianism, Regionalism and Tribalism in Politics,** 1961-1978. London, 1979
– "Middle Eastern political clichés: 'Takriti' and 'Sunni' rule in Iraq; 'Alawi rule' in Syria". In: **Orient**, 21. 1980
Davison, Roderic: **Reform in the Ottoman Empire 1865-1876**. Princeton, 1963
– "Turkish attitudes concerning Christian-Muslim equality in the nineteenth century". In: Davison, R., **Essays in Ottoman and Turkish History**, 1774-1923, London, 1990
Dawn, Ernest C.: **From Ottomanism to Arabism**. London u.a., 1973
Denon, J.: "La Question foncière en Syrie et au Liban". In: **L'Asie Francaise**, XXIII, Février, 1923
Dentzer, J.-M. (éd.): **Hauran. Recherches archéologiques sur la Syrie du Sud à l'époque hellénis-**

tique et romaine. Tome 1 et 2. Paris, 1986
Desideri, F.: "Au Djebel Druze". In: L'**Asie Française**, Paris, 1931, 1932, 1933
Deutsch, Karl W.: **Nationalism and Social Communication**. Cambridge, 1966 (2. Aufl.)
– **Nationbuilding**. New York, 1966
Devereux, George: "Ethnic identity: Its logical foundations and its dysfunctions". In: de Voss, George / Romanucci-Ross, Lola: **Ethnic Identity**. Palo Alto, 1975
DeVoss, George / Romanucci-Ross, Lola: **Ethnic Identity**. Palo Alto, 1975
Dilger, Konrad: "Tendenzen zur Rechtsentwicklung". In: Ende, W. / Steinbach, U.(Hrsg.), **Der Islam in der Gegenwart. München**, 1993 (3. Auflage)
Dillemann, Louis: "Les Druzes et la révolte syrienne de 1925". In: **Revue française d'Histoire d'Outre-Mer,** tome LXIX, 254. 1982
Djemal Pascha, Ahmed: **Erinnerungen eines türkischen Staatsmannes**. München, 1922
Doriot, Jaques: "La Syrie aux Syriens! Discours prononcé à la chambre des Députés le 20 Décembre 1925". In: **L'Humanité**, Paris, 1926
Dostal, Walter: "Sozio-ökonomische Aspekte der Stammesdemokratie in Nordost-Yemen". In: **Sociologus**, 24,1, 1974
– **Egalität und Klassengesellschaft in Saudi-Arabien**. Wien, 1985
Doty, Bennett J.: **The Legion of the Damned. The Adventures of Bennett J. Doty in the French Foreign Legion as Told by Himself**. London, 1928
Dufourg, J.-P.: "La maison rurale au Djebel druze". In: **Revue de Géographie de Lyon**, Bd.26, 1951
Duraffourd, M.C: "Notice sur le démembrement et l'aménagement des terres 'mouchaa' possédées dans l'indivision collective". In: **Fonds Henri Laoust**, IFEAD. 1935
van Dusen, Michael H.: "Political integration and regionalism in Syria". In: **MEJ**, 26, 2. 1972
Eickelman, Dale F.: **The Middle East: An Anthropological Approach**. Eaglewood Cliffs, 1981
Elwert, Georg: **Nationalismus und Ethnizität. Über die Bildung von Wir-Gruppen**. Berlin, 1989
Ende, Werner / Steinbach, Udo (Hrsg.): **Der Islam in der Gegenwart**. München, 1993 (3. Auflage)
Epstein, Eliyahou: "Le Hauran et ses habitants". In: **L'Asie Française**, 1936
Escher, Anton: **Sozialgeographische Aspekte raumprägender Entwicklungsprozesse in Berggebieten der Arabischen Republik Syrien**. Erlangen, 1991
Ess, Josef van: "Libanesische Miszellen". In: **WI**, N.S. 12, 1969/70
– Chiliastische Erwartungen und die Versuchung der Göttlichkeit. Der Kalif al-Hakim (386-411 H.) **Abhandlungen der Heidelberger Akademie der Wissenschaften**, Heidelberg 1977
– "Libanesische Miszellen". In: **WI**, NS 12 1969/70
Esser, Hartmut: "Ethnische Differenzierung und moderne Gesellschaft". In: **Zeitschrift für Soziologie**, 17, 4, 1988
Fawaz, Leila Tarazi: **An Occasion for War. Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860**.London u.a., 1994
de Feriet, René: **L'application d'un mandat: La France, puissance mandataire en Syrie et au Liban**. Thèse. Paris 1926. Beyrouth, 1926
Finn, E.A.: **Palestine Peasantry. Notes on their Clans, Warfare, Religion and Laws**. London, 1923
Firro, Kais: "Political behaviour of the Druze as a minority in the Middle East - a historical perspec-

tive". In: **Orient**, 27, 1986
– **A History of the Druzes.** Leiden u.a., 1992
Freitag, Rainer: **Seelenwanderung in der islamischen Häresie**. Berlin, 1985
Freitag, Ulrike: **Geschichtsschreibung in Syrien 1920-1990. Zwischen Wissenschaft und Ideologie**. Hamburg, 1991
Fuchs, W. / Klima, R. / Lautmann, R. / Rammstedt, O. (Hrsg.): **Lexikon zur Soziologie**. Opladen, 1978 (2. Auflage)
Gebhardt, Jürgen: "Nationale Identität und nationale Ideologie". In: **ZfP**, 32, 3, 1985
Gellner, Ernest: "The tribal society and its enemies". In: Tapper, R., **The Conflict of State and Tribe in Afghanistan,** S. 436-453, London, 1983
Ghazzal, Zouhair: **L'économie politique de Damas durant le XIXe siècle.** Damas, 1993
Gilsenan, Michael: **Recognizing Islam**. 1982
Goldziher, Ignaz: "Das Prinzip der takijja im Islam". In: **ZDMG**, 60, 1906
Gontant-Biron, R., Comte de: **Comment la France s'est installée en Syrie 1918-1919**. Paris, 1922
Gräf, Erwin: **Das Rechtswesen der heutigen Beduinen**. Walldorf-Hessen, 1952
Graham, Cyril: "Explorations in the desert East of Hauran and in the ancient land of Bashan". In: **Journal of the Royal Geographical Society**, 28, London, 1858
Gross, Max L.: **Ottoman Rule in the Province of Damascus 1860-1909**, Vol. I,II. Unpubl. diss., UMI Ann Arbor, 1979
Grotzfeld, Heinz: "Language hierarchy and speaking Arabic: Language constancy, variation and tolerance in an Arabic dialect area". In: **Al-Abhath**, vol. XXXI, American University of Beirut, 1983
Gubser, Peter: "Minorities in isolation: The Druze of Lebanon and Syria". In: MacLaurin, Ronald D. (Hrsg.), **The Political Role of Minority Groups in the Middle East**. New York, 1979
Guthe, H.: "Dr. A. Stübel's Reise nach Diret et-Tulul und Hauran 1882". In: **ZDPV**, XII, 1889
Guys, Henry: **La nation druse**. (Paris, 1863), Nachdruck Amsterdam, 1979
Haarmann, Ulrich (Hrsg.): **Geschichte der arabischen Welt**. München, 1991 (2. Auflage)
Haddad, E.N.: "Political parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni)". In: **JPOS**, 1, 1920-21
Harik, Iliya F.: "The ethnic revolution and political integration in the Middle East". In: **IJMES**, 3. 1972
Hartmann, Martin: "Bemerkungen zu der neuen Hurankarte". In: **ZDPV**, XIII, Leipzig, 1890
– **Reisebriefe aus Syrien.** Berlin, 1913
Hausen, Karin: "Schwierigkeiten mit dem 'sozialen Protest'. Kritische Anmerkungen zu einem historischen Forschungsansatz". In: **Geschichte und Gesellschaft**, 3, 1977
Havemann, Axel: **Rurale Bewegungen im Libanongebirge des 19. Jahrhunderts**. Berlin, 1983
Herbette, François: "Le Djebel Druse". In: **Annales de Géographie**, 35, 193, 1926
Herrmann, Rainer: **Kulturkrise und konservative Erneuerung. Muhammad Kurd 'Ali (1876-1953) und das geistige Leben in Damaskus zu Beginn des 20. Jahrhunderts**. Frankfurt u.a., 1990
Herzog, Christoph / Motika, Raoul / Pistor-Hatam, Anja: **Presse und Öffentlichkeit im Nahen Osten**. Heidelberg, 1985
Hinnebusch, Raymond A.: **Party and Peasant in Syria: Rural Politics and Social Change under**

the Ba'th. (Cairo papers in social science, vol. 3, mono. 1) Cairo, American University in Cairo, 1979

– **Authoritarian Power and State Formation in Ba'thist Syria**. Boulder u.a., 1990

Hintze, Otto: **Feudalismus - Kapitalismus**. Göttingen, 1970

Hinz, Walther: **Islamische Masse und Gewichte**. Leiden u.a., 1970

Hirschberg, Walter: **Neues Wörterbuch der Völkerkunde**. Berlin, 1988

Hitti, Philip K.: **The Origins of the Druze People and Religion**. New York, 1928

Hobsbawm, Eric: **Nations and Nationalism since 1780. Programme, Myth, Reality**. Cambridge u.a., 1990

Hobsbawm, Eric / Ranger, Terence (eds.): **The Invention of Tradition**. Cambridge u.a., 1985

Hodgson, Marshall: "Al-Darazi and Hamza in the origin of the Druze religion". In: **Journal of the American Oriental Society**, 82, 1962

Hoexter, Miriam: "The role of the Qays and Yaman Factions in local political divisions". In: **AAS**, 9, 1973

Hölscher, G.: "Trachonitis, Trachon". In: **RE**, 6A, 2, 1937

Homet, M.: **L'histoire secrète du traité franco-syrien**. Paris, 1938

Hopwood, Derek: **Syria 1945-1986. Politics and Society**. London, 1988

Hosry, Mohamed: **Sozialökonomische Auswirkungen der Agrarreform in Syrien**. Saarbrücken u.a., 1981

Hourani, Albert: **Minorities in the Arab World**. London u.a., 1947

– "Ottoman reform and the politics of Arab notables". In: – **The Emergence of the Middle East**. Oxford, 1981

– **Die Geschichte der arabischen Völker**, Frankfurt, 1992

– **Syria and Lebanon. A Political Essay**. London u.a., 1954 (3. Aufl.)

Howard, Harry N.: "An American experiment in peace-making: the King-Crane Commission", in: **The Muslim World**, Leiden, 32, April 1942

Huhn, Ingeborg: **Der Orientalist Johann Gottfried Wetzstein als preußischer Konsul in Damaskus (1849-1861)**. Berlin, 1989

– "Die Ausschreitungen in Damaskus im Sommer 1860". In: **The Journal of Ottoman Studies** 11, 1991

Hütteroth, Wolf-Dieter / Abdulfattah, Kamal: **Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century**. Erlangen, 1977

Islamoglu, Huri / Keyder, Caglar: "Ein Interpretationsrahmen für die Analyse des Osmanischen Reiches". In: Senghaas, D., **Kapitalistische Weltökonomie. Kontroversen über ihren Ursprung und ihre Entwicklungsdynamik**. Frankfurt, 1982 (2. Auflage)

Islamoglu-Inan, Huri (ed.): **The Ottoman Empire and the World-Economy**. Cambridge u.a., 1987

Jalalbert, C.: **L'insurrection du Djebel Druse**. Etudes. 1926 (Mai)

Jessup, Henry Harris: **Fifty-three Years in Syria**. 2 Bde, New York, 1910

Joarder, Safiuddin: "Syria under French Mandate. An overview". In: **Journal of the Asiatic Society of Pakistan,** 14,1. 1975

Johansen, Baber: **The Islamic Law on Land Tax and Rent**. London, 1988

Kampffmeyer, Georg: "Urkunden und Berichte zur Gegenwartsgeschichte des arabischen Orients". In: **Mitteilungen des Seminars für orientalische Sprachen an der Friedrich-Wilhelms-Universität zu Berlin**, XXVI-XXVII, 1924, II und XXIX, 1926, II

Kaplan, Robert D.: "Syria -identity crisis". In: The **Atlantic**, Feb. 1993

Kasaba, Resat: **The Ottoman Empire and the World Economy. The 19th Century**. New York, 1988

Kayali, Hasan: **Arabs and Young Turks: Turkish-Arab Relations in the Second Constitutional Period of the Ottoman Empire 1908-1918**. (Unveröfftl. Phil.Diss.) Harvard, 1988

Kazemi, Farhad, Waterbury, John, (eds.): **Peasants and Politics in the Modern Middle East**. Miami, 1991

Kedourie, Elie: **In the Anglo-Arab Labyrinth: The MacMahon-Husayn Correspondence and its Interpreters 1914-1939**. Cambridge 1976

Keyder, Caglar: "Introduction: Large-scale commercial agriculture in the Ottoman Empire?" In: Keyder, Caglar / Tabak, Faruk (eds.): **Landholding and Commercial Agriculture in the Middle East**. New York, 1991

Keyder, Caglar / Tabak, Faruk (eds.): **Landholding and Commercial Agriculture in the Middle East.** New York, 1991

Khalaf, Samir: "Communal conflict in nineteenth-century Lebanon". In: Braude, B. / Lewis, B., **Christians and Jews in the Ottoman Empire**, vol.II, New York u.a., 1982

Khalidi, Rashid / Anderson, Lisa / Muslih, Muhammad / Simon, Reeva S., (eds.): **The Origins of Arab Nationalism**. New York, 1991

Khalidi, Rashid Ismail: "The 1912 election campaign in the cities of Bilad al-Sham". In: **IJMES**, 16, 1984

Khalidi, Tarif (ed.): **Land Tenure and Social Transformation in the Middle East**. Beirut, 1984

Khalidi, Walid: **All that Remains. The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948**. Washington, 1992

Khoury, Philip S.: "Factionalism among Syrian nationalists during the French Mandate". In: **IJMES**, 13. 1981

– "The tribal shaykh, French tribal policy, and the nationalist movement in Syria between two World Wars". In: **MES**, 18. 1982

– Urban Notables and Arab Nationalism. The politics of Damascus 1860-1920. Cambridge u.a., 1983

– "Syrian urban politics in transition: The quarters of Damascus during the French Mandate". In: **IJ-MES**, 16. 1984

– Syria and the French Mandate. The Politics of Arab Nationalism 1920-1945. London, 1987

– "A reinterpretation of the origins and aims of the Great Syrian Revolt, 1925-1927". In: Atiyeh, George N. / Oweiss, Ibrahim M., **Challenges and responses. Studies in Honor of Constantine K. Zurayk.** New York, 1988

– "Eine Neubewertung der Französischen Kolonialpolitik in Syrien: Die Mandatsjahre". In: Schatkowski-Schilcher, Linda / Scharf, Claus (Hrsg.), **Der Nahe Osten in der Zwischenkriegszeit 1919-39**. Stuttgart, 1989

Khoury, Philip S. / Kostiner, Joseph: **Tribes and State Formation in the Middle East**. London u.a., 1990

Khuri, Fuad I.: **Imams and Emirs. State, Religion and Sects in Islam**. London u.a., 1990

Klat, Paul J.: "Musha holdings and land fragmentation in Syria". In: **Middle East Economic Papers**, 1957

ders.: "The origins of land ownership in Syria". In: **Middle East Economic Papers**, 1958

Kramer, Fritz / Sigrist, Christian (Hrsg.): **Gesellschaften ohne Staat. Gleichheit und Gegenseitigkeit**. Frankfurt, 1983

Kreckel, Reinhard: "Ethnische Differenzierung und 'moderne' Gesellschaft: Kritische Anmerkungen zu H. Esser". In: **Zeitschrift für Soziologie**, 18, 2, 1989

Kushner, David: **Palestine in the Late Ottoman Period. Political, Social and Economic Transformation**. Jerusalem u.a., 1986

Laffargue, André: **Le Général Dentz (Paris 1940 - Syrie 1941)**. Paris, 1954

Landsberger, Henry A.: "The role of peasant movements and revolts in development: an analytical framework". In: **International Institute for Labor Studies Bulletin**, 4, 1968

Latron, André: **La vie rurale en Syrie et au Liban. Etude d'économie sociale**. Beyrouth, 1936

LeBas, Waddington: **Inscriptions grecques et latines**, tome III. Paris, 1870

Lenk, Kurt: **Theorien der Revolution**. München, 1973

LePlay, F.: **Les ouvriers de l'Orient**. Tours, 1877

Lewis, Bernhard: "Ottoman land tenure and taxation in Syria". In: **Studia Islamica**, 48-50, 1979

Lewis, Norman: Nomads and settlers in Syria and Jordan, 1800-1980. Cambridge u.a., 1987

Lindner, Rudi Paul: "What was a nomadic tribe?". In: **Comparative Studies in Society and History**, 24,4. 1982

Longrigg, Stephen H.: **Syria and Lebanon under French Mandate**. London u.a., 1958

Lüdtke, Alf: **Herrschaft als soziale Praxis**. Göttingen, 1991

Luschan, Felix von: "The early inhabitants of Western Asia". The Huxley memorial lecture for 1911. In: **The Journal of the Royal Anthropological Institute**, vol. XLI, 1911

Lüthy, Herbert: **Frankreichs Uhren gehen anders**. Zürich u.a., 1954

Ma'oz, Moshe: **Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861**. Oxford, 1968

MacCallum, Elizabeth P.: **The Nationalist Crusade in Syria**. New York, 1928

MacDowell, David: **The Druze Revolt 1925-27 and its Background in the Late Ottoman Empire**. Unveröfftl. B. Litt. thesis, Oxford, 1972

Maestracci, Commandant Noel: **La Syrie contemporaine: Tout ce qu'il faut savoir sur les territoires placés sous Mandat français**. Paris, 1930

Makarem, Sami: **The Druze Faith**. New York, 1974

Mantran, Robert (ed.): **Histoire de l'Empire Ottoman**. Paris, 1989

Marr, Phebe: "Die Entwicklung einer nationalistischen Ideologie im Irak 1920-1941". In: Schatkowski-Schilcher / Linda, Scharf, Claus (Hrsg.), **Der Nahe Osten in der Zwischenkriegszeit 1919-1939**. Stuttgart, 1989

Marx, Karl: "Der achtzehnte Brumaire des Louis Bonaparte", In: **MEW**, Bd. 8

Masters, Bruce: "Ottoman policies toward Syria in the 17th and 18th centuries". In: Philipp, T. (ed.),

The Syrian Land in the 18th and 19th Century. Stuttgart, 1992
Matuz, Josef: **Das Osmanische Reich. Grundlinien seiner Geschichte**. Darmstadt, 1985
Middle East Watch (Author: Paul, James): **Syria Unmasked. The Suppression of Human Rights by the Assad Regime**. New Haven u.a., 1991
Migdal, Joe: **Peasants, Politics and Revolution.** Princeton, 1974
Miller, Joyce Laverty: "The Syrian Revolt of 1925". In: **IJMES** 8. 1977
Mishaqa, Mikhayil: **Murder, Mayhem, Pillage and Plunder. The History of Lebanon in the 18th and 19th Centuries**, transl. by Wheeler M. Thackston, Jr. New York, 1988
Morris, Robert: **Freemasonry in the Holy Land.** New York, 1873
Mülinen, E. Graf von: "Beiträge zur Kenntnis des türkischen Grundbuchwesens". In: **ZDPV**, XXIII, 1900
Mundy, Martha: "Shareholders and the state: representing the village in the late 19th century land registers of the Southern Hawran". in: Philipp, (Hrsg.), **The Syrian Land in the 18th and 19th Century.** Stuttgart 1992
Nabli, M.K. / Nugent, J.B.: "Collective action, institutions and development". In: dies.: **Institutional Economics and Development**. Amsterdam u.a., 1989
Najjar, Abdallah: **The Druze. Millennium Scrolls Revealed.** o.O., 1973
Niebuhr, Carsten: **Reisebeschreibung von Arabien**, Kopenhagen, 1774
Nöldeke, Theodor: "Zur Topographie und Geschichte des Damascenischen Gebietes und der Haurangegend". In: **ZDMG**, 29, Leipzig, 1875
Noth, Albrecht: "Möglichkeiten und Grenzen islamischer Toleranz". In: **Saeculum**, 29, 1978
Oppenheim, Max Freiherr von: **Reisebericht über seine Reise durch die Syrische Wüste nach Mosul**. Berlin, 1894
– **Die Beduinen**. Bd.1. Leipzig, 1939
– Vom **Mittelmeer zum Persischen Golf**. 2 Bd., Berlin, 1899, 1900.
Oppenheimer, Jonathan: **The Social Organisation of a Druze village in Israel.** (Unveröfftl. Phil. Diss.) London, 1976
– "We are born in each other's houses: communal and patrilineal ideologies in Druze village religion and social structure". In: **American Ethnologist**, 1980
Owen, Roger: **The Middle East in the World Economy 1800-1914**. London u.a., 1981
Panzac, Daniel: **La Peste dans l'Empire Ottoman, 1700-1850.** Louvain, 1985
Pearse, Richard: **Three Years in the Levant**. London, 1949
Perillier, Louis: **Les Druzes**. Paris, 1986
Petermann, H.: **Reisen im Orient**. 2 Bd., Leipzig, 1860
Philipp, Thomas: **The Syrians in Egypt: 1725-1975**. Stuttgart, 1985
– (Hrsg.): **The Syrian Land in the 18th and 19th Century**. Stuttgart, 1992
Photius: **Bibliothèque**. Tome VI, texte établi et traduit par R. Henry, Paris, 1971
Pipes, Daniel: **Greater Syria**. New York u.a., 1990
Poliak, A.N.: **Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and Lebanon 1250-1900**. London, 1939
Polk, William / Chambers, Richard: **Beginnings of Modernization in the Middle East**. Chicago u. London, 1968

Porter, J.L.: **Five Years in Damascus**. London, 1855

Post, George E.: "Essays on the Sects and Nationalities of Syria and Palestine". In: **PEFQS**, 1891

Poulleau, Alice: **A Damas sous les bombes. Journal d'une Française pendant la révolte syrienne (1924-1926).** Paris, 1928

Prätor, Sabine: **Der arabische Faktor in der jungtürkischen Politik. Eine Studie zum osmanischen Parlament der II. Konstitution (1908-1918).** Berlin, 1993

– "Arabische Stimmen in der Istanbuler Presse der Jungtürkenzeit". In: Herzog C. / Motika, R. / Pistor-Hatam, A., **Presse und Öffentlichkeit im Nahen Osten**. Heidelberg, 1995

Puls, Detlev / Thompson, E.P., u.a.: **Wahrnehmungsformen und Protestverhalten. Studien zur Lage der Unterschichten im 18. und 19. Jahrhundert**. Frankfurt, 1979

Rabbath Edmond: "L'insurrection syrienne de 1925-1927". In: **Revue Historique** 542. 1982

Rabinovich, Itamar: "The compact minorities and the Syrian state, 1918-1945". In: **Journal of Contemporary History**, 14. 1979

ders.: "Historiography and politics in Syria". In: **Asian Affairs**, Feb. 1978

Radtke, Olaf / Dittrich, Eckhard: **Ethnizität und Wissenschaft**. Opladen, 1992

Rafeq, Abdul Karim: "The impact of Europe on a traditional economy: the case of Damascus, 1840-70". In: **Economie et sociétés dans l'Empire Ottoman**. Colloques internationaux du CNRS, 601. Paris, 1983

– "Gesellschaft, Wirtschaft und politische Macht in Syrien 1918-1925". In: Schatkowski-Schilcher, Linda / Scharf, Claus (Hrsg.), **Der Nahe Osten in der Zwischenkriegszeit 1919-1939**. Stuttgart, 1989

– **The Province of Damascus 1723-1783**. Beirut, 1966

Raswan, Carl R.: **Im Land der schwarzen Zelte**. Hildesheim, 1976

Raymond, André: "La Syrie, du royaume arabe à l'indépendance (1914-1946)". In: Raymond, André, (éd.), **La Syrie d'aujourd'hui**. Paris, 1980

Reifenberg, A.: "Hauran und Drusengebirge". In: **Atlantis**. Länder, Völker, Reisen 22, Zürich, 1950

Reilly, James A.: "Status groups and propertyholding in the Damascus hinterland, 1828-1880". In: **IJMES**, 21, 1989

Rindfleisch, Georg: "Die Landschaft Hauran in römischer Zeit und in der Gegenwart". In: **Zeitschrift des Deutschen Palästinavereins**, 21, 1898

Roberts, S.H.: **A History of French Colonial Policy**. London, 1929

Rogan, Eugene: **Incorporating the Periphery: The Ottoman Extension of Direct Rule over Southeastern Syria (Transjordan), 1867-1914.** Unpubl. diss., UMI Ann Arbor, 1991

Rondet-Saint, Maurice: "L'Etat d'esprit des populations musulmanes de Syrie à l'égard de la France et de sa politique": In: **Parlement et l'Opinion**, XIII, Janvier, 1923

Rondot, Pierre: "L'expérience du Mandat français en Syrie et au Liban 1918-45". In: **Revue Générale de Droit International Publique** 3-4, 1948

Russell, Malcolm: **The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920**. Minneapolis, 1985

de Sacy, Silvestre: **Exposé de la religion des Druzes**. 2 tomes, hrsgg. von A.M. Hakkert, Amsterdam, 1964

Saliba, Najib Elias: **Wilayat Suriyya: 1876-1909.** (unveröfftl. Phil.Diss.) University of Michigan, 1971

Salih, Shakeeb: "The British-Druze connection and the Druze rising of 1896 in the Hawran". In: **MES**, 13, 2, 1977

Samné, Georges: "La Fédération Syrienne et le Mandat Français". In: **Correspondance d'Orient,** XV, Août, 1922

– "L'organisation de la justice en Syrie". In: **Correspondance d'Orient**, XVI, Janvier, 1923

Schäbler, Birgit: "Das Prinzip der 'Vermeidung': der Große Syrische Aufstand 1925-1927 gegen das französische Mandat in der französischen und syrischen Geschichtsschreibung". In: Saeculum, 45, 1, 1994

– "Coming to terms with Failes revolutions: historiography in Syria, France and Germany". In: **Middle Eastern Studies**, vol, 35, n° 1, January 1999, pp. 17-44

– "Der 'Drusenaufstand' in Syrien. Zum Verhältnis von Ethnizität und sozialer Bewegung". In: Jörg Später, **Alles ändert sich die ganze Zeit. Soziale Bewegungen im Nahen Osten**. Freiburg, 1994

– "Ulrich Jasper Seetzen (1767-1811): Jeveraner Patriot, aufgeklärter Kosmopolit und Orientreisender". In: **Ulrich Jasper Seetzen (1767-1811): Leben und Werk; die arabischen Länder und die Nahostforschung im napoleonischen Zeitalter. Veröffentlichungen der Forschungs- und Landesbibliothek Gotha**, Heft 33 (1995)

Schatkowski-Schilcher, Linda: "The grain economy of late Ottoman Syria". In: Keyder / C., Tabak, F. (eds.), **Landholding and Agriculture in the Middle East.** New York, 1991

– "The Hauran conflicts of the 1860s: a chapter in the rural history of modern Syria". In: **IJMES**, 13, 1981

– **Families in Politics**. Stuttgart, 1985

– "Violence in rural Syria in the 1880s and 1890s: State centralization, rural integration, and the world market". In: Kazemi, F. / Waterbury, J. (eds.), **Peasants and Politics in the Modern Middle East**. Florida, 1991

– "Ein Modellfall indirekter wirtschaftlicher Durchdringung: Das Beispiel Syrien". In: **Geschichte und Gesellschaft 1**, 1975

– "The famine of 1915-1918 in Greater Syria". In: Spagnolo, John P. (ed.), **Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective**. Reading, 1992

Scheffler, Thomas: "Staat und Kommunalismus im Nahen und Mittleren Osten". In: **Peripherie**, 18/19, 1984/85

– "Die Drusen und die libanesischen Harakat (1840-1860)". In: **Asien, Afrika, Lateinamerika**, Sonderheft 3, 1991

– "Konflikt, Identität und Parteien: Zum Verhältnis von Grenzen und Politik". In: **Marxismus und Theorie der Parteien**. Argument Sonderband 91. Berlin, 1983

– **Ethnisch-religiöse Konflikte und gesellschaftliche Integration im Vorderen und Mittleren Orient**, Literaturstudie. Berlin, 1990 (2. Aufl.)

Schlicht, Alfred: **Frankreich und die syrischen Christen 1799-1861**. Berlin, 1981

Schmeidler, W.F. Carl: **Geschichte des Osmanischen Reiches im letzten Jahrzehnt**. Leipzig, 1875

Schmucker, Werner: **Studien zum Minderheitenproblem im Islam 3. Krise und Erneuerung im li-**

banesischen Drusentum. Bonn, 1979

Schölch, Alexander: "Zum Problem eines außereuropäischen Feudalismus: Bauern, Lokalherren, und Händler im Libanon und in Palästina in osmanischer Zeit". In: **Peripherie** 5/6, 1981

– "Der arabische Osten im 19. Jahrhundert". In: Haarmann, Ulrich (Hrsg.), **Geschichte der arabischen Welt**, München, 1991 (2. Auflage)

– "Wirtschaftliche Durchdringung und politische Kontrolle durch die europäischen Mächte im Osmanischen Reich". In: **Geschichte und Gesellschaft** 1, 1975

– **Palästina im Umbruch 1856-1882**. Stuttgart, 1986

Schulze, Reinhard: **Die Rebellion der ägyptischen Fallahin 1919. Zum Konflikt zwischen der agrarisch-orientalischen Gesellschaft und dem kolonialen Staat in Ägypten 1820-1919.** Berlin, 1981

Schumacher, G.: "Der arabische Pflug". In: **ZDPV**, XII, 1889

– "Ergebnisse meiner Reise durch Hauran, Adschlun und Belka". In: **ZDPV**, XV/XVI, 1892-1893

– "Das südliche Basan". In: **ZDPV**, XX, 1897

Scott, James C.: **The Moral Economy of the Peasant. Rebellion and Subsistence in Southeast Asia.** New Haven London, 1976

– **The Moral Economy of Peasant Society**. 1976

– **Weapons of the Weak.** New Haven, 1985

– **Domination and the Arts of Resistance**. Hidden Transcripts. New Haven, London, 1990

Seabrook, W.B.: **Adventures in Arabia**. London, 1928

Seale, Patrick: **The Struggle for Syria**. London u.a., 1965

Seetzen, Ulrich Jasper: **Reisen durch Syrien, Palästina, Phönicien, die Transjordan-Länder, Arabia Petraea und Unter-Ägypten**. 3 Bd., hrsgg. von F. Kruse Berlin, 1854

Seikaly, Samir: "Damascene intellectual life in the opening years of the 20th century: Muhammad Kurd 'Ali and al-Muqtabas". In: M. Buheiry, **Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939**, Beirut, 1981

– "Abdul-Rahman Sahbandar. The beginnings of a nationalist career". In: **Al Abhath**, 34, 1986

Seurat, Michel: "Le rôle de Lyon dans l'installation du mandat français en Syrie. Intérêts économiques et culturels, luttes d'opinion (1915-1925)" In: – **L'Etat de barbarie**. Paris, 1989

– "L'Etat de barbarie. Syrie, 1979-1982". In: – **L'Etat de barbarie**. Paris, 1989

Shamir, Shimon: "The modernization of Syria: problems and solutions in the early period of Abdülhamid". In: Polk, W. / Chambers, R., **Beginnings of Modernization in the Middle East.** Chicago u. London, 1968

Shanin, Teodor: **Peasants and Peasant Societies**. Harmondsworth, 1971

Shavit, Y. / Goldstein, Y. / Beer, H.: **Personalities in Eretz Israel 1799-1848.** Tel Aviv, 1983

Shaw, Stanford J.: "The nineteenth-century Ottoman tax reforms and revenue system". In: **IJMES**, 6, 1975

Shaw, Stanford and Ezel Kural-Shaw: **History of the Ottoman Empire and Modern Turkey**, 2 vol. Cambridge, 1977

Shirer, William L.: **Der Zusammenbruch Frankreichs. Aufstieg und Fall der Dritten Republik.** München u.a., 1970

Sigrist, Christian: "Gesellschaften ohne Staat und die Entdeckungen der social anthropology". In: Sigrist, C. / Kramer, F., **Gesellschaften ohne Staat.** Frankfurt, 1978

Sigrist, Christian / Kramer, Fritz: **Gesellschaften ohne Staat**. Frankfurt, 1978

Simon, Christian: **Staat und Geschichtswissenschaft in Deutschland und Frankreich 1871 -1914**. Bern u.a., 1988

Simon, Henry: "La Syrie devant le Parlement Français". In: **Correspondance d'Orient**, Janvier, 1925

Singer, Barnett: "Lyautey: An interpretation of the man and French Imperialism". In: **Journal of Contemporary History**, 26, 1991

Slavin, David H.: "The French Left and the Rif War, 1924-25: Racism and the limits of internationalism". In: **Journal of Contemporary History**, 26,1. 1991

Spagnolo, John P. (ed.): **Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective. Essays in Honour of Albert Hourani.** Oxford, 1992

Stark, Joachim: "Völker, Ethnien, Minderheiten". In: **Jahrbuch für ostdeutsche Volkskunde** 31, 1988

Steppat, Fritz: "Ein 'contrat social' in einer palästinensischen Stadt 1854". In: **WI**, N.S. 15, 1974

Streck, Bernhard (Hrsg.): **Wörterbuch der Ethnologie**. Köln, 1987

Tauber, Eliezer: "The press and the journalist as a vehicle in spreading national ideas in Syria in the late Ottoman period". In: **Die Welt des Islams** XXX, 1990

– **The Emergence of the Arab Movements**. London, 1993

– **The Arab Movements in World War I**. London, 1993

Thompson, Edward P.: "Die 'sittliche Ökonomie' der englischen Unterschichten im 18. Jahrhundert". In: Detlev Puls / E.P. Thompson (u.a.), **Wahrnehmungsformen und Protestverhalten. Studien zur Lage der englischen Unterschichten im 18. und 19. Jahrhundert.** Frankfurt, 1979

– **Plebeische Kultur und moralische Ökonomie**. Frankfurt u.a., 1980

Thompson, Elizabeth: "Ottoman political reform in the province: The Damascus Advisory Council in 1844-45". In: **IJMES**, 25,3, 1993

Tibi, Bassam: **Nationalismus in der Dritten Welt am arabischen Beispiel**. Frankfurt, 1979

Tilly, Richard: "Editorial zum Schwerpunkt Sozialer Protest". In: **Geschichte und Gesellschaft**, 3, 1977

Torrey, Gordon H.: **Syrian Politics and the Military 1945-1958**. Columbus, Ohio, 1964

Toshihiko, Izutsu: **Ethico-religious concepts in the Qur'an**. Montréal, 1966

Velud, Christian: **Une expérience d'administration régionale en Syrie durant le Mandat Français. Conquête, Colonisation et Mise en Valeur de la Gazira 1920-36.** (Manuskript). Damaskus, 1991

Villeneuve, François: "L'économie rurale et la vie des campagnes dans le Hauran antique". In: Dentzer, J.-M.: **Hauran I. Recherches archéologiques sur la Syrie du Sud à l'époque hellénistique et romaine**. Paris, 1985/86

Vivelo, Frank Robert: **Handbuch der Kulturanthropologie**. Stuttgart, 1981

Volney, C.F.: **Voyage en Egypte et en Syrie**. 2. Band, Paris 1825

Wahlin, Lars: "Occurrence of Musha' in Transjordan". In: **Geografiska Annaler**, 70 B, 3, 1988

Wallerstein, Immanuel: **Das moderne Weltsystem. Die Anfänge kapitalistischer Landwirtschaft und die europäische Weltökonomie im 16. Jahrhundert**. Frankfurt, 1986

Warriner, Doreen: **Land Reform and Development in the Middle East. A Study of Egypt, Syria and Iraq**. 1957

– **Economics of Peasant Farming**. London, 1964

– **Land Reform in Principle and Practice**. Oxford, 1969

Waterbury, John: "Peasants defy categorization (as well as landlords and the state)". In: Kazemi, F. / Waterbury, J. (eds.), **Peasants and Politics in the Middle East**. Florida, 1991

Weber, Max: **Wirtschaft und Gesellschaft. Grundriß der verstehenden Soziologie**. Studienausgabe, hrsgg. von Johannes Winckelmann, Bd. 2, Köln, 1964

Weisenfeld, Ernst: **Frankreichs Geschichte seit dem Krieg**. München, 1980

Weizl, Wolfgang von: "In the Jebel Druze". In: **Atlantic Monthly**. December, 1925

Westrate, Bruce: **The Arab Bureau. British Policy in the Middle East, 1916-1920**. Pennsylvania, 1992

Wetzstein, Johann Gottfried: **Reisebericht über Hauran und die Trachonen**. Berlin, 1860

– "Die syrische Dreschtafel". In: **Zeitschrift für Ethnologie**, Bd. 5, 1873

Weulersse, Jacques: **Paysans de Syrie et du Proche-Orient**. Paris, 1946

Willson, Beckles: "Our Amazing Syrian Adventure". In: **National Review**, LXXVI, September, 1926

Wilson, Mary C.: "König 'Abdallah und Transjordanien: Strukturen der Abhängigkeit von Großbritannien". In: Schatkowski-Schilcher, Linda / Scharf, Claus, **Der Nahe Osten in der Zwischenkriegszeit 1919-1939**. Stuttgart, 1989

Wirth, Eugen: "Die Rolle tscherkessischer Wehrbauern bei der Wiederbesiedelung von Steppe und Ödland". In: **Bustan**, 4, 1, 1963

– Syrien. **Eine geographische Landeskunde**. Darmstadt, 1971

Wolf, Eric R.: **Peasants**. Englewood Cliffs, 1966

Wright, Quincy: **Mandates under the League of Nations**. Chicago, 1930

Wunder, Heide: **Feudalismus**. München, 1974

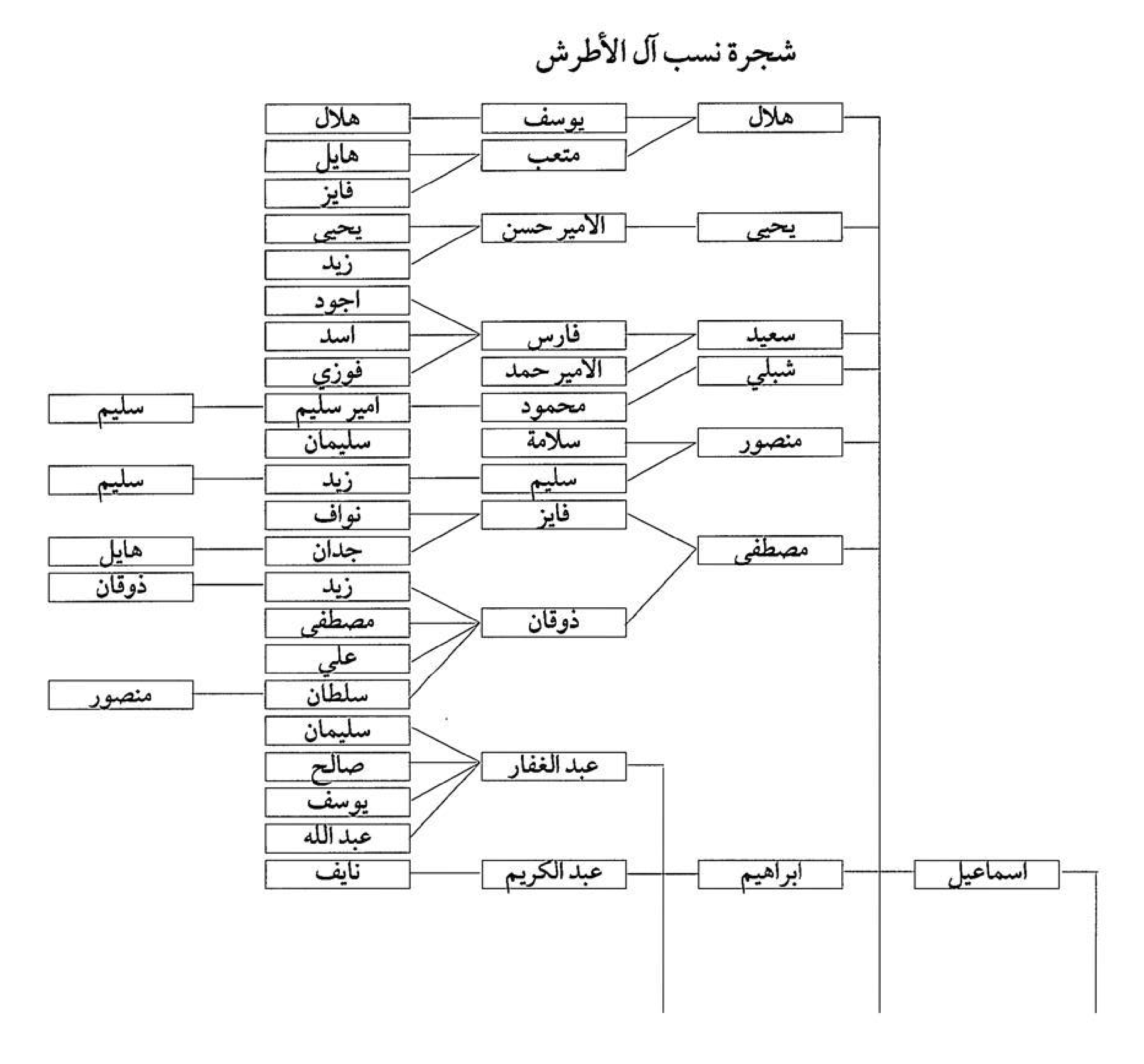
Yalcin-Heckmann, Lale: "Kurdish Tribal Organisation and Local Political Processes". In: Finkel, A. / Simon, N., **Turkish State, Turkish Society**. London, 1990

الرموز Abkürzungen

AA	Auswärtiges Amt, Archiv, Bonn
AAS	Asian and African Studies
AUB	American University of Beirut
CCC	Correspondance Consulaire et Commerciale
CPC	Correspondance Politique des Consuls
CUP	Committee of Union and Progress
EI, N.E.	Encyclopaedia of Islam, New Edition
FO	Foreign Office Archives, Public Records Office, London
IJMES	International Journal of Middle Eastern Studies
JPOS	Journal of the Palestine Oriental Society
MAEN	Ministère des Affaires Etrangères, Nantes
MAEP	Ministère des Affaires Etrangères, Paris
MES	Middle Eastern Studies
MEJ	Middle East Journal
MEW	Marx Engels, Werke
NA	National Archives, Washington
PEFQS	Palestine Exploration Fund Quarterly Statement
RE	Paulys Realencyclopädie der Classischen Altertumswissenschaft
WI, N.S.	Die Welt des Islams, Neue Serie
WN	Wetzstein-Nachlaß
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft
ZDPV	Zeitschrift des Deutschen Palästina Vereins

الملاحق

ملحق ١


شجرة نسب آل الأطرش
اسماعيل
ابراهيم
هلال
يحيى
سعيد
شبلي
منصور
مصطفى
يوسف
متعب
الأمير حسن
فارس
الأمير حمد
محمود
سلامة
سليم
فايز
ذوقان
عبد الغفار
عبد الكريم
هلال
هايل
فايز
يحيى
زيد
اجود
اسد
فوزي
امير سليم
سليمان
زيد
نواف
جدان
زيد
مصطفى
علي
سلطان
سليمان
صالح
يوسف
عبد الله
نايف
سليم
سليم
هايل
ذوقان
منصور

- محمد
  - فرحان
    - اسد
      - فرحان
    - فهد
      - منير
      - طلال
  - فارس
    - جميل
    - توفيق
      - ممدوح
      - غالف
      - نواف
    - علي
      - نجيب
      - حمود
  - حمود
    - هايل
    - هاني
    - ابراهيم
  - فندي
    - تركي
    - قاسم
      - غالف
      - مزياد
      - زيد
      - فضل الله
  - محمد
    - جاد الله
      - سليمان
      - هاني
      - تركي
    - نسيب
      - سليمان
    - نايف
      - حسين
        - ممدوح
        - نواف
        - نايف
  - قاسم
    - حمد
      - سليمان
        - سليم
  - طرودي
    - طرودي
      - يوسف
        - سلامة
      - علي
        - نواف
  - ابراهيم
    - نجم
      - ابراهيم
      - هزه
        - فرحان
          - جاد الله
          - جادو الكريم
          - عبد الكريم
      - حسين
        - نجم
          - إبرهيم
        - محمد
          - قاسم
          - حسين
        - فضل الله
          - حسن
    - سلامة
      - حسين
        - علي
      - سلامة
        - فارس
        - عبد الكريم

المصدر: Bouron, **Les Druzes**, p.217

ملحق ٢

لائحة ولاة الشام من ١٨٦٠ الى ١٩١٤

أحمد عزت باشا	١٨٥٩-١٨٦٠
معمّر باشا	١٨٦٠-١٨٦١
أمين مخلص باشا	١٨٦١-١٨٦٢
محمد أمين باشا	١٨٦٢-١٨٦٣
شرفانيزاد محمد رشدي باشا	١٨٦٣-١٨٦٥
محمد رشيد باشا	١٨٦٦-١٨٧١
عبد اللطيف صبحي باشا	١٨٧١-١٨٧٣
محمد حالت باشا	١٨٧٣-١٨٧٤
أحمد أسعد باشا	١٨٧٤-١٨٧٥
أحمد حمدي باشا	١٨٧٥-١٨٧٦
رشيد ناشد باشا	١٨٧٦-١٨٧٧
عبد الحميد ضياء باشا	١٨٧٧-١٨٧٧
مشير عمر فوزي باشا	١٨٧٧-١٨٧٨
أحمد جودت باشا	١٨٧٨-١٨٧٨
مدحت باشا	١٨٧٨-١٨٨٠
أحمد حمدي باشا (٢)	١٨٨٠-١٨٨٥
رشيد ناشد باشا (٢)	١٨٨٥-١٨٨٨
محمد ناظف باشا	١٨٨٨-١٨٨٩
مصطفى عاصم باشا	١٨٩٠-١٨٩١
عثمان نوري باشا	١٨٩١-١٨٩٢
محمد شريف رؤوف باشا	١٨٩٢-١٨٩٤
عثمان نوري باشا (٢)	١٨٩٤-١٨٩٦

حسن رفيق باشا	١٨٩٦-١٨٩٧
حسين ناظم باشا	١٨٩٧-١٩٠٦
شكري باشا	١٩٠٦-١٩٠٨
حسين ناظم باشا (٢)	١٩٠٨-١٩١١
إسماعيل فاضل باشا	١٩١١-١٩١٢
علي غالب بك	١٩١٢-١٩١٣
حسين ناظم باشا (٣)	١٩١٣
قاسم باشا	١٩١٣-١٩١٤

(المصادر:

Gross, Maxl: **Ottoman Rule in the Province of Damascus;**

Saliba, N.E.: **Wilayat Suriyya 1876-1909.**

عبد العزيز العوّاد: **الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤-١٩١٤)**

ملحق ٣

لائحة المفوضين السامين الفرنسيين على سوريا ولبنان

جورج-بيكو	Georges-Picot	نيسان ١٩١٧ - تشرين الأول ١٩١٩
الجنرال غورو	Gouraud	تشرين الأول ١٩١٩ - نيسان ١٩٢٣
الجنرال فيغان	Weygand	نيسان ١٩٢٣ - تشرين الثاني ١٩٢٤
الجنرال سراي	Sarrail	تشرين الثاني ١٩٢٤ - تشرين الثاني ١٩٢٥
ده جوفنيل	De Jouvenel	تشرين الثاني ١٩٢٥ - أيلول ١٩٢٦
بونسو	Ponsot	أيلول ١٩٢٦ - تموز ١٩٣٣
ده مارتل	De Martel	تموز ١٩٣٣ - تشرين الأول ١٩٣٨
بيو	Puaux	تشرين الأول ١٩٣٨ - حزيران ١٩٤٠
شياب	Chiappe	حزيران ١٩٤٠ - تشرين الثاني ١٩٤٠
الجنرال دنتز	Dentz	تشرين الثاني ١٩٤٠ - تموز ١٩٤١
الجنرال كاترو	Catroux	حزيران ١٩٤١ - حزيران ١٩٤٣
هيللو	Helleu	حزيران ١٩٤٣ - تشرين الثاني ١٩٤٣
الجنرال بينه	Beynet	كانون الثاني ١٩٤٤ - تموز ١٩٤٦

(المصدر: المحفوظات الديبلوماسية، باريس)

ملحق ٤

مرسوم تأسيس دولة جبل الدروز
الصادر عن الانتداب الفرنسي

مرسوم رقم ١٦٤١
قيام دولة مستقلة في جبل الدروز

إن المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان،

بناء على المراسيم الصادرة عن رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ ٨ تشرين الأول ١٩١٩ و٢٣ تشرين الثاني ١٩٢٠،

وحيث إن ضمن رؤية حكومة الجمهورية الفرنسية إعطاء البلدان الواقعة تحت انتدابها تنظيماً مواتياً لرغبات شعوبها.

وحيث إن الرغبات الصادرة عن سكان جبل الدروز في حوران هي في تشكيل دولة مستقلة ذاتياً في إطار حدودهم الإثنية.

وبناء على كتاب رئيس الحكومة ووزير الخارجية الفرنسية رقم ٣١٥ تاريخ ١٩ آذار ١٩٢١ الذي يحمل الموافقة على كيان تأسيسي لحكومة جبل الدروز.

وبناء على المرسوم رقم ٣٤٣ تاريخ ١٦ آذار ١٩٢١ الذي يثبت حدود المنطقة الدرزية.

وبناء على اقتراح السكرتير العام ورأي مبعوث المفوض السامي في دمشق.

يرسم ما يأتي:

مادة ١ - منح الاستقلال الإداري للمنطقة المنفصلة عن دولة دمشق بموجب المرسوم رقم ١٣٤٣ تاريخ ١٦ آذار ١٩٢١ وتأخذ المنطقة اسم منطقة دولة جبل الدروز في حوران.

مادة ٢ - حدود دولة جبل الدروز هي المثبتة بالمرسوم رقم ١٣٤٣ المشار إليه إعلاه.

مادة ٣ - يصدر قانون يحدد تنظيم دولة جبل الدروز المستقلة لاحقاً.

مادة ٤ - السكرتير العام للمفوضية السامية ومبعوث المفوض السامي لدى حكومة دمشق وجبل الدروز في حوران، مكلّفان كل حسب اختصاصه، بتنفيذ المرسوم الحالي.

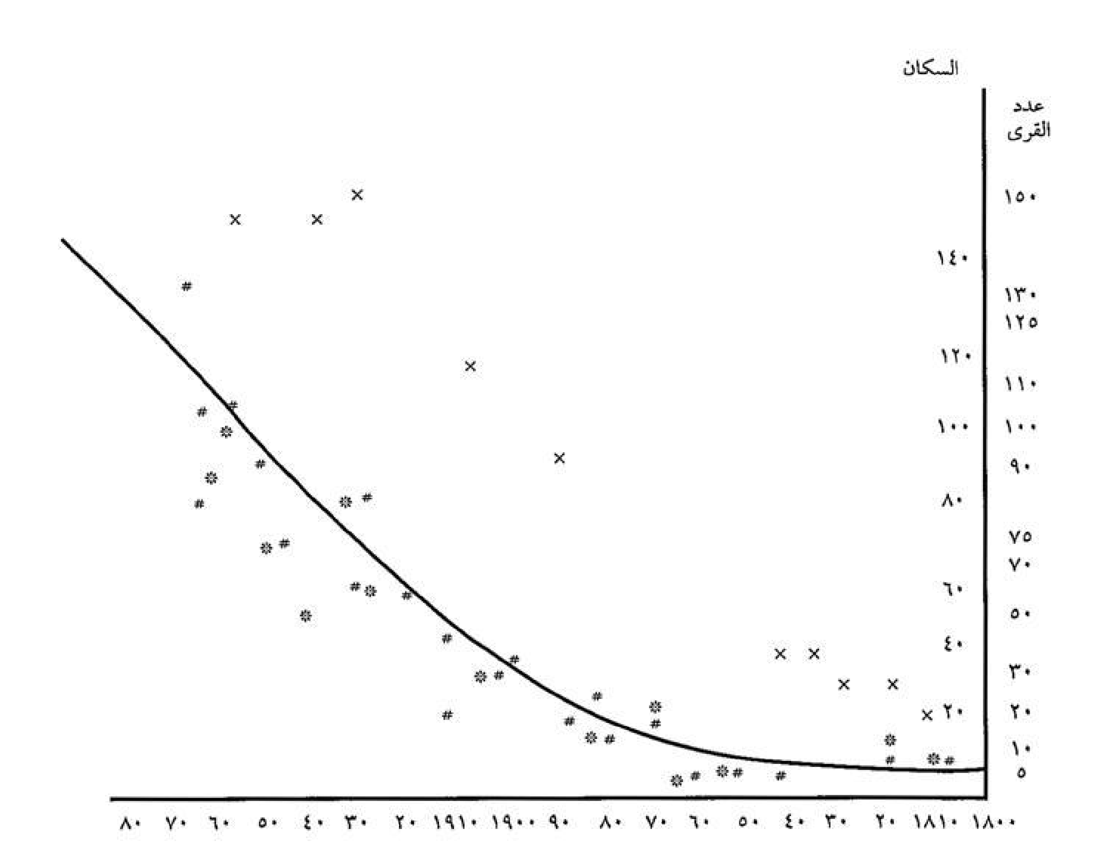
بيروت في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٢

التوقيع: «غورو»

[منقول من الفرنسية]

ملحق ٤

سكان جبل الدروز ١٨٠٠ - ١٩٨٠



الشكل البياني لسكان جبل الدروز ١٨٠٠-١٩٨٠

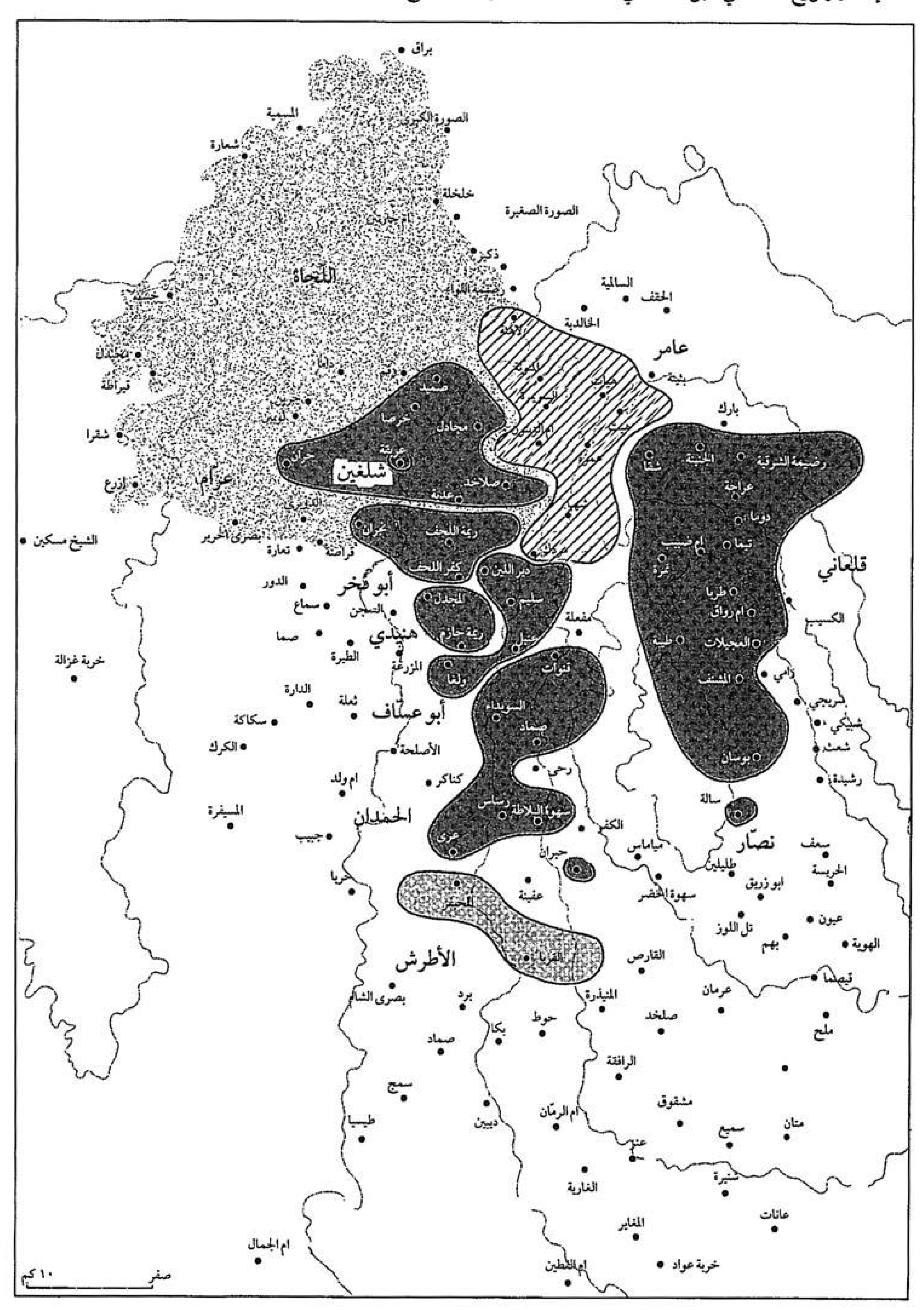
تبين التقدير المعاصر لعدد السكان الإجمالي في التاريخ الملحوظ ويظهر الخط المنحني الاتجاه المحتمل لهذا العدد.

❊ تبين التقدير المعاصر للسكان الدروز.

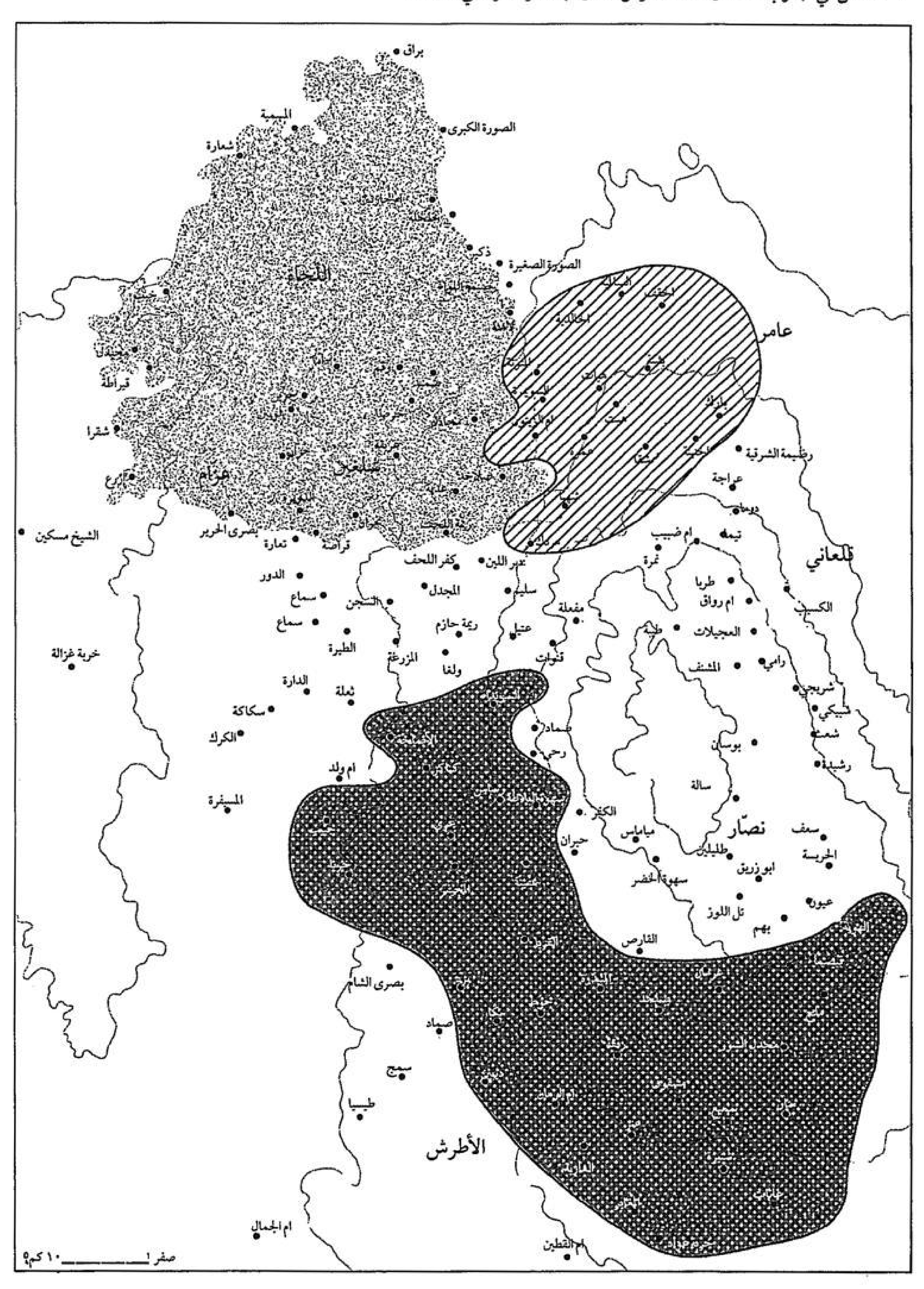
× تبين التقدير المعاصر لعدد القرى.

(المصدر: Lewis: **Nomads**, S.94)

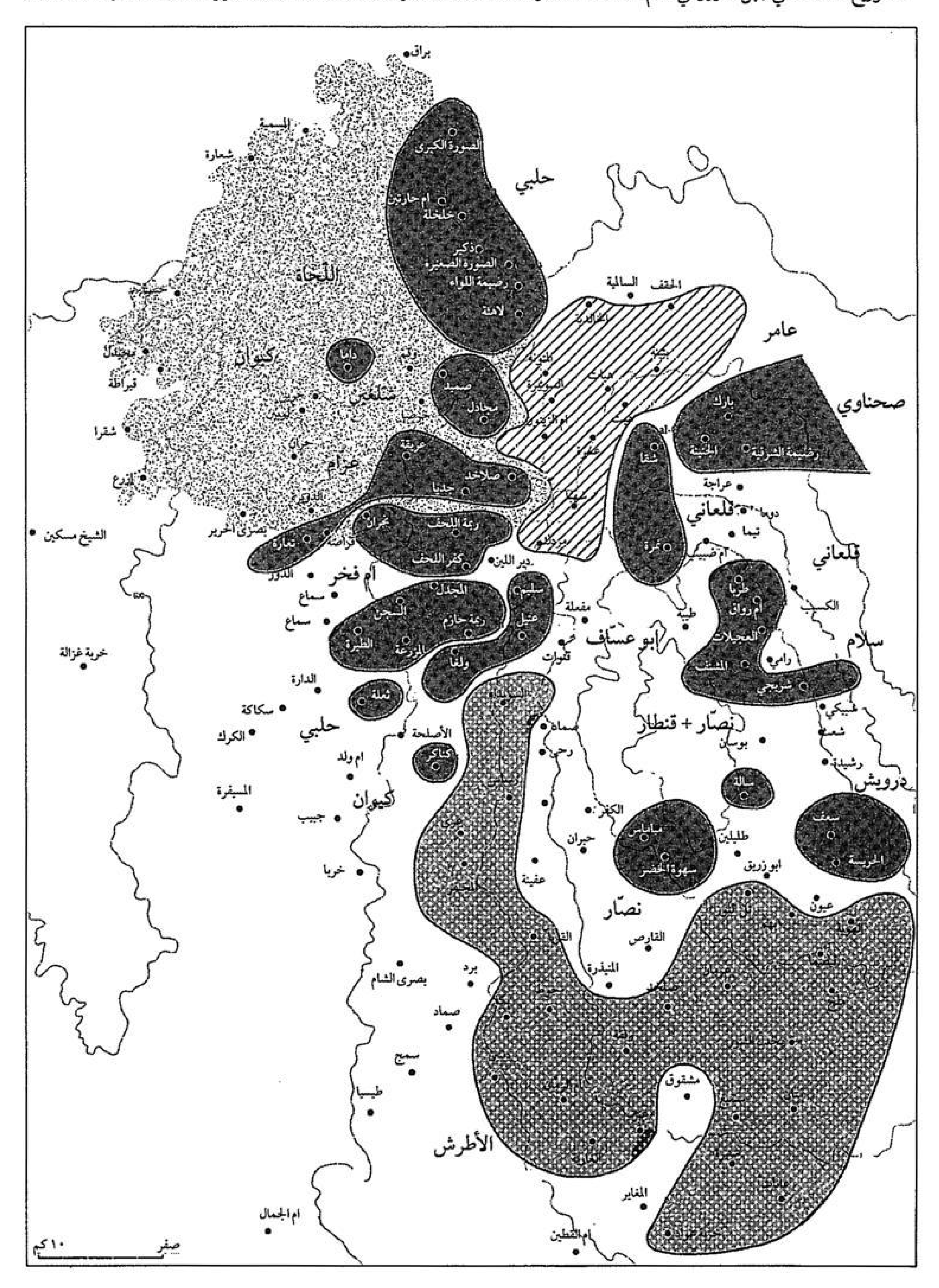
١ . الإسكان وتوزع السلطة في جبل الدروز في نهاية الخمسينيات من القرن التاسع عشر .



٢ . السكن في الجنوب تحت هيمنة آل الاطرش (مقارنة بعشائر الأمراء في الشمال)

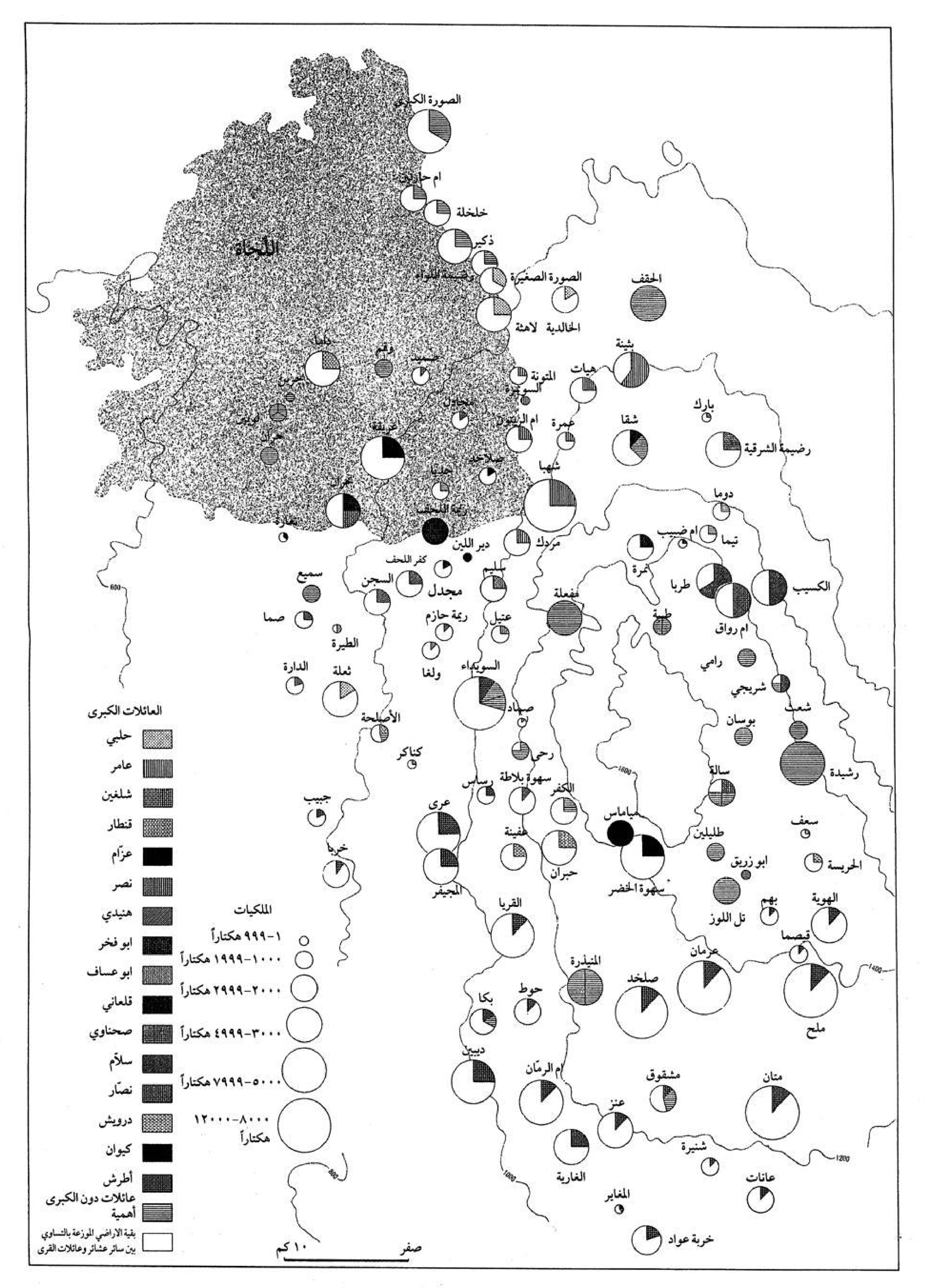


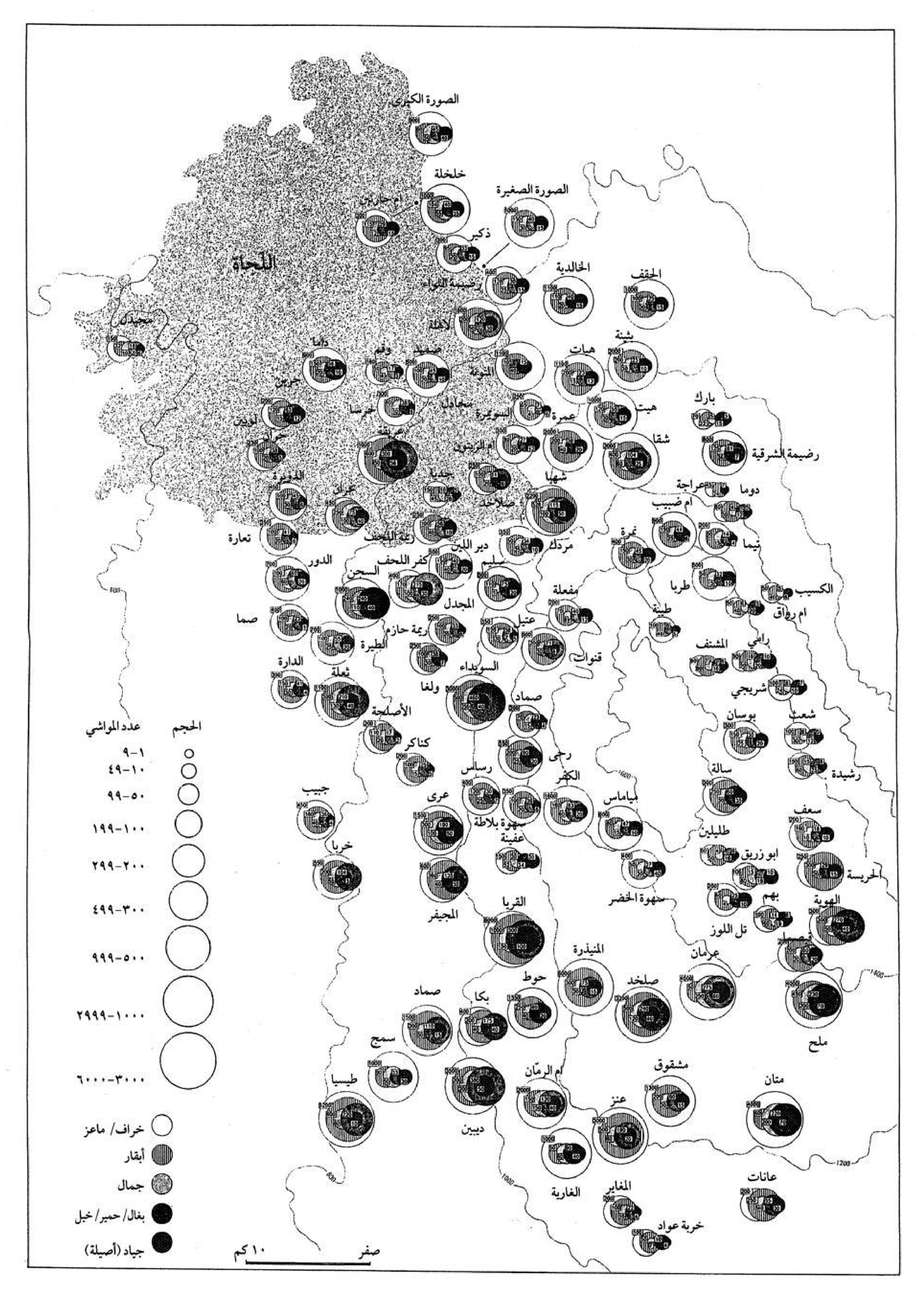
٣ . توزيع العائلات في جبل الدروز في العام ١٩٢٤ . (المصدر :MAEN, Beyrouth 551, rapport de Carbillet avec esquisse, 10/7/1924)





٤ .توزيع الملكيات





٥ . توزيع المواشي

AUFSTÄNDE IM DRUSENBERGLAND

Ethnizität und Integration einer ländlichen Gesellschaft Syriens vom Osmanischen Reich bis zur staatlichen Unabhängigkeit 1850-1949

Birgit Schäbler

BEIRUT 2003

ERGON VERLAG WÜRZBURG
IN KOMMISSION

Umschlaggestaltung: Taline Yozgatian
Foto auf dem Umschlag: H. Burchardt, *Museum für Völkerkunde Berlin*, K 1062

Bibliografische Information Der Deutschen Bibliothek
Die Deutsche Bibliothek verzeichnet diese Publikation in der Deutschen Nationalbibliografie; detaillierte bibliografische Daten sind im Internet über http://dnb.ddb.de abrufbar.

ISBN 3-89913-327-7

Gedruckt mit Unterstützung von DÁr an-NahÁr sowie des Orient-Instituts der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, aus Mitteln des Bundesministeriums für Bildung und Forschung.

Ergon-Verlag, Dr. H.-J. Dietrich
Grombühlstr. 7, D-97080 Würzburg

Druck: DÁr an-NahÁr
Gedruckt auf alterungsbeständigem Papier
Printed in Lebanon


Universitäts- und Landesbibliothek
Sachsen-Anhalt

Aufstände im Drusenbergland

Ethnizität und Integration einer ländlichen Gesellschaft Syriens vom Osmanischen Reich bis zur staatlichen Unabhängigkeit 1850-1949

In Memoriam Alexander Schölch

Orient-Institut
der
Deutschen Morgenländischen Gesellschaft



BEIRUTER TEXTE UND STUDIEN

HERAUSGEGEBEN VOM
ORIENT-INSTITUT
DER DEUTSCHEN MORGENLÄNDISCHEN GESELLSCHAFT

BAND 92



ISBN 2-84289-374-3

